تاريخ القطبي

المسمى

كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام

في تاريخ مكة المشرفة

تأليف الإمام العلامة قطب الدين

الحنفي رحمه الله المتوفى سنة ٩٨٨

المقدمة بقلم

فضيلة الأستاذ السيد محمد أمين كتبي

شرح هذا الكتاب وعلق عليه ووضع حواشيه الأستاذ محمد طاهر بن

عبد القادر الكردي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة

غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين

ملتزم الطبع والنشر

المكتبة العلمية

لأصحابها: عبد الفتاح فدا وأولاده

بباب السلام

Syed Ziauddin Zaidi

تاريخ القطبي

المسمّى

كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام

في تاريخ مكة المشرفة

تأليف الإمام العلّامة قطب الدّين

الحنفيّ رحمه الله المتوفى سنة ٩٨٨

المقدمة بقلم

فضيلة الأستاذ السيد محمد أمين كتبي

شرح هذا الكتاب وعلق عليه ووضع صوره الأستاذ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين .

ملتزمة النشر والطبع

المكتبة العلمية بمكة المشرفة

لصاحبها عبد الفتاح فدا وأولاده

بباب السلام

Marfat.com

1317J3

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا شرف أكرمنى الله تعالى به ، وسعادة ساقها الله إلى . أن أتكلم عن مكة المكرمة ، حرم الله الذى حرمه ، وجعله مثابة للناس وأمنا. فمكة بلدالله، ومهبط وحيه ، ومنزل رحماته ، ومولد نبيه عليه الصلاة والسلام وقبلة عباده فى صلاتهم ، ومنسكهم فى حجهم واعتمارهم ، يخفق إليها كل قلب ، ويهواها كل فؤاد ، ويهتف بها كل لسان . قد احتلت مكانها فى جوانحهم ، ونزلت منزلها فى نفوسهم . فهم يحنون إليها حنين الجذع للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، ويخاطبها كل واحد بلسان حاله بقول الشاعر :

فلكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل فى صميم فوادى

وكيف لا والإيمان لا يصح إلا باستقبالها والإسلام لا يتم إلا بزيارتها وأى مقال لقائل فى الثناء عليها بعد قول الله تعالى :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » وقوله تعالى : « أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » وقوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وقوله تعالى « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » وقوله تعالى « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » وقوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات لعلهم يشكرون»

Marfat.com

وقوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هـذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فأنك غفور رحيم ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيمو الصلاة فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وقوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم » وقوله صلى الله عليه وسلم « أن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس » رواه الشيخان والترمذى والنسائى وقوله صلى الله عليه وسلم مخاطبا مكة « والله انك لخير أرض وأحب أرض إلى الله تعالى » وقوله أيضا « ما اطيبك فى بلد وأحبك إلىّ » رواهما الترمذى وقوله صلى الله علية وسلم « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام الطعم وشفاء السقم » رواه الطبرانى فى الكبير فى أحاديث كثيرة من أطلع عليها عرف فضل مكة علاوة على ثناء الأكابر عليها، وتغنى الشعراء بها وبمنازلها وربوعها وشعابها وجبالها وكعبتها وحجرها وحجرها ومقامها ومنبرها وزمزمها ومروتها وصفاها ومناها وجيرانها وحجاجها وعمارها وحمامها وغير ذلك مما يزيد كثرة ويربو عددا

وكل مؤمن يقرأ شيئا عن مكة المكرمة ، فأنما يقرؤه بتلهف واستيعاب ، كما يقرأ عن أحب الأشياء اليه بعناية واهتمام . فهو يترقب بفارغ الصبر الفرصة التى تتيح له زيارتها ومشاهدتها والوقوف على مآثرها ومشاعرها وقوفا يجمع به بين المرئى والمقرؤ ويطبق به معلوماته على المواقع والمنازل تطبيقا صحيحا فإذا وصل اليها تمثلت أمام عينيه جميع المعلومات المخزونة فى حفظه وتكونت عنده سلسلة من الإسئلة :

عن الكعبة ومن بناها ، وكم مرة بنيت ، ولمن هذا البناء الموجود ، وهل هو على قواعد إبراهيم أو على بعضها ، وأين صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيها ؟

عن بابها وكم مرة جدد ، وعن كسوتها وعن ميزابها، وعن سدنتها. وعن الحجر الاسود ، ومن أين هو ؟

Marfat.com

عن المطاف وبئر زمزم وابتدائه ، ودار الندوة وموقعها ؟

عن المسجد الحرام وأصله وزياداته وأبوابها وعماراته ؟

عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد أولاده، وبيوت أصحابه ومساجدهم، وعن دار أبى سفيان ودار الأرقم ؟

عن الصفا والمروة وحدودهما ، وعن بعض المساجد والجبال والآبار ، وعن كل مايوجد بمكة من آثار وقبور ومشاهد تاريخية ؟

عن مدخل الحاج إلى مكة ومخرجه منها ، وعن كل ما قرأه فى كتب السيرة والمناسك والتاريخ ؟

والحاج حين قدومه غريب ، لا يعرف شيئا من ذلك بنفسه ، وأول شخص يعرفه الحاج فى هـذه البلاد هو مطوفه . فيوجه إليه بعض هذه الأسئلة أو كلها . والحاج المثقف لا يقنعه الجواب المضطرب ولا ترضيه العباره الناقصة ، فهو يطلب جواباً سديدا يتفق مع معلوماته ، وتطمئن به نفسه ، فاذا لم يجد عند مطوفه مقنعا ، توجه بهذه الاسئلة إلى سدنة البيت أو خدمة المسجد الحرام أو المدرسين به وهؤلاء أعنى (المطوفين وسدنة البيت وخدمة المسجد الحرام والمدرسين به) هم أحق الناس بمعرفة كل مايتعلق بالكعبة والمسجد الحرام خصوصا ومكة عموما ، وأولاهم برعاية ذلك والاهتمام به ، لأنهم المسؤولون أمام الحجاج والمعتمرين ، وأمام الواجب والضمير .

والذى يسهل الوصول ، وينهج السبيل لتحقيق هذه الغاية ، هو دراسة كتب التاريخ الخاصة بالكعبة الشريفة والمسجد الحرام ومكة المكرمة ، دراسة تطبيقية ، تعتمد على استقراء المواضع ومشاهدتها وتحديدها وتعيينها ، ومعرفة ما يتعلق بكل واحد منها . وهذه الدراسة لاتتم إذا لم يكن بين يدى الدارس مراجع كاملة ، يرجع إليها ويهتدى بها ويستضىء بنورها .

لذلك كانت الحاجة ماسة إلى كتاب واف ، قريب المأخذ ، سهل العبارة ، يضم بين دفتيه خلاصة ما تفرق فى الكتب المبسوطة ، وينظم ما انتثر فى صفحات التاريخ الكثيرة .

ولما رأى حضرة الفاضل الشيخ عبد الفتاح فدا صاحب المكتبة العلمية بمكة

المكرمة بباب السلام . شدة الرغبة ، وإلحاح الحاجة ، إلى كتاب يسد هذا الفراغ ، ويغذى هذه الرغبة وقع اختياره على كتاب (الأعلام بأعلام بيت الله الحرام) تاريخ مكة المشرفة ، تأليف الإمام قطب الدين محمد بن أحمد الحنفى المتوفى عام ٩٨٨ فجرد العزم لطبعه طبعة ثانية ، بعد أن نفذت الطبعة الأولى . ورغب أن تكون الطبعة الثانية ، تمتاز ببعض الزيادات النافعة ، من تعاليق مفيدة ، توضح ما تجدد بعد عصر المؤلف ، فى المسجد الحرام والكعبة المشرفة ، ومن رسوم للكعبة المطهرة والحجر والمطاف والحجر الأسود والمنبر وبئر زمزم وباب بنى شيبة وغير ذلك مما يزيد الانسان شوقا إلى بيت ربه وحرمه .

فأسند القيام بهذه المهمة لحضرة الأستاذ الفاضل (الشيخ محمد طاهر الكردى الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة) لما عهد فيه من نشاط فى البحث ، ودقة فى التصوير ، وسلامة فى الذوق ، وإستقامة فى الطبع ، فشرحه وعلق عليه ، وحلاه بالرسوم الجميلة النافعة .

كما أسند إلى كتابة هـــذه المقدمة ، لإيضاح الفكرة التى دعته لإعادة طبع هذا الكتاب

والحقيقة أن الشيخ عبد الفتاح وفق غاية التوفيق فى اختيار هذ الكتاب المفيد ، فقد ذكر فيه مؤلفه كل ما يحتاج إليه الإنسان من تاريخ مكة المكرمة . فبدأ ببيان موقعها وشكلها الجغرافى وحدودها وحكم بيعها وشراءها ، وحكم المجاورة بها ، ثم تكلم على بناء الكعبة المعظمة ، وبيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الإسلام . ثم ذكر ما زادة العباسيون وملوك الجراكسة وملوك آل عثمان ثم ختم ذلك بذكر المواضع والأمكنة المشرفة التى يستجاب فيها الدعاء ، وقد جاء الكتاب فى عشرة أبواب ومقدمة وخاتمة ، ولم يخل باب منها من فوائد منثورة وتراجم محررة ونفائس مكنوزة ، يظفر بها من طالع الكتاب .

وقد زاده الشرح والتعليق حسنا ورونقا ، بذكر ما تجدد فيه فى وقتنا هذا ، بحيث صار الكتاب مرجعا معتمدا ، ودليلا مرشداً ، تكفل بسد الحاجة ، وإغاثة اللهفات .

Marfat.com

وما علينا بعد أن ذلل لنا حضرة الشيخ عبد الفتاح حفظه الله تعالى هذه الصعوبة ، وسهل لنا تناول الكتاب . ألا أن نعكف على مطالعته وقراءته والاستفادة منه والدعاء لمؤلفه بالرحمة ولناشره بالتوفيق لأمثال هذا العمل المبرور، والسعى المشكور

وبالنظر لأن مؤلف هذا الكتاب كان من العلماء الأجلاء الكاملين ، فقد نقلت ترجمته هنا من (البدر الطالع) للامام الشوكانى ، ليعرف القراء قيمته العلمية ، ومكانته الأدبية قال الإمام الشوكانى .

قطب الدين بن علاء الدين النهروالى ، ثم المكى الحنفى العالم الكبير ، أحد المدرسين بالحرم الشريف فى الفقة والتفسير والأصلين وسائر العلوم ، وكان يكتب الانشاء لاشراف مكه . وله فصاحة عظيمة يعرف ذلك من أطلع على مؤلفه الذى سماه (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) هو مؤلف (الأعلام فى أخبار بيت الله الحرام) وكان عظيم الجاه عند الأتراك ، لا يحج أحد من كبرائهم إلا وهو الذى يطوف به ولا يرتضون بغيره ، وكانوا يعطونه العطاء الواسع . وكان يشترى بما يحصله منهم نفائس الكتب ، ويبذلها لمن يحتاجها ، واجتمع عنده منها مالم يجتمع عند غيره ، وكان كثير التنزهات فى البساتين وكثيرا ما يخرج إلى الطائف (وهو مصيف أهل مكة) ويستصحب معه جماعة من العلماء والأدباء ، ويقوم بكفاية الجميع (ومات) سنة ٩٨٨ هكذا أرخ موته الضمدى فى ذيل الغربال ، وقال العصامى فى تاريخه : أنه توفى يوم السبت السادس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٩٩٠ قال وأرخ بعضهم موته فقال (قد مات قطب الدين أجل علماء مكة) ثم قال وهو يزيد على تاريخ موته بواحد ، أه ما كتبه الشوكانى .

قلت الضمدى نسبة إلى ضمد بفتح الضاد وسكون الميم ، موضع بناحية اليمن، بين اليمن ومكة على الطريق التهامى كما فى معجم البلدان . والضمدى هذا هو عبد الله ابن على الضمدى ، وتاريخه هذا اسمه (الوافى بوفيات الأعيان تكميل غربال الزمان) كما فى البدر الطالع .

وبالتأمل فى هذه الترجمة ، تعلم أن الامام القطبى كان كبيرا فى العلم كبيرا فى الأدب كبيراً فى الكرم كبيراً فى النفوس ، كبيراً فى المنزله ، جمع الله له بين الدين والدنيا ،

والعلم والجاه ، ووفقه لنشر العلم بالدرس والمذاكرة ، وإكرام أهل العلم والفضل ، وهداه لخدمة بلده الحرام ، بالتأليف والتدوين .

فلا شك أن هذا الكتاب العظيم أثر من آثار ذلك التوفيق ، وبركة من بركات تلك الهداية فهو جدير بعناية المسلمين ، وأقبالهم علية أقبالا يوازى عظمة الحرم فى نفوسهم .

ويحسن بنا وقد ذكرنا ترجمة المؤلف ، أن نذكر أسانيدنا إليه .

فقد رويناه بعموم الإجازة عن شيخنا العلامة المحدث الشيخ عمر حمدان المتوفى بالمدينة المنورة، ٩ شوال عام ١٣٦٨، وشيخنا الشيخ محمد عبدالباقى الأنصارى المتوفى بالمدينة المنورة ، ٢٥ ربيع الثانى عام ١٣٦٤، كلاهما عن السيد أحمد البرزنجى عن والده السيد اسماعيل الزنجى عن شيخه الشيخ صالح الفلانى العمرى عن شيخه الشيخ محمد بن سنه الفلانى العمرى عن المعمر الشيخ أبى الوفاء أحمد بن محمد بن المعجل، بفتح العين وكسر الجيم) اليمنى عن المؤلف مفتى مكة المكرمة قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى (باللام، نسبه لنهر واله بلدة فى توابع كجرات الهند وربما ظنه بعضهم (النهروانى) بالنون وليس كذلك لأن النهروانى ، منسوب إلى نهروان وهى كورة واسعة بين بغداد وواسط كما فى معجم البلدان بخلاف (النهروالى) فهو منسوب إلى نهرواله كما تقدم وأرويه أيضاً بالأجازة العامة عن شيخنا السيد عيدروس بن السيد سالم البار المتوفى بمكة المكرمة (٦ محرم عام ١٣٦٧) وعن مفتى حضرموت السيد عبد الرحمن ابن السيد عبيد الله السقاف حفظه الله تعالى بعموم الأجازة أيضاً كلاهما عن السيد عيدروس بن عمر صاحب (عقد اليواقيت) عن شيخه السيد عبد الرحمن بن اليسد سليمان الأهدل عن الشيخ محمد بن سنة عن الشيخ أحمد بن العجل اليمنى عن المؤلف

وبهذه الأسانيد التى ذكرناها إلى المؤلف ، نتصل بأصحاب كتب تاريخ مكة التى نقل المؤلف منها فى تاريخه هذا ، كتاريخ أبى الوليد الأزرقى ، والأمام أبى عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى ، والسيد تقى الدين الفاسى ثم المكى فقد ذكر المؤلف أسانيده أليهم فى أول هذا التاريخ

أما الحافظ نجم الدين عمر بن فهد ، وهو من أرخ مكة أيضا فقد أدركه المؤلف

Marfat.com

وله عنه رواية وهذا الذى ذكرناه فيه كفاية ومقنع أن شاء الله تعالى

وبعد فهذه يد الشيخ عبد الفتاح فدا ، تصافحكم بهذا الكتاب الجليل ، فى حلته الأنيقة ، وثوبه القشيب فصافحوها باقتنائه والاقبال عليه

ولا شك أن هذا عمل نافع مفيد ، يستحق فاعله الشكر والثناء ، ويستوجب المؤازرة والتشجيع ، حتى يستطيع أن يمضى فى سبيله ، ويقدم للقراء فى كل فرصة سانحة من هذه الطرف الجميلة والتحف الثمينة ما تقر به العيون، ويكون فى متناول الأيدى .

وأنى أشكره بلسان الأمة على هذا الضيع المقبول ، وأسأل الله تعالى لنا وله الإعانة والتوفيق وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة يوم الخميس ١٤ جمادى الثانية عام ١٣٧٠ هـ

كتبه

محمد أمين كتبى

المدرس بالمسجد الحرام ومدرسة البعثات

عفا الله عنه

محمد طاهر الكردى

الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة والمعلق على هذا الكتاب
أخذت له هذه الصورة سنة ١٣٦٨ هجرية

Marfat.com

خطبة شارح الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد أبي القاسم الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

(وبعد) : فيقول محمد طاهر بن عبد القادر الكردى كاتب مصحف مكة المكرمة لقد طلب منى محبنا العزيز الشيخ عبدالفتاح فدا وفقه الله تعالى أن أكتب شرحا موجزاً وتعليقا لطيفا على تاريخ مكة المشرفة المسمى « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » تأليف العلامة قطب الدين الحنفى حيث عزم على طبعه ونشره ، فأجبت طلبه وكتبت شيئاً عن بعض الأمور التى تحتاج إلى بسط ، وتستلزم البيان والتوضيح ، ولم أكتب فيه عن كل جملة أو رواية فإن ذلك مما يطول شرحه .

ولقد رأيت من المستحسن تحلية الكتاب بالرسوم والصور الفتوغرافية زيادة فى الترغيب والتشويق ، فتم كل ذلك فى أواخر شهر جمادى الأولى سنة ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية .

نسأل الله تعالى القبول والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق ، وأن يختم بالصالحات أعمالنا ، وبالسعادة حياتنا ، وأن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يسترنا فى الدارين بستره الذى لا ينكشف ، وأن يدخلنا الجنة بسلام آمنين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بفضله ورحمته آمين وصلى الله على النبي الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين ؟ كتبه

محمد طاهر الكردى

الخطاط بالمعارف العامة بمكة المشرفة

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل المسجد الحرام حرماً آمناً ومثابة للناس وأمر بتطهير الكعبة البيت الحرام والعاكفين وأزال عنها الخوف والبأس وقبض لعمارة حرمه الأمين أعظم الخلفاء والسلاطين وأجلسهم على سرير السعادة أكرم جلاس نحمده على حصول المراد ونشكره على الكرامة والإسعاد بهذا الحرم الشريف الذى سواء العاكف فيه والباد ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له البر السلام ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنزل عليه قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام القائل من بنى مسجد الله ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً فى الجنة دار السلام صلى الله عليه وعلى آله الكرام وصحبه العظام نجوم الهدى ومصابيح الظلام ماطاف بالبيت العتيق طائف واعتكف بالمسجد الحرام عاكف ووقف بعرفات والمشعر الحرام واقف ﴿وبعد﴾ فلما وفقنى الله تعالى لخدمة العلم الشريف وجعلنى من جيران بيته المعظم المنيف تشوقت نفسى إلى الاطلاع على علم الآثار وتشوقت إلى فن التاريخ وعلم الأخبار لاشتماله على حوادث الزمان وما أبقاه الدهر من أخبار وقائع الدوران وأحوال السلف وما أبقوا من الآثار والأحداث بعد ما صاروا إلى الأحداث فإن فى ذلك عبرة لمن اعتبر وإيقاظا بحال مضى وغبر وأعلاما بأن ساكن الدنيا على جناح سفر ومفاكهة للفضلاء وإفاده لمن يأتى بعد من البشر فإن من أرخ فقد حاسب على عمره ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب كتابا من بعده بحوادث دهره ومن قيد ما شاهد فقد أشهر أحوال أهل عصره من لم يكن فى عصره ومن كتب التاريخ فقد أهدى إلى من بعده أعمارا وبوأ مسامعهم وأبصارهم ديارا ما كانت لهم ديارا وأعلم أهل الآفاق ببلاد ما كانت لهم مستقرا ولا دارا

أن فاتنى أرى الديار بعينى ... فلعلى أرى الديار بسمعى

Marfat.com

وقد أفادنا الأمم الماضون بأخبارهم وأطلعونا على مادثر وبقى من آثارهم فأبصرنا مالم نشاهده بأبصارهم وأحطنا بما لم نحط به خبرا بأخبارهم فرحمهم الله تعالى أجمعين وبوأهم جنات عدن فيها خالدين وقال

لقد غرسوا حتى أكلنا وأننا لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا

فأردنا إفادة من بعدنا ببعض مارأينا وشاهدنا وأعلامهم ببعض ماشهدناوعهدنا استدعاء للدعاء منهم والاسترحام وطلبنا للمثوبه من الله البر السلام وقد قلت فى هذا المقام .

لم يبق منا غير آثارنا وتنمحى من بعد أخلاق
وكلنا مرجعنا للفنا وانما الله هو الباقى

تنبيه — ، لا يخفى على ضمائر أولى البصائر وخواطر أهل الفضل الباهر أن المسجد الحرام الذى هو حرم أمن للأنام زاده الله شرفا وتعظيما ومنحه عزا وعظمة وإجلالا وتكريما أعظم مساجد الدنيا وأشرف مكان خصه الله تعالى بالشرف والعليا يجب تعظيمه وتكريمه على كافة الأنام سيما سلاطين الإسلام الذين هم ظل الله فى العالم وخلائف الله فى الأرض على كافة بنى آدم وقد بنى هذا المسجد ووسعه عدة من الخلفاء أمراء المؤمنين ونمقه ورسمه جملة من أكابر السلاطين وسنشرحه إن شاء الله تعالى وكان آخر ماشاهدنا من آخر أيام الصبا إلى الكهولة الندوة للمعتضد العباسى وزيادة ماعمره المهدى العباسى وزيادة دار إبراهيم للمقتدر العباسى ثم مالت الأروقة الثلاثة من الجانب الشرقى من المسجد الحرام سنة تسعمائة خمسة وتسعين وفارق السطح المتصل برباط المرحوم السلطان قايتباى والمدرسة الأفضلية لصاحب اليمن التى صارت الآن من وقف الخواجا بن عباد الله وصاروا يرعون ذلك من كل جانب من السلطنة الشريفه فى أيام السلطان الأعظم الأكرم السلطان سليمان خان عليه الرحمة والرضوان إلى أن مال هذا الجانب الشرقى ميلا عظيما ظاهرا محسوسا بحيث كان يخشى سقوطه ثم علق وأسند بالأخشاب فى أيام السلطان الأعظم والخاقان الأكرم ملك ملوك العصر والزمان الحليم السليم الكثير الإحسان السلطان سليم خان بن سليمان خان أنزل الله عليه شآبيب الرحمة والرضوان فعرض ذلك عليه

فبرز أمره الشريف ببناء جميع المسجد من جوانبه الأربعة على أحسن وضع وأجمل صورة فأمر أن يجعل مكان السطح قبب محكمة راسخة الأساس لأن خشب السقف يبلى بتقادم الزمان وتأكله الأرضة والقبب أمكن وازين فى سنة تسعمائة سبع وتسعين فلما وصل اليه الحكم الشريف شرع فيه لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمانية وتسعين على وجه جميل بغاية الأحكام والإتقان وأسس على تقوى من الله ورضوان إلى أن نقل من سرير سلطنة الدنيا إلى ملك لا يبلى وعز لا يفنى وسلطان لا يزول ونعيم لا ينفد ولا يحول فى جنة عالية فيها عين جارية بها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ثم كمل اتمام عمارة المسجد الحرام فى أيام دولة السلطان الأعظم الهمام أجل عظماء ملوك الإسلام سلطان سلاطين الأرض مالك بساط البسيطة بالعرض القائم بوظائف النفل والسنة والفرض خدا وتذكار العالم وسلطانه وأمير المؤمنين الذى جلس على كرسى الخلافة فما قدر كسرى وديوانه الذى غزى بلبان العدل والأحسان ونشأ على طاعة الله وعبادته منذ كان والى الأن وأحب العلماء والصالحين وأمدهم بالخيرات الحسان إلى آن وعجز عن القيام بحق شكره لسان كل ملسان مجدد معالم المسجد الحرام هو وأبوه وجده ومشيد مدارس العلوم الدينية وقد شملها سعده وحده ناشر الوية الأمن والأمان فى جميع الممالك والبلاد ظل الله الممدود على كافة العباد السلطان الأعظم والليث الغشمشم والبحر الغطمطم السلطان مراد جعل الله السلطنة والخلافة كامنة باقية فيه وفى عقبه إلى يوم التناد وأزال بنور عدله ظلم الظلم والعناد وشتت بسيف قهره شمل أهل الكفر والإلحاد وهدم بمعاول بأسه وسطوته الكنائس والبيع وعمر بصبيب معدلته وصيب عدله وأرفته المساجد والجمع كما قال الله القوى القادر فى محكم كتابة العظيم الباهر إنما تعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وفى ذلك أقول

أن سلطاننا مراد الظل الله ... فى الأرض باهر السلطان
ملك صار من مضى ملوك الأ ... رض وجاعين المعانى
ملك هو فى الحقيقة عندى ... ملك صيغ صيغة الإنسان
ملك عادل فكل ضعيف ... وقوى فى حكمه سيان

Marfat.com

سيفه والمنون طرفا رهان على قتل العدو يبتدران
كمل المسجد الحرام بناء فاق فى العالمين كل المبانى
هكذا هكذا وإلا فلا إنما الملك فى بنى عثمان

ولما كان هذا البنيان العظيم الأركان أثراً باقيا على صفحات الزمان دالا على عظم شأن من أمر ببنائه من أعيان الإنسان كما شار إليه القائل فى سالف الأزمان

إن البناء وأن تعاظم أمره أضحى يدل على عظيم البانى

جمعت فى هذه الأوراق من أخبار ذلك مارق وراق تسير به الركبان الى سائر الآفاق وتنير فى صفحات الدهر كالشمس فى الأشراق ويحفظ فى خزائن الملوك والسلاطين كانفس الأعلاق فكان كتابا حسنا فى بابه ممتعا بمن تعلق بأسبابه أنيساً تجمل مؤانسته وجليسا لا تمل مجالسته جمع بين لطائف تاريخية وأحكام شرعيه ومواعظ نافعة وفوائد بارعة (وسميته الأعلام بأعلام بيت الله الحرام) وخدمت به خزائن كتب هذا السلطان الأعم الشاب الأعدل الأكرم المطيع لله ولأوامر خير الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ويشملهم بفيض فضله العظيم فلافضل إلا فضله خلد الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلال سلطنته القوى المتين تتأييد هذا الدين المبين وأنام الأنام فى ظل أمانه وعدله المكين وأبقاه على سرير السلطنة العادلة دهرا طويلا وثبته على نهج الكتاب والسنة ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ،

والله أسأل أن يكسو هذا المؤلف من حسن القبول جلبابا لا يخلقه كر الليالى والأيام ويجعلنا من المقبولين فى بابه العالى الفائزين بالنظر إلى وجهه الكريم فى دار السلام وقد رأينا أن نقسم هذا الكتاب المستطاب إلى عشرة أبواب وخاتمة والأبواب إلى فصول بحسب الاحتياج وإلى الله المرجع والمآب

(الباب الأول) فى وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى وحكم بيعها وشرائها وحكم المجاورة بها .

(الباب الثانى) فى بناء الكعبة المعظمة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما

(الباب الثالث) فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الإسلام

Marfat.com

(الباب الرابع) فى ذكر مازاد العباسيون فى المسجد الحرام

(الباب الخامس) فى ذكر الزيادتين اللتين زيدتا فى المسجد الحرام بعد التربيع الذى أمر به المهدى العباسى

(الباب السادس) فى ذكر ما عمره ملوك الجراكسة فى المسجد الحرام .

(الباب السابع) فى ذكر ملوك آل عثمان خلد الله تعالى سلطنهم إلى انقضاء الدوران وذكر نبذة من أخبار شاه إسماعيل القزلباش .

(الباب الثامن) فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان السلطان الأعظم سليمان خان

(الباب التاسع) فى ذكر دولة السلطان الأعظم الخاقانى حضرة سليم خان الثانى صاحب التكايا والمبانى .

(الباب العاشر) فى ذكر سلطان الزمان السلطان مراد الذى بأجله تأليف هذا الكتاب .

(الخاتمة) فى ذكر المواضع والأمكنة المشرفة التى يستجاب فيها الدعاء .

(المقدمة) فى ذكر سندنا فيما ننقله فى كتابنا هذا من أخبار البلد الحرام إلى من ننقل عنه الوثوق والاعتماد .

(اعلم) أن من بركة العلم نسبته إلى قائله وما لم يكن هناك سند بين الناقل الراوى ومن ينقل عنه فلا اعتماد على هذا النقل ولا بد أن يكون رجال السند موثوقا بهم وإلا فلا اعتبار لتلك الرواية وأقدم مؤرخى مكة هو الامام أبو الوليد محمد بن عبد الكريم الأزرقى ثم الامام أبو عبد الله محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهى المكى ثم قاضى القضاء السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى الفاسى ثم المكى ثم الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد وهذا الأخير ممن أدركناه ولنا عنه رواية فأما الأولون فنذكر سندنا إليهم ليعتمد على نقلنا عنهم وأما أبو الوليد الأزرقى فروينا مؤلفاته عن جماعة أجلاء أخيار وعلماء كبار منهم والدى المرحوم مولانا علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضى خان بن بهاء الدين بن يعقوب الحنفى القادرى الخرقانى النهروالى ثم المكى رحمه الله تعالى وليس جدنا قاضى خان صاحب الفتاوى

Marfat.com

المشهورة من علماء مذهبنا بل هـذا غير ذاك من علماء نهروالى قال أخبرنا بها العز عبد العزيز بن فهد عن والده الحافظ نجم الدين عمر بن فهد عن شيخه قاضى القضاة السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى المؤرخ وقال أخبرنا عبد الله بن عمر الصوفى عن أبى زكريا يحي بن يوسف القرشى إجازة أن أبا الحسن على بن هبة الله الخطيب عبد الله بنى ظافر الأزدى أنبأه عن أبى طاهر أحمـد بن محمد الحافظ قال أنبأنا بها المبارك بن عبد الجبار المعروف بالطبورى قال أنبأنا بها أبو طالب محمد ابن على بن الفتح العشارى قال أنبأنا بها أبو بكر بن أحمـد بن محمد بن أبى موسى الهاشمى قال أنبأنا بها أبو اسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى قال أنبأنا بها أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الوليد الأزرقى رحمه الله وأما أبو عبد الله محمد بن اسحاق الفاكهى فانى أروى مؤلفه عن الحافظ المسند المعمر خطيب بلد الله الحرام أحمد محب الدين بن أبى القاسم محمد العقيلى النويرى المالـكى تغمده الله برحمته قال أنبأنى به المسند المعمر أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقى الشهير بالحفار إجازة قال أنبأتنى به المسندة المعمرة زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم إجازة قال(١) أنبأنى به الحافظ المسند بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله سبط الحميرى اجازة قال أنبأنا به الحافظ محمد بن أحمد بن محمد السلفى اجازة قال أنبأنا به الحافظ محمد بن أحمد التجيبي كتابة قال أنبأنا به الحافظ أبو على الحسينى ابن محمد الغانى أحد أركان الحديث بقرطبة قال أنبأنا به الحافظ الحـكم بن محمد الحزامى عن أبى القاسم بن أبى غالب الهمدانى عن أبى الحسن الأنصارى عن مؤلفه رحمه الله تعالى .

---

(١) الصواب قالت كما هو الظاهر

Marfat.com

صلوة الجمعة قبل يوم العرفة

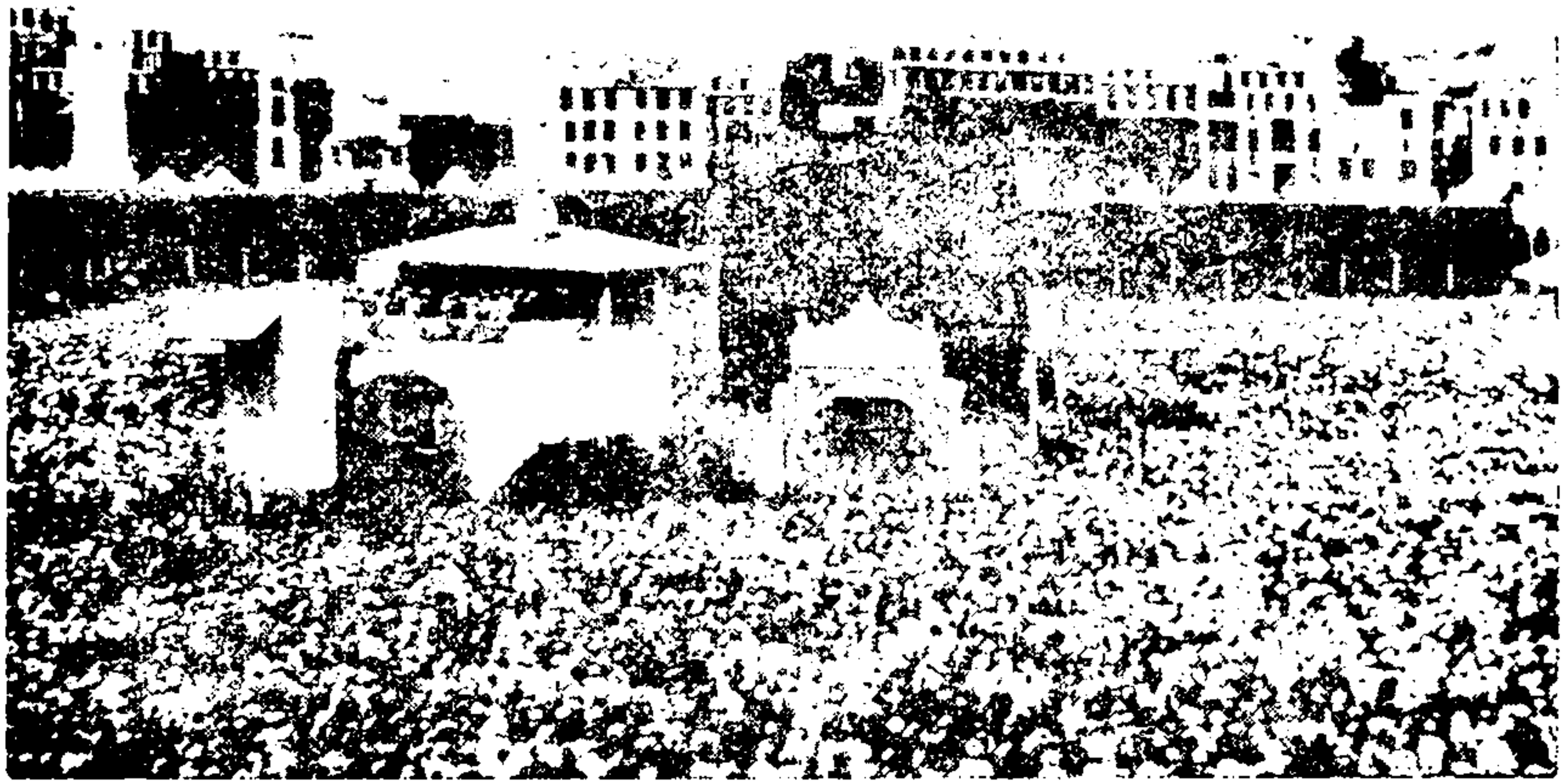

صورة المسجد الحرام وقد امتلأ وإزدحم بالحجاج المنتظرين لصلاة الجمعة قبل الطلوع الى عرفات والعقد القائم أمام مقام ابراهيم هو مكان باب السلام قديما فى عهد الاسلام وبجواره بئر زمزم

الباب الأول

ذكر وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى وحكم بيع دورها وإجارتها وحكم المجاورة بها

(إعلم) أن بلد الله الحرام مكة المشرفة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما بلدة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة ولها مبدأ ونهايتان فمبدؤها المعلاة وهى المقبرة الشريفة ومنتهاها من جانب حدة موضع يقال له الشبيكة ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا حمزة رضى الله تعالى عنه لصق مجرى العين ينزل اليه من درج يقال له بازان وعرضها من وجه جبل يقال له الآن جبل جزل إلى أكثر من نصف جبل أبى قبيس ويقال لهذين الجبلين الأخشبان وسماهما الأزرقى جبل أبى قبيس والجبل الأحمر فانه قال اخشبا مكة أبو قبيس الجبل المشرف على الصفا والآخر الذى له الأحمر وكان يسمى فى الجاهلية الأعرف وهو الجبل المشرف على قيقعان وعلى دور عبد الله بن الزبير انتهى فيكون قيقعان مما يشرف على الجبل المقابل لأبى قبيس وقال ياقوت فى معجم البلدان قيقعان هو نفس الجبل وإنما سمى الآن جبل جزل بكسر الجيم وفتح الزاى وتشديد اللام لأن طائفة من الجيوش يقيمون بهذا الجبل يسمون بهذا الإسم يسمون ويلعبون فيه بالطبل (وأما موضع الكعبة المعظمة) فهو وسط المسجد الحرام بين هذين الجبلين فى وسط مكة ولها شعاب كثيرة ومزورة إذا أشرف الإنسان من جبل أبى قبيس لا يرى جميع مكة بل يرى أكثرها وهى تسع خلقا كثيرا خصوصاً فى أيام الحج فإنه يرد إليها قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد وبصرة والحسا ونجد واليمن ومن بحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب طوائف لا يحصيهم إلا الله تعالى فتسعهم جميعا وأفنيتها وجبالها ووهادها وهى تزيد عمارتها وتنقص بحسب الأزمان وبحسب الولاية والإمن والخوف والغلا والرخا وهى الآن بحمد الله تعالى فى دولة السلطان الأعظم الفياض الأكرم معمر هذا العالم بالبذل والفضل والكرم (السلطان مرادخان) خلد الله ملكه وجعل

بساط البسيطة ملكه فى أعلا درجات العمارة والامن والرخا بحسب مارأينا من أول العمر إلى الآن هذه العمارة ولا قريبا منها وكنت أشاهد قبل الآن فى زمن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتى إنى أدركت الطواف وحدى من غير أن يكون معى أحد مرارا كثيرة أترصده خليا لكثرة ثوابة بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط .

وأما الملائكة — فلايخلو عنهم المطاف الشريف بل يمكن أن لايخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافيا عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على أداء هذة العبادة بالانفراد ظاهرا كثيرا من الصلحاء لأنه ايس معنا عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ولا يشاركه غيره فى تلك العبادة بغيرها إلا الطواف فانه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله تعالى أعلم بالسرايز .

حتى حكى لى والدى رحمه الله أن ولياً من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو الطواف الشريف فتقدم ليشرع وإذا بحية تشاركه فى ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالى فقالت أنا أرصد ما رصدت قبلك بمائة عام فقال لها حيث كنت أنت من غير البشر فإنى فزت بالانفراد بهذه العبادة وأنتم طوافه

وحكى لى شيخ معمر من أهل مكة أنه شهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خاليا عن الباعة وكنا نرى القوافل تأتى بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشترى منهم جميع ماجلبوه وكانوا يبيعون ماجاؤا به بالأجل اضطرار ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الأسعار رخيصة جدا لقلة الناس وعزة الدراهم وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى بحر انعامها وأحسانها ونعمته الوريفة أدام الله تعالى سلطنته الزاهرة

Marfat.com

وأطال عمره وَخلد دولته القاهرة وخلافته الباهرة (ومكة شرفها الله تعالى) يحيط بها جبل لا يسلك اليها الخيل والإبل الأحمال الامن ثلاث مواضع أحدها من جهة المعلاة والثانية جهة الشبيكة والثالثة المسفلة وأما الجبال المحيطة فيسلك من بعض شعابها الرجال على اقدامهم لاالخيل والجمال والأحمال .

وكانت مكة فى قديم الزمان مسورة فجهة المعلاة كان بها جدار عريض من طرف جبل عبدالله بن عمر إلى الجبل المقابل وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد أهداه ملك الهند إلى صاحب مكة وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه نقوب للسيل قصير دون القامة وهو سمت قطعة جدار بنى إلى جانبه سبيل على مجرى ذيل عين حنين بناه المرحوم مصطفى ناظر الغين باسم المرحوم المقدس السلطان سليمان خان سقاه الله ماء الكوثر والسلسبيل فى يوم العطش الأكبر قدام الميزان وجعل على السبيل منظرة بها شبابيك من الجهات الأربع يتنزه الناس فيها وذلك باق إلى هذا اليوم وهدم ماعداه وكان فى جهة الشبيكة أيضا سور مابين جبلين متقاربين بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة وكان هذا السور فيه بابان بعقدين ادركنا أحد العقدين يدخل فيه الجمال والأحمال ثم هدم شيئاً فشيء إلى أن لم يبق منه شيء الآن ولم يبق منه الافج بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج وكان سور فى جهة المسفلة فى درب اليمن لم ندركه ولم ندرك آثاره وذكر التقى الفاسى رحمه الله نقلا عمن تقدم أنه كان بمكة سور من أعلاها دون السور الذى ذكره قريبا من المسجد المعروف بمسجد الرايه فانه كان من الجبل الذى إلى جهة القراره ويقال له لعلع إلى الجبل المقابل الذى إلى جهة سوق الليل قال وفى الجبلين آثار تدل على اتصال السور بها انتهى ولم يبق الآن شيء من آثار السور الثانى مطلقا ولعل دور مكة كانت تنتهى إلى هذا الموضع حيث وضع عليه السور ثم اتصل العمران إلى أن احتيج إلى سور المعلاة قال الفاكهى رحمه الله تعالى ومن آثار النبى صلى الله عليه وسلم مسجد بأعلا مكة يقال أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه عند بئر جبير بن مطعم بن عدى ابن نوفل وكان الناس لا يتجاوزون فى السكنى فى قديم الدهر هذه البئر وما فوق ذلك خال من الناس وفى ذلك يقول عمر بن ربيعة :

نزلت بمكة من قبائل نوفل ونزلت خلف البئر أبعد منزل

Marfat.com

حذار عليها من مقالة كاشح ذرب اللسان يقول مالم يفعل

قلت المسجد هذا هومسجد الراية موجود يزار إلى الآن يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع رأيته يوم فتح مكة فيه والبئر موجودة الإن خلف المسجد وقد يجاوز العمران عن حد هذه البئر كثيرا إلى صوب المعلاة (١) (وأما حدوث هذه الأسوار) فقد قال التقى الفاسى رحمه الله ما عرفت متى أنشئت هذه الأسوار بمكة ولا من أنشأها ولا من عمرها غير أنه بلغنى أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس الحسنى جد سادتنا أشراف مكة أدام الله عزهم وسعادتهم هو الذى عمرها قال وأظن أن فى دولته عمر السور الذى بأعلا مكة وفى دولته سهلت العقبة التى بنى عليها سور باب الشبيكة وذلك من جهة المظفر صاحب اربل فى سنة ستمائة وسبعة ولعله الذى بنى السور الذى بأعلا مكة والله أعلم قال ورأيت فى بعض التواريخ ما يقتضى أنه كان بمكة سور فى زمن المقتدر العباسى وما عرفت هل هو هذا السور الذى بأعلا مكة وأسفلها أو من أحد الجهتين قال وطول مكة من باب المعلاة وإلى باب الماجن يعنى درب اليمن بالمسفلة موضع السور كان موجودا فى زمانه طريق المدعى والمسعى ومسيل وادى ابراهيم والسوق الذى يقال له الآن سوق الصغير مع مافيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة أربعة آلاف ذراع وإثنان وسبعون

---

(١) مسجد الراية هو المسجد الواقع بالجودرية على يمين الصاعد من المدعا إلى المعلا وبين المسجد والبيوت التى قبله زقاق ضيق صغير نافذ إلى الطريق العام ، وبئر جبير بن مطعم واقعة فى هذا الزقاق الضيق وملتصقة بجدار البيت الذى بجوارها ، وهى بئر مهجورة .

ولقد جدد بناء هـذا المسجد فى زماننا سنة ١٣٦١ فعند حفر أساسه عثروا على حجرين مكتوبين يدلان على أن هذا المسجد هو مسجد الراية أحدهما مؤرخ سنة ٨٩٨ هجرية وثانيهما مؤرخ سنة ١٠٠٠ (ألف) وقد رأينا الحجرين حين عمارة المسجد ولا يزال الحجران مثبتين فى جداره .

والبئر المذكورة حفرها فى الأول قصى ثم دثرت فاستخرجها جبير بن مطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف وأحياها ـ هكذا قاله الأزرقى فى تاريخه

وحبذا لو اهتمت حكومتنا بأمر هذه البئر الأثرية فأحيتها وأمرت بتنظيفها وإصلاحها.

13175B

Marfat.com

ذراعا بتقديم السين بذراع اليد وهو ينقص ثمن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن يغنى الذراع الشرعى وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الشبيكة من طريق المدعا ثم يعدل عنه إلى سويقة ثم إلى الشبيكة أربعة آلاف ذراع ومائة ذراع واثنان وسبعون ذراعا بتقديم السين بذراع اليد أيضا انتهى وقال أيضا ذكر الزبير بن بكار عن ابن سفيان بن أبى وداعة السهمى أن سعد بن عمرو السهمى أول من بنى بيتا بمكة وأنشد فى ذلك شعرا .

وأول من بوابمكة بيته وسور فيها ساكنا بأثافى

وينبغى لمن بنى بمكة بيتا أن لا يرفع بناءه على بناء الكعبة الشريفة فان بعض الصحابة رضى الله عنهم كان يأمر بهدمه قال الأزرقى وإنما سميت الكعبة كعبة لأنه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عنها ثم قال حدثنى جدى عن ابن عيينة عن ابن مثينة الحجى عن شيبة بن عثمان أنه كان يشرف فلا يرى بيتا مشرفا على الكعبة إلا أمر بهدمه ثم قال : قال جدى لما بنى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم داره التى بمكة حيال المسجد الحرام أمر قومه أن لا يرفعوها على الكعبة وأن يجعلو أعلاها دون الكعبة لتكون دونها اعظاما للكعبة ثم قال الأزرقى قال جدى فلم يبق بمكة دار لكبير أو غيره تشرف على الكعبة إلا هدمت أو خربت إلا هذه الدار فانها باقية إلى الآن انتهى .

(وأما حكم بيع دور مكة واجارتها) فقد ذكر الامام قاضى خان أنه لايجوز بيع دورها عند أبى حنيفة رضى الله عنه فى ظاهر الرواية وقيل يجوز مع الكراهة وهو قول محمد وأبى يوسف قال صاحب الواقعات وعليه الفتوى وروى الحسن عن أبى حنيفة أن يبيع دور مكة جائز وفيها الشفعة وهو قول أبى يوسف وعليه الفتوى وذكره فى عيون المسائل قال قوام الدين فى شرح الهداية بيع بناء مكة جائزا اتفاقا لأن بناءها ملك الذى بناه ألاترى أن من بنى فى أرض الوقف جاز أن يبيع بناءه فكذا هذا (وأما بيع أرض مكة) فلا يجوز عند أبى حنيفة وهو ظاهر الرواية عنه وهو قول محمد وعند أبى يوسف يجوز ورجح الطحاوى قول أبى يوسف وقال رأينا المسجد الذى كان للناس سواء العاكف فيه والبادلا ملك لأحد فيه

Marfat.com

ورأينا مكة على غير ذلك فقد أجيز إلينا فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخلها من دخل دار ابن سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فلما كانت مما يغلق عليه الأبواب ويبنى فيها المنازل كان صفتها صفة المواضع التى يجرى فيها الأملاك ويقع فيها التوارث ولا يجوز احتجاج المخالف بقوله تعالى (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد أن المراد المسجد الحرام لا جميع أرض مكة انتهى ملخصا .

(وأما اجارة دور مكة) فقد ذكر صاحب التصويب قال روى هشام عن أبى حنيفه أنه كره إجارة بيوت مكة وقال لهم أن ينزلوا عليهم فى دورهم إن كان فيها فضل وإن لم يكن فلا وهو قول محمد رحمه الله تعالى انتهى

* وروى محمد فى الآثار عن أبى حنيفة عن عبد الله بن زياد عن أبى نجيح عن عبد الله بن عمر وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أكل من أجور بيوت مكة شيئا فإنما أكل نار أخرجه الدارقطنى بإسناد ضعيف وقال الصحيح أنه موقوف وروى أنه كره إجارتها لأهل الموسم ولم يكره للمقيم لأن أهل الموسم لهم ضرورة إلى النزول والمقيم لا ضرورة له .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نهى أن يغلق بمكة دون الحاج فانهم ينزلون كل موضع رأوه فارغا وكتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرا فانه لا يحل لهم وكانوا يأخذون ذلك خفية ومساترة وهذا مبنى على أصل وهو أن فتح مكة هل كان عنوة فتكون مقسومة مغنومة ولم يقسمها النبى صلى الله عليه وسلم وأقرها على ذلك فتبقى على ذلك الاتباع ولا تكرى ومن سبق على موضع فهو أولى به وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والأوزاعى رضى الله عنهم أو كان فتحها صلحا فتبقى ديارهم بأيديهم يتصرفون فى أموالهم كيف شاؤا سكنا وسكانا وبيعا وإجارة وغير ذلك به قال الإمام الشافعى أحمد رضى الله عنهما وطائفة من المجتهدين رحمهم الله تعالى وعلى ذلك عمد الناس قديما وحديثا

وأما أسماء مكة المشرفة — فانها سميت بها لقلة مائها من قولهم أمسك الفصيل

Marfat.com

ما فى ضرع أمه إذالم يبق فيه شيئاولذلك تسمى المعطشة أولانها تنقص الذنوب أوتفنيها ومن أسمائها بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تكسرها ومنها العروض بفتح المهملة ولذلك سمى علم الشعر عروضا لأن الخليل بن أحمد اخترعه بمكة فسماه عروضا باسمها والبلد الأمين والبلد والقرية وأم القرى قال المحب الطبرى سمى باسم الله تعالى مكة وبكة والبلد والقرية وأم القرى قال ابن عباس سميت أم القرى لأنها أعظم القرى شأنا وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها ومن أسمائها كوثى وأم كوثى لأن كوثى اسم لمحل من قيقعان وفازان المقدسة وقرية النمل لكثرة غلها والحاطمة لحطمها الجبابرة والودى والحرام العرش وبره وصلاح مبنيا على الكسر كحذام وقطام ومن أسمائها طيبة أيضا ومنها معاد بفتح الميم لقوله تعالى أن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قال مكة ومن أسمائها الباسة بالياء الموحده والسين المهملة المشددة قاله مجاهد لأنها تبس من ألحد فيها أى تهلكه لقوله تعالى وبست الجبال بسا وتسمى الناسة أيضا بالنون والشين المعجمة أى تنش بتشديد آخرها أى تطرد من ألحد فيها وتنفيه لها أسامى غير ما ذكرنا وللمجد الفيروزابادى رسالة فى أسمائها قال الإمام النووى رضى الله عنه ولا يعرف فى البلاد بلدة أكثر أسمائها من مكة والمدينة لكونهما أشرف الأرض وقال عبد الله المرجانى رحمه الله تعالى فى تاريخه للمدينة بعد ذكره لأسماء مكة ومن الخواص إذا كتبت بدم الرعاف مكة وسط الدنيا والله رؤف بالعباد انقطع الرعاف

وأما فضل مكة شرفها الله تعالى — فاعلم أن مكة والمدينة زادهما الله شرفا وتعظيما أفضل بقاع الأرض بالاجماع وذكر القاضى عياض أن موضع قبر نبينا صلى الله عليه وسلم أى ماضم أعضاءه الشريفة أفضل بقاع الأرض بالإجماع لحلول سيد الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والسلام فيه قال اليشكرى رحمه الله تعالى

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها

ثم اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى أن مكة شرفها الله تعالى أفضل أم المدينة الشريفة عظمها الله تعالى فذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة وأصحابه الإمام الشافعى وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين أن مكة أفضل من المدينة زادها الله تعالى شرفا

Marfat.com

وتعظيما لحديث عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه ولا يرتاب فى الفضائل التى أثبتها الله تعالى لبلدة الحرام فجعل فيها بيته المعظم الذى إذا قصده عباده حط عنهم أقذارهم ورفع درجاتهم وجعلها قبلة للمسلمين أحياء وأمواتا وفرض الحج إليه على من استطاع إليه سبيلا مرة فى عمره وفى كل عام على الناس أجمعين فرض كفاية وحرمها يوم خلق السموات والأرض ولا تدخل إلا بإحرام وهى مثوى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ومسقط رأس خير الأنام صلى الله عليه وسلم ومحل إقامته قبل النبوة وبعدها ثلاثة عشر عاما ومحل نزول أكثر القرآن ومهبط الوحى ومظهر الإيمان والاسلام ومنشأ الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين وبها الحجر الأسود وزمزم المقام وغير ذلك من المزايا العظام ولقد قال القائل

أرض بها البيت المحرم قبلة للعالمين له المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها والصيد فى كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها وإلى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مشرعا والحجر والركن الذى لا يرحل
والمسجد العالى المحرم والصفا والمشعران لمن يطوف ويرمل
وبمكة الحسنات ضوعف أجرها وبها المسيء غنه الخطايا تغسل

وقال الإمام مالك رضى الله عنه المدينة أفضل من مكة لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلى فأسكنى أحب البلاد إليك رواه الحاكم فى المستدرك وما هو أحب البقاع إلى الله يكون أفضل والظاهر استجابه دعائه صلى الله عليه وسلم وقد أسكنه الله تعالى المدينة الشريفة فتكون أفضل البقاع وأدلة أخرى من الأحاديث الشريفة وبين الطائفتين نزاع ومباحث والله أعلم

وأما حكم المجاورة بمكة شرفها الله تعالى — فمذهب إمامنا الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه او بعض أصحاب الشافعى وجماعة من المحتاطين فى دين الله تعالى رضوان الله

Marfat.com

عليهم أجمعين كراهة المقام بمكة وذلك لخوف سقوط حرمة البيت الشريف فى نظره وقلة الاحترام بالأنس والشبط إلى أن يذهب من قلبه الهيبة بالكلية فيصير بيت الله تعالى فى نظره القاصر كسائر البيوت والعياذ بالله أو تنقص الهيبة والحرمة الأولى فى نظره كما هو شأن سائر الناس فى الأكثر الامن عصمة الله تعالى وحيث كان هو الأكثر من حكم الناس أنيط به حكم الكراهة فاقامة المسلم فى وطنه وهو مشتاق إلى مكة باق حرمتها فى نظره خير له وأسلم من مقامة بمكة من غير احترام لها أومع نقصان احترامه وهذا ملخص ما قاله امامنا رضى الله عنه ولهذا كان عمر رضى الله عنه يدور على الحاج بعد قضاء النسك بالدرة (١) ويقول يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم فانه أبقى لحرمة بيت ربكم فى قلوبكم وقال أبو عمر الزجاجى من جاور بالحرم وقلبه متعلق بشئ سوى الله تعالى فقد ظهر خسرانه وقال بعض السلف كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به كما قيل

وكم من بعيد الدار نال مراده وكم من قريب الدار مات كئيبا

وقال ابن مسعود مامن بلد يؤاخذ فيه بالهم قبل الهم إلا مكة وتلا قوله تعالى « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ولهذا اختار حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما المقام بالطائف وحواليه على مكة وقال لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب إلى من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة وذهب بعض العلماء إلى القول بتضاعف السيآت بأرض الحرم كما تتضاعف الحسنات وجاور أبو محمد الحريرى سنة بمكة فلم يستند إلى حائط ولم يتم فقيل له بم قدرت على هذا فقال علم الله صدق باطنى فأعانى على ظاهرى وبقى أبو عمر الزجاجى الصوفى أربعين سنة لم يقض حاجته البشرية فى الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة وهكذا يروى عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فى مدة إقامته بمكة وكان أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ويعتمرون ثم يرجعون ولا يجاورون ذكره عبد الرزاق فى مصنفه .

---

(١) الدرة بكسر الراء المشددة السوط ، وبضمها اللؤلؤة العظيمة الكبيرة .

Marfat.com

وروى عن وهب ابن الورد المكي رحمه الله قال كنت ذات ليلة أصلى فى الحجر فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار خفيا فاستمعت فإذا هى تناجى وتقول إلى الله أشكو ثم اليك ياجبريل ماألقى ممن حولى من سمرهم وتفكههم باللغو وذكرا حوال الدنيا والاغتياب والخوض فيما لا ينبغى لهم واللهو والعبث لئن ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه

وسئل الإمام مالك رضى الله عنه الحج والجوار أحب إليك أوالحج الرجوع فقال ما كان الناس إلا على الحج والرجوع وفهم ابن رشد من هذا اقتضاء كراهة المجاورة عنده والظاهر أنه لا يقتضيه والله تعالى أعلم .

وذهب الإمام أبو يوسف ومحمد والإمام الشافعى والإمام أحمدبن حنبل رضى الله عنهم إلى استحباب المجاورة بمكة فى قولهما وأنه الأفضل قال وعليه عمل الناس . وحكى الفاسى فى منسكه عن المبسوط أن الفتوى على قولهما . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من صبر على مكة ساعة تباعدت النار عنه مسيرة مائة عام . وعن سعيد بن جبير من مرض يوما بمكة كتب الله له من العمل الصالح الذى يعمله فى سبع سنين فإن كان غريبا ضوعف ذلك وعواهما الإمام الفاكهى رحمه الله تعالى ومحصل ماذهب اليه أبو حنيفة رضى الله عنه من كراهة المجاورة مبنى على ضيق الخلق عن مراعاة حرمة الحرم الشريف وقصورهم عن الوفاء بقيام حق البيت الشريف فمن أمكنه الاحتراز عن ذلك وعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحرمة بيت الله تعالى وتعظيمة وتوقيره على وجه تبقى معه حرمة البيت الشريف وجلالته وهيبته وعظمته فى عينه وقلبه كما كان عند دخوله فى الحرم الشريف ومشاهدته بيت الله تعالى فالإقامة بها هو الفضل العظيم والفوز الكبير ولاشك فى تضاعف الحسنات بها.

وأما تضاعف السيئات فأكثر العلماء على عدم تضاعفها ولاشك فى تردد الأولياء اليها فى الأوقات الفاضلة فمن لمح أحدهم اولمحه هو نال السعادة العظمى وورد أنهم يحضرون الجمعة والأوقات الشريفة ويحجون كل عام .

وكان دأب والدى رحمه الله تعالى قبل أن يكف نظره أن يبادر يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة إلى مكة ويجلس تجاه بيت الله تعالى ويلحظ بنظره ويستمر جالسا

Marfat.com

هناك إلى صلاة المغرب فيطوف بعد صلاة المغرب ويسعى ويعود إلى منى وكان يقول أن أولياء الله لابد أن يحجوا فى كل سنة ويفعلوا الأفضل وهو الأتيان بطواف الزيارة فى أوّل يوم النحر فأبادر إلى النزول من منى فى ذلك اليوم وأجلس فى الحطيم يومى أشاهد الطائفين لعل أن يقع نظرى إلى أحدهم أو يقع نظره على فيحصل لى بذلك بركتهم واستمر على ذلك الى أن كف نظره رحمه الله تعالى فكنا نذهب به ونجلسه فى الحطيم ويقول أن كنت لا أنظرهم فلعل أن يقع نظرهم على فيحصل لى بركتهم واستمر على ذلك إلى أن توفى رحمه الله وأن أولياء الله يخفون أنفسهم عن أعين الناس فلا يراهم إلا من أسعده الله تعالى والله تعالى المسئول أن يجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى

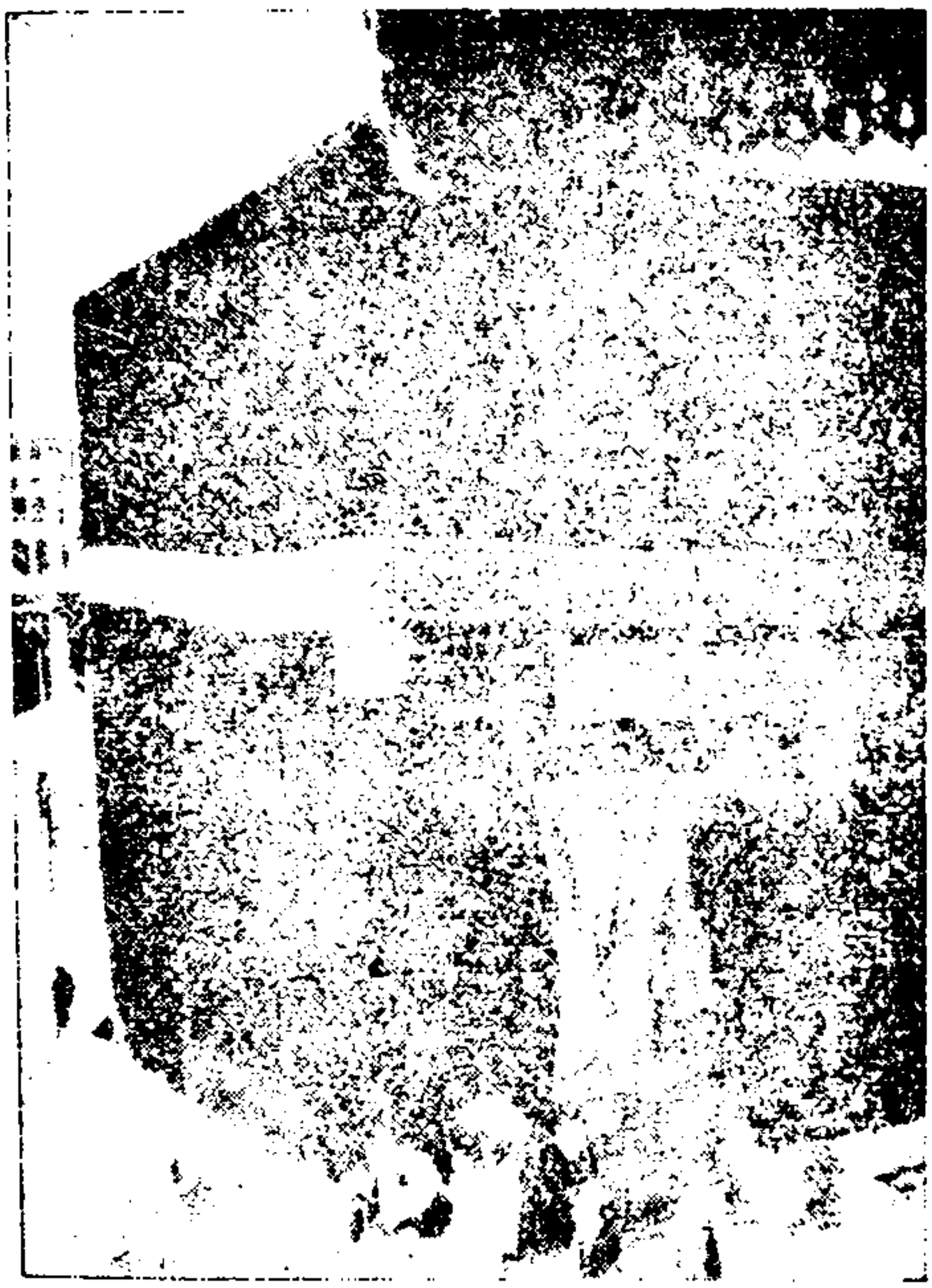

« الكعبة المشرفة وقد ظهر الباب وستارته ، كما ظهر الحجر الأسود وما يحيط به من الفضة ظهروا واضحا ، وترى الجندى المكلف بالحراسة عند الحجر الأسود وبيده شمسية يتقى بها حرّ الشمس »

البَابُ الثانى

فى بناء الكعبة المشرفة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما

قال قاضى القضاة السيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى الفاسى المكى فى كتابه شفاء الغرام لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات وقد اختلفت فى عدد بنائها ويتحصل من مجموع ما قيل فى ذلك أنها بنيت عشر مرات وهى بناء الملائكة عليهم السلام وبناء آدم عليه السلام وبناء أولاده وبناء الخليل ابراهيم عليه السلام وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصى بن كلاب جد النبى صلى الله عليه وسلم وبناء قريش قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة وبناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفى وفى اطلاق العبارات فى بناء الكعبة تجور فان بعضها لم يستوعبها البناء كالبناء الأخير وهو بناء الحجاج فانه إنما هدم جانب الميزاب فقط وأعاده وأبقى الجوانب الثلاث وهى جهة الباب وجهة المستجار الذى هو مقابل الباب وجهة الصفا المقابل لواجهة الميزاب فانها باقية على بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

أما بناء الملائكة الكعبة المشرفة وهو أول بنائها — فذكره الإمام أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد الأزرقى فى تاريخه فقال حدثنا على بن مسلم العجلى عن أبيه حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى حدثنا الإمام محمد الباقر بن الامام على زين العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال كنت مع أبى على بن الحسين عليهما السلام بمكة فبينا هو يطوف وأنا وراءه إذا جاء رجل طويل فوضع يده على ظهر أبى فالتفت أبى إليه فقال السلام عليك يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أريد أن أسألك فرد عليه السلام وسكت أبى وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه فدخل الحجر فقام تحت الميزاب وصلى ركعتى أسبوعه ثم استوى قاعدا فالتفت إلى فجلست إلى جانبه فقال يا محمد أين السائل فأومأت إلى الرجل فجاء فجلس

بين يدى أبى فقال له عم تسأل قال إنى أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت فقال له أبى من أين أنت قال من أهل الشام قال أين مسكنك قال بيت المقدس قال قرأت الكتابين يعنى التوراة والانجيل قال نعم فقال له أبى يا أخا الشام احفظ عنى ولا تروعنى أما بدء هذا الطواف فان الله تعالى قال إنى جاعل فى الأرض خليفة فقالت الملائكة أى رب أتخلق غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض ولا نتحاسب ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونعظمك ولا نعصيك فقال الله تعالى إنى أعلم مالا تعلمون قال فظنت الملائكة ان ما قالوه رد على الله وأنه قد غضب عليهم من قولهم فلا ذوا بالعرش ورفعو رؤسهم يتضرعون ويبكون إشفاقا من غضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله إليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا وهو البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد فغشاهن ياقوته حمراء وقال للملائكة طوفو بهذا البيت فطافت الملائكة بهذا البيت وصار أهون عليهم من العرش ثم إن الله تعالى بعث ملائكه وقال لهم ابنوا لى فى الأرض بيتا بمثاله وقدره وأمر الله تعالى من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور فقال الرجل صدقت يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا كان انتهى . قلت هذا الحديث الشريف يدل على ان بناء الملائكة عليهم السلام الكعبة الشريفة كان بعد خلق الأرض ولنا أحاديث دالة أن الكعبة خلقت قبل الأرض بأربعين سنة فى رواية وبألفى عام فى رواية قال الامام أبو عبد الله محمد بن اسحق بن العباس الفاكهى المكى فى أوائل تاريخ مكة حدثنى عبد الله بن أبى سلمة قال حدثنا الواقدى قال حدثنا اسحق بن يحيى بن طلحه أنه سمع مجاهدا يقول ان قواعد البيت خلقت قبل الأرض بألفى سنة ثم بسطت الأرض من تحته أقول وظهر مما رويناه أن موضع البيت الشريف خلق قبل الأرض لانفس بناء البيت فانه أوله ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى كما سقناه والله تعالى أعلم .

(الثانى بناء آدم عليه السلام الكعبة المشرفة) وقد ذكره الامام أبو الوليد الأزرقى فقال حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن طلحة بن عمر والحضرمى عن عطاء

Marfat.com

ابن أبى رباح بفتح الراء والباء الموحدة بعدها ألف ثم حاء مهملة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة قال يارب مالى أسمع أصوات الملائكة قال بخطيئتك يا آدم ولكن ابن لى بيتا فطف به واذكرنى حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى قال فأقبل آدم يتخطى الأرض فطويت له ولم يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام وان جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فكشف عن أس ثابت فى الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة من الصخر مالا يطيق الصخرة ثلاثون رجلا وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان وطور سينا وطور زيتاء والجودى وحراء حتى استوى على وجه الأرض وهذا يدل على أن آدم عليه السلام إنما بنى أساس الكعبة حتى ساوى وجه الأرض ولعل ذلك بعد دثور ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى ثم أنزل الله تعالى البيت المعمور لآدم عليه السلام ليستأنس به فوضعه على أساس الكعبة ويدل على ذلك ما رواه أبو الوليد الأزرقى فى تاريخه . قال حدثنى أبى عن جدى قال حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام قال كعب أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم فقال له يا آدم إن هذا بيتى أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش ويصلى عنده كما يصلى عند العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء وبقيت قواعده .

* وقال الأزرقى أيضا حدثنى أبى قال محمد بن يحيى عن عبد العزيز بن عمران عن عمر ابن أبى معروف عن عبيد الله بن أبى زيادة قال لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة قال يا آدم ابن لى بيتا بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبد فيه أنت وولدك كما تتعبد ملائكتى حول عرشى فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض وهبط آدم بياقوته حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها على الأساس فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله تعالى .

* وقال الأزرقى أيضا حدثنى محمد بن يحيى عن إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى عن

Marfat.com

أبى المليح أنه قال كان أبو هريرة يقول حج آدم فقضى المناسك فلما حج قال رب لكل عامل أجر قال الله تعالى أما أنت يا آدم فقد غفرت لك وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فبناه بذنبه غفرت له فاستقبلته الملائكة بالردم فقالوا برحجك يا آدم قد حجمنا هذا البيت قبلك بألفى عام قال وما كنتم تقولون حوله قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وكان آدم عليه السلام إذا طاف يقول هذه الكلمات وكان طواف آدم سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار قال نافع وكان ابن عمر رضى الله عنهما يفعل ذلك . وقال الأزرقى أيضا حدثنى محمد بن يحيى عن ابن عمر قال حدثنى هشام بن سليمان المخزومى عن عبدالله بن أبى مولى بنى مخزوم أنه قال طاف آدم عليه السلام سبعا بالبيت ثم صلى تجاة باب الكعبة ركعتين ثم أتى الملتزم فقال اللهم أنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم مافى نفسى وماعندى فاغفرلى ذنبى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لايصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيب على فأوحى الله تعالى اليه يا آدم قد دعوتنى بدعوات فاستجبت لك ولن يدعونى بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه ونزعت الفقر من قلبه وجعلت الغنى بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وأتته الدنيا وهى راغمة وإن كان لايريدها قال فمنذ طاف آدم عليه الصلاة والسلام كانت سنة الطواف .

(الثالث بناء أولاد آدم عليه السلام الكعبة المعظمة) روى الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه قال لما رفعت الخيمة التى منح الله بها آدم عليه السلام من حلية الجنة حين وضعت له بمكة فى موضع البيت ومات آدم عليه السلام فبنى بنو آدم من بعد مكانها بيتا بالطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وغير مكانه حتى بوأ لابراهيم انتهى .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلى فى الفصل الذى عقده لبنيان الكعبة وكان بناؤها الأول حين بنى شيث بن آدم عليه السلام انتهى ولعل مراد السهيلى بالأولية بالنسبة إلى بناء البشر لا الملائكة وإن بناء آدم عليه السلام إنما هو الأساس إلى أن ساوى وجه الأرض وأنزل الله عليه من الجنة البيت المعمور فوضعه على ذلك الأساس والمراد بالخيمة المشار اليها فى خبر وهب بن منبه رضى الله عنه هو البيت المعمور ولعلها خيمة غير البيت المرفوع ولعلها رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام وأبقى البيت المعمور

Marfat.com

إلى أن رفع زمن الطوفان وفى ذلك ارتكاب المجاوز ما يصحح به هذه الروايات المتباينة ظواهرها .

الرابع بناء الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة المشرفه قال السيد الإمام التقى الفاسى رحمه الله تعالى أما بناء الخليل عليه السلام فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفة وهو أول من بنى البيت على ما ذكره الفاكهى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره وقال لم يرد عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام انتهى فهو ينكر ما قدمناه من الآثار فبناء ابراهيم عليه السلام أول بناهُ بالنسبة إلى من بناه بعده لا أول حقيقى والله تعالى أعلم وأحكم (١)

---

(١) لقد اتفق العلماء والمؤرخون على أن الكعبة المشرفة بنيت عدة مرات ، ولكنهم اختلفوا فيمن بناها ابتداء أول مرة ـ فبعضهم يقول الملائكة وبعضهم يقول إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم وبه جزم العلامة ابن كثير فى تفسيره ، والذى نفهمه من قوله سبحانه وتعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » ومن قوله عز وجل « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » ثبوت البناء لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فمن قال أن إبراهيم عليه السلام لم يبن بيت الله المعظم لقد كفر لأنه أنكر ماجاء صريحا في القرآن الكريم ولا يفهم من الآيتين المذكورتين سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين هو أول من بنى بيت الله المعظم ، بل يجوز أن يكون هو أول من بناه وأن تكون الملائكة أول من بنوه لذلك لا بأس بالميل إلى أحد القولين .

والذى نفهمه من قوله تعالى «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » هو أن الله سبحانه وتعالى جعل بيته المعظم أول بيت بنى لعبادة الله تعالى بكيفية مخصوصة وهى الطواف حوله واستلام ركنه والوقوف عند بابه بذلة وانكسار وخضوع وخشوع والتوجه اليه فى الصلاة حالة البعد والقرب مع ما خصه الله عز وجل من المزايا والأسرار .

فالكعبة المشرفة هى أول بيت بنيت لعبادة الله تعالى بكيفية مخصوصة بل هى أول بيت وآخر بيت وضع للناس ليطوفوا به ويتوجهوا اليه فى الصلاة فلم يكن على وجه الأرض بيت لله قبله مثله ولا يكون بيت لله غيره إلى أن تقوم الساعة فهو أول بيت وآخر بيت لعبادة الله تعالى وإن كانت المساجد كلها بيوت الله تعالى فهى بيوت الله بمعنى والكعبة بيت الله بمعنى آخر .

والذى نفهمه أيضا من هذه الآية الكريمة أن الكعبة المعظمة هى أول بيت وأول بناء كان بمكة المكرمة بناها إبراهيم عليه السلام بالرضم حجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولاجص فكان صلوات الله وسلامه عليه أول من اكتشف مكة وأول من أسكن فيها ذريته وأول من أخذ عنه الناس صنعة البناء بمكة .

Marfat.com

• وروى الأزرقى رحمه الله فى تاريخه عن ابن اسحق أن الخليل عليه السلام لما بنى البيت جعل طولة فى السماء تسعة أذرع وجعل طوله فى الأرض من قبيل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامى اثنين وثلاثين ذراعا وجعل عرضه فى الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامى إلى الركن الغربى الذى يسمى الآن الركن العراقى اثنين وعشرين ذراعا وجعل طوله فى الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور إلى الركن اليمانى إحدى وثلاثين ذراعا وطول عرضه فى الأرض من الركن اليمانى إلى الحجر الأسود عشرين ذراعا وجعل الباب لاصقا بالأرض غير مرتفع عنها ولا مبوب حتى جعل لها تبع الحميرى بابا وغلقا بعد ذلك وحفر إبراهيم عليه السلام فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة لتكون خزانه للبيت يوضع فيها مايهدى إلى البيت وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يبنى وإسماعيل عليه السلام ينقل له الأحجار على عاتقة فلما ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه ويبنى ويحوله له إسماعيل عليه السلام فى نواحى البيت حتى انتهى على موضع الحجر الأسود فقال إبراهيم لاسماعيل عليهما الصلاة والسلام يا اسماعيل إئتنى بحجر أضعه هنا يكون علما للناس يبتدؤن منه الطواف فذهب اسماعيل فى طلبه فجاء جبريل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحجر الأسود وكان الله عز وجل استودعه جبل أبى قبيس حين طوفان نوح فوضعه جبريل عليه السلام فى مكانه وبنى عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ نورا فأضاء بنوره شرقا وغربا وشاما ويمنا إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية وإنما سودته أنجاس الجاهلية وأرجاسها قال ولم يكن إبراهيم عليه السلام قد سقف البيت ولا بناه بمدور إنما رصه رصا قال

هذا وسنذكر فى ختام هذا الكتاب القصيدة التى نظمناها فى أشهر بنايات الكعبة وهى بناء إبراهيم خليل الله وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج بن يوسف الثقفى وبناء السلطان مراد الرابع وهى القصيدة كنا طبعناها فى رسالة صغيرة بالهند سنة ١٣٦٧ وسميناها «منظومة فى صفة بناء الكعبة المعظمة» ثم فى عام ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية زدنا على هذه المنظومة بعض أبيات رأينا ذكرها فى هذا الكتاب المهم مع الزيادات تتميما للفائدة العامة .

Marfat.com

وذكر سنده إلى عبد الله بن عمران جبريل عليه السلام نزل بالحجر على إبراهيم عليه السلام من الجنـة وأنه وضعه حيث رأيتم وأنـكم لا تزالون بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم فانه يوشك أن يجيء جبريل عليه السلام فيرجع به من حيث جاء به انتهى (١) قال السيد الامام تقى الدين الفاسى رحمه الله تعالى روينا عن قتادة قال ذكر لنا أن الخليل عليه السلام بنى البيت من خمسة أجبل من طور سيناء

(١) أنظر الى صورة الحجر الأسود فى عصرنا الحاضر وترى صورة محمد طاهر الكردى الخطاط الذى كتب تعليقا على هـذا الـكتاب ظاهرة فيها وهو يهم بتقبيل الحجر الأسود فى طوافه وقد وضع يده على ما يحيط به من الفضة .

وطورزيتا.ولبنان والجودى وحراء قال وذكر لنا أن قواعده من حراء قال ويروى أن الخليل عليه السلام أسس البيت من ستة أجبل من أبى قبيس ومن الطور ومن القدس ومن ورقان ومن رضوى ومن أحد وقال الأزرقى رحمه الله قال أبى وحدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن أبى جريج عن مجاهد أنه قال كان موضع الكعبة قد خفى ودرس زمن الطوفان فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال وكان موضعه أكمه حمراء تعلوها السيول غير أن الناس كانوا يعلمون أن البيت فيما هنا لك من غير تعيين محله وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عندة المكروب وما دعا عنده أحدا إلا ستجيب له وكان الناس يحجون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لابراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه فلم يزل منذ أهبط الله آدم إلى الأرض معظما محترما عند الأمم والملل .

قال الامام أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى فى كتابه العرائس فى قصص الأنبياء عليهم السلام لما أنجى الله خليله إبراهيم عليه السلام من نار النمرود وآمن به من آمن خرج مهاجرا إلى ربه وتزوج ابنة عمه سارة وخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على نفسه ومن معه فقدم إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى وكانت سارة من أحسن النساء وكانت لا تعصى إبراهيم وبذلك أكرمها الله تعالى فاتى إبليس إلى فرعون وقال إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء فأرسل الجبار إلى إبراهيم وقال له ما هذه المرأة منك فقال هى أختى وخاف أن قال هى امرأتى أن يقتله فقال له زينها وأرسلها إلى فرجع إبراهيم إلى سارة فقال إن هذا الجبار سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فانك أختى فى كتاب الله فانه ليس مسلم فى الأرض غيرى وغيرك ثم أقبلت سارة إلى الجبار وقام إبراهيم يصلى وقد رفع الله الحجاب بين إبراهيم وسارة ينظر إليها منذ فارقته إلى أن عادت إليه إكراما له وتطييبا لقلب إبراهيم عليه السلام فلما دخلت سارة على الجبار ورآها فدهش فى حسنها ولم يملك نفسه أن مد يده إليها فيبست يده على صدره فلما رأى ذلك أعظم أمرها وقال لها سلى ربك على أن يطلق يدى فوالله إنى لا أوذيك

فقالت سارة اللهم إن كان صادقا فأطلق يده فوهب لها هاجر وهى جارية قبطية جميلة وردها إلى إبراهيم فأقبلت إليه فلما أحس بها فانفتل من صلاته وقال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر ووهبنى هاجر وقد وهبتها لك فلعل الله أن يرزقك منها ولدا وكانت سارة قد منعت الولد حتى أيست فوقع إبراهيم على هاجر فحملت وولدت له اسماعيل وأقام إبراهيم بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيلياء وهو يضيف من يأتيه وقد أوسع الله عليه وبسط له فى الرزق والمال والخدم فلما أراد الله هلاك قوم لوط بعث الله رسله يأمرونه بالخروج من بين ظهرانيهم وأمرهم أن يبدوا فيبشروه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فلما نزلوا عليهم مر بهم وقال لايخدم هؤلاء القوم إلا أنا فجاء بعجل سمين مشوى بالحجارة فقر به إليهم فأمسكوا أيديهم فنكرهم وأوجس منهم خيفة حيث لم يأكلوا من طعامه ثم قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة تخدمهم فبشروه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فضحكت .

قال ابن عباس ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وكانت بلغت تسعين سنة وبلغ إبراهيم مائة وعشرين وقال مجاهد وعكرمة ضحكت أى حاضت فى الوقت تقول العرب ضحكت الأرنب إذا حاضت . قال السدى فحملت سارة بأسحاق وكانت قد حملت هاجر باسمعيل فوضعتا وشب الغلامان فتسابقا فسبق اسمعيل فأخذه إبراهيم وأجلسه فى حجره وأخذ إسحق إلى جانبه فغضبت سارة وقالت عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن منها بضعة ولتغيرن خلقها ثم ناب اليها عقلها فتحيرت فى يمينها قال لها إبراهيم اخفضيها واتقى أذنها ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء والخفاض بالمعجمات للنساء كالختان للرجال ثم تضارب اسماعيل واسحق كما تتهاوش الأطفال فغضبت سارة على هاجر وحلفت أن لاتساكنها فى بلد واحد وأمرت إبراهيم أن يعزلها عنها فأمر الله تعالى إبراهيم أن يأتى بهاجر وابنها إلى مكة فذهب بهما حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم موضع البيت ربوة حمراء فعمد

بها إلى موضع الحجر بسكون الجيم فيه وأمرها أن تتخذ عريشا ثم انصرف فتبعته هاجر فقالت الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذا لا يضيعنا فرجعت عنه وكان معها شن ماء فنفد فعطشت وعطش ولدها فنظرت إلى الجبل فلم تر داعيا ولا مجيبا وصعدت على الصفا فلم تر أحدا ثم هبطت وعينها من ولدها حتى نزلت فغابت عنه فهرولت حتى صعدت من الجانب الآخر واستمرت إلى أن صعدت المروة فما رأت أحد فترددت لذلك سبعا وعادت إلى ولدها وقد نزل جبريل عليه السلام فضرب موضع زمزم بجناحه فنبع الماء فبادرت هاجر اليه وحبسته عن السيلان كي لا يضيع الماء . وفى لفظ النبوة لو لا أنها عجلت لكانت عينا معينا فشربت وأرضعت ولدها وقال لها جبريل لا تخافى الضيعة فان ههنا بيتا لله عز وجل يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله . قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القرطبي فى تفسيره لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا فى جواز طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم واقتداء بفعل إبراهيم الخليل عليه السلام فأنه فعل ذلك بأمر الله تعالى . وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر لما ولدت إسماعيل خرج بها ابراهيم عليه السلام إلى مكة وأنزل ابنه وأمه هناك وركب منصرفا من يومه وكان ذلك كله بوحى من الله تعالى .

ولماء زمزم من الشرف والخواص والمزايا ما لا يوجد لغيره

فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا ماء زمزم لما شرب له ورجاله موثقون إلا أنه اختلف فى إرساله ووصله وإرساله أصح كذا فى فتح البارى بشرح البخارى . وروى الدار قطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له وأن شربته اشبعك الله به وأن شربته لقطع ظمئك قطعه وهى ضربة جبريل وسقيا الله إسماعيل . وعن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من

Marfat.com

كل داء[1]. وفى صحيح البخارى قاله أبو ذر رضى الله عنه ما كان لى طعام الا ماء زمزم اجتزى به ثلاثين مابين يوم وليلة فسمنت حتى تكسرت على بطنى وما أجد على كبدى سخفة جوع . وفى صيح مسلم من حديث أبى ذر أنه طعام طعم زاد الطيالسى من الوجه الذى أخرجه مسلم وشفاء سقم . قال القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت بيته وسلمت طويته ولم يكن مكذبا ولا لشربه مجربا (قلت) ومن عجيب ما اطلعت عليه من كتاب وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى للسيد نور الدين السمهودى الشافعى عالم المدينة فى عصره ومؤرخها ومحدثها وقد أخذنا عمن أخذ عنه فروى عنه بواسطة قال إن بالمدينة بئر زمزم ولم تزل أهل المدينة قديما وحديثا يتبركون بها ويشربون من مائها وينقلون

(١) انظر باب بئر زمزم وترى فى الصورة محمد طاهر الكردى الخطاط وقد وقف على باب البئر .

Marfat.com

منه إلى الآفاق كما ينقل ماء زمزم لبركتها انتهى[1]. رجعنا إلى القصة قال ومرت رفقةمن جرهم يريدون الشام فرأوا طيرا يحوم على جبل أبى قبيس فقالوا إن هذا الطير يحوم على ماء فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم فقالوا لهاجر إن شئت نزلنا معك وآنسناك والماء ماؤك نشرب منه فأذنت لهم فنزلوا معهاوهم أول سكان مكة وتوفيت هاجر وقبرها فى الحجر بسكون الجيم [2] وشب اسماعيل فتزوج اسماعيل من جرهم

---

(١) الظاهر ان هـذه الحكاية مختلفة لا أصل لها ـ لأن بئر زمزم لا يطلق إلا على البئر الواقعة عند الكعبة المشرفة بمكة ولا يعرف على وجه الأرض بئر بهذا الاسم سواها ، ولو وجد فى المدينة المنورة بئر بهذا الاسم لتواتر ذلك فى كتب الحديث والفقه والتاريخ .

(٢) انظر حجر اسماعيل عليه السلام وتجد أرضه مفروشا بالرخام الجميل المزخرف وترى فى الصورة على اليمين محمد طاهر الكردى الخطاط جالسا تحت ميزاب الكعبة المشرفة مشيرا بأصبعه إلى الحجر الأخضر الذي تكلم عنه فى كتابه « مقام إبراهيم عليه السلام » بصحيفة ١٤٩ .

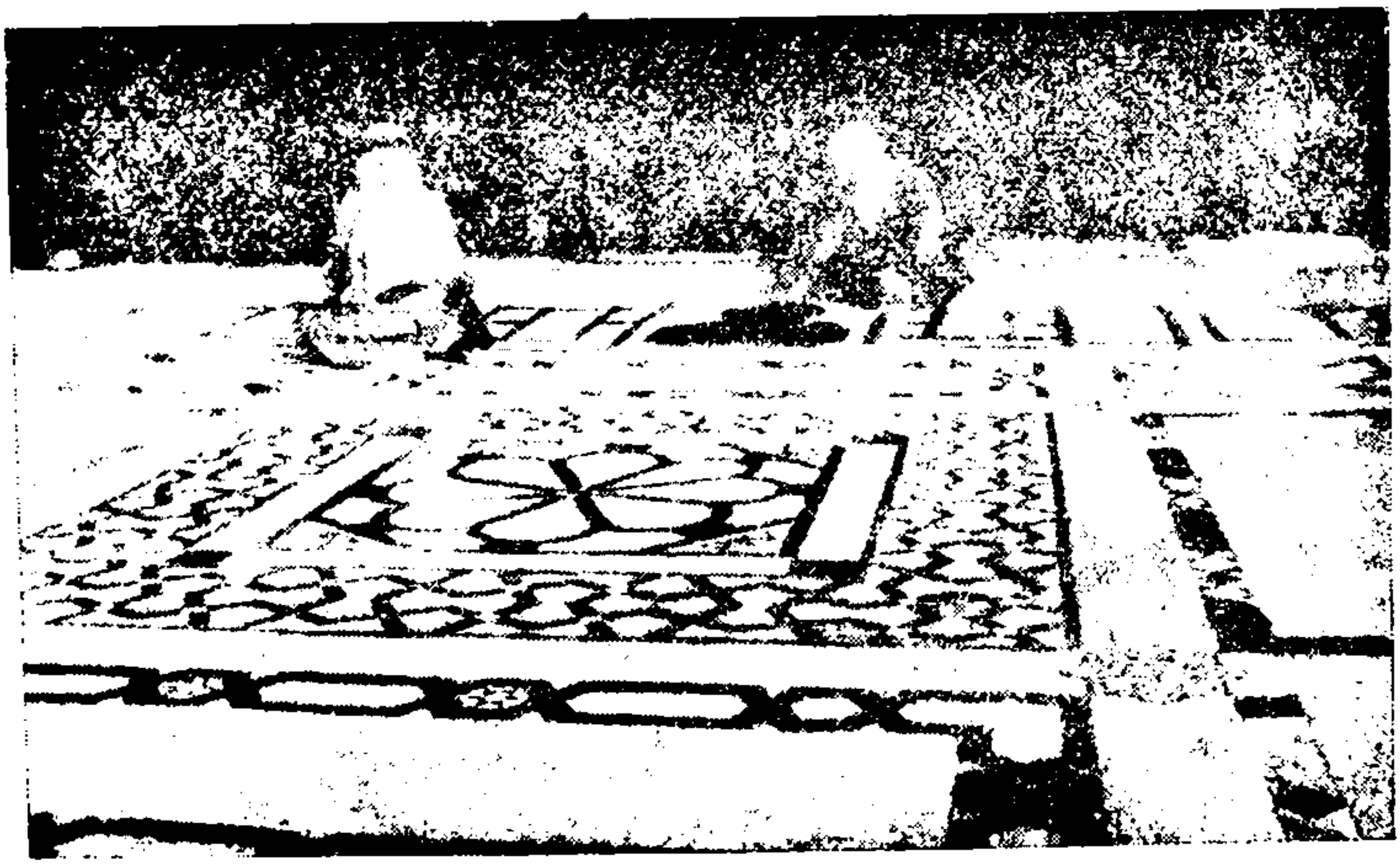

Marfat.com

وتكلم بلسانهم فتعرب فيقال لبنى اسماعيل العرب العاربة والعرب العرباء وكان لسان ابراهيم عبرانيا ولسان اسماعيل * ثم ان ابراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها فاذنت له واشترطت ان لا ينزل عندها فقدم ابراهيم من مكة وقد ماتت هاجر فاتى إلى بيت اسمَاعيل فوجد امرأته فسألها أين صاحبك فقالت ذهب يتصيد وكان اسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم إلى الحل يتصيد ما يتعيش به فقال لها عندك ضيافة من طعام أو شراب قالت ليس عندى شىء فقال لها إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام وقولى له غير عتبة بابك فذهب ابراهيم عليه السلام فلما جاء اسماعيل قالت جاءنى شيخ صفته كذا وكذا فقال السلام وقال غير عتة بابك فقال الحقى باهلك وتزوج غيرها فمكث ابراهيم مدة ثم استأذن سارة ان يزور اسماعيل فاذنت له واشترطت ان لاينزل فجاء ابراهيم إلى مكة وقدم على منزل اسماعيل فوجده غائبا فى الصيد فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد ورحبت به وقالت اجلس يرحمك الله وجاءت بلحم ولبن فأكل وشرب فقالت له ياعم هلم حتى اغسل رأسك وازيل شعثك وجاءته بحجر وهو حجر المقام الذى بنى عليه الكعبة فجلس عليه فغاصت رجلاه فى الحجر فغسلت شقه الأيمن ثم الأيسر ثم أفاضت الماء على رأسه وبدنه إلى أن فرغت من تنظيفه فقام من عندها وتوجه من حيث جاء وقال لها اذا جاء صاحبك فاقرئى عليه السلام وقولى له قد استقام عتبة بابك فالزمها * فلما جاء اسماعيل وجد رائحة أبيه فقال هل جاءك أحد قالت جاءنى شيخ من أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا فاضفته وسقيته وغسلته وهذا موضع قدميه وحين توجه أقرأك السلام وقال لك كذا وكذا فقال نعم أمرنى ان اثبت معك وقبل موضع قدم أبيه من الحجر وحفظه يتبرك به إلى أن بنى عليه فيما بعد ابراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة لما بناها هكذا فى قصص الأنبياء * وروى فيها أيضاً عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما انه قال أشهد ثلاث مرات انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس نورهما ولولا أن طمس نورهما لأضاآ ما بين المشرق والمغرب ثم لما أمر الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام ببناء بيته الشريف قدم إلى مكة وبناها كما قدمناه فلما فرغ من بناء بيت الله الحرام

أمره أن يؤذن الناس بالحج فقال يارب وما عسى أن يبلغ مدا صوتى فقال عليك الآذان وعلينا البلاغ فطلع على جبل ثبير ونادى يا عباد الله ان ربكم قد بنى بيتا وأمركم أن تحجوه فحجوه وأجيبوا داعى الله فأسمع الله صوته جميع من فى الدنيا ومن سيولد ممن هو فى أصلاب الرجال الآباء وأرحام الأمهات (وأما أمر الله تعالى إبراهيم بذبح ولده اسماعيل عليهما السلام) فقد اختلف العلماء فى أن المأمور بذبحه اسماعيل أو اسحاق فقال قوم هو اسحق وذهب اليه عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنهما وذهب عبد الله ابن عمر وابن المسيب والشعبى ومجاهد والحسن البصرى رضى الله عنهم أنه اسماعيل قال الامام أبو ذكريا النووى رحمه الله تعالى فى كتابه تهذيب الأسماء واللغات اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى الذبيح هل هو اسماعيل أواسحق عليهما السلام والأكثرون على أنه اسماعيل عليه السلام انتهى وممن رجح كون الذبيح اسماعيل عليه الصلاة والسلام الحافظ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى قال فى ترجمته وهو الصحيح وروى عن كعب الاحبار عن رجال قالوا لما أرى ابراهيم فى المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أنه أمر ربه قال لابنه يابنى خذ الحبل والدية وانطلق بنا إلى هذا الشعب لتحتطب لأهلنا فأخذ المدية والحبل وتبع والده فقال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم لاأفتن أحدا منهم أبدا فتمثل الشيطان رجلا فأتى أم الغلام فقال لها أتدرى أين ذهب ابراهيم بابنك قالت ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشعب فقال الشيطان لا والله ماذهب به إلا ليذبحه قالت كلا هو أشفق به وأشد حباله فقال لها انه يزعم ان الله أمره بذلك قالت ان كان الله تعالى قد أمره بذلك فليطع أمره فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب فقال لا والله ما يريد إلا ذبحك فقال لأى شىء فقال يزعم ان الله أمره بذلك فليفعل ما أمره الله تعالى به وسمعا وطاعة لأمر الله تعالى فأقبل الشيطان إلى ابراهيم عليه السلام فقال أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه فقال إنى أرى أن الشيطان خدعك بهذا المنام الذى رأيت انك تريد ذبح ابنك وفلذة كبدك فتندم بعد ذلك حيث لاينفعك الندم فعرفه ابراهيم عليه السلام فقال عنى ياملعون فوالله لأمضين لأمر ربى فنكص إبليس على عقبيه ورجع بخزيه وغيظه

Marfat.com

فلما خلا ابراهيم فى الشعب ويقال ذلك فى ثبير قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فقال فحدثت ان اسماعيل قال له عند ذلك يا أبتاه إذا أردت ذبحى فأشدد رباطى لا يصيبنك من دمى فينقص أجرى وان الموت شديد ولا امن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه واستحد شفرتك حتى تجهز على فتذبحنى فاذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبنى على وجهى ولا تضجعنى لشقى فانى أخشى ان انت نظرت إلى وجهى ان تدركك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك فى وان رأيت أن ترد قميصى إلى أمى فانى أرجو أن يكون أسلى لها فأفعل فقال ابراهيم نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ويقال انه ربطه كما أمره بالحبل فأوثقه ثم شحذ شفرته ثم نله للجبين واتقى النظر إلى وجهه ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل عليه السلام لقفائها فى يده ثم اجتذبها إليه ونودى ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا فهذه ذبيحة فداء لابنك فاذبحها دونه وأتاه بكبش من الجنة قال ابن اسحق حدثنى الحكم بن عيينة عن مجاهد عن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أخرج الله هذا الكبش من الجنة قيل رعى قبل ذلك أربعين عاما قال الفاكهى ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء ان الكبش الذى فدى به اسماعيل كبش أملح أقرن أعين ثم روى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه هو القربان المتقبل من أحد بنى ادم فانظر رحمك الله إلى طاعة هذا الولد أمر الله تعالى من ذبح ابنه قرة عينه وقطعة كبده وإلى طاعة هذا الولد أمر الله تعالى وأمر والده وانقياده إلى ذلك راضيا مستسلما باذلا روحه لله تعالى فأنظر إلى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة وإطاعتها لأمر الله تعالى واطاعة زوجها * اللهم صلى وسلم عليهما أفضل صلاتك وسلامك على سائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين وأنفعنا ببركاتهم أجمعين وارزقنا التوفيق وحسن اليقين امين * قال الأزرقى ثم ولد لاسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام من زوجته السيدة بنت مضاض بن عمر والجرهمى اثنا عشر رجلا منهم ثابت بن اسماعيل وقيدار بن اسماعيل وقطور بن اسماعيل وكان عمر اسماعيل مائة وثلاثين عاما ومات ودفن فى الحجر مع أمه فولى البيت بعده ثابت بن اسماعيل ونشر الله العرب من ثابت وقيدار فكثروا وغوا ثم توفى ثابت فولى البيت بعده جده لأمه مضاض بن عمرو الجرهمى وضم

Marfat.com

بنى ثابت بن اسماعيل وضار ملكا عليهم وعلى جرهم ونزلوا بقيقعان بأعالى مكة وكانوا أصحاب سلاح كثير وتقعقع فيهم وصارت[1] وكانوا نازلين بأسفل ونزلوا بأجياد وكانوا أصحاب خيل وغيره وكان الأمر بمكة مضاض بن عمر ودون السميدع إلى أن حدث بينهما البغى واقتتلوا فقتل السميدع وتم الأمر لمضاض بن عمرو وفى ذلك يقول :

ونحن قتلنا سيد الحى عنوة فاصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبقى أن يكون خلافنا بها ملك حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا وعالج مناغصـــة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته ندافع عنه من أتانا وندفع
وما كان يبغى أن يلى ذاك غيرنا ولم يك حى قبلنا ثم يمنع
وكناملو كافى الدهور التى مضت وكنا ملو كالاترام فتوضع

ثم نشر الله بنى اسماعيل وخؤلتهم جرهم وكانت جرهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو إسماعيل لخؤلتهم وقرابتهم فلما ضاقت عليهم مكة انتشروا فى الأرض فلا يأتون قوما ولا ينزلون بلدا إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم وهو يومئذ دين ابراهيم حتى ملكوا البلاد ونفوا عنهم العمالق وكانوا ولاه مكة وكانوا ضيعوا حرمة الحرم واستحلوها واستخفوا بها فأخرجهم الله من أرض الحرم قال ثم ان جرهما استخفت بأمر البيت الحراز وارتكبوا الأمور لعظام وأحدثو فيها مالم يكن قبل ذلك فقام فيهم مضاض بن عمرو بن الحارث بن عمرو خطيبا فقال يا قوم احذروا البغى فقد رأيتم من كان قبلكم من العمالق كيف استخفوا بالبيت فلم يعظموه فسلطكم الله عليهم وأخرجتموهم فتفرقو فى البلاد وتمزقوا كل ممزق فلا تستخفوا بحق بيت الله تعالى فيخرجكم منه فلم يطيعوه ودلاهم الشيطان بالغرور قالوا من يخرجنا ونحن أعز

(١) فى العبارة تحريف ونقص كما هو الظاهر — والمعنى ان مضاض بن عمرو نزل بمن معه من جرهم بأعلا مكة وقعيقعان وكانوا أصحاب سلاح كثير من السيوف والرماح وغيرها ، وأن السميدع نزل بمن معه من قطورا بأجياد وأسفل مكة وكانوا أصحاب خيل ورجال .

Marfat.com

العرب وأكثرها رجالا وسلاحا فقال لهم إذا جاء أمر الله بطل ما تقولونه فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا فى الكعبة وما وجد فيها من الأمور التى كانت تهدى إلى الكعبة ودفنها فى بئر زمزم وقد نضب ماؤها فحفرها بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها تلك الغزالين والأموال وطم البئر واعتزل جرهما وأخذ معه بنى اسماعيل وخرج من مكة فجاءت خزاعة فأخرجت جرهما من البلاد ووليت أمر مكة وصاروا أهلها فجاءهم بنو اسماعيل وكانوا قد اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة فسألوا خزاعة السكن معهم فأذنوا لهم وسألهم فى ذلك مضاض بن عمر والجرهمى وكان قد اعتزل أيضا حرب جرهم وخزاعة ولم يدخل بيتهما واستأذنهم أن يساكنهم فابت خزاعة وقالت من قارب الحرم من حرهم فدمه هدر فترعت إبل لمضاض بن عمرو فدخلت مكة فأخذتها خزاعة وصارت تنحرها وتأكلها فتبع مضاض أثرها فوجدها فى بطن وادى مكة فابصر الابل تنحر وتؤكل ولا سبيل إليها ورأى أنه أن هبط الوادى قتل فونى منصرفا إلى أهله وأنشأ يقول :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطا فجنوبه إلى المنحنى من ذى الأراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأنادنا صروف الليالى والجدود العوابر
وأبدلنا عنها الأسى دار غربة بها الذيب يعوى والعدو محاصر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بهذا البيت والخير ظاهر
وكنا لاسمعيل صهرا وجيرة فاباؤه منا ونحن الأصاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك يا للناس تجرى المقادر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة كذلك عضتنا السنون الغوابر
وسحت دموع العين تبكى لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر
بواد أنيس لا يطار حمامة ولا ينفرن يوما لديها العصافر
وفيها وحوش لا تراب أنيسه إذا خرجت منها فما إن تغادر
فيا ليت شعرى هل يعمر بعدنا جياد ومفضى سيله والظواهر
وهل فرج يأتى بشىء يزيده وهل جزع ينجيك مما تحاذر

وانطلق مضاض بن عمرو ومن معه إلى اليمن وهم يحزنون على مفارقة مكة

Marfat.com

وحازت خزاعة حجابة بيت الله الحرام وولاية أمر مكة وفيهم بنو اسماعيل لا ينازعونهم فى شىء ولا يطلبونه الى أن كبر شأن قصى بن كلاب بن مرة فاستولى على حجابة البيت وأمر مكة وكان قصى أول رجل من بنى كنانه أصاب بمكة فكانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والقيادة وهو الذى جمع أمر قيس فسمى مجمعا بكسر الميم المشددة وفى ذلك يقول القائل .

أبوهم قصى كان يدعى تجمعا به جمع الله القبائل من فهر
هم ملكوا البطحاء مجدا وسوددا وهم طردوا عنها عراة بنى عمرو

وقيل سميت قريش قريشا لتجمعهم على قصى والتقرش هو الاجتماع وما كان يسمى قريش قبل ذلك قريشا وقيل أن النضر بن كنانة كان يسمى قريشا واستمر بنو قصى كذلك الى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم وقد أطلنا الكلام فى هذا المقال وهو مع ذلك قطرة من بحر فانتخبنا منه هذا المقدار لاشتماله على فنون من الاعتبار .

الخامس والسادس بناء العمالقة للكعبة المعظمة

ذكر الأزرقى فى ذلك وذكر سنده الى سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى خبر بناء ابراهيم عليه السلام للكعبة ثم انهدم فبنته العمالقة ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم وذكر الفاكهى بسنده الى سيدنا على ابن أبى طالب أيضا رضى الله عنه أنه قال أول من بنى البيت ابراهيم عليه السلام ثم انهدم فبنته جرهم ثم انهدم فبنته العمالقة قال السيد التقى قلت هذا يقتضى ان جرهما بنت البيت الشريف قبل العمالقة والخبر الأول يقتضى أن العمالقة بنته قبل جرهم وبه جزم المحب الطبرى فى القرى وذكر المسعودى فى مروج الذهب أن الذى بنى الكعبة من جرهم هو الحارث بن مضاض الأصغر وأنه زاد فى بناء البيت ورفعه كما كان عليه بناء ابراهيم عليه السلام والله أعلم بحقيقة ذلك .

ذكر الأزرقى شيئا من خبر العمالقة يقتضى سبقهم على جرهم فإنه روى بسنده إلى سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما انه قال كان بمكة حى يقال لهم العماليق

كانوا فى عز وثروة وكانت له خيل وابل وماشية ترعى حول مكة وما حولها وكانت العضاه ملتفة مبقلة وكانوا فى عيش رخى فبغوا فى الأرض وأسرفوا على أنفسهم وأظهروا المظالم والالحاد ولم يشكروا الله فسليوا نعمتهم وكانوا يكرون بمكة الظل ويبيعون الماء فأخرجهم الله بأن سلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم حتى ألحقهم بمسقط رؤوس آبائهم ببلاد اليمن فتفرقوا وهلكوا وأبدل الله بعدهم الحرم بجرهم فكانوا سكانه إلى أن بغوا فيه أيضاً فأهلكهم جميعاً .

السابع بناء قصى للكعبة المعظمة

ذكر الزبير بن بكار قاضى مكة فى كتاب النسب ان قصى بن كلاب لما ولى أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنيانا لم يبنه أحد ممن بناها قبله مثله وذكر أبو عبد الله احمد بن عائذ الدمشقى فى مغازيه ان قصى بن كلاب بنى البيت الشريف وجزم به الامام الماوردى فى الاحكام السلطانية فانه قال فيها أول من حدد بناء الكعبة من قريش بعد ابراهيم قصى بن كلاب وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل انتهى قال السيد التقى الفاسى فى شفاء الغرام وما رواه القاضى الزبير بن بكار ان قصيا بنى الكعبة على خمسة وعشرين ذراعا ففيه نظرا لما اشتهر فى الاحكام ان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بنى طول الكعبة تسعة أذرع وان قصيا أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرين ذراعا فالمعروف أنه من الجهة الشرقية والغربية لاينقص عن ثلاثين ذراعا فى بناء الخليل بل يزيد على ثلاثين ألفامقدار زيادة وان أراد عرضها من الجهة الشامية واليمانية فعرضها فى هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرين ذراعا ثلاثة أذرع أو أزيد وكل من بنى الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام لم يبنها إلا على قواعد ابراهيم غير أن قريشا اقتصرت من عرضها فى جهة الحجر الشريف لأمر اقتضاه الحال وصنع ذلك الحجاج بعد عبد الله بن الزبير عناداً له[1]

---

(١) نحن لا نرى ما صنعه الحجاج ببيت الله المعظم كان عناداً لعبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنة فراجع ما ذكرناه فى هذه المسألة فى كتابنا

« مقام ابراهيم عليه السلام » بصحيفة ٤٠

والله تعالى أعلم * وكان مبدأ امر قصى ان أباه كلاب بن مرة تزوج فاطمه بنت سعد ابن سيل فولدت له زهرة وقصى فهلك كلاب وقصى صغير وهو بضم القاف وكسر الصاد بمعنى بعيد واسمه زيد وانما لقب قصيا لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه لما توفى أبوه فانها تزوجت ربيعة بن حزام فرحل بها إلى الشام فولدت له زراحا فلما كبر قصى وقع بينه وبين آل ربيعة شر فعيروه بالغربة أوقالوا لا تلحق بقومك وكان لا يعرف له أبا غير ربيعة بن حزام زوج أمه فشكى إليها ما يعيروه به فقالت له يا ولدى أنت أكرم ابا منهم انت بن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام فقدم لمكة فعرف له قومه فضله فقدموه وأكرموه وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة وكان كبيرهم خليل بن جيشة الخزاعى بيده مفتاح البيت الشريف وسدنته فخطب إلى خليل ابنته فعرف خليل نسبه فزوجه ابنته عيسى فتزوجها قصى وكثرت أولاده وأمواله وعظم شأنه وهلك خليل وأوصى بمفتاح البيت الشريف ألابنته عيسى فقالت لا أقدر على السدانة فجعلت ذلك لأبى غيشان وكان سكير يحب الخمر فأعوزه فى بعض الأوقات ما يشربه من الخمر فباع مفتاح البيت بزق خمرا فاشتراه منه قصى وسار فى الأمثال أخسر صفقة من أبى غيشان فلما صار المفتاح إلى قصى تناكرته خزاعة وكثر كلامها عليه فاجمع على حربهم وأخرجهم من مكة وولى قصى أمر الكعبة ومكة وجمع قومه فملكوه على أنفسهم وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة ويعظمونها على أن يبنوا بيتا مع بيت الله فكانوا يكمنون بمكة نهارا فاذا أمسوا خرجوا إلى الحل ولا يستحلون الجناية بمكة فلما جمع قصى قومه إليه اذن لهم أن يبنو بمكة بيوتا وان يسكنوها وقال لهم انكم ان سكنتم الحرم حول البيت هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم ولا يستطيع أحد إخراجهم فقالوا له انت سيدنا ورأينا تبع لرأيك فجمعهم حول البيت وفى ذلك يقول القائل :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر
وانتم بنو زيد وزيداً ابوكم به زيدت البطحاء فخرا على فخر

وابتدأ هو فبنى دار الندوة وهى فى اللغة العربية الاجتماع وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات فلا تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش إلا فيها

Marfat.com

قال الأرزقى ولم يدخل من قريش ولا غيرهم إلا ابن أربعين سنة وكان ولد قصى كلهم أجمعون يدخلونها وقسم البيت الشريف بين طوائف قريش فبنوا دورهم حول الكعبة الشريفة من جهاتها الأربع وتركوا الطواف لبيت الله تعالى مقدارا يقال إنه المفروش الآن حول البيت الشريف بالحجن المنحوت المسمى بالمطاف الشريف وشرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت وتركوا ما بين كل بيتين طريقا ينفذ منه إلى المطاف إلى ان زاد عمر رضى الله عنه فى المسجد الحرام وتبعه عثمان رضى الله عنه وتبعهما غيرهما على ما سيأتى تفصيله ان شاء الله تعالى وكان قصى أول ملك من بنى كعب أصاب ملكا أطاعه به قومه وله كلمات حكم تؤثر عنه منها من أكرم لئيما شركه فى لؤمه ومن استحسن قبيحا تنزل إلى قبحه ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان .

وكان اجتمع لقصى ما لم يجتمع لغيره من المناصب فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة فالحجابة وهى سدانة البيت الشريف أى توليته مفتاح بيت الله والسقاية اسقاء الحجيج كلهم الماء معذب وكان عزيزا بمكة يجلب إليها من الخارج فيستقى الحجاج منه وينبذلهم التمر والزبيب فيسقونه الحجاج وكانت وظيفة فيهم والرفادة إطعام الطعام لسائر الحجاج تمد لهم الاسمطة فى أيام الحج وكانت السقاية والرفادة مستمرة أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين قال السيد التقى رحمه الله ان الرفادة كانت أيام الجاهلية وصدر الإسلام واستمر إلى أيامنا وقال وهو الطعام يصنع بأمر السلطان كل عام حتى ينقضى الحج .

قلت وأما فى زماننا فلا يفعل شىء من ذلك ولا أدرى متى انقطع وأما الندوة فقد تقدم بيانها وأما اللواء فراية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها والقيادة أمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب وهذه كلها اجتمعت فى قصى فلما كبر سنه وضعف بدنه قسمها بين أولاده وكان عبد الدار أكبر أولاده وكان عبد مناف أشرف زمان أبيه فقال قصى لعبد الدار لأحقنك يابنى بالقوم وأن شرفوا عليك فأعطاه الحجابة وسلم إليه مفتاح البيت وقال لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها

Marfat.com

له وأعطاه السقاية واللواء وقال لا يشرب أحد إلا من سقيتك ولا يعقد لواء لقريش لحزبها إلا أنت بيدك وجعل له الرفادة وقال لا يأكل من هذا الموسم طعاما إلا من طعامك وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش من أموالها فى كل موسم فتدفعه إلى قصى فيصنع به طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وكان قصى فرض ذلك على قريش حين جمعهم وقال لهم يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الأضياف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدر عنكم فجعل قصى كلما كان بيده من أمر قومه إلى عبد الدار وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه لعظم شأنه ونفاذ سلطانه قال ابن اسحاق ثم إن قصيا هلك فقام على أمر بنوه من بعده ثم إن بنى عبد مناف هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا اجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأو أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم وتفرقت قريش فكانت طائفة منهم يرون أن بنى عبد مناف أحق من بنى عبد الدار وطائفة يرون إبقاء بنى عبد الدر على ما جعله قصى لأبيهم فأجمعوا على الحرب ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف والحجابة واللواء والندرة لبنى عبد الدار تحالفوا على ذلك فولى الرفادة والسقايه هاشم وكان عبد شمس سفارا مقلا ذا ولد وكان هاشلا موسرا وهو وأول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف وهو أول من أطعم الثريد بمكة واسمه عمرو وإنما سمى هاشما لهشمه الخبز وثرده لقومه كما قال القائل :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ثم هلك هاشم بغزة من أرض الشام تاجراً فولى الرفادة والسقايه أخو المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف وكرم وكان يسمى الفيض لسماحته وكرمه وفضله وكان أصغر من عبد شمس فتوفى المطلب بدومان من أرض اليمن وتوفى عبد شمس بمكة وتوفى نوفل بالعراق ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقام لقومه ما كانت تقيمه أباؤه من قبله وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه

Marfat.com

أحد من آبائه وأحبه قومه وعلم خطره فيهم ٥ وكان أكبر أولاده الحارث لم يكن له أول أمره غيره وبه كان يكنى فقال عدى بن نوفل بن عبد مناف يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذلا ولد لك فقال عبد المطلب أو بالمقلة تعيرنى فوالله لئن أتانى الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة فلما كمل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء بذلك فاطاعوه وقالوا له أوف بنذرك وافعل ماشئت قال ليأخذ كل واحد منكم قدحا فيكتب فيه اسمه ثم ائتونى ففعلوا ودخل بهم على هبل وهو صنم كان يعبد فى جوف الكعبة فقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على هؤلاء بقداحهم وأعطى كل واحد قدحه وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرهم سنا وأحبهم إلى والده ثم ضرب صاحب القداح فخرج السهم على عبد الله فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل به على أساف وهو صنم كان على الصفا ليذبحه عنده فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر فى وجهه شجة لم تزل فى وجه عبد الله إلى أن مات فقامت قريش من أنديتها وقالوا لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه فما بقى الناس على هذا ولكن اعذر فيه فنفديه بأموالنا وكان بالحجاز عرافة كاهنة لها تابع من الجن فانطلقوا حتى قدموا عليها وقص عليها عبد المطلب خبر نذره فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا من عند هاشم غدوا عليها فقالت كم الدية فيكم فقالوا عشرة من الإبل فقالت قربوا عن ولدكم عشرة من الإبل ثم أضربوا عليها وعلى ولدكم واستمروا كذلك إلى أن يخرج السهم على الإبل فأنحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا ولدكم فخرجوا حتى قدموا مكة فقربوا عشرة من الإبل وضربوا القداح فخرج القداح على عبدالله فزودوا عشرة فخرج على عبدالله واستمروا يزيدون عشرة عشرة حتى بلغت الإبل مائة فخرج القدح على الإبل فأعادوه ثانية ثم ثالثة فخرج القدح على الإبل فأتى بها فنحرت ثم تركت لايمنع عن لحومها آدمى ولا وحش ولا طير قال الزهرى وكان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل فخرجت قريش ثم فى العرب وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثامن بناء قريش الكعبة المشرفة) قال خاتمة الحفظ والمحدثين مولانا الشيخ محمد الصالحى قدس الله تعالى وحسه فى كتاب سبيل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد وهو أحسن كتاب للمتأخرين وأبسطه فى السيرة النبوية

Marfat.com

ولنا منه أجازة عامة رحمه الله تعالى ان امرأة جمرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرتها فى ثياب الكعبة فاحترق أكثر أخشابها وجاء سيل عظيم فصدع جدرانها بعد توهينها فأرادوا أن يشدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لايدخل الأمن شاؤا وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة لتاجر رومى اسمه ياقوم بموحدة وقاف مضمومة وكان نجاراً بناء فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى جدة فابتاعوا خشب السفينة وكلموا بأقوم الرومى أن يقدم معهم إلى مكة فقدم إليها وأخذوا أخشاب السفينة أعدوها لسقف الكعبة .

قال الأموى كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ويحمل فيها الرخام والخشب والحديد إلى الكنيسة مع ياقوم إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس بالحبشة فلما بلغت قريب مرسى جدة بعث عليها ريحا فحطمتها انتهى قلت لا يعرف طريق بعد بحر الروم والحبشة يمر فيها على جده إلا أن يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك مصر فجهزها له من بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك

قال ابن إسحاق وكان بمكة قبطى يعرف بنجر الخشب وتسويته فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده يا قوم .

قال وكانت حية عظيمة تخرج من بئر الكعبة التى يطرح فيها ما يهدى إلى الكعبة تشرف على جدار الكعبة لا يدنو منها أحدا لانشت وفتحت فاها وكانوا يهابونها ويزعمون أنها تحتفظ الكعبة وهداياها وأن رأسها كرأس الجدى وظهرها وبطنها أسود وأنها أقامت فيها خسمائة سنة .

قال ابن عتبة فبعث الله تعالى طائرا فاختطفها وذهب بها فقالت قريش نرجو أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أردنا فعله فأجمع رأيهم على هدمها وبنائها (١) .

---

(١) الذى يظهر أن هذا طائر كبير جدا أكبر من النسر بكثير حتى أمكنه أن يحمل حية عظيمة فاذا كانت رأسها كرأس الجدى فكيف يكون طولها وحجمها ، فهذا الطائر ليس من طيور الحجاز وإنما هو طير غريب أرسله الله تعالى لحمل هذه الحية من الكعبة المشرفة ليتمكن قريش من هدمها وبنائها وليكون دليلا على رضاء الله تعالى بما أجمعوا عليه من أمر الكعبة والله تعالى أعلم .

Marfat.com

قال ابن هشام فتقدم عاتد بن عمران بن مخزوم وهو خال النبى صلى الله عليه وسلم فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه فقال يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من مالكم إلا حلالا ليس فيه مهر بغى ولا ربا ولا مظلمة . ثم إن قريشا اقتسمت جوانب البيت فكان شق الباب لبنى زهرة وبنى عبد مناف وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم إليهم من قريش وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم وكان شق الحجر لبنى عبد الدار وبنى أسد بن عبد العزى وبنى عدى بن كعب وجمعوا الحجارة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل معهم حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة فضربوا عليها بالمعول فخرج برق يكاد أن يخطف البصر فانتهوا عند ذلك الأساس ثم بنو حتى بلغ البنيان موضع الركن الحجر فاختصم فيه القبائل وكل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه وكادوا أن يقتتلوا على ذلك فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان شريفا مطاعا اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم فيه أول من يدخل من باب الصفا فقبلوا منه ذلك فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا محمد الأمين وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أمينا لأمانته وصدقه فقالوا جميعا رضينا بحكمه ثم قصوا عليه قصتهم فقال صلى الله عليه وسلم هلم إلى ثوبا فأتى به فأخذ الركن فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب فجملوه جميعا وأتوا به ورفعوه إلى ما يحاذى موضعه فتناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثوب ووضعه بيده الشريفة فى محله وفى ذلك يقول هبيرة بن أبى وهب المخزومى .

تشاجرت الأحياء فى فصل خطه جرت ظيرهم بالنحس من أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة وأوقد نار بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمد

وثمانى التاريخ فحفظ منه جملة وكان رئيسا طاهر اللسان لطيف المحاضرة والمحادثة لاتمل مجالسته مات فى ظهر يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة بمكة ودفن بالمعلاة رحمه الله . محمد القواس الدمشقى أحد المعتقدين مات فى سادس ذى القعدة بزاوية غربى المصلى ظاهر دمشق . مفتاح الدوادار الحسنى أحد القواد أبو على مات فى المقتلة التى كانت بجدة فى صفر وكذا مقدم بن عبد الله بن على بن جسار بن عمر بن شاش مضى فى محمد وسر بن جويعد بن رسم كما تقدم . موسى بن محمد بن يحيى بن احمد بن على المغربى الشاذلى المالكى نزيل مكة مات بها فى صبح يوم السبت خامس عشر شعبان وكان انسانا صالحا معتقدا فيه فضيلة رحمه الله

سنة سبع وأربعين وثمانمائة

استهلت وأكثر من تقدم على حاله الا المحتسب بمصر والقاهرة فهو الشيخ بدر الدين العينى والدوادار الكبير اينال (١) العلاى الاجرود والخازندار فقراجا الظاهرى والزمام والخازندار تغرى برمش النوروزى وناظر الجيش والبهاى بن حجى والاستادار فالزينى فريب ابن أبى الفرج نائب مكة وأبو القاسم بن حسن بن عجلان وقاضيها الشافعى وأبو السعادات بن ظهيرة وباش الترك بها فاقبردى الظفرى ونائب جماة فاقبردى ونائب الينبع فعزى والقاضى الحنفى بالشام حميد الدين النعمانى وهو محتسبها أيضا ومالكيها (٢) فيحيى المغربى وحنبليها نظام الدين بن مفلح والشافعى بحلب فالجمال بن الباعونى وحنفيها فابن العز الحاصلى والشافعى بغزة بن الحمصى وبصفد ابن سالم وبالاسكندرية الشهاب التلمسانى

(المحرم) أوله بالرؤية الاربعاء كما قال شيخنا فى يوم الخميس ثانيه أمر السلطان بحبس الفرنج القادمين من رودس (براء مضمومة وواو وساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم سين مهملة كما ضبطه النووى وقاله كذا ضبطناه فى صحيح مسلم وكذا نقله القاضى عياض فى المشارق عند الاكثرين ونقل عن بعضهم فتح الراء وعن بعضهم فتح الدال بالشين المعجمة وفى رواية أبى داود فى السنن بذال معجمة وسين مهملة وسماها العينى أريدس وهى جزيرة بأرض الروم) قبل فراغ السنة التى قبلها بأيام قليلة لطلب المهادنه ومعهم تقدمة واسراء من المسلمين فحبسوا بالمقشرة حبس أولى الجرائم وهم (٣) نيف على عشرين نفسا

---

(١) واينال (٢) ومالكها (٣) وهو

Marfat.com

بخير قريش كلها أمس شيمته وفى اليوم مع مايحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله أعم وأرضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا له حصة من رفعها قبضة اليد
فقال ارفعوا حتى إذا ماعلت به أكفهم وفا به خير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه فأعظم به من رأى هاد ومهتد
وتلك يدمنه علينا عظيمة يروح بها هذا الزمان ويفتدى

(ولما بنت قريش الكعبة) جعلت ارتفاعها من خارجها الثمانية عشرة ذراعا منها تسعة أذرع زائدة على ماعمره الخليل عليه السلام ونقصوا من عرضها أذرعا من جهة الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة ورفعوا بابها عن الأرض ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ثلاث فى كل صف من شق الحجر إلى الشق اليمانى وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبة .

[تنبيه] اختلف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنت قريش الكعبة فقيل كان ابن خمس وثلاثين سنة وهو أشهر الأقوال وروى عن مجاهد ان ذلك كان قبل المبعث بخمس سنين والله تعالى أعلم . (التاسع بناء عبد الله بن الزبير الكعبة الشريفة فى زمن الاسلام) وسيأتى تفصيل ذكره وما وقع له فى الباب الثالث فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى أيام الجاهلية وصدر الاسلام إن شاء الله تعالى (العاشر بناء الحجاج بن يوسف الثقفى) بعد بناء سيدنا عبد الله بن الزبير وسيأتى بيانه عقب ذكر بناء عبد الله بن الزبير للكعبة ان شاء الله تعالى وبناء الحجاج هو جهة الميزاب والحجر بسكون الجيم وتعلية جوف الكعبة ورفع البناب الشريف الذى فى لصق الملتزم وسد الباب الغربى الذى يلصق المستجار لاغير وما عدا ذلك فى الجهات الثلاث وهو وجه الكعبة الشريفة وجهة ظهرها وما بين الركن اليمانى والحجر الاسود فهو بناء سيدنا عبد الله ابن الزبير باق إلى الآن كما سنذكره فى زيادة عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام وهدمه الكعبة وبنائها على قواعد ابراهيم عليه السلام .

فصل فى تحلية الكعبة الشريفة

وبابها الشريف بالذهب والفضة وقناديلها الشريفة

قال أبو الوليد الأزرقى رحمه الله أول من حلى الكعبة الشريعة فى الجاهلية عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم بالغزالين الذين وجدهما فى بئر زمزم حين حفرها ثم قال أول من ذهب البيت فى الاسلام عبد الملك بن مروان وقال المسيحى ما يقتضى خلاف ذلك فقال أول من حلى البيت عبد الله بن الزبير وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب وجعل مفاتيحها من الذهب . وذكر الفاكهى ان عبد الملك بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار يضرب بها على باب الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التى فى جوف الكعبة وعلى أركانها من داخل . وذكر الأزرقى ان الأمين بن هارون الرشيد أرسل إلى عامله على مكة سالم بن الحجاج بثمانية عشر ألف دينار فضربها صفائح سمرت على الباب وجعل مساميرها وحلقتى الباب وأعتابه من الذهب وذكر أيضا أن حجبة الكعبة أرسلوا إلى المتوكل العباسى يذكرون له ان زاويتين من زوايا الكعبة من داخلها كلها ذهبا فأرسل المتوكل إلى إسحق بن سلمة الصائغ بذهب وأمره بعمل ذلك فنكس اسحق تلك الزوايا وأعادها من الذهب وعمل منطقة من فضة ركبها فوق ازار الكعبة من داخلها عرضها ثلثا ذراع وجعل لها طوقا من الذهب متصلا بهذه المنطقة قال وكان أسفل الباب عتبة من خشب ساج قد رثت وتآكلت فأبدلها بخشب آخر وألبسه صفائح من فضة قال اسحق الصائغ فكان مجموع الزوايا والطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ومنطقة الفضة وما على الباب من الفضة وما حلى به المقلم من الفضة سبعين ألف درهم وذكر السيد القاضى تقى الدين الفاسى رحمه الله تعالى ما وقع بعد الأزرقى من تحلية البيت الشريف فقال من ذلك ان الحجبة كتبوا إلى المعتضد العباسى ان بعض ولاة مكة قطع أيام الفتنة عضادتى باب الكعبة وغيرهما وسبكهما دنانير وأصرفهما على الفتنة فأمر المعتضد باعادة ذلك جميعه وأعيدت كما أشاربه قال ومن ذلك ان أم المقتدر الخليفة العباسى أمرت غلامها لؤلؤ أن يلبس جميع اسطوانات البيت الشريف ذهب ففعل ذلك فى سنة عشر

Marfat.com

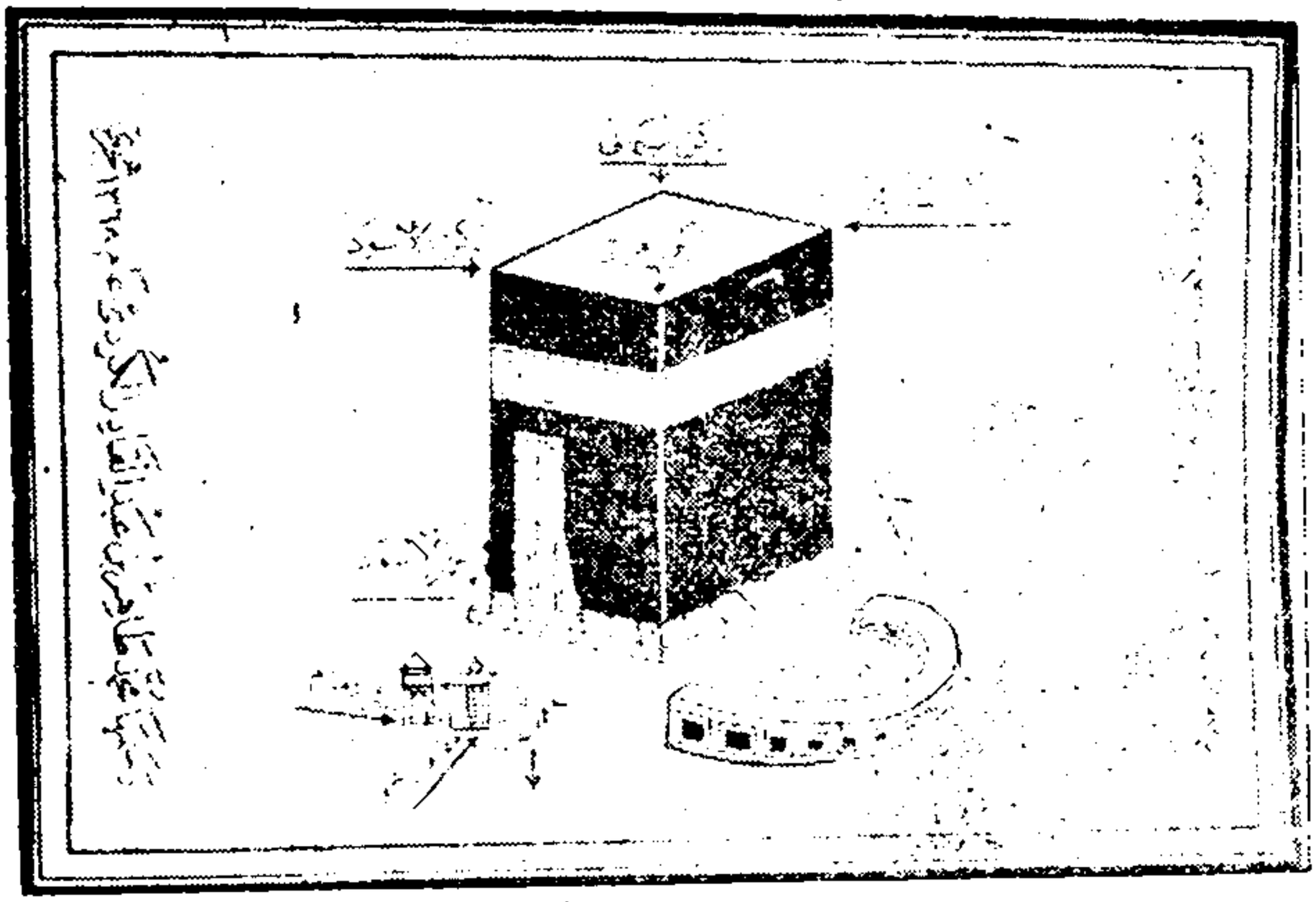

انظر رسم الكعبة المشرفة وقد ظهر فيها جميع الأركان الأربعة
مع بيان أسمائها كما ظهر حجر اسماعيل عليه السلام وغيره

Marfat.com

وثلثمائة قال ومن ذلك ان الوزير جمال الدين بن محمد بن على بن منصور المعروف بالجواد وزير صاحب مصر أنفذ فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة حاجبه إلى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صفائح الذهب والفضة فى أركان الكعبة من داخلها . قال وممن حلاها الملك المظفر الغسانى صاحب اليمن وحلاها حفيده الملك المجاهد صاحب اليمن أيضا ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى صاحب مصر حلى باب الكعبة الذى عمله لها بخمسة وثلاثين ألف درهم وان حفيده الملك الأشرف شعبان حلى باب الكعبة فى سنة ست وسبعين وسبعمائة انتهى ما ذكره التقى القاسى رحمه الله . قلت وقد أدركنا الباب الشريف مصفحا بالفضة وكان يختلس من فضته أوقات الغفلة من قل دينه وخفت يده إلى أن انكشف أسفل الباب الشريف عن خشب الباب ومسك مرارا من يفعل ذلك وحيسوا وبهدلوا فعرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية فى أيام المرحوم المقدس السلطان سليمان خان أسكنه الله تعالى فراديس الجنان فى سنة إحدى وستين وتسعمائة فبرز الأمر الشريف السلطانى بتصفيح الباب الشريف بالفضة إلى ناظر الحرم الشريف المقيم بمكة فى منصب نظارة الحرم الشريف يومئذ وهو من فضلاء كتبة مصر أحمد جلبى المقاطعجى صهر المرحوم محمد بن سليمان دفتر دار مصر إذ ذاك رحمه الله تعالى وكان له شعر لطيف بالتركى وتخلصه تبركا ويتمنا چامى وترجم باللسان التركى كتاب روضة الشهداء لمولانا چامى وضمنه من لطائف النظم والنثر ما يستحسنه ومن محاسن السجع مايخف على السمع وهو كتاب مقبول متداول بين الناس اللطفاء(١) .

وكان وصوله إلى مكة فى افتتاح سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وكان فى البيت الشريف خشبة من أخشاب خشبه المنيف انكسرت وصار الماء ينزله من موضع الكسر إلى جوف البيت المعظم وكان قاضى مصر يومئذ قدوة علماء الموالى العظام مولانا

---

(١) وقد أمر فى عصرنا الحاضر بتجديد باب الكعبة المشرفة حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وفقه الله تعالى فعمل باب جديد مصفحاً بالذهب والفضـــة وركب على الكعبة المعظمة سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وستين .

Marfat.com

حامد أفندى وهو اليوم مفتى ممالك الاسلام بالباب العالى أطال الله عمره المديد وأدام بقاءه السعيد قد حج إلى بلد الله الحرام وقاضى مكة يومئذ الأفندى مولانا محمد بن محمود المعروف بخواجه قينى أسكنهما الله فسيح الجنان وحف تربتهما بالروح والريحان فاطلعا على هذا الاخلال وعرضاه على الأبواب الشريفة السليمانية فلما وصل العرض إلى المرحوم المقدس المغفور الأقدس السلطان سليمان خان حازا على غرف الجنان أرسل إلى مفتى الإسلام سلطان العلماء الأعلام مولانا أبى السعود أفندى المفتى الأعظم قدس الله روحه يستفتيه عن حكم الله فى هذه المسئلة جوازاً وعدم جواز فكتب إليه بجواز ذلك إن دعت الضرورة إليه فأرسل بجواب المفتى الأعظم إلى صاحب مصر يومئذ الوزير المعظم المرحوم على باشا فأرسله الوزير المذكور إلى ناظر الحرم المشار إليه وقاضى مكة يومئذ محمد بن محمود رحمهما الله تعالى مع أمر شريف سلطانى مضمونه العمل بمقتضى الفتوى فجمع احمد چلبى مؤن العمارة والأخشاب اللائقة لهذا العمل وكان كاتبه صولق مصطفى چلبى ومعماره مصطفى المعمار وقبل الشروع فى العمل اقتضى رأيهم مشاورة العلماء فى ذلك فجلس مولانا الافندى محمد بن محمود بن كمال بعد صلاة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسعمائة فى الحرم الشريف واستحضر مفتى العلماء الشافعية المرحوم مولانا الشيخ شهاب الدين احمد بن حجر الهيتمى ومولانا الشيخ نور الدين على بن ابراهيم العسيلى ومولانا القاضى يحيى بن فايز بن ظهيرة ومؤلف هذا الكتاب وتقاضوا فى هذه المسئلة فذكر مصطفى المعمار أنه شاهد عودين من أعواد سقف الكعبة مكسورين نزلا عن محاذات بقية أخشاب السقف الشريف من وسطها مقدار اثنى عشر قيراطا وذكر ان عودا ثالثا إلى جانبهما لنحو الباب الشريف نزل أيضا تسعة أصابع عن محاذاة أعواد السقف الصحيحة هبوطاً إلى أسفل وانه يحتمل أن يكون مكسورا أيضاً ويحتمل ان يكون صحيحا لكنه احوج باحوجاج ما إلى جانبه من العود المكسور وشهد معه احمد الحياق المصرى وغيره وذكروا بأنه ان لم يتدارك تغير الخشب المكسور بخشب صحيح فالغالب فى أمثال ذلك أن يسقط الى اسفل وتنزعزع الجدران بسقوطه ويغلب فى الظن اختلال فى جوانب السطح يؤدى إلى سقوط السقف جميعه وتسقف الجدران وسقوطها فاتفقت

Marfat.com

آراء الحاضرين على الاقدام على تغمير السطح وتبديل تلك الأعواد وعينوا أن يشرعوا صبح يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسعمائة فتعصب طائفة حركهم الهوى والغرض لمخالفة رأينا وحركوا طائفة من العلماء إلى الخلاف وزعموا أن من تعظيم البيت الشريف ان لا يتعرض له بترميم ولا إصلاح وان قيام الكعبة الشريفة هذه المدة المديدة والرياح تنسفها من الجوانب الأربع ولا تؤثر فيها دليل على أن قيامها ليس بقوة البناء بل هي قائمة بقدرته تعالى وانه لا يجوز تغيير أخشابها إلا إذا سقطت بنفسها وغير ذلك من التمويهات والتهويلات التى تنبو عن مسامع العقلاء. هولوا الأمر على عوام الناس وغوغاهم وكادت أن تقوم لذلك فتنة على العوام وكتب مولانا شهاب الدين احمد بن حجر تأليفا واسعاً فى الرد على أولئك المعاندين واستند إلى نقول كثيرة وصمم على الجواز وجاءنى رحمه الله تعالى يحرضني على الثبات على ما صدمنى من القول بالجواز ونقل لى عن المحب الطبرى فى كتابه استقصاء البيان فى مسئلة الشاذروان بعد ذكره حديث عائشة رضى الله عنها فى هدم الكعبة ما نصه ومدلول هذا الحديث تصريحا وتلويحا انه يجوز التغيير فى الكعبة لمصلحة ضرورية أو حاجية أو مستحسنة انتهى (١)

ولما بلغ سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد الشريف شهاب الدين احمد

---

(١) هذا النص لا اعتراض عليه أبداً بل هو عين الصواب فان الكعبة المشرفة مبنية بالحجارة فهى قابلة للهدم والخراب وهل من المعقول شرعا اذا تهدم بيت الله المعظم أو حصل فيها خراب أن يترك على حالته فلا تمتد إليه الأيدى بالاصلاح والتعمير كلا والله ، ولو أراد الله عز وجل أن لا تمتد إليه الأيدي بالاصلاح لخلقه قطعة واحدة من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة .

ولو نظرنا إلى بناية خليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام لوجدنا البيت الحرام لم يكن بهذه الصفة فلم يكن عرضه وارتفاعه بهذا المقدار ولم يكن له سقف ولا باب وكانت فتحة الباب لاصقة بالأرض ولم يكن فى داخله درج يؤدى إلى السطح ولم تكن له ستارة ولا كسوة ولم يكن مبنيا بالطين والجص . . . . إلخ.

وانظر ما ذكرناه فى اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها بصحيفه ٥٨ من كتابنا « مقام ابرهيم عليه السلام » المطبوع بمصر بمطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده

Marfat.com

بن نمى صاحب مكة إذ ذاك تغمده الله تعالى برضوانه وأسكنه فسيح جنانه حضر بنفسه من البر إلى مكة المشرفة وطلب سيدنا ومولانا سلطان العلماء الأعلام شيخ شمس الملة والدين الشيخ محمد بن مولانا الشيخ أبى الحسن البكرى نفع الله به وبأسلافه الكرام وشيد به أزر شريعة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ومولانا الأفندى الأعظم قاضى مكة المشرفة وسيدنا ومولانا قاضى القضاة ومرجع أهل بلد الله الحرام القاضى تاج الدين بن عبد الوهاب بن يعقوب المالكى طيب الله مثواه وجعل الفردوس الأعلى مأواه وناظر الحرم الشريف المكى يومئذ أحمد چلبى المذكور فحفروا جميعاً تجاه البيت الشريف عند مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام وأشير إلى سيدنا ومولانا الشيخ الأعظم محمد البكرى أن يلقى درسا يتكلم فيه على قوله تعالى وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم فتكلم على جارى عادته بلسان طلق فصيح ولفظ منتظم مليح أبهر به الحاضرين وأدهش الناظرين وأفاد وأجاد وقلد نفائس الدر الأجياد .

فلما انقضى الدرس أخرج الناظر فتوى المفتى للناس فرآها مولانا الشيخ الأعظم الشيخ محمد البكرى فقال ومن يخالف هذا من الناس هذا هو عين الحق ومحض الصواب وأمر مولانا السيد أحمد العمال بالشروع فى العمل فشرعوا وسكنت الفتنة ولله الحمد وكل ذلك بتدبير المرحوم القاضى تاج الدين المالكى رحمه الله وكان عاقلا محتشما ذا رأى صواب محضا وله فضل تام وفكر صائب تمام وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة إحدى وستين وتسعمائة .

ثم لما كشف عن تلك الأعواد فى السقف وجدوها كما ظنوا وأبدلوها بأعواد جيدة فى غاية الأحكام والاستقامة وأعادوا السقف والسطح كما كان بغاية الاتقان وسطر ثواب ذلك فى صحائف المرحوم السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان ثم بعد الفراغ طلبوا منا شيئا يمكن كتابته فكتبت لهم كلاما يتضمن التاريخ .

وهو الحمد لله الذى عمر الكعبة الشريفة بالشرائع المحمدية وسقفها بتشييد وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا وأصلح الوجود بوجود من وجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه وخصه يكنز إنما يعمر مساجد الله من آمن

Marfat.com

بالله واليوم الآخر فكان له أعظم كرامة وأناله الحظ الأوفر من ملك سميه نبي الله سيدنا سليمان ابن السلطان سليم خان الحادى عشر من ملوك بنى عثمان خادم الحرمين الشريفين الخافقة ألوية نصره ورايات ظفره فى الخافقين فلقد جدد سقف الكعبة المعظمة حفظ الله دولته حفظ البيت المعمور والسقف المرفوع وأصلح أرضها المقدسة وجدرانها المتخذة قبلة للسجود والركوع وغرّد طير تاريخ تجديد عمارته على غصون حساب أبجد (فكان بجدد سطح بيت الله مالك الدولة سليمان) ملكه الله الأرض ومن عليها وجعل باب سعادته قبلة تسجد جباه المطالب إليها ثم لما فرغ من تجديد سطح البيت الشريف وما يتعلق به شرع فى تسوية فرش المطاف الشريف فإن أحجاره انفصلت وصار بين كل حجرين حفر وكان تلك الحفر تسدّ تارة بالنورة وتدلك وتارة بالرصاص ويسمر بمسامير الحديد فأزال ما بين الأحجار من الحفر وتحت طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر من جوانبه الأربعة واستمر فى فرش المطاف الشريف على هذا الأسلوب إلى أن فرغ من ذلك وأصلح أبواب المسجد الشريف وفرش المسجد جميعه بالحصى ثم ورد الحكم السلطانى بتصفيح الباب الشريف وإصلاح الميزاب الشريف وصفح بالفضة المموهة بالذهب إلى أن غير بعد ذلك وعمل الميزاب فى الباب الخاقانى فوصل ووضع فى الخزانة العامرة .

(وأما عمارة المطاف الشريف) فوقع فى سنة إحدى وستين وتسعمائة وكنت قد أمرت بتاريخ يكتب على بعض مواضع المضاف فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم أن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا تقرب إلى الله تعالى بتجديد فرش أحجار المطاف وتسويتها تحت أقدام الطائفين فى الطواف وتحلية الباب الشريف والميزاب المعظم المنيف خليفة الله تعالى الأعظم سلطان الروم والعرب والعجم من اصطفاه الله تعالى واجتباه لترميم بيته الحرام واختباره وارتضاه بخدمة الركن والمقام السلطان ابن السلطان الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان خان تقبل الله منه صالح الأعمال وبلغه ما يؤمله من السعادة والاقبال ولما تم ذلك غرد بالتاريخ طين الهنا عمر الله قبلتنا .

فصل فى ذكر تعاليق الكعبه المعظمة وكسوتها

أما التعاليق فقال المسعودى فى مروج الذهب كانت العرب تهدى إلى الكعبة أموالا وجواهر فى الزمان الأول وكان بن ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا إلى الكعبة . وقال الشريف التقى الفاسى فى شفاء الغرام يقال ان كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة القرشى أول من علق فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة ثم نقل عن الأزرقى فى أشياء أهديت للكعبة منها أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لما فتح مدائن كسرى كان مما بعث اليه هلالان فبعث بهما فعلقهما فى الكعبة وبعث السفاح بالصفحة الخضراء فعلقت فى الكعبة والمأمون بالياقوتة التى تعلق فى كل موسم بسلسلة من الذهب فعلقت فى وجه الكعبة وبعث المتوكل على الله بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم واهدى المعتصم العباسى قفلا لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهبا فى سنة تسع عشرة ومائتين وكان والى مكة يومئذ من قبل صالح بن العباس فأرسل إلى الحجبة ليقبضهم القفل فأبوا أن يأخذوه منه وأراد أن يأخذ القفل الأول ويرسل به الخليفة فأبوا أن يعطوه ذلك وتوجهوا إلى بغداد وتكلموا مع المعتصم فترك قفل الكعبة عليها وأعطاهم القفل الذى كان بعثه اليها فاقتسموه بينهم وذكر الفاكهى أن مما أهدى إلى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء أرسله ملك الهند لما أسلم فى سنة تسع وخمسين ومائتين فعرض أمره على المعتمد على الله فأمر بتعليقها فى البيت الشريف فعلقت قالى التقى الفاسى رحمه الله تعالى ومما علق بعد الأزرقى قصبة من فضة فيها كتاب بيعة جعفر بن أمير المؤمنين المعتمد على الله وبيعة أبى أحمد الموفق بالله ابن أخى المعتمد على الله وقدم بها الفضل بن عباس فى موسم سنة إحدى وستين ومائتين وكان وزن الفضة ثلثمائة وستين درهما فضة وعليها خارجا عن ذلك ثلاث أزرار بثلاثة سلاسل من فضة ودخل الكعبة يوم الاثنين لأربع خلون من صفر فعلق هذه القصبة مع تعاليق الكعبة .

(قلت) وسيأتى ان هارون الرشيد كتب أن يكون ولى عهده بعد محمد الأمين ثم عبد الله المأمون وبايع لهما على ذلك أعيان مملكته وكتب مبايعتهم وأرسل نسخة ذلك العهد إلى الكعبة وعلقها فى الكعبة ثم لما وقع بعده الاختلاف بينهما وأرسل الأمين عسكرا لقتال أخيه المأمون أرسل إلى مكة وأخرج كتاب العهد من الكعبة ومزقه فمزق الله ملكه وانكسر عسكره وانتصر المأمون وجاء إلى بغداد وحاصر الأمين إلى أن أمسكه عبد الله بن طاهر وقتله وأتى برأسه إلى المأمون وسيأتى تفصيل ذلك جميعه إن شاء الله تعالى .

ثم لما وقعت الفتن بمكة أخذت تلك التعاليق من الكعبة وصرفت فى ذلك وقد كانت الملوك ترسل بقناديل الذهب وتعلق فى الكعبة وكانت شيوخ سدنة البيت الشريف إذا احتاجت اختلست منها ما تسد به خللها وتدفع به فقرها واحتياجها وقد أدركنا فى أيام الصبا وقد خفت القناديل من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك بل أخبرنى نجار أنه عمل لأحدهم محطا مركبا من الخشب مؤلفا من عدة أعواد طول كل واحد منها نحو ذراع تركب فيطول ثم ينكل ويحمل فى الكم فاذا دخل الشيخ يوم فتح الكعبة ابتداء فدخل وحده كما هو عادة مشايخ الكعبه وركب ذلك المحط ونزّل قنديلا وفك تلك الأعواد وعفس ذلك القنديل ووضع فى كمه الواسع أذن للناس بالدخول فى البيت الشريف وما كان يحمله على ذلك غير فقره واحتياجه تجاوز الله عنه وافتقد مرة أمير من أمراء جدة قنديلا كان علقه قريبا فى البيت الشريف فكلم على ذلك الشيخ وأراد إهانته فلم يقدر على ذلك وتكلم الناس عليه وكان يقول المحافظة على بنية الإنسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة فى الكعبة لا ينفعها تعليقه ولا يضرها فقده وقد وصلنا إلى حد المخمصة فتعذر فى ذلك أن وقع فعله منا

والبيت الشريف الآن ولله الحمد والشكر فى غاية الصون أيام هذا الشيخ الموجود الآن لعفته وأمانته وعلقت فى أيامه قناديل كثيرة أهداها الملوك إلى الكعبة الشريفة وهى محفوظة معلومة عند الناس باقية يرونها فى سقف البيت الشريف فى أوقات فتح الكعبة لسائر الناس

وقد وصل فى وسط سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الباب العالى الشريف السلطانى

Marfat.com

جاويش اسمه محمد جاويش كان قبل ذلك كاتبا للحرم الشريف على عمارة المسجد الحرام وكان توجه ببشارة اتمام المسجد الشريف إلى الباب العالى السلطانى وهو رجل فى غاية الأمانة والاستقامة وحسن الخدمة وفضيلة الكتابة وحسن الخط والمروءة وعلو الهمة سلمه الله تعالى فأقبلت عليه السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى وأنعمت الأنعام والترقى وغير ذلك من الاكرام وأدخل فى عداد خواص جاويشية الباب العالى وأرسل إلى الحرمين الشريفين بالخلع الشريفة السلطانية لمن باشر خدمة الحرم الشريف فى هذه العمارة أجلهم سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى سيد السادات الأشرأف صفوة الصفوة من شرفاء بنى عبد مناف السيد الشريف الحسيب النسيب المستغنى بشرف ذاته عن التوصيف والتلقيب بدر الدنيا والدين حسن بن أبى غى خلد الله دولتهما وسعادتهما وأدام عزهما وسيادتهما وكذلك شيخ مشايخ الإسلام سيد العلماء الأعلام ونسل الفضلاء الكرام ناظر المسجد الحرام ومدرس أعظم سلاطين الأنام صفوة آل سيد المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وقاضى المدينة المنورة سابقا بدر الملة والدين مولانا السيد حسين الحسينى المكى المكين لازال حرم الله الأمين مشمولا فى أيام نظارته بالعز والتمكين وأهل الحرمين الشريفين غارقين فى بحر إحسانه كل وقت وحين وكذلك لقاضى مكة المشرفة يومئذ أقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين معدن الفضل واليقين وارث علوم الأنبياء والمرسلين مولانا مصلح الدين لطفى بك زاده ذكره الله بالصالحات وأفاض عليه سوابغ الخيرات وكذلك أمير العمارة الشريفة افتخار الأمراء العظام معمر المسجد الحرام الأمير احمد وفقه الله وسدد وأكرمه وأسعد وجهزت السلطنة الشريفة نصر الله تعالى بها الإسلام وأيد تأييدها دين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام مع الجاويش المشار إليه ثلاثة قناديل من الذهب مرصعة بالجواهر ليعلق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى تشريفاً وتعظيما والثالث فى الحجرة الشريفة تجاه الوجه الشريف النبوى تعظيما لسيد الأنام وقال :

على ذلك الوجه المليح تحية مباركة من ربنا وسلام

فلما وصل محمد جاويش إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى بما فى يده من الخلع

Marfat.com

والتشاريف والقناديل المعظمة قوبل بغاية التعظيم والإجلال وعومل بنهاية الاحترام والإقبال وألبس الخلع الشريفة الفاخرة وأنعم عليها بالضيافات والإنعامات الوافرة حضر إلى المسجد الحرام بنفسه النفيسة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن المشار إلى حضرته العالية أدام الله عزه وإقباله ومعه أكابر السادة الأشراف وجلس فى الحطيم الكريم تجاه بيت الله المنيف ومعه سيدنا ومولانا ناظر حرم الله تعالى شيخ مشايخ الإسلام السيد القاضى حسين الحسنى الموسى إليه خلد الله عظمته وإجلاله عليه وباقى من ذكر وسائر الأعيان والأهالى وكافة العلماء والفقهاء والموالى واجتمعت الناس حول الكعبة الشريفة وامتلأ الحرم الشريف بذلك الموكب المنيف وفتح باب بيت الله تعالى وأحضرت الخلع الشريفة السلطانيه والقناديل السنية الخاقانية .

وقرئت المراسيم الشريفة المطاعة فى الأقطار والجهات فوق منبر لطيف بصوت جهورى يسمعه الخاص والعام وألبس سيدنا ومولانا السيد حسن نصره الله تعالى خلعتين فاخرتين ثم مولانا ناظر الحرم الشريف ثم من كان له خلعة من السلطنة ثم طاف مولانا وسيدنا السيد حسن بالبيت بخلعته على المعتاد والرئيس المؤذن يدعو للسلطنة الشريفة وله بعلو زمزم على العادة والناس كلهم رافعون أصواتهم بالدعاء والتأمين إلى أن فرغ سيدنا ومولانا من الطواف ودعا بالملتزم الشريف ثم صلى ركعتى الطواف فى مقام ابراهيم عليه السلام ثم طلع هو ومولانا ناظر الحرم الشريف وبقية الأعيان إلى باب بيت الله تعالى ودخلوا الكعبة وأحضرت القناديل الشريفة واختاروا لها مكاناً عالياً يقع نظر الداخل إلى البيت الشريف فى أول دخوله المعظمة عليها وأحضر سلماً يصعد عليه فعلقهما سيدنا ومولانا السيد حسن بيده الشريفة تعظيما لأمر السلطنة العلية المنيفة وقرئت الفواتح فى الكعبة الشريفة وحولها ودعت الناس أجمعون ورفعت أصواتهم وهم إلى الله تعالى يتضرعون بدوام دولة هذا السلطان الأعظم سلطان سلاطين العالم خلد الله تعالى خلافته الزاهرة وأيد أيام سلطنته القاهرة وجمع له بين سعادتى الدنيا والآخرة ثم انفض ذلك المجلس العظيم وانقضى ذلك الموكب الشريف الوسيم وكان يوما شريفاً مشهوداً ووقتاً مباركا ميمناً

Marfat.com

مسعوداً رقته الليـالى والأيام فى صفحات أوراقهـا وأثبتته فى جرائد دفاترها وأطباقها .

وإنمـا المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى

ثم توجه محمد جاويش بالقنديل الذى بقى معه إلى المدينة المنورة ووصل إلى تلك الروضة الشريفة المطهرة واجتمعت له أكابر المدينة الشريفة وأعيانها وعلماؤها وصلحاؤها وأركانها وشيخ حرمها ونوابها ومن له شان وقدر من مجاوريها وسكانها وعمل موكب شريف فى الحرم الشريف النبوى وفتحت الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وعلق ذلك القنديل تجاه وجه النبى صلى الله عليه وسلم وقرئت الفواتح وحصل الدعاء من جيران سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام بدوام دولة هذا السلطان الأعظم سلطان سلاطين العالم خلد الله تعالى ملكه السعيد وأبد معدلته وفضله وإحسانه المزيد فالله يطيل عمره ويسعده ويوفقه للخيرات ويرشده ويسوقه إلى الباقيات الصالحات من أعمال الخير ويسدده وهو أول من علق قناديل الذهب فى الحرمين الشريفين من سلاطين آل عثمان خلد الله تعالى سلطنتهم وأبد دولتهم إلى انتهاء الزمان وقد سبق بهذه المنقبة الشريفة آباءه السلاطين العظام وفاق بهذه المزية آباءه وأجداده الكرام لازال فائقاً سلاسطين العالم وخلفائها وراقياً بأقدام عزمه ملوك الدنيا وعظمائها .

هو العادل الظلام للمال والعدا خزائنه قد أفقرت وديارها
عليهم بنـــور الله ينظر قلبه فلم يغن أسرار القلوب استتارها
به دمر الله الصليب وأهله بملة الإسـلام عال منارها
فلا زالت الأفلاك تجرى بنصره ولا زال عنه قطبها ومدارها

Marfat.com

فصل فى ذكر كسوة الكعبة الشريفة

قديماً وحديثاً وحكم بيعها وشرائها والتبرك بها

ذكر الأزرقى وابن جريج رحمهما الله تعالى أن أول من كسى الكعبة تبع الحميرى من ملوك اليمن فى الجاهلية تعظيما لها واسم هذا التبع أسعد وأنه رأى فى منامه أن يكسو الكعبة فكساها الانطاع .

ثم رأى أنه يكسوها فكسا من حبر اليمن وجعل لها بابا يغلق وقال أسعد فى ذلك .

وكسونا البيت الذى حرم الله مالا معصباً وبرودا
وأقمنا منه إلى حيث كنا ورفعنا لواءنا المعقودا

قال الأزرقى أيضاً حدثنى سعيد بن سالم عن ابن مليكة قال كان يهدى للكعبة هدايا شتى فإذا بلى شىء منها جعل فوقه ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شىء .

وكانت قريش فى الجاهلية ترافد فى كسوة البيت فيضربون على القبائل بقدر احتمالهم من عهد قصى بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وكان مثرياً يتجر فى المال فقال لقريش أنا أكسوا الكعبة وحدى سنة وجميع قريش سنة وكان يفعل ذلك إلى أن مات فسمته قريش العدل لأنه عدل قريشاً وحَده فى كسوة البيت الشريف ويقال لبنيه بنو العدل .

وقال أيضاً أخبرنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن اسماعيل بن ابراهيم بن أبى حبيشة عن أبيه قال كسى النبى صلى الله عليه وسلم البيت الثياب اليمانية ثم كساه عمر وعثمان رضى الله عنهما القباطى وكان يكسى كل سنة كسوتين فيكسو أولا الديباج قميصاً يدلى عليها يوم الزوية ولا يخاط ويترك الأزرار حتى يذهب الحاج لئلا يخرقونه فإذا كان إلى عاشوراء علقوا عليها الأزرار وأوصلوه بالقميص الديباج فلا يزال عليها إلى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان فيكسوها الكسوة الثانية وهى من القباطى .

Marfat.com

فلما كان أيام خلافة المأمون أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية وتكسى القباطى أول رجب وتكسى الديباج الأبيض فى عيد رمضان واستمر على ذلك ثم أنهى إليه أن الأزار الذى تكسى به الكعبة فى العاشوراء ويلصق بالقميص الديباج الأحمر الذى يكسى به يوم التروية لا يصبر إلى تمام السنة وأنه يحتاج أن يجدد لها أزارا على عيد رمضان مع قميص الديباج الأبيض الذى تكسى به على العيد فأمر ان تكسى أزارا آخر فى عيد رمضان ثم بلغ المتوكل على الله أن الأزار يبلى قبل شهر رجب من كثرة مس أيادى الناس فزادها أزارا وأمر بأسبال قميص الديباج الأحمر إلى الأرض ثم جعل فوقه فى كل شهرين أزارا وذلك فى سنة أربعين ومائتين .

ثم بعد الخلفاء العباسيين وأيام وهنهم وضعفهم كانت كسوة الكعبة الشريفة تارة من قبل سلاطين مصر وتارة من قبل سلاطين اليمن بحسب قوتهم وضعفهم إلى أن استقرت الكسوة الشريفة من سلاطين مصر إلى أن اشترى السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الناصر قلاوون قريتين بمصر وقفهما على عمل كسوة الكعبة الشريفة اسمهما بيسوس وسنديس .

ثم استمرت سلاطين مصر من بعده ترسل كسوة الكعبة فى كل عام وكانوا يرسلون عند تجدد كل سلطان مع الكسوة السوداء التى تكسى من ظاهر البيت الشريف كسوة حمراء لداخل البيت الشريف وكسوة خضراء للحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مكتوب على كل من الكسوة السوداء والحمراء والخضراء لا إله إلا الله محمد رسول الله دالات فى قلب دالات وقد تزاد فى حواشى تلك الدالات آيات آخر مناسبة أو أسماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تترك ساذجة بحسب ما يؤمر النساج به فلما آلت سلطنة ممالك العرب إلى سلاطين آل عثمان خلد الله تعالى أيام سلطنتهم القاهرة مادام الدوران وأقام الزمان وأخذ المرحوم المقدس السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان عليه الرحمة والرضوان مملكة العرب من الجراكسة بالسيف والسنان جهزت كسوة المدينة الشريفة على ماجرت به العادة وأمر باستمرار الكسوة السوداء للكعبة الشريفة على الوجه المعتاد.

Marfat.com

ولما آلت السلطنة إلى المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان أمر باستمرار الكسوة الشريفة على عوائدها السابقة ثم ان قريتى بيسوس وسنديس الموقوفتين على كسوة الكعبة الشريفة خربتا وضعف ريعهما عن الوفاء بمصروف الكسوة فأمر أن تكتمل من الخزائن السلطانية بمصر ثم أضاف إلى تلك القريتين الموقوفتين قرى أخر وقفها على كسوة الكعبة الشريفة فصار وقفا عامرا فائضا مستمراً وذلك من أعظم مزايا السلاطين العظام التى يفتخرون بها على ملوك الأنام ولا يصل إلى ذلك إلا أعظم السلاطين الفخام وهى الآن فى صفحات دفاتر الدهر إلى يوم القيامة إن شاء الله الملك العلام .

﴿ وأما نزع كسوة الكعبة الشريفة وتقسيمها بين الناس ﴾

فقد ذكر الأزرقى رحمه الله تعالى قال حدثنى جدى عن مسلم بن خالد عن أبى نجيح عن أبيه ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزع كسوة البيت فى كل سنة فيقسمها على الحاج وقال أيضاً حدثنى جدى حدثنا عبد الجبار بن الورد المكى قال سمعت ابن أبى مليكة يقول كان على الكعبة الشريفة من كسوة الجاهلية ما بعضها فوق بعض فكلما كسيت فى الإسلام من بيت المال خففت عنها تلك الكساوى شيئاً فشيئاً .

وكان أول من ظاهر لها بكسوتين عثمان بن عفان رضى الله عنه فلما كان أيام معاوية بن أبى سفيان كساها الديباج مع القباطى ثم انه بعث إليها بكسوة ديباج وقباطى وحبر وأمر شيبة بن عثمان أن يجرد الكعبة عن الكساوى ويخلفها بالطيب ويلبسها ما جهزه إليها فجردها وطيبها وطيب حدرانها بالخلوق وكساها تلك الكسوة التى بعث بها معاوية وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة وكان سيدنا عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما حاضرا فى المسجد الحرام فما أنكر ذلك ولا كرهه قال وكان شيبة يكسو منها حتى رأى على امرأة حائض من كسوتها فأنكر تلك عليها وقال أيضا حدثنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن عبد الحكم بن أبى فروة عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار قال قدمت مكة معتمر فجلست إلى عبد الله فى منعة زمزم وشيبة بن عثمان يجرد الكعبة ورأيته يخلق جدورها ويطيبها ورأيت ثيابها التى جردها

قد وضعت بالأرض ورأيت شيبة بن عثمان وقال أيضاً حدثني جدى حدثنا ابراهيم ابن محمد بن أبي يحي حدثنا علقمة عن أمه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ان شيبة بن عثمان دخل عليها وقال لها ياأم المؤمنين تكثر ثياب الكعبة عليها فنجردها عن خلقانها ونحفرلها حفرة تدفن فيها ما بلى منها كيلا يلبسها الحائض والجنب فقالت له عائشة رضى الله عنها ما أصيت فيما فعلت فلا تعد إلى ذلك فان ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بيعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وابن السبيل ومذهب علمائنا رضى الله عنهم فى ذلك رجوع أمره إلى السلطان .

قال الامام فخر الدين قاضى خان رحمه الله تعالى فى كتاب الوقف من فتاواه ديباج الكعبة إذا صار خلقا يبيعه السلطان ويستعين به فى أمر الكعبة لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره .

ون تتمة الفتاوى عن الامام محمد رحمه الله تعالى فى ستر الكعبة يعطى منه إنسان فان كان شيء له ثمن لا يأخذه وان لم يكن له ثمن فلا بأس قال الإمام نجم الدين الطرسوسى فى منظومته .

وما على الكعبة من لباس ان رث جاز بيعه للناس
ولا يجوز أخذه بلا شرا للاغنياء إلا ولا للفقرا

وقال الامام الفقيه أبو بكر الحدادى فى السراج الوهاج لا يجوز قطع شيء من كسوة الكعبة ولا نقله ولا بيعه ولا شراؤه ولا وضعه بين أوراق المصحف ومن حمل شيأ من ذلك فعليه رده ولاعبرة بما يتوهمه أنهم يشترون ذلك من بنى شيبة فانهم لا يملكونه . فقد روى عن ابن عباس وعائشة أنهما قالا يبيع ذلك ويجعل ثمنه فى سبيل الله تعالى انتهى . وقد ورد فى الحديث لولا حداثة قومك بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله قال القرطبي من علماء المالكية رحمة الله تعالى كنز الكعبة المال المجتمع مما يحلى به من الذهب والفضة لأن حليتها حبس عليها كحصرها وقناديلها لا يجوز صرفها فى غيرها انتهى فعلى قول القرطبي يكون كسوتها أيضا حبسا عليها كحصرها وقناديلها فلا يملكها انتهى . وقال الزركشى من علماء الشافعية رحمهم الله

Marfat.com

تعالى فى قواعده قال ابن عبدان منع من بيع كسوة الكعبة وأوجب رد من حمل منها شيأ وقال ابن الصلاح مفوض إلى رأى الامام والذى يقتضيه القياس أن العادة استمرت قديما بأنها تبدل كل سنة وتأخذ بنو شيبة تلك العتيقة فيتصرفون فيها بالبيع وغيره والذى يظهر لى أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين فأمرها راجع له يعطيها لمن شاء من الشيبيين أو غيرهم وإن كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها فهى لمن عينها له وإن جهل شرط فيها عمل فيها بما جرت العوائد السابقة فيها كما هو الحكم فى سائر الأوقاف وكسوة الكعبه الآن من أوقاف السلاطين ولم يعلم شرط الواقف فيها وقد جرت عادة بنى شيبة أنهم يأخذون لأنفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة فيبقون على عادتهم فيها والله تعالى أعلم .

وللعلماء المتأخرون رسائل فى حكم كسوة الكعبة لم يتيسر لى الآن الوقوف على شىء منها [1] .

---

(١) جاء فى كتاب الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف .

ما نصه : (فصل (فى بيان جهات المصلين إلى القبلة من سائر الآفاق — ملخصا مما ذكره الشيخ عز الدين بن جماعة فى دائرته بحذف الكواكب إذ ليس كل أحد يعرف لاستدلال بها (فجهة) مصر وصعيدها الأعلى وسواحلها السفلى أسوان واسناوقوس الفسطاط والأسكندرية والأكيدم والمحلة ودمياط وبلبيس وبرقة وطرابلس وصفد وساحل المغرب ، والأندلس وما كان على سمته مابين الغربى والميزاب .

(وجهه) جانب الشام الغربى ووسط غزة والرملة وبيت المقدس والمدينة الشريفة ، ودمشق وفلسطين وعكا وصيدا ، والى ذلك من السواحل على سمته وهى من قبيل ميزاب الكعبة إلى دون الركن الغربى .

(وجهة) الشام كلها غير ما ذكر وهى حمص وحماة وسلمية وحلب ومنبج وحران وميافارقين وما والاها من البلاد وسواحل الروم مابين الميزاب والركن الشامى موقفهم موقف أهل المدينة ودمشق لكنهم يتياسرون شيئاً يسيراً والجهة شاملة للجميع إن شاء الله تعالى.

. . . . . .

= (وجهة) الرها والموصل وملطية وسميشاط وسنجار والجزيرة وديار بكر وما كان علي سمة ذلك إلى القبلة من الركن الشامى إلى مصلى آدم عليه السلام.

(وجهة) الكوفة وبغدادوحلوان والقادسية وهمدان والري ونيسابور وخراسان ومرو وخوارزم وبخارى ونسا وفرغانة والشاش وما كان على سمة ذلك ما بين مصلى آدم عليه السلام إلى قرب باب الكعبة .

(وجهة) البصرة والأهداف وفارس وكرمان واصبهان وسجستان وشمال بلادالصين وما على سمة ذلك من باب الكعبة إلى الحجر الأسود .

(وجهة) وسط بلاد الصين والهندوالمهرجان وكابل والمهديان والتتار والمغل والخدهار وما والاها وما كان على سمتها من الركن الأسود إلى دون مصلى النبي ﷺ

(وجهة) بلاد الهند وجنوب بلاد الصين وأهل النهايم والسد والبحرين وما والاها وكان على سمتها من دون مصلى النبي ﷺ إلى ثلثى هذا الجدار .

(وجهة) اليمن باسره ظفار وحضرموت وصفاء وعمان وصعدةوالشحروخبا وما والاها وكان على سمتهامن دون الركن اليمانى بسمة أذرع إلى الركن اليمانى .

(وجهة) الحبشة والزنج وزيلع وأكثر بلاد السودان وجزائرفرسان وما والاهامن البلاد وكان على سمتها من الركن اليمانى إلى ثلثى الجدار وهو آخر الباب المسدود.

(وجهة) جنوب بلاد البجاة ودهلك وسواكن وبلاد البكين والنوبة إلى بلاد التكرور وما وراء ذلك وما على سمته من بلاد السودان وغيرهم إلى البحر المحيط من دون الباب المسدود إلى ثلثي الجدار .

(وجهة) شمال بلاد البجاة والنوبة وأوسط المغرب من جنوب الواجات إلى بلاد أفريقيه وأواسط بلاد بربر وبلاد الجريد إلى البحر المحيط وهى جهة جدة وعيذاب وجنوب أسوان من دون الركن الغربى بثلث الجدار إلى الركن الغربى .

انتهى ما لخص من الدائرةوهذه الجهات المذكورة هى من جهة الجملة ومن أراد التحرير فى الاستقبال كما ينبغى فليراجع كتب الميقات وما وضع لذلك من الآلات يقف على المراد والله أعلم .

انتهى كل ذلك من الجامع اللطيف

Marfat.com

الباب الثالث

فى بيان ما كان علية وضع المسجد الحرام فى أيام الجاهلية وصدر الاسلام وبيان ما أحدث فيه من التوسع والزيادة فى زمان خلافة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومن خلافة سيدنا عثمان بن عفان وزمن سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم وهدم عبد الله بن الزبير بناء قريش للكعبة وإعادتها على قواعد ابراهيم عليه السلام ثم هدم الحجاج جانب الحجر والميزاب من الكعبة وإعادتها على ما بنته قريش فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه الشريف

اعلم أن الكعبة الشريفة لما بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكن حولها دار ولا جدار احتراما للكعبة الشريفة فلما آل أمر البيت إلى قصى بن كلاب واستولى على مفتاح الكعبة كما تقدم بيانه جمع قصى قومه وأمرهم أن يبنوا بمكة حول الكعبة الشريفة بيوتا من جهاتها الأربع وكانوا يعظمون الكعبه أن يبنوا حولها بيوتا أو يدخلوا مكة على جنابه وكانوا يقيمون بها نهار فاذا أمسكوا خرجوا إلى الحل فقال لهم قصى إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم وبدأ هو وبنى دار الندوة فى الجانب الشامى كما تقدم بيانه ويقال أنها مقام الحنفية الذى يصلى فيه الآن الامام الحنفى الصلوات الخمس وقسم قصى باقى الجهات بين قبائل قريش فبنوا دورهم وشرعوا أبوابها إلى نحو الكعبة الشريفة وتركوا للطائفين مقدار المطاف الشريف بحيث يقال أن القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت إلى حاشية المطاف الشريف وجعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكا شارعا فيه باب يسلك منه إلى بيت الله تعالى ثم كبرت البيوت واتصلت إلى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فولد صلى الله عليه وسلم على أشهر الأقوال بشعب بنى هاشم

Marfat.com

بقرب المحل المسمى الآن بشعب على . وكان صلى الله عليه وسلم يسكن دار سيدة النساء أم المؤمنين خديجه الكبرى رضوان الله عليها ثم لما ظهر الاسلام وكثر المسلمون استمر الحال على ذلك الوضع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمان خليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه ثم زاد ظهور الاسلام وتكاثرت المسلمون فى زمن أمير المؤمنون عمر الفاروق رضى الله عنه فرأى أنه يزيد فى المسجد الحرام فأول زيادة زيدت فى المسجد الحرام زيادته رضى الله عنه .

فنبدأ بذكرها فنقول روينا بالسندالمتصل المذكوو سابقا فى المقدمة عنالامام أبى الوليد الأزرقى قال أخبرنى جدى قال أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال كان المسجد الحرام ليس عليه جدران يحيط به وإنما كانت دور قريش محدقة به من كل جانب غير أن بين الدور أبوابا يدخل منها الناس إلى المسجد الحرام .

ولما كان زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضاق المسجد بالناس ولزم توسيعه اشترى دورا حول المسجد وهدمها وأدخلها فى المسجد وبقيت دور احتيج إلى إدخالها فى المسجد وأبى أصحابها من بيعها فقال لهم عمر رضى الله عنه أنتم نزلتم فىفناء الكعبة وبنيتم به دورا ولاتملكون فناء الكعبة وما نزلت الكعبة فىسوحكم وفنائكم فقومت الدور وجعل ثمنها فى جوف الكعبة ثم هدمت وأدخلت فى المسجد ثم طلب أصحابها الثمن فسلم اليهم ذلك وأمر ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد وجعل فيه أبوابا كما كانت بين الدور قبل أن تهدم جعلها فى محاذات الأبواب السابقة .

ثم كثر فى زمان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فأمر بتوسعة المسجد واشترى دورا حول المسجد هدمها وأدخلها فى المسجد وأبى جماعة عن بيع دورهم ففعل كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهدم دورهم وأدخلها فى المسجد فضج أصحاب الدور وصاحوا فدعاهم وقال إنما جرأكم على حلمى عليكم ألم يفعل ذلك بكم عمر رضى الله عنه فما جنح به أحد ولا صاح عليه وقد احتذيت حذوة فضجرتم منى وصحتم على ثم أمر بهم إلى الحبس فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيدفتركهم ولم يذكر الأزرقى رحمه الله متى كانت زيادة مير المؤمنين عمر بن الخطاب ولازيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنهما

وذكر ابن جرير الطبرى وابن الأثير الجوزى فى تاريخهما أن زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت فى سبع عشرة من الهجرة بتقديم السين وأن زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى سنة ست وعشرين من الهجرة

أقول زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعمارته للمسجد كانت عقب السيل العظيم سنة سبع عشرة من الهجره وتخريبه معالم الحرم الشريف ويقال ذلك السيل سيل أم نهشل

قال شيخ شيوخنا حافظ عصره الشيخ عمر بن الحافظ التقى محمد بن فهد الهاشمى العلوى رحمهم الله تعالى فى كتاب اتحاف الورى بأخبار أم القرى فى حوادث سنه سبع عشرة فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم من موضعه وذهب به حتى وجد بأسفل مكه وعين مكانه الذى كان فيه لما عفاه السيل فأتى به وربط بلصق الكعبة فى وجهها وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة ابن سعد بن العاص بن شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة وكان سيلا هائلا فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضى الله عنه وهو بالمدينة الشريفة فأهاله ذلك وركب فزعا إلى مكة فدخلها بعمرة فى شهر رمضان فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف ثم قال انشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى رضى الله عنه أنا يا أمير المؤمنين عندى علم ذلك فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهى عندى فى البيت فقال له عمر رضى الله عنه اجلس عندى وأرسل إليها من يأتى بها فجلس عنده وأرسل إليها فأتى بها فقيس ووضع حجر المقام فى هذا المحل الذى هو فيه الآن وأحكم ذلك واستمر إلى الآن[1] قال وفيها وسع أمير المؤمنين رضى الله عنه

حدود المسجد الحرام قديما وحديثا والزيادات فيه وموضع المقام الكريم وغيرها من من الأمور المهمة ذكرناها بتفصيل تام فى كتابنا « مقام ابراهيم عليه السلام » فليرجع إليه من شاء وهو كتاب مطبوع بمصر القاهرة بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وهو كتاب مهم للغاية بل هو أول كتاب وضع عن تاريخ المقام الذى قال الله تعالى فى حقه « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

Marfat.com

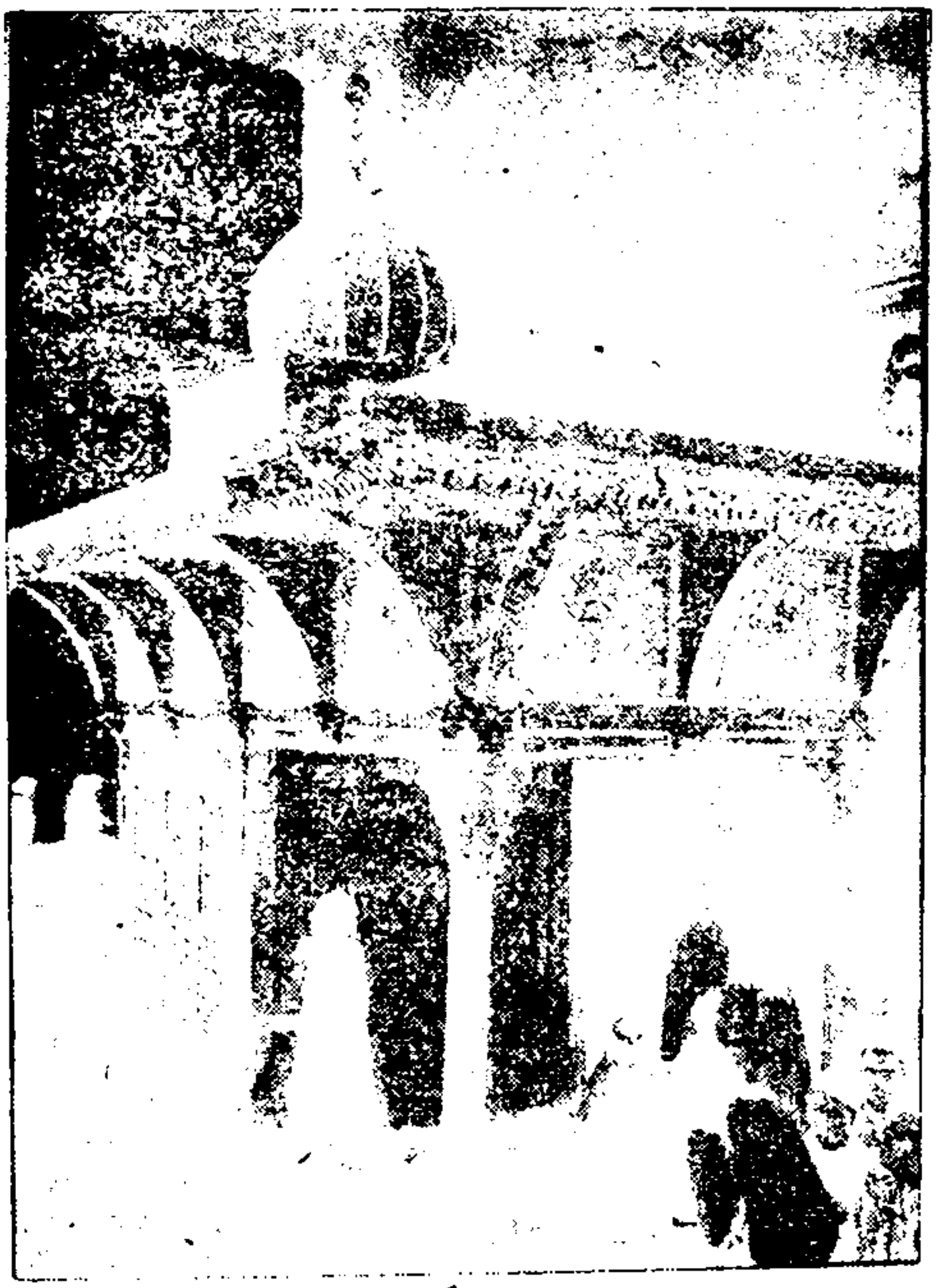

صورة مقصور المقام الكريم عند الكعبة المشرفة وترى الناس يصلون ويدعون ربهم

الردم الذى بأعلى مكة صوتا للمسجد وبناه بالضفائر والصخر العظام وكبسه بالتراب فلم يعلم سيل بعد ذلك غير أنه جاء سيل عظيم فى سنة اثنين ومائتين فكشف عن بعض أحجاره وشوهدت فيه صخار عظيمة كبيرة لم ير مثلها والأقدمون يسمون هذا الردم ردم بنى جمح بضم الجيم وفتح الميم وبعدها حاء مهملة وهم بطن من قريش نسبوا إلى جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك . أقول المراد بهذا الردم الموضع الذى يقال له الآن المدعا وهو ما كان يرى منه البيب الشريف أول مايرى وكان الناس يرونه خصوصا من يريد الحج من ثنية كداء وهى الحجون إذا وصلوا هذا المحل شاهدوا منه البيت الشريف والدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله تعالى وكانوا يقفون هناك للدعاء وأما الآن فقد حالت أبنية عن رؤية البيت الشريف ومع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة وعن يمينه ويساره ميلان للاشارة إلى أنه المدعا

قال مولانا القاضى جمال الدين محمد أبو البقاء من الضيا الحنفى فى كتاب البحر العميق فى مناسك الحج إلى بيت الله العتيق أنه يرى فى زمانه رأس الكعبة لأكلها من رأس الردم يعنى المدعا فاذا ظهر له يقف ويدعوا ويسأل الله حوائجه فان الدعاء مستجاب عند رؤية البيت

ونقل حافظ الدين النسفى فى المنافع عن صاحب الهداية رحمهما الله تعالى أنه استوصى عن شيخ سماه له فقال له إذا وصلت المدعا من كداء ورأيت الكعبة فادع الله تعالى أن يجعلك مستجاب الدعاء لمن قال أن من زارها ودعا كانت دعوته مستجابة انتهى .

وكان القاضى أبو البقاء من الضياء المذكور فى أوسط المائة التاسعه ووفاته فى سنه أربع وخمسين وثمانمائة ولا شك أنه من عهد الصحابة رضى الله عنهم إلى زمانه كان الناس يقفون ويدعون عنده لمشاهدتهم الكعبة ولا أعلم هل وقف النبى صلى الله عليه وسلم أم لا وكان ذلك لمحل غير مرتفع فى عهده صلى الله عليه وسلم وما رفعه إلا سيدنا عمر رضى الله عنه بالردم الذى بناه فارتفع عن الأرض فصار البيت الشريف يشاهد منه حينئذ فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الشريف منه

Marfat.com

ولكنى أنظر فى جميع عمرى فى المدعا يوقف فيه تبركا فاللائق استمرار وقوف الناس بهذا المحل الشريف والدعاء فيه تبركا بوقوف من سلف للدعاء فيه والله تعالى أعلم

ولما ردم هذا المكان صار السيل إذا وصل من أعلى مكة لا يعلوا هذا المكان بل كان ينحرف عنه إلى جهة الشمال للبناء الذى بناه عمر رضى الله عنه فلا يصل هذا السيل إلى المسعى ولا إلى باب السلام إلى الان وصارت هذه الجهة من يومئذ إلى أثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل وصار السيل الكبير كله ينحدر إلى جهة سوق الليل ويمر بالجانب الجنوبى من المسجد إلى أن يخرج من أسفل مكة وهذا السيل وادى ابراهيم ويكاد يمنع جريان هذا السيل إلى مكة سيل آخر يعترضه يسمى سيل جياد ويمر عرضا إلى أن يصدم الركن اليمانى من المسجد وينحرف إلى أسفل مكة وقوة جريان هذا السيل يمنع من جريان سيل وادى إبراهيم فيعقف ويتراكم ويدخل المسجد الحرام ويقع مثل هذه السيول بمكة فى كل عشرة أعوام تقريبا مرة فيدخل المسجد الحرام ويحتاج الناس إلى التنظيف وتبديل الحصا ونحو ذلك وقد عمل المتقدمون والمتأخرون لذلك طرقا واهتموا لذلك تمام الاهتمام فاندثرت أعمالهم لطول الزمان ولم يتفطن فالملوك بعدهم لذلك فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد ولسنا الان بصدد شرح لذلك

(وأما زيادة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه فى المسجد الحرام)

فقد ذكرها الإمام أقضى القضاة الماوردى فى كتاب الأحكام السلطانية وغيره من الأئمة المعتمدين رحمهم الله تعالى وفى كلام بعضهم زيادة على بعض فقالوا اما المسجد الحرام فكانت فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ولم يكن له على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه جدار يحيط به وبين الدور أبواب تدخل الناس من كل ناحية فلما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جداراً قصيراً وكانت المصابيح توضع عليه.

وكان عمر رضى الله عنه أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام فلما استخلف عثمان رضى الله عنه ابتاع منازل ووسعه بها أيضاً وبنى المسجد الحرام والأروقة فكان عثمان أول من اتخذ للمسجد الأروقة انتهى.

Marfat.com

قال الحافظ النجم عمر بن فهد فى تاريخه فى حوادث سنة ست وعشرين فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفانَ رضى الله عنهمن المدينة فأتى ليلا فدخل فطاف وسعى وأمر بتوسيع المسجد الحرام فذكر ما قدمناه قال وجدد أنصاب الحرموكلم أهل مكة عثمان رضى الله عنه أن يحول الساحل من الشعيبة وهى ساحل مكة قديماً فى الجاهلية إلى ساحلها اليوم وهى جدة لقربها من مكة فخرج عثمان رضى الله عنه إلى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها ودخل البحرواغتسل فيه وقال أنه مبارك وقال لمن معه أدخلوا البحر للاغتسال ولا يدخلهأحد إلا بمئزر ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى المدينة وترك الناس ساحل الشعيبة من ذلك الزمان واستمرت جدة بندر إلى الآن لمكة شرفها الله تعالى وهى على مرحلتين طويلتين من مكة بسير الأثقال تستوعب على احداهما الليل كله فى أيام اعتدال الليل والنهار وتزيد المرحلة الثانية على جميع الليل بشىء قليل وأما الراكب المجد والساعى على قدميه يقطعهما فى ليلة واحدة وما رأيت من علمائنا من صرح بجواز القصر فيها بل رأيت من أدركت من مشايخى الحنفية كانوا يكملون الصلاة فيهاوأما أنا فأرى القصر فيها لأن مدة القصر عندنا ثلاث مراحل يقطع كل مرحلة فى أكثر من نصف النهار من أقصر الأيام بسير الأثقال وهاتانَ المرحلتان تكونان على هذا الحساب ثلاث مراحل فازيد .

ثم رأيت فى موطأ الامام مالك رضى الله عنه حديثاً صحيحا يدل على صحة ما جنحت إليه صورته عن مالك أنه بلغه أن بن عباس كان يقصر الصلاة فى مثل ما بين مكة والطائف وفى مثل ما بين مكة وعسفان وفى مثل ما بين مكة وجدة والله أعلم .

« ثم وقعت زيادة عبدالله بن الزبير رضى عنه »

هو صحابى بن صحابى أبوه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ذات النطاقين وخالته عائشة الصديقة أم المؤمنين رضى الله عنها .

ولد بالمدينة بعد عشرين شهراً من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وهو أول مولود

Marfat.com

للمهاجرين بعد الهجرة وفرح المسلمون بولادته فرحاً شديداً لأن اليهود زعموا أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد وحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة لاكها وسماه عبد الله وكناه أبا بكر باسم جده الصديق رضى الله عنه وكان صواما قواماً طويل الصلاة وصولا للرحم عظيم الشجاعة قوياً قسم الليالى إلى ثلاث فليلة يصلى قائماً إلى الصبح وليلة يصلى ويستمر راكعا إلى الصبح وليلة يصلى ويستمر ساجداً إلى الصبح وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثين حديثاً.

وكان ممن أبى البيعة ليزيد وفر إلى مكة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ولم يخرج عن طاعته الا أهل مصر والشام فإنهم بايعوا يزيد فلما هلك أطاع أهلها عبد الله بن الزبير ثم خرج مروان بن الحكم فتغلب على مصر والشام إلى أن ولى عبدالملك فجهز جيشاً كثيفا أعلى ابن الزبير وأمر عليهم الحجاج ابن يوسف الثقفى فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق وخذل ابن الزبير أصحابه فخرج ابن الزبير وحده وقاتل قتالا عظيما إلى أن استشهد رضى الله عنه فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وأنشد فيه النابغة الجعدى :

حكمت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى الحق فاستوى ... وعاد صباحاً حالك الليل أسحم

وكان لما حاصره الحصين بن مير فى عسكر جهزه يزيد عليه التجأ إلى المسجد الحرام فنصب عليه المجانيق وأصاب بعض حجارة الكعبة فتهدم بعض جدرانها واحترق بعض أخشابها وكسوتها وانهزم الحصين بعسكره لهلاك يزيد وبلوغ خبر نعيه فرأى عبدالله بن الزبير أن يهدم الكعبة ويحكم بناءها ويبنيها على قواعد ابراهيم عليه السلام لما سمعه من حديث عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها نحوا من سبعة أذرع أخرجه الشيخان فى صحيحيهما .

وفى رواية مسلم عن عطاء قال قال ابن الزبير إنى سمعت عائشة رضى الله عنها

تقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الناس حديثو عهد بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع فاستشار عبد الله بن الزبير من بقى من الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك فمنهم من أبى ومنهم من وافقه على ذلك فصمم وأقدم على ذلك .

(ولما أراد هدم البيت الشريف ليجدد بناءه)

خرج أهل مكة خوفا فتأخر العمال عن ذلك فأرقى عبد الله بن الزبير عبداً دقيق الساقين وعبيداً له من الجيوش يهدمونها رجاء أن يكون فيهم الحبشى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة .

قال الإمام عبدالله بن أسعد اليافعى رحمه الله فى تاريخه مرآة الجنان أراد عبدالله ابن الزبيران يجعل الطين الذى يبنى به الكعبة من الورس فقيل له أنه لا يستمسك به البنيان كما يستمسك بالجص فأرسل إلى صنعاء اليمن طلب منها جصاً نظيفاً محكماً فأتوا به فبنى به الكعبة اهـ (فلما أكملوا هدمها) كشف منها عن أساس ابراهيم عليه السلام فوجد الحجر داخلا فى البيت فبنى البيت على ذلك الأساس وكان أدار ستراً على فناء البيت وكان البناة يبنون من وراء ذلك الستر والناس يطوفون من خارج فأدخل الحجر فى البيت وألصق باب الكعبة بالأرض ليدخل الناس منه وفتح لها باباً غربياً فى مقابلة هذا الباب ليخرج الناس منه كما كان عليه لما جددت قريش الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وعمره الشريف خمسة وعشرون سنة وكانت النفقة قصرت بقريش لما بنوا الكعبة يومئذ فأخرجوا الحجر من البيت وجعلوا عليه حائطاً قصيراً على أنه من الكعبة فأزال عبدالله بن الزبير ذلك الوضع وأعادها على ما كانت عليه زمن الجاهلية وهى على قواعد ابراهيم عليه السلام وكان طول الكعبة قبل قريش تسعة أذرع فلما أكمل عبدالله بن الزبير طولها ثمانية عشر ذراعا عرضية لا طول لها فزاد فى طولها تسعة أذرع فصار طولها فى السماء سبعة وعشرين ذراعا (ولما فرغ من بنائها) طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها إلى أسفلها وكساها بالديباج وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت الشريف نحوا من عشرة أذرع .

Marfat.com

وكان فراغه من عمارة البيت الشريف فى سابع عشر رجب سنة أربع وستين من الهجرة فخرج إلى التنعيم هو وأهل مكة معتمرين شكراً لله تعالى ونحو مائة بدنة وذبح كل أحد على قدر وسعه وجعلوا ذلك اليوم عيداً مشهوداً وبقيت هذه العمرة سنة عند أهل مكة إلى اليوم يجتمعون إلى الاعتمار فيه ولا يكادون يتخلفون عن الاعتمار فى هذا اليوم فى كل عام ويأتون من البر بقصد هـذه العمره . وكان اعتناء الناس بهـذه العمرة قبل الآن أكثر وأعظم من الآن بحيث يقال ان صاحب الينبع يومئذ السيد قتادة بن ادريس بن الحسنى جد ساداتنا الأشراف ولاة مكة الآن أدام الله تعالى عزهم وسعادتهم لما علم من أمراء مكة يومئذ وهم طائفة أخرى من بنى حسن يقال لهم الهواتم الانهماك على اللهو واللذات وكثر الظلم من عبيدهم على الناس وإستيلاء الغرور عليهم ونفرت القلوب عنهم وعدم توجههم إلى أحوال البلد ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب واغتنم الفرصة لاشتغال أهل مكة بهذة العمروة وخروجهم بتجملاتهم إلى التنعيم فهجم بعبيده وذويه ودخل مكة وهى يومئذ مسورة وولاتها من حسن الهواتم آخرها الشريف مكدة ابن عيسى بن فليتة ففر بمن معه إلى جهات اليمن وتمكن السيد قتادة من البلاد وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة واستمرت الولاية فى ولده إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وفى سنة أربع وسبعين من الهجرة كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يذكر له أن عبد الله بن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابا آخر فكتب إليه عبد الملك ان يعيدها على ما كانت على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فهدم الحجاج من جانبها الشامى قدر ستة أذرع وشبرا وبنى ذلك الجدار على أساس قريش وكبس أرضها بالحجارة التى فضلت ورفع الباب الشرقى وسد الباب الغربى وترك سائرها ولم يغير منها شيئاً فهى الآن جوانبها الثلاثة من بناء عبد الله بن الزبير والجانب الرابع الشامى بناء الحجاج وهو ظاهر الانفصال من بناء عبد الله بن الزبير .

فلما فرغ الحجاج من ذلك وفد عبد الملك بن مروان وحج فى ذلك العام ومعه الحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومى وهو من ثقات الرواة فتحادثا فى أمر الكعبة

Marfat.com

فقال عبد الملك ما أظن ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها فى أمر الكعبة فقال الحارث أنا سمعت ذلك عن عائشة رضى الله عنها أنها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قومك استقصروا فى بناء البيت ولولا حدثان عهد قومك بالكفر أعدتُ فيه ما تركوا منه وأعدته على ما كان عليه فى زمن ابراهيم فان بدا لقومك أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع قال صلى الله عليه وسلم وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض بابا شرقيا يدخل الناس منه وبابا غربيا يخرج الناس منه فقال عبد الملك أنت سمعتها تقول ذلك قال نعم سمعت هذا منها قال فجعل ينكت بقضيب فى يده منكسا ساعة طويلة ثم قال وددت والله إنى تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك ذكره النجم بن فهد رحمه الله تعالى وقد ذكرنا ذلك جميعه بالاستطراد لاشتماله على الفوائد المهمة والحديث مشجور رجعنا إلى ما نحن بصدده فى ذكر زيادة سيدنا عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام .

وبسندنا المتقدم ذكره متصلا مرفوعا إلى الامام أبى الوليد محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد بن الأزرقى قال حدثنى جدى قال كان المسجد الحرام محاطا بجدار قصير غير مسقف وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشى يتتبعون الافياء فاذا قلص قامت المجالس.

قال وحدثنى جدى حدثنا عبد الرحمن بن الحسن بن القاسم بن عقبة عن أبيه قال زاد عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام واشترى دورا فأدخلها إلى المسجد وكان مما اشترى بعض دار جدنا الأرزقى وكانت لاصقة بالمسجد الحرام وبابها شارع على باب بنى شيبة على يسار الداخل إلى المسجد وكانت دار كبيرة اشترى بعضها ببضعة عشر ألف دينار وأدخلها المسجد الحرام وكتب لنا إلى أخيه مصعب بن الزبير بالعراق يدفع إلينا قال فركب رجال منا إلى العراق فوجدوا مصعبا يقاتل عبد الملك ابن مروان فلم يلبث إلا يسيرا حتى قتل مصعب فرجعوا إلى مكة فصار ابن الزبير يعدنا ويدافعنا حتى جاء الحجاج بن يوسف وحاصروه وقتل ولم نأخذ منه شيئا

قالى وذكر جدى انه سمع مشيخة أهل مكة يذكرون ان عبد الله بن الزبير

Marfat.com

سقف المسجد غير أنهم لا يدرون أكله سُقفَ أم بعضه قال ثم عمره عبد الملك ابن مروان ولم يزد فيه لكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة .

قال وحدثني جدى حدثنا سفيان بن عيينة عن سعيد بن فروة عن أبيه قال كنت على عمل المسجد فى زمان عبد الملك بن مروان فأمر أن يجعل فى رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب قال وروى جدى عن سفيان عن عمرو بن دينار عن يحيى ابن جعدة عن زادان بن فروح قال مسجد الكوفة تسفة أجربة ومسجد مكة سبعة أجربة وذلك فى زمان عبد الله بن الزبير .

﴿ ذكر عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الحرام ﴾

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى كان الوليد جبارا ظالما أخرج أبو نعيم فى الحلية قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن جنارة بالحجاز وقرة بن يزيد بمصر امتلأت الأرض والله جورا قال الحافظ السيوطى لكنه أقام الجهاد فى أيامه وفتحت فى دولته الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال ابن أبى عبيدة وأين مثل الوليد افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق وكتب بتوسيع المسجد النبوى وبنائه قال أبو الوليد الأزرقى قال جدى عمر الوليد المسجد الحرام ونقض عمل عبد الملك وعمل عملا محكما وكان إذا عمل المساجد زخرفها وهو أول من نقل الأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب وأزر المسجد بالرخام وجعل للمسجد سرادقان قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى بعث الوليد بن عبد الملك إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابى الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التى فى باطنها وعلى الأركان التى فى جوفها ويقال ان الحلية التى حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هى ما كانت فى مائدة سليمان بن داود من ذهب وفضة وكانت قد احتملت من طليطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوى تفسخ تحتها وكان لها أطواق من ياقوت وزبرجد .

Marfat.com

الباب الرابع

فى ذكر ما زاده العباسيون فى المسجد الحرام

لما انطوى بساط ملك بنى مروان وآل إلى آل عباس الامرة والسلطان مزقت بنو أمية كل ممزق وشفق الدهر حالا ايناسهم ومزق وخرق بنار البأس لباسهم وخرق وكان رقص لهم وصفق وكانت ثغور آمالهم بواسم وغرر أيامهم بصنوف اللهو مواسم ورياح عزتهم فى رياض غرتهم نواسم وكانت تضيق بجيوشهم الفضا ويجرى على حسب مطويهم خيول القدر والقضا ثم انحرفت عنهم الأيام فأظلمت إشراقهم وأذرى بلهيب العكس يانع ابراقهم ورمتهم بصواعق أرعادهم وابراقهم فلم يدفع عنهم الرمح ولا الحسام ولم ينفع ما سبق لهم من المنن الجسام وأذيق الموت الأحمر مروان الحمار ونزع من تحت الملك إلى تحت حافر الحمار فما بكت عليهم الأرض وما بقى لهم إلا ما قدموه من نفل وفرض ونزعوا من بين الأتراب إلى باطن التراب وسبقوا للحساب فسحقا لدنيا لاوفاء فيها لبنيها ولا بقاء لحالتى تجليها وتجنيها ولا بقاء منها على مجتليها ومجتنيها ذلك عزة عاد وهدمت قصر شداد وأخربت ارم ذات العماد فأف على الدنيا وزخرفها والحذر الحذر من هجوم صرفها وتصرفها كم نادت عليهم لا تغتروا بضحكى ولا يغرركم منى ابتسام فقولى مضحك والفعل مبكى وكانت مدة ملكهم ألف شهر وكان ما تحملوه من الوزر والقهر لتلك المدة كالمهر وجعل الله تعالى لبيت النبوة عوض ذلك ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر .

قال الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى الدر المنثور أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه قال رأيت ولد الحكم بن العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله فى ذلك وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الافتنة للناس والشجرة الملعونة يعنى الحكم وولده .

Marfat.com

وأخرج ابن مرديه عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح يوما وهو مغموم فقيل له مالك يارسول الله قال إنى أرى فى المنام كأن بنى أمية يتعاورون منبرى هذا فقيل يا رسول الله لا تهتم فانها دنيا تنالهم فأنزل الله تعالى وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس قال ابن عطية فى تفسيره ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان رضى الله عنه ولا معاوية ولا عمر بن عبد العزيز وما كانت فى الحقيقة ولاية بنى أمية إلا فتنة للناس وآل الملك من بعدهم إلى آل العباس وأضحكهم الدهر العبوس والباس وألبسهم الدهر حلل الأمر والنهى وأفرحهم بذلك الألباس وآنسهم بعد الوحشة وما دام لهم ذلك الايناس وهكذا الدنيا دول تدول وتدال وما زال لكل زمان دولة ورجال .

(فأول من ولى منهم السفاح) أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن العباس رضى الله تعالى عنهما وكان أصغر من أخيه أبى جعفر المنصور.

قال جرير الطبرى كان بدء أمر العباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم العباس عمه ان الخلافة تؤول إلى ولده فلم يزل ولده يتوقعون ذلك إلى أن بويع لولده محمد سرا فلما مات محمد عهد لولده ابراهيم فسجنه مروان وقتله فى الحبس فعهد ابراهيم لأخيه عبد الله هذا وبويع له فى الكوفة فى ثالث ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين ومائة وكان مولده سنة ثمان ومائة وتوفى بالجدرى فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله وبه يؤمن وكان بذولا سفاحا وقد قتل فى مبايعته من بنى أمية وأتباعهم ما لا يحصى كثرة وتوطأت الممالك من الشرق إلى أقصى الغرب وكان عمره ثمانية وعشرين عاما ومدة إمارته أربعـــة أعوام وجرت عادة الله فى الملوك والسلاطين قصر أعمار من سفك الدماء منهم (وولى بعده أخوه جعفر المنصور عبد الله) .

هو أسن من أخيه السفاح وبويع له بعهد من أخيه فى أول سنة سبع وثلاثين ومائة وكان ظلوما غشوما وهو أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وقتل الأخوين محمد وإبراهيم ابنى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على رضى الله عنهم وكانا خرجا عليه وآذى بسببهما خلقا كثيرا من العلماء قتلا وضربا ممن

Marfat.com

أفتى بجواز الخروج عليه منهم الامام أبو حنيفة رضى الله عنه أكرهه على القضاء فسجنه فمات فى السجن لكونه افتى بالخروج عليه وسمى لبخله أبا الدوانق لمحاسبته الصناع والعمال على الدانق والحبة وقتل أبا مسلم الخراسانى وهو الذى قام بدعوة الناس إلى بنى العباس وشرح ذلك يطول ووطئت له الممالك ودانت له الأمصار ولم يخرج عنه غير جزيرة الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان الأموى فانفرد بالأندلس وطالت مدته وملكها بنوه واستمرت فى يدهم مدة . وفى المحرم سنة ثلاثين ومائة أمر أبو جعفر المنصور بالزيادة فى المسجد الحرام فزيد فى شقه الشامى الذى يلى دار الندوة وزاد فى أسفله إلى أن انتهى إلى المنارة التى فى ركن باب بنى سهم لم يزد فى الجانب الجنوبى لاتصاله بمسيل الوادى ولصعوبة البناء فيه وعدم ثباته إذا قوى السيل عليه ولذلك لم يزد فى أعلى المسجد واشترى من الناس دورهم وأدخلها فى المسجد الحرام وكان الذى ولى عمارة المسجد لأبى جعفر أمير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبيد الله الحارثى .

وكان من شرطته عبد العزيز بن عبد الله بن مشافع جد مشافع بن عبد الرحمن الشيبي وكان زياد أجحف بدار شيبة بن عثمان وأدخل أكثرها فى الجانب الأعلى من المسجد فتكلم مع زياد فى أن يميل عنه قليلا ففعل فكان فى هذا المحل ازورار فى المسجد وأمر أبو جعفر المنصور بعمل منارة هناك فعملت واتصل عمله فى أعلى المسجد يعمل الوليد بن عبد الملك وكان عمل أبى جعفر طاقا واحدا باساطين الرخام دائرا على صخر المسجد وكان الذى زاد فيه مقدار الضعف مما كان قبله وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب وزينه بأنواع النقوش ورخم الحجر بالحاء المهملة المكسورة ثم الجيم وهو أول من رخمه وكان اكل ذلك على يد زياد بن عبد الله الحارثى والى الحرمين والطائف من قبل المنصور وفرغ من عمل ذلك فى عاملين وقيل فى ثلاثة أعوام .

وكتب على باب بنى جمح أحد أبواب المسجد الحرام من جهة الصفا بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات

Marfat.com

بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين أمر عبد الله أمير المؤمنين المنصور بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظرا منه للمسلمين واهتماما بأمورهم والذى زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل وفرغ منه ورفعت الأيدى منه فى ذى الحجة سنة أربعين ومائة وذلك بتيسير الله على أمير المؤمنين وحسن معونته وكفايته وإكرامه له بأعظم كرامته فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من توسعه المسجد الحرام وأحسن ثوابه وجمع الله لديه خيرى الدنيا والآخرة وأعز نصره وأيده.

وحج المنصور ذلك العام وأحرم من الحيرة وبذل على بخله الأموال العظيمة وأعطى أهل المدينة عطايا لم يعطها أحد كان قبله ولما قضى الحج والزيارة توجه إلى زيارة بيت المقدس ثم سلك إلى الشام ثم أتى إلى الرقة فنزلها كذا ذكره الحافظ عمر بن فهد رحمه الله تعالى.

وذكر حكاية مفيدة أذكرها استطرادا وإن كانت خارجة عن مقصودنا لعظم فائدتها وهى لما حج كان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلى ولم يعلم به أحد فاذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ويسلمون عليه ويؤذنون للفجر ويقيمون الصلاة فيخرج يصلى بالناس فخرج ذات ليلة فى السحر وشرع يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم يقول اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ مسامعه من كلامه ثم خرج من الطواف إلى ناحية من المسجد ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور فقال له المنصور فما هذا الذى سمعتك تقول من ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فوالله لقد حشوت مسامعى ما أقلقنى وأمرضنى وأشغل خاطرى فقال يا أمير المؤمنين إن أمنتنى على نفسى وصغيت إلى بأذن واعية أنبأتك بالأمور من أصلها وإلا احتجبت عنك بقدرة الله واقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل عن غيرى فقال أنت آمن على نفسك وقل فانى ألقى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب فقال إن الذى داخله الطمع حتى حال بينه

Marfat.com

وبين الحق ومنع عن إصلاح ما ظهر من البغى والفساد فى الأرض هو أنت فقال أيها الرجل كيف يداخلنى الطمع والصفراء والبيضاء بيدى والحلو والحامض فى قبضتى ومن يحول بينى وبين ما أريد من ذلك فقال هل إذا دخل الطمع أحدا من الناس ما داخلك يا أمير المؤمنين أن الله عز وجل استرعاك أمور المؤمنين أنفسهم وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الحجر والطين وأبوابا من الخشب والحديد وحجابا معهم السلاح واتخذت وزراء فجرة وأعوانا ظلمة ان نسيت لا يذكرونك وإن أحسنت لا يعينونك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والسلاح والرجال وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ولم تأمر بايصال المظلوم إليك ومنعت عن إدخال الملهوف عليك وحجبت الجائع والعارى والمحتاج وما أحد منهم إلا وله حق فى هذا المال فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرتهم أن لا يحجبوا عنك يقولون فى أنفسهم هذا قد خان الله مالنا لا نخونه فأنفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوه ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وأكرموهم وهادوهم وكان أول من صانعهم وداراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشاء فتقووا بها على ظلم رعيتك ليظلموا من دونهم فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم والغشم وزاد بغيهم وطمعهم وكثر فسادهم وإفسادهم وصار هؤلاء شركاؤك فى سلطانك وأنت غافل فان جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين يديك ضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك فان سألت عنه قالوا أساء الأدب فأدبناه وجهل مقامك فضربناه فما بقاء الاسلام على هذه المظالم والآثام وإنى سافرت إلى أرض الصين فقدمتها وقد أصاب ملكها آفة أذهبت سمعه فجعل يبكى فقال له وزرائه لم تبكى لا بكت عيناك فقال إنى لا أبكى على فقد سمعى ولكنى أبكى على المظلوم يصرخ ببابى يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته وحيث ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب فنادوا فى الناس أن لا يلبس الأحمر مظلوم لأميزه بالنظرة فأعينه وكان يركب الفيل كل يوم ليرى المظلوم ويستدنيهم ويرفع عنهم ظلامتهم .

Marfat.com

انظر يا مسكين هذا مشرك بالله رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الأموال لا تجمع إلا لواحد من ثلاثة أمور ان قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل يخرج من بطن أمه عريانا ماله على وجه الأرض مال وما من مال إلا ودونه بدشحيحة به تحويه وتصونه عن كل أحد فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدره له من المال فيملكه ويحويه كما حواه غيره ولست بالذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا مانع لما أعطى ولا يعطى لما منع وان قلت أجمع المال ليشتد به سلطانى فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما أجمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع وماضرك ما كنت أنت وولد أبيك عليه من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد وان قلت أجمع المال لطلب غاية هى أعلى مما أنت فيه فوالله مافوق ما أنت منزلة تدرك إلا بالصالح واعلم بأنك لا تعاقب أحدا من رعيتك اذا عصاك بأعظم من القتل وان الله تعالى يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم وانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فكيف يكون وقوفك غدا بين يديه وقد نزل ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئا .

قال فبكى المنصور بكاء شديدا حتى ارتفع صوته ثم قال كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس إلا خاليا قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الراشدين قال ومن هم . قال العلماء العاملين قال فانهم قد فروا منى قال نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك فاذا فتحت الأبواب وسهلت الحجاب ونصرت المظلوم ومنعت الظالم وظهرت بالعدل ونشرت الفضل فاتى ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك .

وجاء حينئذ المؤذنون وسلموا عليه وأذنو للفجر وأقاموا فقام المنصور للصلاة وصلى بالناس وإذا بالرجل قد غاب من بين أيديهم فلما فرغ المنصور من الصلاة سأل عنه فقالوا ذهب فقال إن لم تأتونى به عاقبتكم عقابا شديدا فذهبوا يلتمسونه فوجدوه فى الطواف فتقدم اليه الحرس وقال انطلق معى وإلا هلكت وهلك من

Marfat.com

معى فقال كلا لا يقدر عليك وأخرج من جيبو ورقة وقال ضعها فى جيبك فلا ينالك منه سوء فانه دعاء الفرج قال دعاء لا يرزقه إلا السعداء من دعابه صباحا ومساء هدمت ذنوبه واستجيب دعاؤه وبسط الله تعالى رزقه عليه وأعطاه أمله وأعانه على عدوه وكتب عند الله تعالى صديقا فقال إقرأه لى لآخذ عنك وأتلقه منك

فقال قل اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كما علمت ما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شىء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك من خطيئتى وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا استوجبه منك فصرت أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وأنك المحسن إلى وأنا المسىء إلى تفسى فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فعد بفضلك وإحسانك إلى أنك أنت التواب الرحيم قال فقرأته وأخذت الورقة فى جيبى وإذا بالرسل تسعى إلى تستعجلنى فأتيته وإذا هو جمر يتلظى فلما وقع نظره على سكن غضبه وغيظه وتبسم وقال لى ويلك أتحسن السحر فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمرى ثم قال هات الورقة فأخذها وصار يبكى إلى أن بل لحيته وأمر لى بعشرة دنانير ثم قال أتعرف الرجل فقلت لا قال ذلك الخضر عليه السلام

قلت وأنا أروى هذه الحكاية عن والدى الشيخ علاء الدين أحمد القادرى الخرقانى النهروالى الحنفى نزيل مكة المشرفة رحمه الله تعالى قال أنبأنى بهذه الحكاية العزيز بن عبد العزيز بن النجم عمر بن فهد عن القاضى زين الدين أبو بكر بن الحسين العثمانى المراغى عن الحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزى .

قال أنبأنا الإمام أبو الحسن على بن أحمد بن البخارى عن الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى قال له أنبأنا محمد بن ناصر أنبأنا المبارك بن عبد الجبار أنبأنا محمد بن على بن الفتح حدثنا أبو نصر محمد بن النيسابورى عن ابراهيم

بن أحمد الخشات وحدثنا أبو على الحسن بن عبد الله الرازى حدثنا المثنى حدثنا سلمة القرشى قاضى اليمن قال سمعت أبا المهاجر المكى يقول قدم المنصور مكة وكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف آخر الليل وساق الحكاية بطولها قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى .

وفى سنة ثمان وخمسين ومائة عزم على الحج أبو جعفر المنصور وكان يريد قتل سفيان الثورى فلما وصل إلى بئر ميمون بعث إلى الخشابين فقال لهم إن رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه فجاءوا ونصبوا له الخشب وكان جالسا بفناء الكعبة ورأسه فى حجر فضيل بن عياض ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة فقيل له يا أبا عبد الله قم واختف ولا تشمت بنا إلا عداء فتقدم إلى أستار الكعبة واخذها ثم قال برأت منه إن دخلها أبو جعفر وعاد إلى مكانه فركب أبو جعفر المنصور من بئر ميمون فلما كان بين الحجون سقط عن فرسه فاندقت عنقه فمات لوقته فى سابع الحجة وقت السحر فحفروا له مائة قبر ودفنوه فى أحدها ليعموا قبره على الناس وبر الله قسم عبده سفيان فانظروا الى عباد الله المخلصين وأدلا لهم على جناب قدس رب العالمين وكيف حال أهل الدنيا المغرورين وكيف تضمحل عظمتهم فى عظمة سلطان السلاطين وما أحقر سلطان البشر المخلوق من ماء مهين وما أسرع زوال ملكه وصيرورته عبرة للمعتبرين إن فى ذلك لعبرة الأولى الإبصار ويعلم أن الملك لله الواحد القهار لاشريك له فى الملك ولا ولى من الذل على الدوام والاستمرار والمنصور هو الذى بنى مدينة بغداد ومولده سنة خمس وتسعين ومدة ملكه اثنان وعشرون وثلاثة أشهر وعاش أربعا وستين سنة وكان رأى مناما يدل على قرب أجله فعهد إلى ولده محمد وسار إلى الحج وتوفى كما ذكرنا .

(وولى بعده الملك والخلافة ولده أبو عبد الله محمد ولقبه المهدى)

ثالث من ولى من العباسيين وقام بالبيعة له بمكة لما مات ابوه أبو الربيع بن يونس الحاجب وأسرع بإرسال الخبر اليه فوصل اليه الخبر فى بغداد فكتم الأمر ثم جمع الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أن المنصور أمير المؤمنين قد دعى فأجاب وأمر فأطاع ثم ذرفت عيناه ثم قال بلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراق الأحبة وقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله احتسب أمير المؤمنين وبه أستعين على تقلد

Marfat.com

أمور المسلمين ونزل فبايعه الناس وأول من جمع بين تعزيته وتهنئته أبو دلامه الشاعر حيث قال

عيناى واحدة ترى مسرورة بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ويسوءها ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرما ويسرها أن قام هذا يخلف
ما أن رأيت كما رأيت ولا أرى شعرا أسرحه وآخر انتف
هذا حباه الله فضل خلافة ولذاك جنات النعيم تزخرف

وكان المهدى لما شب ولاه أبوه طبرستان والرى وما يليها فتأدب وتميز وجالس العلماء وكان كريما مليح الشكل شجاعا محبا للعلماء وكان يقول ادخلوا على العلماء والقضاء واحضروهم عندى فلو لم يكن من حضورهم إلا رد المظالم حياء منهم لكان خيرا وقدم عليه مروان بن أبى حفصة الشاعر فانشده قصيدة فلما وصل إلى قوله .

إليك قصرنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر بعد شهر نواصله
وما نحن نخشى أن يخيب مسيرنا إليك ولكن أهنأ البرعا جله

فضحك المهدى وقال كم بيتا قصيدتك قال سبعون بيتا فأمر بسبعين ألف درهم قبل أن يتم إنشادها وله شعر رقيق لطيف أحسن من شعر أبيه وأولاده بكثير ومنه ما ذكرة الصولى وهو

ما يكف الناس عنا ما يريد الناس منا
إنما همتهم أن ينشبوا ما قد دفنا
لو سكنا باطن الأرض لكانوا حيث كنا
إن أرادوا كشف أمر قد ستراه كشفنا

ومن نظمه هذا البيت من عدة أبيات نظمها فى جارية كان يحبها حبا شديدا .

أما يكفيك أنك تمليكينى وإن الناس كلهم عبيدى

وكان المهدى يحب الحمام فدخل عليه غياث وكان يروى الحديث فقال يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا لا سبق إلا فى حافر أو نصل وزاد فيه أو جناح ففهم المهدى أنه وضع هذه الزيادة فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلم يجبه بالرد تأدبا وأمر له بعشرة آلاف درهم فلما قام قال المهدى اشهدان قفاك قفا كذاب ثم أمر بذبح ما عنده من الحمام فذبحت وكان نقش خاتمه الله ثقة محمد وبه يؤمن وحكى الربيع قال عرض على المنصور يوما خزائن مروان بن محمد وكان من جملتها اثنا عشر الف عدل ثياب خز فأخرج منها ثوبا واحدا ودعا الخياط وقال فصل من هذا جبة لى وجبة لولدى محمد المهدى فقال لا يجى. منه جبتان فقال فصل جبة وقلنسوة وبخل أن يخرج ثوبا آخر منها فلما أفضت الخلافة إلى ولده محمد المهدى أمر بتلك الثياب كلها بعينها ففرقها كلها فى عبيده وخدمه فى ساعة واحدة وكان جواد شجاعا كثير اللهو والصيد إلا أنه يكره الزنادقة وقتل منهم خلقا كثيرا ووصى ابنه الهادى بقتلهم حيث وجدهم

قال النجم عمر بن فهد فى حوادث سنة ستين ومائة وفيها حج أمير المؤمنين المهدى العباسى وحمل له الأمير محمد بن سليمان الثلج حتى وافى به مكة وهذا شىء لم يتم لأحد قبله ونزل المهدى دار الندوة وجاء عبيد الله بن عثمان بن ابراهيم الحجبى فى ساعة خالية نصف النهار فأدخل عليه فقال له أن معى شيئاً لم يحمل لأحد قبلك فكشف له من الحجر الذى فيه صورة قدمى ابراهيم خليل الله عليه السلام وهو الذى يزار الآن بمقام ابراهيم عليه السلام فسر المهدى بذلك وقبله وتمسح به وصب فيه ماء وشربه وأرسله إلى أهله وأولاده فتمسحوا به وشربوا منه ثم احتمله وأعاده إلى مقام ابراهيم وأعطاه المهدى جوائز كثيرة وأقطعه خيفاً بوادى نخلة يقال ذات الفريع فباعه بعد ذلك بسبعة آلاف دينار .

وذكر حجبة الكعبة للمهدى أنه تراكمت على الكعبة كسوة كثيرة أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقلها فأمر بنزعها فنزعت حتى بقيت مجردة ووجدوا كسوة هشام من الديباج الثخين وكسوة من قبلة عامها من ثياب اليمن فجردت الكعبة منها وعلى جدرانها من داخلها وخارجها بالقالية والمسك والعنبر وصعد الخدام على سطح الكعبة وصاروا يسكبون قوارير العالية الممسكة المطيبة على جدارات الكعبة إلى أن استوعبوها ثم كسيت ثلاث كساوى من القباطى والخز والديباج وقسم المهدى فى الحرمين الشريفين أموالا عظيمة وهى ثلاثون ألف ألف درهم ووصل بها معه

Marfat.com

من العراق وثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن وخمسين ألف ثوب فرق جميع ذلك على أهل الحرمين واستدعى قاضى مكة يومئذ وهو محمد الأوقص بن محمد بن عبد الرحمن المخزومى وأمره أن يشترى دورا فى أعلا المسجد ويهدمها ويدخلها فى المسجد الحرام وأعد لذلك أموالا عظيمة فاشترى القاضى جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعى من الدور فما كانت من الصدقات والأوقاف اشترى المستحقين بدلها دورا فى فجاج مكة واشترى كل ذراع يكسر فى مثله مما دخل فى المسجد بخمسة عشر دينارا فكان فى ذلك الهدم دار الازرقى وهى يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بنى شيبة وكان ثمن ناحية منها ثمانية عشر ألف دينار وكان أكثرها داخل فى المسجد الحرام فى زيادة عبد الله بن الزبير ودخلت أيضا دار خيرة بنت سباع الخزاعية وكان ثمنها ثمانية وأربعين ألف دينار دفعت إليها وكانت شارعة على المسعى يومئذ قبل أن يؤخر المسعى ودخلت أيضا دار لآل جبير بن مطعم ودار شيبه بن عثمان اشترى جميع ذلك وهدم وأدخل فى المسجد وجعل دار القوارير حبة بين المسجد الحرام والمسعى حتى استقطعها جعفر البرمكى من الرشيد لما آلت الخلافة إليه فبناها دارا ثم صارت إلى حماد البربرى فعمرها وزين باطنها بالقوارير وظاهرها بالرخام والفسيفساء.

قلت وتداولت الأيدى عليها بعد ذلك إلى أن صارت رباطين متلاصقين أحدهما كان يعرف برباط المراغى والثانى كان يعرف برباط السدرة فاستبدلها السلطان قايتباى وبناهما مدرسة ورباطا فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ووقف عليها سقفلات بمكة وأقطاعا بمصر وهو باق إلى الآن صدقة جارية على سكانه غير أنه شرع فى أوقافه الخراب لاستيلاء الأيدى الجارية عليها عمر الله من عمرها وأحسن إلى من أحسن نظرها وهذه الزيادة الأولى للمهدى فى أعلى المسجد وكذلك فى أسفل إلى أن انتهى به إلى باب بنى سهم ويقال له الآن باب العمرة وإلى باب الخياطين ويقال له الآن باب الخياطين وكذلك زاد من الباب الشامى إلى منتهاه الان وكذلك زاد فى الجانب اليمانى أيضا إلى قبة الشراب وتسمى الان قبة العباس وإلى حاصل

الزيت وكان بين جدار الكعبة اليمانى وجدار المسجد الحرام الذى يلى الصفا تسعة وأربعون ذراعا ونصف ذراع وكان ماوراءه مسيل الوادى فهذه كلها الزيادة الأولى للمهدى وأمر بالاساطين فنقلت من مصر ومن الشام وحملت بحرا إلى قرب جدة فى موضع كان فى أيام الجاهلية ساحلا لمكة يقال لها الشعيبة فجمعت هناك لأن مرساه قريب بخلاف بندر جدة لأن مرساه التى تقف فيه السفينة بعيدة من البر وصارت أساطين الرخام تحمل منها على العجل وتتحاكالعربان أن بها بقايا أساطين رخام دفنها الريح بالرمل والله أعلم بحقيقة ذلك .

وعمل الأساس لتلك الأساطين بحيث حفر لها فى الأرض جدارات على شكل الصليب أقاموا كل اسطوانة على موضع القاطع كشف منه السيل العظيم الواقع فى سنة ثلاثين وتسعمائة فشاهدنا أساس الأساطين على هذا الوجة واستمر عليهم إلى سنة أربع وستين ومائة فحج المهدى فى ذلك العام وشاهد الكعبة المعظمة ليست فى وسط المسجد بل فى جانب من وراء المسجد قد اتسع من أعلاه وأسفله ومن جانبه الشامى وضاق من الجانب اليمانى الذى يلى مسيل الوادى وكان فى محل السيل الآن بيوت الناس وكانوا يسلكون من المسجد فى بطن الوادى ثم يسلكون زقاقا ضيقا ثم يصعدون إلى الصفا وكان المسعى فى موضع المسجد الحرام اليوم وكان بابه دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى عند حد ركن المسجد اليوم عند موضع المنارة الشارعة فى نحر الوادى عن دونها فى بعض المسجد الحرام اليوم فهدموا أكثر دار محمد بن عباد بن جعفر العبادى وجعلوا المسعى والوادى فيها وكان عرض الوادى من الميل الأخضر اللاصق للمأذنة التى فى الركن الشرقى وكان هذا الودى مستطيلا إلى أسفل المسجد الآن يجرى فيه السيل ملاصقا لجدر المسجد إذ ذاك وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليمانى .

فلما رأى المهدى تربيع المسجد الحرام ليس على الاستواء ورأى الكعبة الشريفة فى الجانب اليمانى من المسجد أراد لتكون الكعبة فى وسط المسجد فقال له لا يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت التى على حافة المسيل فى مقابلة الجدار اليمانى من المسجد

Marfat.com

وينقل المسيل إلى تلك البيوت ويدخل المسيل فى المسجد كما قدمنا ومع ذلك فان وادى ابراهيم له سيول عارمة وهو واد حدور يخاف أن حولناه عن مكانه أن لايثبت أساس البناء فيه على ما نريد من الاستحكام فيذهب به السيول وتعلو السيول فيه فتنصب فى المسجد ويلزم هدم دور كثيرة وتكثر المؤنة وتكبر ولعل ذلك لايتم فقال المهدى لابد أن أزيد هذه الزيادة ولو انفقت جميع بيوت الأموال وصمم على ذلك وعظمت نيته واشتدت رغبته وصار يلهج به فهندس المهندسون وذلك بحضوره وربطوا الرماح ونصبوها على أسطحة الدور من أول الوادى إلى آخره وربعوا الوادى من فوق الأسطحة وطلع المهدى إلى جبل أبى قبيس وشاهد تربيع المسجد ورأى الكعبة فى وسط المسجد ورأى ما يهدم من البيوت ويجعل مسيلا محلا للسعى وشخصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الأسطحة ووزنوا له ذلك مرة بعد أخرى حتى رضى به .

ثم توجه إلى العراق وخلف الأموال الكثيرة لشراء هذه البيوت والصرف على هذه العمارة العظمى وهذه هى الزيادة الثانية للمهدى فى المسجد الحرام هذا ملخص ما ذكره الأزرقى والفاكهى والحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى تواريخهم رحمهم الله تعالى .

(وههنا اشكال) ما رأيت من تعرض له وهو ان السعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التى أوجبها الله تعالى علينا فى ذلك المحل المخصوص ولا يجوز لنا العدول عنه ولا تعتبر هذه العبادة إلا فى ذلك المكان المخصوص الذى سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى فى الحرم الشريف وحول المسعى إلى دار بن عباد كما تقدم .

وأما المكان الذى يسعى فيه الآن فلا يتحقق انه بعض من المسعى الذى سعى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غيره فكيف يصح السعى فيه وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات ولعل الجواب عن ذلك أن المسعى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عريضا وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسعى القديم فهدمها المهدى وأدخل بعضها فى المسجد الحرام وترك بعضها للسعى فيه ولم يحول

تحويلا كليا والا لانكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين مع توفرهم إذ ذاك فكان الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن رضى الله عنهما والإمام مالك بن أنس رضى الله عنه موجودين يومئذ وقد أقروا ذلك وسكتوا وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعى وأحمد بن حنبل وبنية المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين فكان اجماعا منهم رضى الله عنهم على صحة السعى من غير نكير نقل عنهم .

وبقى الاشكال فى جواز ادخال شىء من المسعى فى المسجد وكيف يصير ذلك مسجدا وكيف حال الاعتكاف فيه وحله بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق فيصير مسجدا ويصح الاعتكاف فيه حيث لم يضر بمن يسعى فاعلم ذلك وهذا مما انفردت ببيانه ولله الحمد على التوفيق لتبيانه .

فصل : ومما يلائم ما نحن فيه ما نقل فى التعدى على السعى الشريف واغتصاب ما وقع قبل عصرنا بنحو مائة عام فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة الملك الأشراف قايتباى المحمودى سامحه الله تعالى ومحصله أنه كان تاجر يتخدمه قبل سلطنته ويتعاطى له متاجره مع دينه وخيريته ومآثره الجميلة واعتقاده فى العلماء والصلحاء واتصافه بطلب العلم أيضاً وكان السلطان قايتباى أرسله إلى مكة ليتعاطى له متاجره وليعمر له مدرسة ويعمر جانبا من المسجد الشريف النبوى بعد الحريق المشهور الواقع سنة شت وثمانين وثمانمائة وبنى له المدرسة التى فى المدينة الشريفة وأجرى عين الزرقاء بالمدينة وعين خليص من طريق المدينة وعين عرفات وغير ذلك من الخيرات الجارية إلى الآن غير أن حب الجاه ونفاذ الأمر أوقعه فيما نذكره :

وهو أنه كان بين الميلين ميضأة أمر بعملها الملك الأشراف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت فى مقابلة باب على حدها من الشرق بيوت للناس ومن الغرب المسعى الشريف ومن الجنوب سيل وادى ابراهيم الذى يقال الآن سوق الليل ومن الشمال دار سيدنا العباس رضى الله عنه الذى هو الآن رباط يسكنه الفقراء فاستأجر الخواجا شمس الدين بن الزمن هذه الميضأة وهدمها وتقدم من جانب المسعى نحو ثلاثة أذرع وحفر أساسه ليبنى بها رباط السكن الفقراء فمنعه من ذلك

Marfat.com

قاضى القضاة بمكة عالم المسلمين وقاضى الشرع المبين القاضى برهان الدين ابراهيم بن على بن ظهيرة الشافعى فلم يمتنع من ذلك فجمع القاضى ابراهيم محضرا حافلا حضره علماء المذاهب الأربعة ومن أجلهم مولانا زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفى رئيس العلماء الحنفية يومئذ والشيخ شرف الدين موسى بن عيد المالكى والقاضى علاء الدين الردادى الحنبلى وبقية العلماء المكيين والقضاة والفقهاء وطلب الخواجا شمس الدين بن الزمن وأنكر عليه جميع الحاضرين وقالوا له فى وجهه ان عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعا وأحضر النقل من تاريخ الفاكهى ودرعوا من ركن المسجد إلى المحل الذى وضع فيه ابن الزمن أساسه فكان سبعة وعشرين ذراعا فقال بن الزمن المنع خاص بى أو بجميع الناس فقال له القاضى أمنعك الآن لأنك مباشر فى هذا الحال لهذا الفعل الحرام وأمر المغيرة أيضاً بازالة تعديه وتوجه القاضى بنفسه إلى محل الأساس ومنع البنائين والعمال من العمل وأرسل عرضا ومحضرا فيه خطوط العلماء إلى السلطان قايتباى وكتب ابن الزمن أيضا إليه وكانت الجراكسة لهم تعصب وقيام ومساعدة من يلوذ بهم ولو على الباطل .

فلما وقف على تلك الأحوال السلطان قايتباى نصر بن الزمن وعزل القاضى ابراهيم وولى خصمه المنصب وأمر أمير الحج أن يضع الأساس على مراد ابن الزمن ويقف عليه بنفسه وكان أمير الحج شيبك الجمالى فوصل فى موسم سنة خمس وسبعين وثمانمائة ووقف بنفسه بالليل وأوقد المشاعل وأمر البنائين والعمال بالبناء خوفا من انكار العملة عليهم فبنوه إلى أن صعدوا به وجه الأرض وجعل ابن الزمن ذلك رباطا وسبيلا وبنى فى جانبه دارا وصغر الميضأة جدا وجعل لها بابا من جهة سوق الليل وجعل فى جانب الميضأة مطبخاً يطبخ فيه الدشيشة ويقسم على الفقراء ووقف دورا بمكة ومزارع بمصر واستمرت إلى أن انقطع ذلك الطبخ وبيعت القدور بل والدور ويا لله العجب من ابن الزبير وما ذكرناه فى فضله وخيريته كيف ارتكب هذا المحرم باجماع المسلمين طالباً به الثواب وكيف تعصب له سلطان عصره السلطان قايتباى مع أنه أحسن ملوك الجراكسة عقلا ودينا وخيرية وهو يأمر بفعل هذا الأمر المجمع على حرمته فى مشعر من مشاعر الله تعالى وكيف يعزل قاضى الشرع

Marfat.com

الشريف لكونه نهى عن منكر ظاهر الإنكار فرحم الله الجميع وسامحهم وغفر لهم .

وأين هذا مما يحكى عن أنوشروان العادل وهو من أهل الكفر لما أراد المهندسون تسوية أيوانه بادخال قطعة أرض لعجوز بعد أن بذلوا لها أضعاف ثمن أرضها فأمر بعدم التعرض لأرضها فبقى فى إيوانه ازورار بسبب ذلك فقيل هذا الازورار خير من الاستقامة وصار ذلك مثلا يذكر بعد ألوف من السنين وقال :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن روى

فصل : قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى حوادث سنة سبع وستين ومائة ما ملخصة فيها هدمت الدور التى اشتريت لتوسعة المسجد والزيادة فيه الزيادة الثانية للمهدى فهدموا أكثر دار محمد بن عباد وجعلوا المسعى والوادى فيها وهدموا ما بين الصفا والوادى من الدور وخرقوا الوادى فى موضع الدور حتى أوصلوه إلى مجرى الوادى القديم فى الأجياد الكبير وهو الآن الطريق الذى يمر منه إلى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة عمر الله بهم البلاد وأزال بوجودهم مواد الفتنة والفساد وابتدؤا من باب بنى هاشم من أعلى المسجد ويقال له الآن باب على رضى الله عنه ووسع المسجد منه إلى أسفل المسجد وجعل فى مقابلة هذا الباب باب فى المسجد يعرف الآن بباب حزورة ويحرفونه العوام فيسمونه باب عزورة لأن السيل إذا زاد على مجرى الوادى ودخل المسجد خرج من هذا الباب إلى أسفل مكة فإذا أطفح عن ذلك خرج من باب الخياطين أيضاً ويسمى الآن باب ابراهيم فيمر السيل ولا يصل إلى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليمانى وكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليمانى من المسجد المتصل بالوادى تسعة وأربعون ذراعا ونصف ذراع فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من المسجد أولا إلى الجدار الذى عمل آخر وهو باق إلى اليوم تسعون ذراعا فاتسع المسجد غاية الاتساع وأدخل فى قرب الركن اليمانى من المسجد فى أسفله دار أم هانىء لأن دارها رضى الله عنها كانت بقرب هذا الباب داخل المسجد الحرام الآن ومن هذا الباب يدخل إلى المسجد أمراء مكة سادتنا الأشراف آل الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه وكانت عند دار أم هانىء.

Marfat.com

رضى الله عنها بئر جاهلية حفرها قصى بن كلاب أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم فأدخلت أيضاً تلك البئر فى المسجد الحرام وحفر المهدى عوضها بئرا خارج الحزورة يغسلون عندها الموتى من الفقراء ومن أبواب المسجد من أسفله باب بنى سهم يعرف الآن بباب العمره لأن المعتمرين من التنعيم يدخلون منه إلى المسجد من أعلى مكة كما هو السنة الشريفة وسيأتى ذكر بقية أبواب المسجد الحرام عند ذكر العمارة الشريفة السلطانية العثمانية خلد الله ملك سلطنتها إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى واستمر البناة والمهندسون فى بناء الزيادة ووضع الأعمدة الرخام وتسقيف المسجد بالخشت الساج المنقش بالألوان نقراً فى نفس الخشب كما أدركناه وكان فى غاية الزخرفة والأحكام باقيا فيه لون اللازورد فى غاية الصفاء والرونق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان واستمر عملهم إلى أن توفى المهدى رحمه الله لثمانى بقين من المحرم سنة تسع وتسعين ومائة قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذى أراده وكان مولده فى جمادى الآخر سنة سبع وعشرين ومائة ومدة ملكه إحدى عشرة سنة وشهرا وعاش ثلاثا وأربعين سنة وعقد الأمر لولده موسى الهادى .

(فصل فى ولاية أبى محمد موسى الهادى بن المهدى بن المنصور العباسى) ولد بالرى سنة سبع وأربعين ومائة وأمه أم ولد تسمى الخيزران والدة هرون الرشيد وكان حين موت والده بجرجان وقد عهد له أبوه بالخلافة فاخذ له البيعة أخوه هرون الرشيد لما مات أبوه لثمان بقين من شهر المحرم سنة تسع وستين ومائة ولم يل الخلافة قبله أحد فى مقدار سنه .

وركب خيل البريد من جرمان إلى بغداد لما بويع له بالخلافة وما ركبها خليفة غيره وكان طويلا جسيما أبيض بشفته العليا تقاص فيكثر لذلك فتح فمه ويغفل عن ذلك فيستمر فمه مفتوحا فوكل به أبوه فى صباه خادما كلما رآه مفتوح الفم قال له موسى أطبق فيستفيق على نفسه ويضم شفته فلقبه الناس موسى أطبق فعرف بهذا اللقب وكان وصاه أبوه بقتل الزنادقة فقتل منهم خلقا كثيرا وكانا شجاعا كريماً يعجبه المدح دخل عليه مروان بن أبى حفصة فأنشده قصيدة فى مدحه فلما بلغ إلى قوله :

Marfat.com

فى هذا الشهر فاغزو حج ووسع على أهل الحرمين ففعل هذا كله فى عام واحدأول خلافته ذكر ذلك الحافظ السيوطى وغيره .

وقال الحافظ النجم عمر بن فهد رحمهما الله فى حوادث سنة سبعين ومائة فيها حج هارون الرشيد بالناس وفرق مالا كثيرا وكان حجه ماشياً على اللبود تفرش له من منزل الى منزل وقيل إن الحجة التى حج فيها ماشيا هى حجته فى سنة سبع وسبعين ومائة.

قال وفى بعض حجات هارون أخلى له المسعى ليسعى فيه فتعلق ببغلته وهو يسمى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضى الله عنهم فوقف له هارون الرشيد وأقبل عليه فصاح به ياهارون فقال لبيك يا عم قال أرق إلى الصفا فلما رقاه قال أرم بطرفك إلى البيت قال قد فعلت فقال كم هى يعنى الحجيج فقال ومن يحصيهم إلا الله تعالى قال فاعلم أيها الرجل ن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصة نفسه ويسأل عنها وحدها يوم القيامة وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين فانظر كيف جوابك حين تسأل يوم القيامة فبكى هارون بكاء شديدا وخدمته يعطونه منديلا بعد منديل وهو يناولها بدموعه فقال له وأخرى أقولها لك قال قل يا عم فقال ان الرجل إذا أساء التصرف فى ماله حجر عليه فكيف أنت تسرف فى مال المسلمين وتسىء التصرف فيه وأنت محاسب عليه بين يدى الله تعالى عز وجل فازداد بكاؤه وكثر نحيبه وأراد جنده أن يطردوا الرجل عنه فكفهم عنه إلى أن فرغ من نصائحه كلها وقام عنه بنفسه وهارون يبكى ويتضرع ويستغفر .

فصل : وفى أثناء دولة الرشيد قدمت الخيزران أم الرشيد والهادى إلى مكة قبل الحج فى سنة إحدى وسبعين ومائة فأقامت إلى أن حجت وعملت الخيرات واشترت دوراً بالصفا الى جنب دار الأرقم المخزومى التى تشتمل على مسجد مأثور يقال له المختبى لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعوا فيه الى الاسلام خيفة من صولة على المسلمين فى أول البعث وأسلم فيه جماعة رضى الله عنهم ولما أسلم فيه عمر رضى الله عنه أظهر الاسلام وفية قبة ومزار تسمى قبة الوحى وهذة الدور التى اشتراها صاحبنا المغفور له المرحوم المبرور المشكور الأمير المأمور باجراء عين عرفة إلى بيت الله المعمور الباذل نفسه وماله وأولاده فى سبيل الله طلبا لنيل المثوبات والأجور دفتر دار مصر سابقا

Marfat.com

صاحب اللواء السلطانى المنشور المذكور باحسان إلى يوم النشور ابراهيم بك بن تغرى بردى المهمندار أسكنه الله تعالى فى دار القرار جنات تجرى من تحتها الأنهار ثم ملكها من المرحوم بطريق الهدية على يد المرحوم رجب جلبى افندى ناظر الصدقات السليمية حضرة السلطان الأعظم سلطان ملوك العالم ذوى الخلق الحليم والطبع الكريم المرحوم المغفور له السلطان سليم نقله الله إلى جنات النعيم وملكه ملكا أعظم من ملكه العظيم فملكها وهو شاه زاده يومئذ قبل أن يلى تخت السلطنة العظمى ففرح بها كثيراً واستبشر بحصولها ونوى أن ينشىء فيها عمايرو خيرات وجهات تصرف إلى فقراء هذه الجهات فلم يقدر له ذلك وزاحمته أمور الملك والسلطنة ومجاهدة الكفار وافتتاح بلاد قبرس وغيرها ولم يمهله الزمان الجائر ولا ساعده الدهر الغابر ولكن حصل له ثواب مانواه من الخيرات فالأعمال بالنيات وان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وصارت هذه الدار الآن من أملاك ملك العصر والزمان سلطان سلاطين الدهر فى هذا الأوان صاحب تخت السعادة والاسعاد وارث سرير الملك عن الآباء والأجداد السلطان الأعظم الأكرم السلطان / مراد خلد الله تعالى أيام سلطنته القاهرة إلى يوم التناد وألهمه العدل فى الرعية لاحياء رسوم المعدلة بين العباد .

قلت ولم أطلع للرشيد مع كثرة خيره على أنه عمر فى أيامه شيأ من المسجد الحرام غير أن عامله بمصر موسى بن عيسى أهدى إلى مكة المشرفة منبرا منقوشا مكلفا له تسع درجات فجعل فى المسجد الحرام وأخذ المنبر القديم الذى كان يخطب عليه بمكة ووضع فى عرفه وذلك فى أول حجات الرشيد فى سنة سبعين ومائة وقيل غير ذلك . وفى سنة أربع وأربعين من الهجرة الشريفة نصب وخطب عليه معاوية ابن أبى سفيان وهو أول من خطب بمكة على منبر وكانت الخلفاء والولاة قبل ذلك يخطبون بها قياما على أقدامهم فى وجه الكعبة وفى الحجر .

قال أبو الوليد الأزرقى حدثنى جدى عن عبد الرحمن بن حسن عن أبيه قال : أول من خطب بمكة على منبر معاوية بن أبى سفيان وساق ما قدمناه فى ذلك ثم قال وذلك المنبر الذى جاء به معاوية ربما خرب فكان يعمر ولا يزاد فيه حتى حج الرشيد فأتى بمنبر له تسع درجات وخطب عليه فكان منبر مكة لمن بعده إلى أيام الواثق

بالله العباسى فاراد أن يحج فأمر أن يعمل ثلاث منابر منبر لمكة ومنبر لمنى ومنبر لعرفات وحج وخطب عليها وفرق بالحرمين على أهلها مالا كثيراً .

وفى أيامنا التى أدركناها من الشباب إلى المشيب شاهدنا منابر عملها سلاطين عصرنا وسنذكرها فى محلها إن شاء الله تعالى .

فصل اعلم أن ما يتحفه العاقل ويدخر عنه إلا الابله ان الدنيا دار الأكدار وحمل الهموم والغموم والحسرات وان أخف الخلق بلاء وألما الفقراء وأعظم الناس تعبا وهما وغما الملوك والأمراء والكبراء ويقال لكل بشر غنى قامة من الهم وقيل :

لقد قنعت همتى بالخمول وصدت عن الرتب العاليه
وما جهلت والله طيب العلى ولكنها تؤثر العافيه

وقيل أيضا

بقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والرتب العالية
وكن فى مقام إذا ماوقفت تقوم ورجلاك فى عافيه

وطال ما رضيت الملوك والسلاطين بحال الضعفاء والفقراء والمساكين

فى كل بيت كربة ومصيبة ولعل بيتك إن رأيت أقلها

فارض بحال فقرك واشكر الله على خفة ظهرك ولا تتعد طورك تجد ذلك نعمة خفية ساقها إليك ورحمة أفاضها الله تعالى من خزائن لطفه عليك واعتبر بهذه الكلمات وخذ لنفسك حظ وافرا من هذه العظات :

ومن ذلك أن هارون الرشيد من أعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأيا وتدبير وفطنة وقوة وإتساع مملكته وكثرة خزائنه بحيث كان يقول للسحابة امطرى حيث شئت فان خراج الأرض التى تمطرى فيها يجى. إلى ومع ذلك كان أتعبهم خاطرا وأسنهم فكر وأشغلهم قلبا وكان من أولاده محمدا الأمين من زبيدة بنت جعفر المنصور .

تقسيم الرشيد الملك بين ولديه الأمين والمأمون

وكانت زبيدة قد استولت على عقل الرشيد تتصرف فيه كيف أرادت وكان ولده منها محمد الأمين شديد الترفه والدلا كثير اللهو واللعب مغلوبا على عقله لا يصلح للملك ولا يستحق الخلافة وولده الثانى من جارية سوداء اسمها مراجل من جوار المطبخ ماتت فى نفاسها عن عبد الله المأمون وكان أتم عقلا ورأيا وأصح تدبيرا وأكثر فضلا ومعرفة فيه صلاحية لتدبير الملك وأهلا لأن يكون خلفا عن أبيه فى خلافته وما قد رابوه أن يجعله ولى عهده بعده مخافة على خاطر زبيدة على ذلك فجعل ولى عهده محمد الأمين فى سنة خمس وسبعين ومائة ولقبه بالأمين وعمره يومئذ خمس سنين لحرص أمه زبيدة على ذلك وجعل عبد الله المأمون ولى العهد بعد محمد الأمين فى سنة ست وثمانين وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى ولقبه المؤتمن وقسم ملكه بين هذه الثلاثة فقالت العقلاء لقد ألقى بينهم وأضر الرعية بهم قال عبد الملك بن صالح .

الله قلد هارونا خلافته لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقدم الأمر هارون لرأفته بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا

وطوى الرشيد الملك عن ولده الرابع وهو محمد المعتصم لكونه أميا فأراد الله تعالى خلاف ما أراده الرشيد وقتل محمد الأمين على يد عبدالله المأمون وصارت الخلافة بعد المأمون إلى محمد المعتصم ساقها الله تعالى إليه وجعل الخلق كلهم من نسله ولم يجعله من غير نسله من أولاد الرشيد وان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وكان الرشيد لما كمل عهده لأولاده الثلاثة جمع الجموع وأمرهم بمبايعة أولاده المذكورين فبايعوهم وعاهدوهم وكتب بذلك عهدا محكما وكتابا مبرما ووضع الأعيان والأركان والأمراء والكبراء خطوطهم عليه وجهز إلى بيت الله تعالى وأمر بتعليقه فى وسط الكعبة الشريفة ليشتد الوثوق به ولا يقع خلافه فى ذلك قال ابراهيم الموصلى .

خير الأمور تعيه وأحق أمر بالتمام

Marfat.com

أمر قضى أحكامه مولاى فى البيت الحرام

ولم يغن ذلك التدبير عما رقه قلم التقدير فى لوح المقادير والله على كل شىء قدير وقال :

ولو كانت الدنيا تنال بغبطة وتدبير رأى نيل أعلى المراتب
ولكنما الأقدار تجرى بقدرة من الله لا تجدى تدابير طالب

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى وذكر محمد بن الصباح الطبرى أن أباه مشى مع الرشيد من خراسان إلى النهر وأن فجعل الرشيد يحادثه فى الطريق ويشكو همومه ويتنفس عنده نفاثات الصدور إلى أن قال ياصباح أظنك لا ترانى بعد هذا فقلت بل يطيل الله عمر أمير المؤمنين ونفديه بأرواحنا ويعيش سالما من الآفات فقال إنك لاتدرى ما أجد فقلت لا والله فقال تعالى حتى أريد ما أخفيه عن غيرك وتنحى عن الطريق وأومأ إلى من معه بالتنحى عنه فأبعد عنهم وهم يرمقونه بطرف خفى ثم قال أمانة الله ياصباح أكتم أمرى فقلت نعم فكشف عن بطنه فإذا عصابة حرير معصوبة على بطنه فقال هذه علة أكتمها عن كل أحد وحولى رقباء لكل واحد من أولادى يعدون أنفاسى على فبسرور رقيب المأمون وجبريل بن بختشوع رقيب الأمين وفلان وعد ثالثاً أنسيته رقيب المؤتمن وكل منهم يحصى أيامى وساعاتى ويستطيل عمرى وحياتى ويظهر ذلك الآن منهم أن أطلب منهم برذونا لركوبى فيأتونى به أعجف ضعيفا يزيد فى علتى ويضاعف على مرضى ثم طلب منهم برذونا لركوبه فأتوه ببرذون عاجز منقطع يتعب راكبه كما ذكر وهو يداريهم ويصبر على مايكابده منهم فنظر إلى نظرة حزين مكروب وركب ذلك البرذون فقبلت رجله وودعته وهم ينظرون إلى نظرة خفت عاقبتها وكفانى الله تعالى شرهم واستمر الرشيد عليلا إلى أن بلغنى وفاته بطوس رحمه الله تعالى فأنظر إلى هذا الملك الجليل والخليفة النبيه النبيل والسلطان الذى قل أن يوجد له مثيل وهو عاجز فى يد غلمانه مغلوب عليه فى ملكه وسلطانه متحسر على عظيم شأنه متأسف على علو مكانه بيده خزائن الأرض ولا يملك منها نقيراً ولا قطميراً ولا يقدر على كل شىء وكان ربك قديراً .

ولما جرّدت المنية موسى الحمام على هارون ومزقت ثياب رشد الرشيد مخالب المنون

Marfat.com

وخلعت عنه خلع الخلافة والسلطان وغسلته بماء الدموع الممزوج بدماء الأجفاء وحنطته بحنوط أعماله وأدرجته فى أكفان خصاله وخلاله ونقلته من سرير السعود إلى أخدود اللحود فمضى كأنه لم يكن شيئا مذكوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً

وقد حكى الرشيد أنه كان رأى منا ما أنه يموت بطوس فلما وصل إلى طوس وقد غلب عليه الوعك عرف أنه ميت فبكى واختار لنفسه مدفنا وقال احفروا لى قبراً فى هذا المحل فحفروا له فقال قربونى إلى شفيره فحملوه فى قبة إلى أن نظر إلى القبر فسالت عبرته وزادت غبرته وقال يا ابن آدم إلى هـذا تصير ولابد من هـذا المصير وأمر أن ينزل إلى لحده من يقرأ ختمة فيه ففعلوا ذلك فمات وصلى عليه ابنه صالح والحد فى القبر بطوس لثلاث مضين من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين ومائة وتقدم أن مولده بالرى سنة ثمان وأربعين ومائة وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وشهرين ونصف رحمه الله تعالى :

(فصل) ولما توفى الرشيد ولى الخلافة ولده محمد الأمين وكان مليح الصورة أبيض جميلا فصيحا بليغا سىء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن لا يصغى إلى قول المشير .

ولما ولى الخلافة اتخذ اللهو شعاراً وشرب الخمر خمارا وخلع العذار فى العذارى واشترى عريب المغنية بمائة ألف دينار وجارية بن عمه ابراهيم بن المهدى بعشرين ألف ألف دينار وعزل أخاه المؤتمن وخلع أخاه المأمون وأرسل إلى الكعبة المعظمة من جاءه بصحيفة عهد والده له ولأخويه فمزقها وعهد إلى ولد له رضيع سماه الناطق بالحق ودعى له على المنابر وممن نصح الأمين ومنعه عن هذا الغدر والنكث حازم ابن خزيمة فقال له يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك وإنى أنصحك وأصدقك ولا أكذب فى نصيحك لاتجرى القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثون عهدك وان الغدر شؤم والناكث منكوب مغلوب وصاحب الحق مظلوم وجرت العادة بنصر المظلوم وتوجه القلوب إليه ورقت النفوس عليه ولذلك تأثير فى الظاهر والباطن فأبى الأمين منه ونبذ كلامه وعمل برأيه السقيم وصمم أشد تصميم وأرسل جيشا مع على بن عيسى إلى أخيه

Marfat.com

المأمون عدتهم أربعون ألفا وأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين ومعه أربعة آلاف مقاتل فانهزم على بن عيسى وقتل وذبح وتشتت عساكره وجاء طاهر بن الحسين برأسه إلى المامون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله فقوى قلب المأمون بذلك وكثر أتباعه ومال الناس اليه فجمع الجموع وسار إلى بغداد لقتال أخيه الأمين ولا زال أمر المأمون يحسن بحسن تدبيره وامتثال الناس اليه ويضعف الأمين فى لهوه وغفلته ولعبه مع نسائه بحضرته واحتجابه عن أهل دولته إلى أن هجم طاهر ابن الحسين ودخل إلى بغداد فجاء مسرور الخادم إلى الأمين وهو فى جنب حوض مع جواريه يصيد معهن السمك من ذلك الحوض وكان وضع فى أنف كل سمكة درة نفيسة شبكها بقضيب الذهب فكل من صادت من جوارية سمكة كانت الدرة التى فى أنفها لصائدتها فرفع الأمين رأسه إلى مسرور فقال له أن طاهر بن الحسين دخل بعسكره إلى بغداد فقال له دعنى فان الجارية فلانة صادت مشنفتين وأنا ماصدت شيئا فرجع مسرورا باهتا وإذا بالجند قد أحاطوا بدار الخلافة ونهبوها وأمسك طاهر بن الحسين الأمين وحبسه فلما شاهد الأمين هذا الحال قال لطاهر بن الحسين يا طاهر إعلم أنه ما قام لنا قائم قط فكان جزاؤه عندنا الا السيف فانظر لنفسك أودع يلوح بأب موسى الخراسانى الذين بذلوا أموالهم فى قيام الدولة العباسية فكان مآلهم إلى القتل وهذه عادة الله تعالى فيمن ذكر من مقيمى الدول كمروان سعيد أقام دور السفاح فقتله المنصور وكعبد الله القائم بدولة العبيديين قتله عبيدالله المهدى وأمثال ذلك كثير فأثرت هذه الكلمات فى قلب طاهر وصار يحذر منها إلى ان كان آخر قتله بيد المأمون

ولما راى طاهر بن الحسين بعد الاستيلاء على الأمين وحبسه عدم سكون الفتنة ادخل اعاجم لا يعرفون اللسان على الأمين وأمرهم بقتلة فقتلوه فأخذ برأسه وطيف به فى مدينه بغداد ونودى عليه هذا رأس المخلوع إلى ان سكنت الفتنة وكان ذلك فى المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

قال محمد بن راشد اخبرنى إبراهيم بن المهدى انه كان مع الأمين لما حوصر قال فطلبنى فى ليلة مقمرة فجئته فقال ما ترى فى حسن هذه الليلة وضوء هذا القمر

Marfat.com

فاشرب معى نبيذا فسقانى ثم طلب جارية تغنيه فجاءت جارية إسمها ضعف فتطيرت منها وغنت بشعر النابغة الجعدى .

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأسير ذنباً منك مزج بالدم

فتطير من ذلك وقال غنى غير هذا فغنت تقول .

أبكى فراقهم عينى فأرّقها ان التفرق للاحباب بكاء

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عداء

فقال لها لعنك الله أما تعرفين غير هذا فقالت :

أما ورب السكون والحرك أن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك

وملك ذى العرش دائم أبدا ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها قومى لعنك الله فقامت فعثرت فى كاس بلور فكسرته فازداد تطيره فقال يا ابراهيم ما أظن أرى إلا قد قرب وإذا بصوت سمعناه من الشارع قضى الأمر الذى فيه تستفتيان فقام مغتما وقمت عنه فأخذ بعد ليلتين وقتل تجاوز الله تعالى عنه وعظم قتل الأمين على المأمون وكان يريد أن يرسل به طاهر ابن الحسين إلى أخيه حيا ليرى رأيه فيه فحقد ذلك على طاهر حتى عاش طريدا بعيدا وآل أمره إلى ما آل .

« فصل » لما تم على الأمين ماتم وكان ذلك على أمه زبيدة أعظم مأثم آل الملك إلى عبدالله المأمون بعد قتل أخيه فى سنة ثمان وتسعين ومائة .

وكان من أتم رجال بنى العباس حزما وعزما وعلما وحلما وفراسة وفهما سمع الحديث على جماعة وتأدب وتفقه وبرع فى فنون التاريخ والأدب ولما كبر اعتنى بالفلسفة وعلوم الأدب فضل وأضل ومحن الناس بالقول بخلق القرآن ولولا ذلك لكان يعد من أكمل الخلفاء وكان يضرب المثل بحلمه .

Marfat.com

ومن أنصافه أنه رأى آل النبي صلى الله عليه وسلم أحق بالخلافة من غيرهم وهم بخلع نفسه وتفويض الأمر إلى على بن موسى الكاظم وهوالذى لقبه بالرضى وضرب الدنانير والدراهم باسمه وزوجه ابنته وأمر بترك السواد ولبس الخضرة وجعله ولى عهده فى الخلافة فاشتد ذلك على بنى العباس وخرجوا عليه وبايعوا ابراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك فثار المأمون عليه فهرب منه واختفى ثمان سنين ثم جاء إلى المأمون فى صفر سنة أربع ومائتين .

وتوفى الإمام على بن موسى الرضى فى سنة ثلاث ومائتين وأسف عليه المأمون وأراد إقامة غيره فذكرا لصولى أن بعض نصائحه قال له انك فى برك بأولاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه والأمر فيك أقدر على برهم والأمر فيهم وكلم العباسيون فى إعادة لبس السواد فأبى فكرروا ذلك عليه إلى أن أجابهم إلى ذلك وأعاد شعار السواد وكان كثير الجهاد وهو الذى افتتح قرة حصار وكان كثير العبادة قيل أنه ختم فى شهر رمضان ثلاثة وثلاثين ختمة وكان العلماء محونين فى أيامه يجبرهم على القول بخلق القرآن فدعوا عليه فأهلكه الله تعالى .

ويقال أن سبب موته أنه اشتهى أكل سمكة تسمى الرعادة أن لمسه أحد أخذته النفاضة من ساعته ابردها فأكل منها فمات لوقته وما أمن المأمون من أظفار ريب المنون ونقل من الملك إلى الهلك جسمه المصون وواراه التراب عن الأحباب وسالت العيون ورجع إلى ربه الكريم وإنا إلى الله راجعون وكان وفاته لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين بأرض الروم ودفن فى طرسوس وفيه قال أبو سعيد المخزومى .

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ مون أو عن ملكه المأسوس
خلفوه بعرصتى طرسوس مثل ماخلفوا أباه بطوس

« فصل لما مات المأمون ولى بعده الخلافة أبواسحق محمد المعتصم بن هارون الرشيد »

مولده سنة ثمانين ومائة

وكان يقال له المثمن لأنه ثامن الخلفاء وثامن أولاد الرشيد والثامن من ولد

Marfat.com

العباس واستخلف سنة ثمان عشرة ومائتين وملك ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانية وأربعين سنة .

وذكر الصولى قال كان مع المعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه القرآن فمات الغلام فقال له الرشيد يامحمد مات غلامك قال نعم ياسيدى واستراح من الكتاب فقال ياولدى وان الكتاب يبلغ منك هذا المبلغ وقال لمعلمه اتركه لاتعلمه شيئا فانتشأ عاميا يكتب كتابة مغشوشة ويقرأ قراءة ضعيفة وقال نفطويه كان المعتصم من أشد الناس قوة وبطشا كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره نقل ذلك الحافظ السيوطى وتلك قوة عظيمة ما وصل إليها أحد .

قال وهو أول من أدخل الأتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الأعاجم وبلغ غلمانه الأتراك ثمانية عشر ألفا .

وبعث إلى سمرقند وفرغانه أموالا لشراء الأتراك وألبسهم أطواق الذهب والديباج وكانوا يطردون الخيل فى بغداد ويؤذون الناس فضاقت بهم البلد فشكاهم أهل بغداد إلى المعتصم واجتمعوا على بابه وقالوا أن لم تخرج جندك الأتراك عنا حاربناك قال كيف تحاربونى وأنتم عاجزون عن حربى قالوا نحاربك بسهام الأسحار ونسل عليك سيوف الدعاء فقال والله لا أطيق ذلك ولكن أنظرونى لأنظر لى بلداً أستقل بهم فيها ولا تتضررون بى وكفوا على سهام دعائكم فبنى مدينة سرمن رأى بقرب بغداد وانتقل إليها فى سنة عشرين ومائتين وللمعتصم عدة غزوات مع الكفار أشهرها غزوة عمورية ظهرت له فيها اليد البيضاء ونصر فيها الملة المحمدية الغراء وخذل فيها الكفرة أعداء الدين وأعز فيها الإسلام والمسلمين .

وملخصها أن ملك الروم كان إذ ذاك من أكبر ملوك النصارى أرسل كتاباً للمعتصم يهدده فاستشاط غضبا فكتب له الجواب فلم يرضه شىء منها ومزق الكتاب الذى ورد عليه وأمر أن يكتب فى ظهر قطعة منها .

بسم الله الرحمن الرحيم الجواب ماتراه لا ما تقرأه وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وتجهز من ساعته فمنعه المنجمون وقالوا أن الطالع نحس فقال هو نحس عليهم

Marfat.com

لا علينا وسافر من يومه وتلاحقت العساكر ووقع حرب عظيم قتل فيه ستون ألفاً من النصارى وأسر منهم ستون ألفاً وهرب ملكهم وتحصن بحصن عمورية فحاصره المعتصم ونزل به إلى أن فتحه وأسر ذلك الملك الكافر وقتله وكان ذلك فتحا عظيما من أعظم فتوح الإسلام ومدحه الشعراء بقصائد طنانة وأحسن ماقيل فيها قصيدة أبى تمام التى سارت بها الركبان وطنت حصاتها فى الأسماع والآذان وهى :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
ولو تبين أمر قبل موقعه ... مايخفى ما حل بالأوثان والصلب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
فتح الفتوح المعلى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتقب
لم يرم قوما ولم ينهض إلى بلد ... ألا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم ألوغا لغدا ... من نفسه وحدها فى عسكر لجب
عداك حر الثغور المستضاءة عن ... برد الثغور على سلسالها الخضب
حتى تركت عمود الشرك منعفراً ... ولم تفرج على الاوتاد والطنب
ان الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
ان كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب

أنظر إلى هذا الدر المنضود والجوهر الذى يذرى بجوهر العقود وتنزه فى رياض ألفاظه ومعانيه واجتنى ثمار البلاغة من مقاطف أزهاره ومجانيه وخذ بالحظ الوافر من ذوق تراكيبه ومبانيه .

وكان المعتصم من اغلظ الخلفاء الذين الزموا الناس بخلق القرآن وجبر علماء

Marfat.com

الإسلام على ذلك وأذاقهم الهوان وهذه من أعظم خلاله الردية مع أنه كان عامياً لاحظ له من الكمالات العلمية بل حمله على ذلك مجرد الجهل والعصبية وما كان أغناه هو وأخوه عن إلزام العلماء بهذه الجهليات عدواناً وبغياً وما لهم والدخول فى هذه المسالك الضيقة ضلالا وغيا وما حملهم على ذلك غير الجهل والغرور بهذه الدنيا فما أسرع ما ذهبوا وذهب غرورهم وعزهم بددا ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا :

ولما جرد عليه الأجل سيف المنون ما عصم المعتصم ظهورا لحصن ولا بطون الحصون ولا منعه عن حسام الحمام مال ولا بنون .

كل حى لاقى الحمام فردى مالحى مؤمل من خلود
لا تهاب المنون شيئاً ولاتر عى على والد ولا مولود
يقدح الدهر فى شماريخ رضوى ويحط الصخور من هبود
ولقد تنزل الحوادث والآيا م وهنا فى الصخرة الجلمود
وأرانا كالزرع يحصدنا الد هر فمن بين قائم وحصيد
يحكم الله ما يشـــاء ويمضى ليس حكم الله بالمردود
ليس ينجى من المنون حصون عاليات ولا حصـار حديد

ومن أرجى دعائه لما احتضر اللهم إنك تعلم إنى أخافك من قبلى لا من قبلك وأرجوك من قبلك لا من قبلى فيـا من لايزول ملكه ارحم ملكا قد زال ملكه .

وتوفى إلى رحمة الله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين .

﴿ فصل وولى الخلافة بعد المعتصم أبو جعفر ولقب الواثق بالله ﴾ فى تاسع ربيع الأول سنة ثمان وعشرين ومائتين .

ومولده لعشر بقين سنة ست وتسعين ومائة وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس واستخلف تركيا اسمه اشنامس ولقبه بالسلطان وهو أول خليفة استخلف سلطاناً وألبسه وشاحين وتاجا بجوهر او تبع أباه فى القول بخلق القرآن ثم رجع عن ذلك آخر عمره.

Marfat.com

قال الخطيب كان أحمد بن داود حاضرا فقال الرجل وهو مكبل بالحديد أخبرونى عن هذا الرأى الذى دعوتم الناس إليه هل هو علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدع الناس إليه أو لم يعلمه فقال ابن داود بل علمه فقال فكان يسعه أن لايدع الناس إليه وأنتم لا يسعكم فبهتوا وضحك الواثق وقام قابضاً على فمه ودخل بيته ومد رجليه وهو يقول وسع النبى صلى الله عليه وسلم أن يسكت عنه ونحن لا يسعنا وأمر أن يعطى الرجل ثلثمائة دينار وان يرد إلى بلده ولم يمتحن أحد بعدها ومقت ابن داود من يومئذ ولم يرتفع له شأن والرجل هو أبو عبد الله بن محمد الازدى شيخ الكسائى ، وكان الواثق عالما شاعرا حاذقا كثير الأكل أكثر بنى العباس رواية للشعر ومن شعره فى واقعة حال له

حياك بالنرجس والورد معتدل القامة والقد
فألهبت عيناه نار الجوى وزاد فى اللوعة والوجد
أملت بالملك وصالا به فصار ملكى سبب البعد
مولى تشكى الظلم من عبده فأنصفوا المولى من العبد

قال الصولى أجمعوا على انه ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات فى الرقة واللطف .

مات بسر من رأى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وحكى أنه لما مات ترك وحده واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جردون واستل عينيه وأكلها فسبحان العزيز المتعال وتبارك القوى القادر ذو الجلال بيده الملك لا يزول ولا يزال.

(ثم ولى بعد أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد العباسى) ، ولد سنة خمس ومائتين وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات أخوه فيه وأمه أم ولد تركية اسمها شجاع وكان كريما ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطاه المتوكل وكان سنياً سنياً أظهر السنة وأكرم علماء الحديث وأمات البدع ومنع القول بخلق القرآن وألبس النصارى بلبس الغل وشنع على الجهمية والمعتزلة وأمر نائبه بمصر أن

Marfat.com

يحلق لحية قاضى مصر ابن أبى الليث ويطوف به الأسواق على حمار لأنه كان جهميا معتزليا يقول بالجهة وخلق القرآن .

ومن أفعاله الشنيعة أنه هدم قبر الحسين بن على رضى الله عنهما فى سنة ست وثلاثين ومائتين وهدم ما حوله من الدور وجعله مزرعة ومنع من زيارته فتألم الناس لذلك وكتبوا شتمه على الحيطان وقيل فيه .

تالله ان كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنوا أبيه بمثله هذا لعمرى قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما

وهذا الفعل السىء محا جميع محاسنه وصار ماء عذب من زلال إحسانه مغلوبا باجاجه وآسنه وعدت عليه هذه الزلة أفضح فضيحة وهذه الخلة الشنيعة أقبح من كل قبيحة .

ووقعت فى أيامه عجائب منها أن النجوم ماجت فى السماء وتناثرت كالجراد ولم يعهد قط مثل ذلك ورجمت قرية السويداء بناحية مصر بأحجار من السماء فوزن حجر منها فكان عشرة أرطال وسار جبل باليمن عليه مزارع إلى جبل آخر ووقع فى قرية طائر دون الرخمة فصاح يا معشر الناس اتقوا الله أربعين مرة وجاء من الغد ففعل ذلك فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد وكتبوا فيها شهادة خمسمائة إنسان سمعوا ذلك بآذانهم وذلك فى رمضان سنة إحدى وأربعين ومائتين وحصلت الزلازل وغارت عيون مكة فأرسل المتوكل إلى مكة ألف مائة دينارا ذهبا لاجراء ماء عين عرفات إليها فصرف فيها إلى أن جرت ذكر ذلك السيوطى رحمه الله .

وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى كتابه اتحاف الورى بأخبار أم المقرى فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين فيها غارت عين مشاش وهى عين مكة فبلغ ثمن القربة درهما فبعث المتوكل على الله جعفر بن المعتصم مالا فأنفق عليها حتى جرت كذا ذكره ابن الأثير فى تاريخه وهذه العين من عمل زبيدة وهى عين بازان ظنا انتهى .

قلت عين مشاش موجودة إلى الآن وهى من جملة العيون التى تنصب فى دبل

Marfat.com

عين حنين وهى تجرى وتضعف أحيانا بقلة المطر ومحلها معروف .

ولما كثرت المماليك فى بغداد ودخلو فى أمر الملك استولوا على المملكة وصار بيدهم الحل والعقد والولاية والعزل إلى أن حملهم الطغيان على العدوان وسطوا على الخليفة المتوكل لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيف التركى لكثرة أمواله وخزائنه فتعصب له باغر التركى وانحرف الأتراك عنه فدخل باغر عليه ومعه عشرة أتراك وهو فى مجلس أنسه وعنده وزير الفتح بن خاقان بعد أن مضى من الليل ثلاث ساعات فقال الفتح ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم وهرب كل من كان حوله من الغلمان والندماء على وجوههم وبقى الفتح وحده والمتوكل غائب عن نفسه من السكر فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقدّه إلى خصره فطرح الفتح نفسه عليه فضربهما باغر ثانية فماتا جميعاً فلفهما فى بساط هو ومن معه ولم ينتطح فى ذلك شاتان ،

وكان قتله فى ليلة الأربعاء لليلتين مضتا من شوال سنة سبع واربعين ومائتين فى القصر الجعفرى وكان بناه المتوكل ولما قتل دفن فيه رحمه الله تعالى هو ووزيره الفتح بن خاقان رحمهما الله تعالى .

وكانت خلافته أربعة عشر عاما وعمره لإحدى وأربعون سنة . (وولى بعده ولده محمد أبو جعفر المنتصر بالله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسى) . بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه ولم يتهن بالملك لاستيلاء المماليك الأتراك على المملكة ويقال أنه واطأ الأتراك على قتل أبيه ليلى الخلافة بعده والله علم بذلك .

وكان على حذر من الأتراك ويسبهم ويقول هؤلاء قتلة الخلفاء فلم يأمنوه وأرادوا قتله فما أمكنهم الأقدام على ذلك لشدة محاذرته منهم فدسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند توعكه ليسمه فقصده بمبضع مسموم فأحس بذلك وأراد قتل الطبيب فقال له انك تصبح طبيبا وتندم على قتلى فأمهلنى إلى الصبح فأمهله فأصبح ميتا .

ويحكى أنه بات ليلة فى وعكه فانتبه فزعا وهو يبكى فسألته أمه ما يبكيك فقال أفسدت دينى ودنياى رأيت والدى الساعة وهو يقول قتلتنى يا محمد لأجل الخلافة

Marfat.com

والله لا تتمتع بها إلا أياما قلائل ثم مصيرك النار فاستمر موهوما من هذا المنام فما عاش بعد ذلك إلا أياما قليلة وذكر بن يحي المنجم أن المنتصر جلس يوما للهو وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولته الملوك ففرش فرأى فيه صورة رأس عليه تاج وعليه كتابة بالفارسية فطلب من يستخرج تلك الكتابة فأحضر لذلك رجل من الأعاجم فقرأه بلسانه وعبس عند قراءتها فسأله المنيصر عنها فقال لا معنى لها فألح عليه فقال أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبى فلم أتمتع بالملك إلا ستة أشهر وهى مشهورة فتغير وجه المنتصر لذلك وأقام من ذلك المجلس وترك اللهو الذى أراده وصار مغتما مهتما به .

وكان على خلاف رأى أبيه فى آل أبى طالب وأعاد قبر الإمام الحسين بعد ما كان هدمه أبوه وأمر بزيارته ورد على آل الحسين حائط فدك .

وقصته مشهورة وهى مما تنقمه الشيعة على سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وإنما فعل ذلك لحديث سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ووافقه على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ولم ينقض ذلك الحكم لما آلت الخلافة إليه لعلمه أن ذلك هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال وكانت خلافة المنتصر ستة اشهر كما توهمه

قال أبو منصور الثعالبي رحمه الله فى العجائب أن أعرق الأكاسرة فى الملك شيرويه قتل أباه فلم يعش بعده إلا ستة أشهر .

قلت وكل منهما مات مسموما وكانت وفاة المنتصر بالقصد بمبضع مسموم كما قدمناه لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين وكان عمره ستا وعشرين سنة .

(ثم تولى بعده أبو العباس أحمد المستعين بالله بن المعتصم بالله عم المقتدر بالله أخو المتوكل على الله) وإنما قدمه الترك واختاروه وعدلوا عن أولاد المتوكل لأنهم قتلوه فخافوا أن يلى الخلافة أحد من أولاده فيأخذ بثأر أبيه فاختاروا من أولاد المعتصم المستعين بالله .

Marfat.com

ومولده سنة إحدى وعشرين ومائتين وأمه أم ولد تسمى مخارق وما كان له من الخلافة إلا الاسم وكانت المماليك الأتراك مستولين على الملك وكان الأمر جميعه لوصيف التركى وباغر التركى حتى قيل فى ذلك:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول البغا

فاستمر كذلك وهو يترصد لهما إلى أن ظفر بوصيف التركى فقتله ونفى باغر التركى الذى كان سلطانا فى المتوكل وقتل به فتنكرت له الأتراك فخرج عنهم من سامرا إلى بغداد فأرسلوا إليه يعتذرون منه ويسألونه فى العود إلى سامرا وهو محل الأتراك فامتنع منهم وكان المستعين فاضلا دينا أخباريا مطلعا على التواريخ متجملا فى ملبسه وهو أول من أحدث الأكمام العراض فجعل عرض الكم ثلاثة أشبار وهو الآن من شعار سادتنا أشراف مكة بنى حسن أعزهم الله تعالى ولما أبى المستعين عن العود إلى الأتراك فى سامرا قصد الأتراك خلعه فأتوا إلى الحبس واستخرجوا منه محمداً أبا عبد الله بن المتوكل على الله ولقبوه المعتز بالله وبايعوه عمره تسعة عشر عاما ولم يل الخلافة أصغر سناً منه وخلعوا المستعين بالله فى أول سنة اثنتين وخمسين ومائتين وجيشوا إلى بغداد جيشاً كثيفاً على المستعين بالله وقاتلوه وقاتلهم ودام القتال أشهرا وكثر القتال وغلت الأسعار وعظم البلاء وتلاشا أمر المستعين بالله إلى أن خلع نفسه وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك فأخذوه وانحدروا إلى واسط وحبسوه بها تسعة أشهر ثم ندب له سعيد الحاجب فذبحه فى الحبس فى ثالث شوال سنة اثنين وخمسين ومائتين وله إحدى وثلاثون سنة رحمه الله واستمر المعتز بالله خليفة وكان بديع الحسن مليح الصورة وليس فى الخلفاء أجمل حسنا منه وكان مستضعفا مع الأتراك وكان صالح بن وصيف مستولياً على المعتز خائفاً منه فاجتمع الجند عليه وطلبوا منه أرزاقهم فركبوا معه على صالح بن وصيف وقتلوه فيصفو له الملك ولم يكن فى خزائنه مال ليصرفه عليهم وطلب من أمه وكانت تركية اسمها قبيحة لفرط جمالها فأبت عليه وشحت بالمال وسمحت بولدها وهو خليفة وكان معها مال عظيم

Marfat.com

فاتفقوا الأتراك على خلعه وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن باغر وأتوا إلى دار الخلافة وهجموا على المعتز وجروا برجله فأوقفوه فى الشمس وعذبوه حتى خلع نفسه وأدخلوه الحمام ومنعوه من شرب الماء إلى أن مات عطشا .

وأحضروا أبا عبد الله محمد بن الواثق بالله ولقبوه المهتدى بالله بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد وبايعوه بالخلافة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وله بضع وثلاثون سنة وصادر صالح بن وصيف أم المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهبا ونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد وثلث أردب ياقوت أحمر ثم أخرجت إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت وأقل الناس الترحم عليها حيث ظهر عندها هذا المال وشحت به على ولدها .

وكان المهتدى كثير العبادة ليس له من الأمر شىء وكان قد أطرح الملاهى ومنع الظلمة عن الظلم فاتفق الأتراك على خلعه وركبوا عليه فخرج إليهم وقاتلهم بنفسه إلى أن مسكوه باليد وعصروا على بطنه إلى أن مات رحمه الله تعالى فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين وكانت خلافته سنة إلا خمسة عشر يوما (وولى الخلافة بعده ابن عمه أبو جعفر أحمد) وتلقب المعتمد على الله وستأتى ترجمته قريبا إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

الباب الخامس

فى ذكر الزيادتين

اللتين زيدتا فى المسجد الحرام بعد تربيعه الذى أمر به المهدى بن المنصور العباسى وشرع فيه فأدركته الوفاة قبل إتمامه وأتم فى ولاية الهادى بن المهدى المذكور كما سبق شرح ذلك فيما تقدم ووقع ترميم فى الجانب الغربى من المسجد الحرام قبل الزيادتين فى أيام المعتمد على الله العباسى ثم بنيت الزيادة الكبرى فى الجانب الشمالى من المسجد الحرام فى أيام المعتضد بالله ثم زيدت الزيادة الصغرى فى الجانب الغربى من المسجد الحرام فى أيام المقتدر بالله فلنذكر تراجم هذه الخلفاء ولنذكر ما أحدثوه فى المسجد الحرام من تجديد وزيادة وترميم على الترتيب إن شاء الله تعالى مع ماتذكر فى ضمن ذلك من الفوائد الاستطرادية ترويحا للنفس وتسببا لحصول الفوائد والأنس توفيقا على أحوال الدهر وتعريفا بما يحدث من الحوادث فى كل عصر لئلا يعتمد العاقل على هذه الدنيا ويعتبر بمن قبله فى غدر هذه العجوز العميا وهذه الفوائد فى الحقيقة هى نتائج علم الأخبار ليعتبر المعتبر حال نفسه بحال غيره فى هذه الدار فان من قواعد الحكمة أن أفعال الفاعل متشابهة الآثار والله تعالى هو الفاعل المختار وأن دار الآخرة هى دار القرار .

وقد وجدت محل القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فقل

لما قتل متغلبة العبيد الأتراك الخليفة المهدى بالله صبرا عمدوا إلى الحبس وأخرجوا منه ابن عمه جعفر ،

أحمد بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن الرشيد العباسى

ولقبوه المعتمد على الله بايعوه على الخلافة فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين مولده سنة تسع وعشرين ومائتين وأمه أم ولد رومية اسمها فتيان وكان له انهماك

Marfat.com

على اللهو واللذات فقدم أخاه طلحة بن المتوكل على الله ولقبه الموفق بالله وجعله ولى عهده وولاه المشرق والحجاز واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند وكان له ولد صغيراسمه جعفر لقبه المفوض إلى الله وولاه المغرب والشام والجزيرة وعقد لهما الوائين أبيض وأسود وعقد لهما البيعة وشرط على أخيه الموفق أنه إن حدث به الموت وولده صغيرا كان الموفق ولى عهده وإن كان حينئذ ولده كبيرا كان ولده ولى عهده وكتب بذلك معاقدة كتب كل منهما خطه عليها وكتب عليها القضاء والعدول خطوطهم وأرسلها إلى مكه فعلقت فيها وما أفاد من هـذه التدابير حذر من قدر وما وقع إلا ما قدره الله تعالى وكان الموفق عاقلا مدبر شجاعا مشتغلا بأمور المملـكة مدبرا ملتفتا لأحوال الرعية وكان أخوه المعتمد مكبا على لهوة ولذاته مهملا لأحوال الرعية غير ملتفت لأمور المملـكة فـكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق بالله وظهرت منه نجابات كثيرة .

وكان ميمون منقيب مظفرا فى الحروب وكان ظهر فى أيام المعتمد على الله طائفة الزنج وتغلبوا على المسلمين وكان لهم رئيس اسمه بهبول يدعى أنه أرسله الله إلى الخلق وادعى علم المغيبات وفتك فى المسلمين حيث ذكر الصولى أنه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف مسلم وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهن بأبخس الأثمان وكان ينادى على العلوية والشريفه بدرهمين وكان عند الزنج نساء شريفات يطؤهن ويمتهنهن فى الخدمة الشاقة وكان ذلك من أعظم المصائب فى الاسلام وتملك هذا الـكافر مدنا كثيرة أخذها من المسلمين واستأصل أهلها وجعلها دار مملـكته كواسط ورامهرمز وماوالاهما فانتدب لقتاله الموفق بالله وجمع الجموع والعساكر ممن حنكته وقائع الحروب ورسمته قوارع الخطوب فاتخذهم جنانا ويدا ورضى بهم ساعدا أو عضدا وتعصب لعمود الاسلام وأعد السيوف والرماح والسهام وركض بجحفله إلى الأعداء الـكفرة اللئام إلى أن التفت الفئتان على حرمة الحرب وتساقيا كؤس الطعن والضرب فجعلت السودان من لمعان الصارم الأبيض وولو الأدبار للفرار كما يفر الليل الأسود من النهار المبيض وانهزموا ما بين مقتول ومأسور ومجروح ومكسور غير مجبور إلى أن قتل كبيرهم بهبول ووجوه عسكره المخذول ونصر الله

تعالى ملة الاسلام ومحى بنوره ذلك الظلام واستردت المدن التى أخذها بالكفر والعناد كواسط ورامهرمز غيرهما من البلاد واطمأنت المسلمون وكافة العباد (ولقبوه الناضر لدين الله) وصار له حينئذ لقبان ودخلى إلى بغداد فى عظمة وعلو شأن ورأس ذلك الكافر على رمح ورؤس كبار عسكره على الأرماح ودعاله المسلمون وقصده الشعراء بالقصائد والأمداح فاحبه الناس وبعد صيته وكثر فى بابه المداح واستفحل أمره ولاحت له السعادة والفلاح واستمر أخوه المعتمد على حاله منهمكا فى لهوة ولذاته وله اسم الخلافة وجميع الأمور يتلقاها الموفق بصدر منشرح ويسد غاية السداد .

وفى أيامه سنة إحدى وسبعين ومائتين وقع وهن فى بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربى قبل زيادة باب إبراهيم وكان فى نفس الجدار الغربى من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخياطين وكان بقربه دار تسمى دار زبيدة بنت أبى جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام فانكسرت أخشابه وانهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد الشريف ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس وكان عامله بمكة يومئذ هلبرون بن محمد بن اسحاق وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضى .

فلما رفع أمر هذا الهدم إلى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله عامله على مكة هارون المذكور بعمارة ما تهدم من المسجد الشريف وجهز إليه مالا بسبب ذلك فشرع فى عمارته وجدد له سقفا من خشب الساج ونقشه بالألوان المزخرفة وأقام الاسطوانتين الساقطتين وبنى عقودهما وركب السقف ونصب فى أيام عمارته سرادقا بين العمال والبنائين وبين الناس يسترهم عن أعين من بالمسجد إلى أن أكمل ذلك فى سنة اثنين وسبعين ومائتين وركب من الحجر لوحين فى جدار المسجد الشريف فى ذلك الجانب نقش فى لوح الحجر ما صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم : أمر الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين أبو أحمد الموفق بالله أخو أمير المؤمنين أطال الله بقاءهما القاضى يوسف بن يعقوب بعمارة المسجد الحرام لما فى ذلك من رجاء ثواب الله تعالى أجزل الله ثوابه وأجره وتم

Marfat.com

ذلك على يد محمد بن العلاء بن عبد الجبار فى سنة اثنين وسبعين ومائتين والحجران المذكوران لا وجود لهما الآن بل محاهما الدهر والأزمان وعفا أثرهما القديم الجديدان كما عفا أثر غيرهما من العمائر والبنيان ودار عليهما الدوران ولا يبقى الأثر أيضا بعد زمان .

الدهر تفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وقد نقلت صورة تلك الكتابات من تاريخ مكة للامام أبى عبد الله محمد بن اسحاق الفاكهى رحمه الله تعالى .

وكان للموفق بالله ولد نجيب هو أحمد أبو العباس جعله الموفق ولى عهده واستعان به فى حروبه وأحواله وظهرت به نجابة وقوة فخشى الموفق منه على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبسالته فأودعه بطن الحبس ووكل به من يبق به فى أمره واستمر محبوسا إلى الزمان الذى قدره الله تعالى له .

ثم وقعت الوحشة بين المعتمد على الله وأخيه الموفق بالله المذكور وتباغضت قلوبهما وتشاحنت الصدور فان الرياسة الدنيوية لا تقبل الاشتراك والغيرة على الملك والسلطنة أسرع شىء يوغر صدور الأملاك والانفراد والاستقلال مما يتفانى عليه أبناء الدنيا من أصحاب الأملاك .

وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

ولما كان المعتمد على الله مع كونه عاجزا عن أخيه الموفق كان يحسده ويريد هضمه لاستيلائه على المملكة ورضى الناس عنه واشتغاله بالفحص عن أحوال الرعية عن الملاهى والملاذ فاستعان المعتمد على الله فى هضم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذ أحمد بن طولون وكان ملكا شجاعا فاتكا صاحب جيوش وجنود كثيرة الأموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يأخذ خراجها وكانت يومئذ عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتقويته لهم وعدم ظلمه وجوره عليهم فكان يحصل منها أموالا كثيرة جدا بسبب عمارتها وكانت كالروض البهيج فى زهرتها

Marfat.com

ونضارتها وما كانت خرابا يبابا أكثرها مأوى اليوم والصدا ولا تفرق رعيتها من جور ولاتها بدادا عمرها الله تعالى بمعدلة سلطاننا الأعظم وخليفة عصرنا الأكرم الأفخم الذى عمر بمعدلته البلاد سلطان السلاطين (السلطان مراد) ألهمه الله تعالى العدل والرفق بالعباد ومحق بسيفه الصارم أهل الظلم والفساد وأطال عمره ودولته حتى تلحق الأحفاد بالأجداد فكاتب المعتمد على الله أحمد بن طولون وأمره أن يقاتل أخاه الموفق ليخف أمره عليه بذلك ويهون وجرت بينهما من ذلك شؤن واشتغل الموفق بذلك عن أخيه وصار يواليه تارة ويداريه ويباعده تارة ويداليه ومضى على ذلك أيام وانتضى عليه أعوام إلى أن مالت قناة حياة الموفق كل الميل ولزم بطون الفراش بعد متون سوابق الخيل وهى جسده ووهنت قواه ولا صانه حصانه ولا وقاه .

وخانه يده على حمله قلما من بعد حطم القنافى لبة الأسد

فلما اشتد حاله وتحقق عند غلمانه ماله بادروا إلى الحبس وكسروه وأخرجوا منه ولده المعتضد وآووه ونصروه وجاؤا به إلى والده الموفق فلما رآه أيقن بالموت وتحقق وقال له يا ولدى لهذا اليوم خبأتك وفوض إليه وأوصاه بعمه المعتمد خيرا وكان ذلك قبل موت الموفق بثلاثة أيام فعظف الموت على الموفق فركب طبقاً عن طبق إلى أطباق الثرى بالعنق ومضى عن الدار الفانية إلى الدار الباقية والتحق وكانت وفاته رحمه الله فى سنة ثمان وسبعين ومائتين وشمت فى موته أخوه المعتمد وظن أنه استراح من الموفق وما علم أنه عن قليل باخية ملحق وحسب أنه صفاله دهره وما علم أن الصفا يعقبه الكدر وإن الدهر ما صفا لأحد من البشر وإن صروف الدهر تأتى باليمن والعبر وانها لاتبقى ولاتذر فما حال علية الحول حتى استلب ذلك الطول والحول ولم يكن له خذلان من قوة ولا ناصر ولا طال عمره القصير ولا استطال حوله القاصر ولم يبق للمعتمد عمال ولا اعتماد على الدهر الخون القادر وانتقل من الملك إلى ظهر الهلك ومضى كأن لم يكن شيئاً مذكورا وكان امر الله قدرا مقدورا .

وكانت وفاته ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين

Marfat.com

وما بين رحمة الله تعالى ـ وولى الخلافة بعده فى تاريخه بن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بين كامة الموفق به المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسى مولده سنة ثلاث وأربعين ومائتين وبويع له بالخلافة بعد عمه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفا وأمه أم ولد اسمها صواب وكان ملكا مهيبا ظاهر الجبروت وافر العقل شجاعا يقدم على الأسد وحده شديد السياسة إذا غضب على أحد ألقاه فى حفيرة وطم عليه التراب وكان أسقط المكوس فى أيامه ورفع الظلم عن الرعية وجدد ملك بنى العباس بعدما وهى ووهن وأظهر عزة الملك بعدما تذلل وامتهن يسمى السفاح الثانى حيث جدد كل منهما ملك بنى العباس وفى ذلك يقول ابن الرومى.

هنياء بنى العباس أن أمامكم أمام الهدى والجود والباس أحمد
كما بأبى العباس أنشأ ملككم كذا بأبى العباس أيضا يجدد
أمام يظل الأمس يشكو فراقه تأسف ملهوف ويشتاقه غد

وفى ذلك يقول عبد الله بن المعتز أيضاً

أما ترى ملك بنى هاشم عاد عزيزا بعد ما ذللا
يا طالبا للملك كن مثله تستوجب الملك وإلا فلا

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى المعدلة ويبرز أمورا فى صورة الجبروت والعسف وهو فى الباطن محق فيها فيما يفعله وهذا هو الرأى السديد للحاكم الرشيد لجمعه بين سياسة الدنيا والحق عند الله تعالى.

وقد نقل الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى تاريخ الخلفاء عن عبد الله بن حمدون قال خرج المعتضد للصيد وأنا معه فمر بمقثأة فعاث بعض جنوده فيها فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد فأحضره وسأله عن سبب صياحه فقال ثلاثة من غلمانك نزلوا المقثأة فأخربوها فأمر عبيده بإحضارهم فضرب أعناقهم ومضى وهو يحادثنى فقال أصدقنى يا عبد الله ماالذى تنكره الناس على من أحوالى فقلت له تسفك الدماء كثيرا فقال ما سفكت دما حراما فقلت له بأى ذنب قتلت أحمد بن الطيب فقال أنه دعانى إلى الإلحاد وظهر لى إلحاده فقتلته لنصرة الدين قلت فالثلاثة الذين نزلوا المقثأة الآن

Marfat.com

بم استحللت دماءهم ولأى شىء قتلهم فقال والله ما قتلتهم وإنما أحضرت ثلاثة من
١ قطاع الطريق وأوهمت الناس أنهم هم الذين نزلوا المقشأة فأمرت بضرب إعناقهم ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقشأة وأحضرهم بأنفسهم وشاهدتهم ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس وهكذا ينبغى لتدبير السياسة وإظهار النصفة وتخويف الجند وإرعابهم .

ومن معدلته أنه كتب إلى الآفاق بإبطال ديوان المواريث والأمر بتوريث ذوى الأرحام وكانو يحرمونهم الميراث وكانوا يستولون على مخلفات الناس بالظلم ولا يتصل الوارث بجميع حقه من الإرث بل يؤخذ كثير من عين حقه بأنواع التعللات وكان يحصل على الرعية ظلم كثير بسبب ذلك وبعض الظلم باق إلى الآن يسر الله إزالته على يد سلطاننا ووفقه الله تعالى لاحياء المكارم وإسداء المحارم وأعانه على إبطال المظالم .

ولما أمر المعتضد بإبطال ديوان المواريث فى سائر مملكته فرح الناس بذلك وأحبوه ودعوا له بدوام دولته وصار له بذلك صيت عظيم وأمر جميل عند الله الكريم ولعله هو الذى نفعه فى يوم آخرته وأدخله الله جنات النعيم .

وكان من قضاته القاضى أبو خارم بالخاء المعجمة والراء وهو من أكابر العلماء أهل الدين والتقوى فكان من بعض تصلباته فى الدين شخصا انكسر عليه مال كثير للناس وثبت ذلك عليه عند القاضى المذكور فأمر بتوزيع ماله على غرمائه بالمحاصة وقد انكسر على ذلك المديون مال للخليفة المعتضد أيضا فارسل المعتضد القاضى أبو خارم يقول أشركنى مع غرماء هذا المديون بالمحاصة فان لى أيضا مالا فى ذمته فاجعلنى كأحد غرمائه فقال أبو خارم أنى لا أحكم لمدع بدون بينة عادلة فأرسل وكيلا وبينة أرضاها لتكون بأسوة غرماء هذا المديون فأحكم لكن بعد سماع الدعوى والبينة والتزكية سرا وجهرا فأمر المعتضد شهوده ليشهدوا عند القاضى وكانوا من أكابر أمرائه فما حضر أحد منهم إلى القاضى خوفا من رد شهادتهم ولم يحكم القاضى للمعتضد أن يكون من غرماء ذلك المديون فأعجب المعتضد ديانة القاضى وثباته على الحق وتصميمه على ذلك وعدم ميله اليه وما أحوج زماننا هذا إلى قاض

Marfat.com

مثل هذا خصوصا فى أطراف البلاد يقول الحق ويثبت ولا يميل إلى خواطر العباد وكان المعتضد ينظم شعرا حسنا ومن نظمه مارثى به جاريته دائرة .

يا حبيبا لم يكد يفدله عندى حبيب
أنت عن عينى بعيد ومن القلب القريب
ليس لى بعدك فى شىء من اللهو نصيب
لك من قلبى على قلبي وأن غبت رقيب
لو ترانى كيف حالى فرط عول ونحيب
وفؤادى حشوه من حرق القلب لهيب
لتيقنت بأنى فيك محزون كئيب

وقال لما احتضر عفا الله عنه

تمتع من الدنيا فانك لا تبقى وخذ صفوها ما صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إنى منته فلم يبق لى حالا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم يدع عدوا ولم أمهل على جسد خلقا
وأخليت دور الملك عن كل نازل وفرقتهم غربا ومزقتهم شرفا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة ودانت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جمرتى فها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ملقى
وأفسدت دنياى ودينى سفاهة فمن ذا الذى منى بمصرعه اشقى
فيا ليت شعرى بعد موتى ما أرى إلى رحمة الله أم نارة ألقى

ومما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام من الجانب الشامى زيادة دار الندوة وأدخلها فى المسجد الشريف من الجانب الشامى بلصقه إلى رواق الجانب المذكور وهذا المحل يسمى دار الندوة وهى كانت فى زمن الجاهلية دار يجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة فى دفع ذلك الحادث عنهم بالاتفاق على رأى يجمعون على كونه صوابا فيأتون به بعد ذلك وكانت الندوة مما تتفاخر به قريش فى الجاهلية وكان قد اجتمع فى قصى بن كلاب الرفادة والسقاية والسدانة والندوة واللواء ففرقها فى أولاده .

ولما ظهر شأن النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به كثير من قريش من الأنصار

Marfat.com

خاف منه كفار قريش واجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى قتله صلى الله عليه وسلم فظهر لهم إبليس لعنه الله فى صورة الشيخ النجدى واختار لهم من الرأى ما اختاره فنجاه الله تعالى من كيد المشركين وأذن له فى الهجرة كما هو مذكور فى كتب السيرة .

وذكر الله تعالى فى كتابه العزيز حيث قال وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وليست الزيادة هى عين دار الندوة بل محلها فى تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفى الآن إلى آخر هذه الزيادة .

وكانت دار الندوة بعد ظهور الاسلام وكثرة بناء الدور بمكة دار واسعة ينزل بها الخلفاء إذا وردوا مكة ويخرجون منها إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة وكان له فناء واسع صار سباخه ترمى فيه القماقم فاذا حصلت الأمطار الغزيرة سال من الجبال التى فى يسار الكعبة مثل جبل قيقعان وما حوله من الجبال سيول عظيمة إلى ذلك الفناء وجملت أوساخه وقمائمه إلى دار الندوة وإلى المسجد الحرام واحتيج إلى تنظيف ذلك الأوساخ والقماتم من المسجد الشريف كلما سالت سيول هذا الجانب الشمالى وصار ضررا على المسجد الحرام .

فكتب قاضى مكة من قبل المعتضد العباسى القاضى محمد بن عبد الله المقدمى وأمير مكة يومئذ من قبله أيضا عج بن حاج مولى المعتضد المذكور مكاتبات إلى وزير المعتضد يومئذ وهو عبيد الله بن سليمان بن وهب يتضمن أن دار الندوة قد عظم خرابها وتهدمت وكثيرا ما يلقى فيها القمائم حتى صارت ضررا على المسجد الحرام وجيرانه وإذا جاء المطر سالت السيول من بابها إلى بطن المسجد وحملت تلك القمائم إلى المسجد الحرام وإنها لو أخرج ما فيها من القمائم وهدمت وبنيت مسجد يوصل بالمسجد الحرام يصلى الناس فيها ويتسع الحجاج بها لكانت مكرمة لم يتهيأ لأحد غير الخلفاء بعد المهدى والهادى ومنقبة باقية وشرفا وأجرا باقيا على

Marfat.com

طول الزمان وإن بالمسجد خرابا كثيرا وإن سقفه يسيل منه الماء إذا جاء المطر وان مكة قد انكبس بالأتربة فعلت الأرض عما كانت وصارت السيول تدخل من الجانب اليمانى أيضا إلى المسجد الحرام ولا بد من قطع تلك الأراضى وتمهيدها وتنزيلها إلى حد تر فيها السيول منحدرة عن الدخول إلى المسجد الحرام ووصل أيضا إلى بغداد سدنة الكعبة ورفعوا أمرهم إلى ديوان الخلافة إن وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعث وإن الرخام المفروش فى أرضها قد تكسر وان عضادتى باب الكعبة كانتا من ذهب فوقعت فتنة بمكة فى سنة احدى وخمسين ومائتين بخروج بعض العلويين فقلع عامل مكة يومئذ على عضادتى باب الكعبة من الذهب وضربه دنانير واستعان به على حرب العلوى الذى خرج عليه يومئذ وصاروا يسترون العضادتين بالديباج ووقعت بعدها أيضا فتنة بمكة فى سنة ثمان وستين ومائتين فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الربع من الذهب الذى كان مصفحا على باب الكعبة ومن أسفله وما على أنف الباب الشريف من الذهب وضربه دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة وجعل بدل الذهب فضة مموهة على الباب الشريف وعلى أنف الباب المنيف فاذا تمسح الحجاج به أيام الحج تبركا بذلك المكان الشريف ذهب صبغ الذهب وانكشفت الفضة فيجدد تمويهها كل سنة والمناسب إعادة ذلك ذهبا صرفا كما كان وان رخام الحجر الشريف قد تكسر ويحتاج إلى التجديد وإن بلاط المطاف حول الكعبة الشريف لم يكن تاما ويحتاج أن يتمم من جوانبها كلها وإن ذلك من أعظم القربات وأكرم المثوبات وقد رفع إلى الديوان العزيز المبادرة إلى انتهاز ذلك والأمر راجع إلى دار الخلافة الشريفة والسلام فلما أشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد يومئذ الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وكان من أهل الخير له قدم راسخ فى قصد الجميل وفعل الحسنات ونية جميله فى إحراز الأجر والمثوبات بادر إلى عرض ذلك على اسماع الخليفة المعتضد وحسن له اغتنام هذه الفرصة والمبادرة إليها وبذل المقدور فيه فبرز أمر المقتدر إليه وإلى غلامه المؤمر بالحضرة بعمل ما رفع إليه من ترميم الكعبة الشريفة والحجر والمطاف والمسجد الحرام وأن تهدم دار الندوة وتجعل مسجد يلحق بالمسجد الحرام وتوصل

Marfat.com

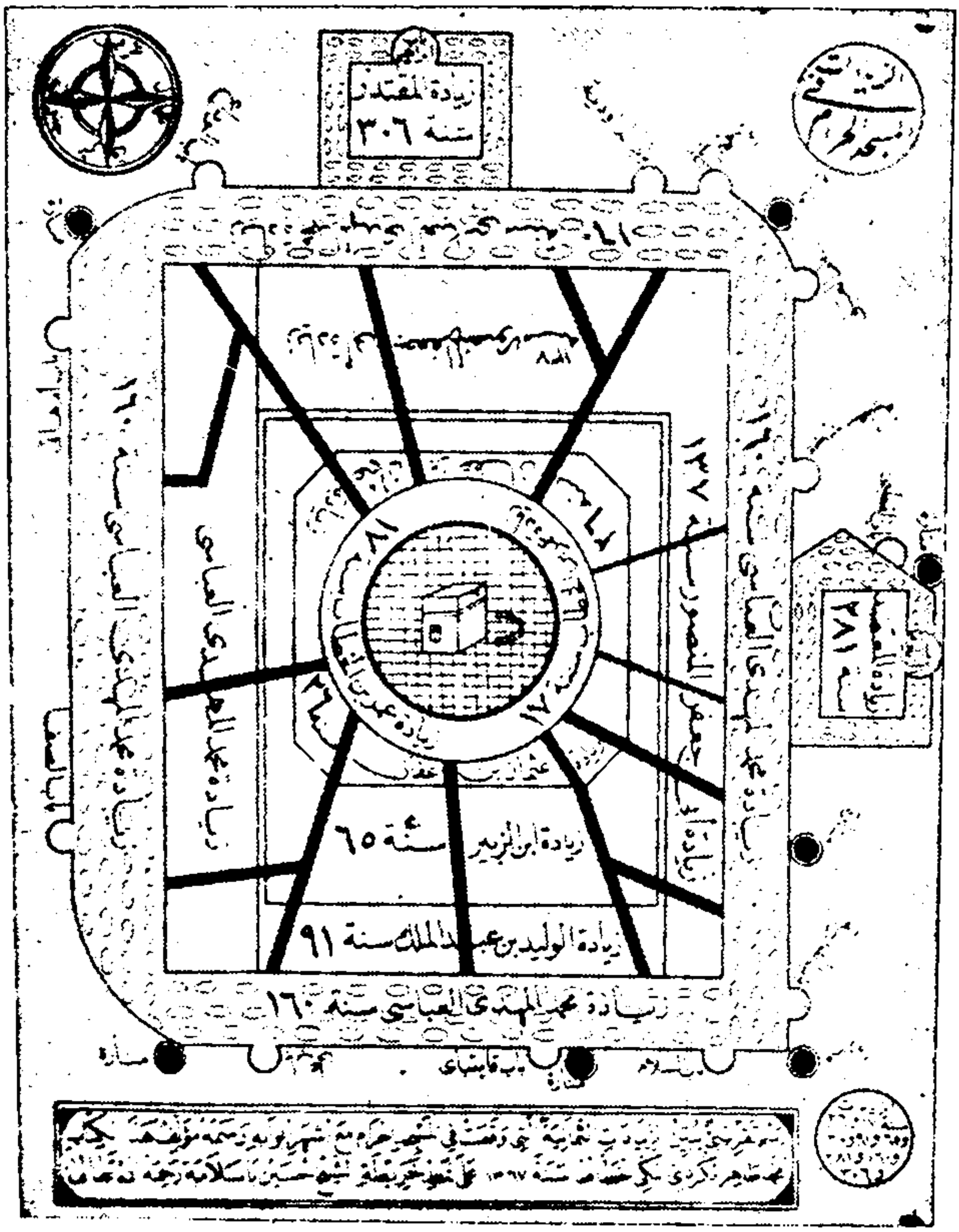

انظر فى صحيفة ٨٨ من كتابنا مقام ابراهيم عليه السلام تجد فيها تفصيلا تاماً عن الزيادات التى حصلت فى المسجد الحرام وإليك خريطة رسمنا فيها جميع الزيادات بوضوح تام

Marfat.com

به (١) وان يحفر الوادى والمسيل والمسعى وما حول المسجد الحرام ويعمق حفرها إلى أن يعود إلى حاله الأولى ويجرى ماء السيل فيه ولا يدخل شيء منه إلى المسجد الحرام فينصان المسجد بذلك عن دخول السيول إليه وأن يحكم ذلك غاية الأحكام ويعمر ما تجب عمارته على وجه الاتقان والاستحكام وأمر أن يحمل من خزائنه مالا عظيما لهذا العمل وأمر قاضى بغداد يومئذ وهو القاضى يوسف بن يعقوب أن يرتب ذلك ويجهز لعماله من يعتمد عليه وأمر بحمل المال اليه فجهز بعضه نقدا فى أيام الحج مع ولده أبى بكر عبد الله بن يوسف وكان مقدما على حوائج دار الخلافة ومصالح طريق الحج وعمارتها وأرسل بباقى المال سفائحا سلمها الى ولده المذكور ليسلمها ممن كتب اسمه فى تلك السفائح وعين معه لهذه الخدمة رجلا يقال له أبو الهياج عميرة بن حسان الأسدى له أمانة وحسن رأى ونية جميلة وسيرة حسنة فوصلا الى مكة فى موسم حج سنة احدى وثمانين ومائتين فحلى بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة وحج وتخلف بعد الحج بمكة أبو الهياج المذكور ومن معه من العمال والأعوان وعاد عبد الله بن القاضى يوسف مع الحجاج إلى بغداد ليرسل اليه ما يحتاج اليه من بغداد لتكميل ما أمر من العمارة المذكورة فشرع أبو الهياج فى حفر الوادى وما حول المسجد الحرام فحفره حفرا جيدا حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارعة على الوادى اثنا عشر درجة وإنما كان الظاهر منها خمس درجات فحفرت الأرض ورمى بترابها خارج مكة ونظفت دار الندوة من القمائم والأتربة وهدمت وحفر أساسها وجعلت مسجدا وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب كبار سعة كل باب خمسة أذرع وارتفاع كل باب من الأرض إلى جهة الشمال أحد عشر ذراعا وجعل بين الأنواب الكبار ستة أبواب صغار وارتفاع كل باب ثمانية أذرع وسعة كل باب ذراعان ونصف وجعل فى هذه الزيادة بابان

(١) لقد قمنا بتحقيق دقيق فى بيان موضع دار الندوة فظهر لنا أن مكانها فى رحبة باب الزيادة كما يفهم ذلك صريحا من سياق هذا التاريخ وقد نشرنا ذلك فى مجلة المنهل الغراء التى تصدر بمكة المكرمة .

Marfat.com

بطاق شارعين إلى الخارج فى جانبها الشمالى وباب بطاق واحد فى جانبها الغربى وأقيمت أروقتها وسقوفها من جوانبها الاربعة وركبت سقوفها على أساطينها وسويت بخشب الساج وجعل لها منارة وفرغ من عمارتها فى ثلاث سنين ولعل كما لها فى سنة أربع وثمانين ومائتين إلا أنها ما استمرت على هذه الهيئة بل غيرت بعد قليل إلى وضع أحسن منه بعد المعتضد المذكور .

قال محمد بن اسحاق الفاكهى فى تاريخ مكة إن أبا الحسن محمد بن نافع الخزاعى ذكر فى تعليق له إن قاضى مكة محمد بن موسى القاضى لما كان إليه أمر البلد جدد بناء زيادة دار الندوة وغير الطاقات التى كانت فتحت فى جدار المسجد الكبير وجعلها متساوية واسعة بحيث صار كل من فى زيادة الندوة من مصل ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة البيت الشريف وجعل أساطينها ججرا مدور منحوتا وركب عليها سقوفا من الخشب الساج منقوشا مزخرفا وعقود مبنية بالآجر والجص ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولا أحسن من أول وجدد شرافاتها وبيضها وأنه عمل ذلك فى سنة (١) وثلثمائة انتهى .

ولقد كان ابتداء عمارة هذه الزيادة عظيمة ومنقبة كريمة أنى بها المعتضد بالله وأثرا باقيا على صفحات هذا الدهر ما فاز بها سواه وفعل لا يزال يذكر وصاحبه يمدح بألسنة الخلق ويشكر وقد بلى عظامه تحت التراب الأعفر قامات من يذكر بالجميل بعد أن يقبر وما عاش من عاش بالسوء حين يذكر

ما عاش مذموما خصائله ولم يمت من يكن بالخير مذكورا

واستمرت ذلك الأساطين المنحوته من الأحجار السود عليها أسف الساج المزخرف المنضود مشيدة باقية إلى أن أدركناها فى عصرنا .

ثم بدأت بأساطين منحوتة من الشيسى الأصفر بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر وجعل عرض السقف الذى يبلى خشبه كل حين قبيا مرفوعة نزهة للناظرين

---

(١) الصواب سنة ست وثلاثمائة كما ذكره العلامة ابن ظهيرة القرشى فى كتابه الجامع اللطيف :

Marfat.com

فى غاية الاتقان والتزيين فى زمان سلطان سلاطين الزمان السلطان مراد خان بن سليم خان بن سليمان خان بن عثمان خلد الله تعالى سلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه .

(رجعنا إلى ما كنا فيه) من أخبار المعتضد العباسى وما وقع له من الناس الذى ليس من أمتى .

ولما أن عضد المعتضد عُضد الموت العاضد وقطع عرق حياته مباضع الزمان الحاسد وما حمته عن الحمام قوته ولا منعة عن منعته ولا هيبته فأنزلته يد المنايا من سرير الخلافة والملك وأركبته سرير الحدباء إلى شفير الفناء والهلاك ودفنه فى تربة عمله الصالح وسقف ثراه بمطالب من ثنائه الفائح

(ومن أغرب ما حكاه) المسعودى عن المعتضد فى وفاته أنه اعتل من إفراطه فى كثرة الجماع وطالت علته وغشى عليه فشك من حوله فى موته وكان لا يجسر عليه أحد لشدة هيبته فتقدم اليه الطبيب يختبره بجس نبضه ففتح عينه وفطن لذلك فرفس الطبيب برجله رفسة فدحاه أذرعا فمات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته.

وكان وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وخلف من الأولاد ذكورا وإحدى عشر بنتا وكانت مدة ملكه تسع سنين وتسعة أشهر ونصف رحمه الله.

(فصل) لما اشتد مرض المعتضد جعل ولى عهده من بعده ولده أبا محمد ولقبه المكتفى بالله وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام فلما توفى المعتضد إلى رحمة الله كان المكتفى غائبا بالرقة فنهض بالبيعة له الوزير أبو الحسين القاسم بن عبد الله وكتب إليه فوصل إلى بغداد من الرقة فى سابع جمادى الأولى وكان يوم وصوله يوما مشهودا زينت له بغداد ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير المذكور تسع خلع عظيمه ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السنية .

وكان مولده فى غرة ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين وأمه أم ولد تركية اسمها جيجل وكان مليح الصورة يضرب بحسنه المثل وفيه قال القائل يصف الدنيا .

Marfat.com

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا الملاحة بالقباحة لاتنى
والله لا اختارها ولو أنها كالبدر أوكالشمس أوكالمكتفى

وكانت سيرته حسنة وأفعاله حميدة فأحبه الناس وفرحوا بخلافته ودخوله وذكر عبد الغافر فى تاريخ نيسابور عن ابن أبى الدنيا وكان معلما للمكتفى قبل أن يلى الخلافة قال فلما أفضت الخلافة إلى المكتفى كتبت إليه هذين البيتين يقول

أن حق التأديب حق الأبوه عند أهل الحجي والمروءة
وأحق الرجال أن يحفظوا ذا ك ويرعوه أهل بيت النبوه

انتهى :

ومن أعظم الحوادث فى أيامه ظهور القرامطة الملحدين بل الكفرة المفسدين أعداء الدين فأول من خرج منهم يحي بن مبرويه القرمطى ومحل خروجهم ودار ملكهم هجروهم اباحية يستحلون دماء الحجاج والمسلمين يدعون أن الإمام الحق بعد النبى صلى عليه وسلم محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وينتسبون إليه بالباطل ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أصل لها ويكفرون من عداهم وهم الكفرة قاتلهم الله تعالى (ولما ظهر بالخروج يحيئ المذكور) جهز إليه المكتفى بالله جيوشا واستمر القتال بينه وبين عسكر الخليفة إلى أن قتل وسيق إلى جهنم وبئس المصير .

فقام بعده أخوه الحسين وأظهر شأنه بوجهه الأسود زعم أنها آيته وظهر ابن عمه عيسى بن مهرويه وتلقب بالمدثر وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة القرآنية ولقب غلاما مظلما بالمطور بالنون وتسمى أمير المؤمنين وزعم أنه المهدى ودعا لنفسه على المنابر وأفسد بالشام وعاث فيها فخربوا وقتل الثلاثة وحزت رؤسهم وطيف بها فى البلاد فى سنة إحدى وتسعين .

وخلف من بعدهم خلف ظهر منهم مفاسد سيأتى ذكرها استطراداً وتعب المسلمون كثيراً فى أمرهم إلى أن خذلهم الله تعالى ولم يطل زمان المكتفى .

وكانت مدة ملكه ستة أعوام ونصف ولما مرض مرض الموت وتيقن بالفنا

Marfat.com

والفوت سأل عن أخيه أبى الفضل جعفر بن المعتضد فقيل أنه احتلم وصح عندذلك (فجعله ولى عهده ولقبه المقتدر بالله) وبويع له على أن يكون الخليفة بعده قال الصولى سمعت المكتفى يقول فى علته التى مات فيها والله ما أسق إلا على سبعمائة ألف دينار صرفتها من بيت مال المسلمين فى أبنية وعمارات لا احتاج إليه وذكر أبو منصور الثعالبى قال حكى إبراهيم بن نوح أن الذى خلفه المكتفى مما جمعه هو وأبوه لاغير مائة ألف دينار مابين عين وأمتعة وأوانى وعقارات وكان من جملة لأمتعة ثلاث وسبعون ألف ثوب ديباج فسبحان من بيده خزائن السموات والأرض له الملك وإليه ترجعون ولما جاءه الأجل المحتوم المقتدر وتلى لسان حاله أن أجل الله إذا جاء لايؤخر انقصف غصن شبابه القشيب ويبس عود جماله النضير الرطيب وصار بدر كماله مخسوفا وعاد محياه المشرق بالجمال مكسوفا فانتقل من دار الفنا إلى دار البقا فى ليلة الأحد لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر القعدة الحرام سنة خمس وتسعين ومائتين رحمه الله تعالى وخلف ثمانية أولاد ذكور وثمانى بنات.

« وولى بعده أخوه أبو محمد على المقتدر بالله بن المعتضد بالله ابن المتوكل على الله بن المعتصم بن هرون الرشيد العباسى » بايعه الناس وعمره ثلاث عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله أصغر من ذكره الجلال السيوطى وأمه أم ولد تسمى شعب وولى الخلافة ثلاث مرات هذه الأولى منها ولم يتم له فيها أمر لصغر سنه فتغلب الجند عليه واتفقوا على خلعه فخلعوه.

وعقدوا البيعة لأبى العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. ولقبوه الغالب بالله وبايعوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين واستمر خليفة ساعة من ذلك النهار .

وعبد الله بن المعتز لقصر خلافته لاينبغى عده من الخلفاء ولكن تذكره لفضله وأدبه وهو أشعر بنى العباس بل أشعر بنى هاشم على الإطلاق وأكثرهم فضلا وأدباً ودخولا ومعرفة بعلم الموسيقا وأشعر الشعراء مطلقاً فى التشبيهات المبتكرة الغريبة المخترعة المرقصة التى لايشق غباره فيها أحد .

مولده فى شعبان سنة تسع وأربعين ومائتين .

Marfat.com

قال المعافى بن زكريا لما بويع ابن المعتز دخلت على شيخنا محمد بن جرير الطبرى العام الكبير المفسر المحدث المؤرخ رحمه الله تعالى فقال لى ما الخبر قلت بويع بالخلافة لعبدالله بن المعتز قالَ فمن مرشح لوزارته فقلت محمد بن داود قال فمن قاضية قلت أبو المثنى فأطرق قليلا ثم قال هذا أمر لايتم فقلت ولم لايتم فقال كل من ذكرت ذو شأن عظيم متقدم فى فضله وعلمه وعقله وان الدنيا توليه والزمان مدبر ولا مناسبة لأحد ممن ذكرت اسمه برياسة فى مثل هذا الزمان وما أرى هذا العقد إلا آيلا إلى الانحلال والاضمحلال فقدر الله تعالى أنهم خلعوه فى ذلك اليوم وتلاشى أمره فإن عبد الله بن المعتز لما عقدت له البيعة والخلافة أرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر فى أمره.

فلما جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرسالة قال ليس له جواب عندى غير السيف ولبس السلاح وركب معه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والرعب هجموا على عبدالله بن المعتز وعلى بعض الأمراء والفقهاء وسلمهم إلى يونس الخازن وقتل منهم من أراد وحبس عبدالله بن المعتز وأخرج من الحبس ميتا واستقام الأمر للمقتدر وهذه ولايته الثانية فسار أحسن سيرة واستقام أمره بعد الاضمحال وطلعت شمس سعادته بعيد الزوال ولاح بدر فلاحه من أوج الكمال والعزة لله الكبير المتعال وحيث انجر الكلام إلى ذكر عبد الله بن المعتز فلا باس بتنميق هذه العجالة وترويق هذه الوسالة ببعض أشعاره المستظرفة ليعلم البلغاء مرتبته فى البلاغة واقتداره على الكلام فنورد قصيدته فى الحماسة التى فاخر بها آل النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخفى على أن الأقدام على مثل ذلك يدل على قوة الطبع فان الادعاء لهذا القطب العالى من أمثاله ممجوج فى الاسماع منفور عن الطباع فاذا أبرزه مع ذلك فى قالب مطبوع دل ذلك على قوة طبع الشاعر كما قال شاعر عصره الأديب المفوه بن الرومى :

فى زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تغيير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان تعب قلت ذاقَ الزنانير

وهذه منتخب تلك القصيدة التى فاخر فيها بين قومه بنى العباس وآل أبى طالب رضى الله عنهم فى الخلافة وما انصف فيما ادعاه ولكنه أتى بشعر بليغ معناه فقال :

Marfat.com

ألامن لعينى وتسكابها تشكى القذا وبكاها بها
ترامت بنا حادثات الزمان ترامى القسى نشابها
ويارب أسنة كالسيوف تقطع أرقاب أصحابها
وكم دهى المرء من نفسه فمزقه حد أنيابها
وإن فرصة أمكنت فى العدو فلا تبد فعلك إلا بها
فان لم تلج بابها مسرعا أتاك عدوك من بابها
وما نافع ندم بعدها وتأميل أخرى وأتى بها
وماينتقص من سباب الرجال يزد فى رنها هنا وألبابها
نهيت بنى رحمى ناصحا نصيحة بر بأنسابها
وقد ركبوا بغيهم وارتقوا معارج تهوى بركابها
ورام وا فرائس أسد الشرى وقد نشبت مابين أنيابها
دعوا الأسد تغرس ثم اشبعوا بما تفضل الأسد فى غابها
قتلنا أمية فى دارها وكنا أحق بأسلابها
ولما أبى الله أن تملكوا نهضنا إليها وقمنا بها
ونحن ورثنا ثياب النبي فلم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يا بنى بنته ولكن بنو العم أولى بها
فهلا بنو عمنا انها عطية رب حبانا بها
وكانت تزلزل فى العالمين فشدت لدينا بأطنابها
وأقسم بأنكم تعلمون بأنالها خير أربابها

فرد عليه شاعر زمانه وبليغ أوانه الصفى الحلبي بقوله :

ألا قل لشر عبيد الاله وطاغى قريش وكذا بها
أأنت تفخر آل النى وتجحدها حق أسبابها
بكم ياهل المصطفى أم بهم ترد العداة بأوصابها
أعنكم نفى الرجس أم عنهم لطهر النفوس وألبابها
أما الشرب واللهو من دأبكم وفرط العبادة من دابها
هم الصائمون هم القائمون هم العالمون بآدابهـــا
هم الزاهدون هم العابدون هم الساجدون بمحرابها
هم قطب ملة دين الاله وأهل الرحى بأقطابها

Marfat.com

تقول ورثنا ثياب النبي فلم تجذبون بأهدابها
وعندك لاتورث الأنبيـ ـاء فكيف حظيتم بأثوابها
أبوهم وصى نبي الالـــ ـه وأهل الوصية أولى بهـا
أجدك يرضى بمـا قلته وما كان يوما بمرتابها
وكان بصفين من حربهم لحرب البغـــاة وأحزابها
وصلى مع الناس طول الحيـ ـاة وحدر فى صدر محرابها
فهلا تقمصها جدكم وهل كان من بعض خطابها
وإذ جعل الأمر شورى لهم فهل كان من بعض أربابها
وقولك أنتم بنو بنته ولـكن بنو لعم أولى بها
بنوا البنت أيضا بنو عمه وذلك أدنى لأنسابهـــا
وقلت بانكم القاتلون اسود أمية فى غابهـــا
كذبت ولولا أبو مسلم لعثرت على جهد طلابها
وقد كان عيدا لهم لا لـكم رأى عندكم قرب أنسابها
وكنتم أسارى بطون الحبوس وقيد شغلـكم لثم أعتابهـا
فأخرجكم منهـا وحباكم بها وقمصكم فضل جلبابها
فجـازيتموه بشر الجزا . لطغوى النفوس وإعجابها
فدع فى الخلافة فضل الخـ ـلاف فليست ذلولا لركابها
وما أنت والفحص عن شأنها وما قمصوك بأثوابها
وما ساومتك سوى ساعة فما كنت أهلا لأسبابهـــا
ودع ذكر قوم رضوا بالـكفـ ـاف وجاؤا القناعة من بابها
عليك بلهوك بالفائيـات وخل المعـــالى لأربابها
ووصف العذار وذات الخـ ـار ونعت العقار بألقابها
فذلك شأنك لا شأنهم وجرى الجيـاد بأحسابها

ومن السحر الحلال الذى عقده فى اللآل ورقمه بقلم البلاغة على صفحات الأيام والليالى هـذا الموشح الذى يصلح وشاحا للجوزاء واكليلا على التاج المحلى بنجوم الثريا سارت به الركبان وتناقلته الرواة بألسنة الزمان بقوله :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
وندیم همت فى غرته
ويشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى وسقانى أربعا فى أربع
ما لعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ماشئت فاسمع خبرى
عشيت عيناى من فرط البكا وبكى بعضى على بعضى معى
غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر فى البين بكى ويحه يبكى لما لم يقع
ليس لى صبر ولا لى جلد
يا لقومى عدلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقها أن تشتكى طمع اليأس ودل الطمع
كبدى حرا ودمعى يكف
يذرف الدمع ولا يعترف
أيها المعرض عما أصف
قد نمى حبى بقلبى وركا لا تقل فى الحب إلى مدعى

ومن تشبيهاته الرائقه وأشعاره الفائقة قوله :

ومقرطق يسعى إلى الندماء بعقيقة فى درة بيضاء
والبدر فى أفق السماء كدرهم ملقى على ياقوتة زرقاء

(وله مثلث وهو معن بديع)

Marfat.com

خليلى طاب الراح من بعد طبخها وقد عدت بعد الكسر والعود أحمد
فهاتا عقارا من قميص زجاجة كياقوتة فى درة تتوقد
يصوغ علينا الماء شباك فضة لها خلق بيض تحل وتعقد
وقتنى من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يجحد

وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض وكتاب مفاكهات الاخوان وكتاب الصيد والجوارح وكتاب السرقات الشعرية وكتاب أشعار الملوك وكتاب طبقات الشعراء وديوان شعر وغير ذلك .

ومن كلامه فى البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم نطل سفر الكلام وأشعاره البليغة وتشبيهاته الغريبة كثيرة لا تطول بها هذه العجالة .

ولما تقرر أمر المقتدر فى التمكن والاقتدار واستقرت خلافته أتم استقرار استوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات فسار أحسن سيرة واستقر فى الخلافة إلى سنة سبع عشرة وثلثمائة فخرج يونس الخادم على المقتدر فركب وركب معه الجيش والأمراء وجاؤا إلى دار الخلافة فهرب خواص المقتدر من داره ونهبوا دار الخلافة فكان مما نهب ستمائة ألف دينار لام المقتدر فاشهد على نفسه بالخلع لاربع عشر ليلة خلت من المحرم سنة سبع عشرة وثلثمائة

وأحضر أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وبايعه يونس والأمراء ولقبوه القاهر بالله وفوضت الوزارة إلى الوزير أبى على ابن مقلة الكاتب المشهور وجلس القاهر يوم السبت وكتب الوزير بن مقلة إلى سائر البلاد وعمل يوم الاثنين الديوان فى العسكر يطلبون منه إنعام الجلوس فارتفعت الأصوات فمنعهم الحاجب ومالوا إلى دار يونس وأخرجوا المقتدر من الحبس وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة فجلس على السرير وأتو بأخيه محمد القاهر إليه وهو مقهور يبكى ويقول الله الله يا أخى فى روحى فاستدناه المقتدر وقبل بين عينى أخيه وقال له يا أخى لاذنب لك وأنت مغلوب على أمرك والله لا ينالك منى مكروه فطب نفسا وقر عينا ولما زال روعه آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس

Marfat.com

بما كانوا يعملون وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم وثبتت له الخلافة وهذه ثالث مرة والثالثة ثابتة .

فصل : من جملة محاسن المقتدر بالله أنه زاد فى المسجد الحرام زيادة باب إبراهيم وليس المراد به الخليل عليه السلام وعلى نبينا وسائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه بل كان إبراهيم هذا خياطا يجلس عند هذا الباب عمر دهرا فعرف به وكان قبل هذه الزيادة باب متصل بأروقة المسجد الحرام بقرب باب الجزورة ويقال له باب الخياطين وبقربه باب ثان يقال له باب بنى جمح وخارج هذين البابين ساحة بين دارين لزبيدة أم الأمين بنيتا فى سنة ثمان ومائتين وما بقى لتلك الدارين أثر الآن والذى يظهر أن دار زبيدة كانت إحداهما فى الجانب الشامى فى مكان رباط الحوذى الآن وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليمانى من تلك الزيادة وهى رباط رامشت الذى يعرف الآن برباط ناظر الخاص فادخلت هذه المساحة التى بين الدارين فى المسجد الحرام وابطل البابان يعنى باب الخياطين وباب بنى جمح بحيث دخلا فى المسجد الحرام وجعل عرض البابين باب ابراهيم باب كبير هو المسمى بباب ابراهيم فى غربى هذه الزيادة .

(قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد رحمه الله تعالى) فى حوادث سنة ست وثلثمائة من كتاب اتحاف الورى بأخبار أم القرى فيها زاد قاضى مكة يومئذ محمد ابن موسى فى الجانب الغربى قطعة عند باب الخياطين وباب بنى جمح وهى السوح الذى كان بين دارى زبيدة أم الأمين وعمل ذلك مسجد أوصله بالمسجد الكبير وطول هذه الزيادة من الأساطين التى فى وزان جدار المسجد الكبير إلى القبة التى عليها باب إبراهيم سبعة وخمسون ذراعا إلا سدس ذراع وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامى إلى جانبها اليمانى وذلك من جدار رباط الحوذى إلى جدار رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعا وربع ذراع وفى هذه الزيادة فى جانبها الشرقى المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة وكذلك فى جانبها الشمالى ولم يكن فى جانبها الغربى رواق فى جانبها الشمالى سبيل وسط رواقيه وكانت بهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسى فى شفاء الغرام .

قلت أما المنارة فلا أدرى من بناها ولا متى هدمت وأما السبيل فكان موجوداً إلى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فهدم عند وصول العمارة السلطانية اليه أعيد بناؤه سبيلا كما كان وهذه الزيادة الثانية وقعت فى أيام المقتدر العباسى رحمه الله تعالى .

(ومن جملة محاسن المقتدر أيضا) أنه أبطل من ديوانه استخدام أهل الذمة من اليهود والنصارى وأبطل تصرفهم فى الأموال السلطانية وأعاد الأمر بتوريث ذوى الأرحام فى سائر ممالك الإسلام وأتلف كثيرا من الأموال وأفرغ خزائن بيت المال وباع كثيرا من الضياع حتى أرض الجند بامهال عطيتهم وكان يفرق كل عام من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألف رأس كذا ذكره الجمال يوسف ابن تغرى بردى فى تاريخه مورد اللطافة فيمن أولى السلطنة والخلافة .

وقال أبو المحاسن يوسف سبط ابن الجوزى رحمهما الله تعالى كان المقتدر يصرف فى طريق مكة والحرمين ثلثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار .

وقال الحافظ السيوطى كان النساء غلبن على المقتدر فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة وكان وزنها ثلاث مثاقيل وأعطى زيدان القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها وكان فى داره أحد عشر ألف غلام خصى غير الصقالبة والروم والسود .

وكان مبلغ النفقة على بيمارستان أم المقتدر فى كل عام سبعة آلاف دينار وأنه ختن خمسة من أولاده فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار (وقدمت رسل ملك الروم) بهدايا لطلب الهدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما لارهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سماطين من باب الشماسة إلى دار الخلافة ببغداد تمر الرسل بينهما فى هذه المسافة وأقام بعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب وكانت الستور التى بقيت على دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف متر من الديباج وكانت البسط الفاخرة التى فرشت فى الأرض اثنين وعشرين ألف بساط وفى الحضرة مائة سبع فى سلاسل الذهب والفضة وغير ذلك .

وزاد الجمال يوسف تغرى بردى من جملة الزينة شجرة صيغت من الذهب والفضة والجواهر تشتمل على ثمانية عشرة غصنا أوراقها من الذهب والفضة وأغصانها

Marfat.com

تتمايل بحركات مصنوعة وعلى الأغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير مدح مفرد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كان زينتها فى أيام قوة دولتهم فى كمال وصفها فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشئون ولا تحوله الأحوال وهو الله الملك الكبير المتعال له الملك وحده لاشريك له ولا ضد ولا ند ولا مثال كون الأكوان وقدرها تقديراً ولم يتخذ صاحبة ولا وزيرا تعالى شأنه وعلا سلطانه علواً كبيراً وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً .

« فصل وأول ما ظهر من الوهن للخلافة » فى أيام المقتدر ظهور الطائفة الملحدة التى تسمى القرامطة لهم اعتقاد فاسد يؤدى إلى الكفر يستبيحون دماء المسلمين وينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية من أولاد سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ويرضون ضلال كافة المسلمين فأول نجس خبيث ظهر منهم أبو طاهر القرمطى وبنى داراً فى هجر سماها دار الهجرة أراد نقل الحج إليها ألعنه الله وأخزاه وكثر فتكه فى المسلمين وسفك دماء المؤمنين إلى أن اشتد بهم الخطب وانقطع الحج فى أيامه خوفا منه ومن طائفته الفاجرة واشتدت شوكتهم ففى أواخر عام سبع وعشرة وثلثمائة لم يشعر الحجاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم أبو طاهر القرمطى فى عسكر جرار فدخلوا بخيلهم وسلاحهم إلى المسجد الحرام ووضعوا السيف فى الطائفين والمصلين والمحرمين مجردين فى احرامهم إلى أن قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألف إنسان وتلك مصيبة ما أصيب الإسلام بمثلها وركض أبو طاهر بسيفه مشهوراً فى يده وهو سكران فصفر بفرسه عند البيت الشريف فبال وراث والحجاج يطوفون حول البيت الحرام والسيوف تنوشهم إلى أن قتل فى المطاف الشريف ألف وسبعمائة طائف محرم ولم يقطع طوافه على بن بابويه وجعل يقول .

ترى المحبين صرعى فى ديارهم ... كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

والسيوف تقفوه إلى أن سقط ميتاً رحمه الله تعالى وطمت بالشهداء بئر زمزم

وما بمكة من آبار وحفر وقد ملئت بهم وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة وقلع بابها وصار يقول :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق ويفنيهم أنا

وصاح فى الحجاج ياحمير أنتم تقولون ومن دخله كان آمنا فأين الأمن وقد فعلنا مافعلناه فأخذ شخص بلجام فرسه فقال وقد استسلم للقتل ليس معنى الآية الشريفة ما أنكرت وإنما معناه من دخل فأمنوه فلوى أبو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت إليه وصانه الله تعالى ببركة بذل نفسه فى سبيل الله والرد على ذلك الكافر أخزاه الله .

وأراد قلع الميزاب وكان من ذهب فاطلع قرمطيا يقلعه له فأصيب بسهم من جبل أبى قبيس فما أخطأ منحره وخرميتا وأمر آخر مكانه فسقط من فوق إلى أسفل على رأسه فهاب الثالث عن الأقدام على القلع فمضى أبو طاهر وتركه على رغم أنفه وقال اتركوه حتى يأتى صاحبه يعنى المهدى الذى زعم أنه يخرج منهم .

وكان ممن قتل بمكة أميرها ابن محارب والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسن ابن احمد الجارودى الهروى أخذته السيوف وهو متعلق بيديه بحلقة باب الكعبة حتى سقط رأسه على عتبة باب بيت الله تعالى وأخوه أمام الفقهاء الحنفية أبو سعيد أحمد ابن الحسين البردعى والشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبدالله الرهاوى وشيخ الصوفية على بن بويه الصوفى والشيخ محمد بن خالد زيد البردعى نزيل مكة وجماعة كثيرون من العلماء والصلحاء والصوفية والحجاج من أهل خراسان والمغاربة ونهبت دور الناس وقتل من وجد من أهلها إلا من اختفى فى الجبال وممن هرب من مكة يومئذ قاضيها يحيى بن عبد الرحمن بن هارون القرشى من عياله إلى وادى رهجان ونهبت القرامطة من داره وأثاثه وأمواله ماقيمته مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار فافتقر بعد تلك الثروة وكذلك نهبت دور مكة إلى أن صار الباقى ممن نجا من تلك الوقعة فقراء يستعطون ولم يحج فى هذا العام أحد ولا وقف بعرفة إلا عدد يسير فازوا بأنفسهم وسمحوا بأرواحهم فوقفوا بدون إمام وأتموا حجهم مستسلمين للموت وأخذ أبو طاهر خزانة الكعبة وما فيها من الذهب والفضة وكسوة الكعبة

وخلعها وما نهبه من أموال الحجاج فقسمها بين أصحابه وأراد أخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيدنا ابراهيم [١] صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله الكرام فلم يظفر به لأن سدنة الكعبة أخفوه وغيبوه فى شعاب مكة وتألم لذلك فاستدعى بجعفر بن أبى علاج البناء وأمر بقلع الحجر الأسود من محله فقلعه بعد العصر يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ذلك العام وصار بزندقته يقول قاتله الله ولعنه وأخزاه

فلو كان من هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية محللة لم تبـــق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغى سوى ربنا ربا

وقلع ذلك الكافر قبة زمزم وباب الكعبة وأقام بمكة أحد عشر يوما وقيل ستة أيام ثم انصرف إلى بلده هجر وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحول الحج إلى المسجد الضرار الذى سماه دار الهجرة وعلقه فى الاسطوانة السابعة مما يلى صحن الجامع من الجانب الغربى من المسجد وبقى موضع الحجر الأسود خاليا يضع الناس أيديهم فيه ويتبركون بمحله وأمر هذا الفاجر أن يخطب لعبيد الله المهدى أولى الخلفاء العبيديين الفاطميين وكان أول ظهوره فبلغ عبيد الله المذكور ذلك فكتب اليه أن أعجب العجب إرسالك بكتبك ممتنا بما ارتكبت فى بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذى لم يزل محترما فى الجاهلية والإسلام وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين ثم تعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن أشكرك على ذلك فلعنك الله ثم لعنك الله والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وقدم فى يومه ما ينجو به فى غده فلما وصل كتاب

---

(١) انظر فى كتابنا «مقام ابراهيم عليه السلام» من صحيفة ١٠٨ إلى صحيفة ١١٦ تجد فيها صفة المقام وعمق القدمين وطولهما وحجم المقام الكريم وقاعدته ورسمه وغير ذلك من التفصيلات التامة والبيانات الواضحة وهو كتاب مطبوع بمصر بمطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده

Marfat.com

عبيد الله المهدى إلى أبى طاهر القرمطى وعلم ما فيه انحرف عن طاعته واستمر الحجر عندهم أكثر من عشرين سنة يستجلبون به الناس إليهم طمعا أن يتحول الحج إلى بلدهم ويأبى الله ذلك والاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وهذه أعظم مصائب الاسلام وأشد وهن فى الدين من أولئك الفجرة اللئام ذابت لها أكباد العباد وعمت فتنتها فى الحاضر والباد.

إلى أن دمر الله تعالى تلك الطائفة الفاجرة وتمزقت كل ممزق بيد الله القاهره وابتلى أبو طاهر النحس بالأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود ومات أشنع ميتة إلى دار الخلود وتعذب بأنواع البلاء فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ولما أيست القرامطة عن تحويل الحجاج حجهم إلى هجر ردوا الحجر الأسود إلى محله وورد سنبر بن الحسين القرمطى إلى مكة فى يوم النحر يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة الحرام سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ومعه الحجر الأسود فلما صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة يومئذ وهو ٢ طنا [1] أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسى فأظهر سفطا أخرج منه الحجر الأسود عليه ضباب من فضة فى طوله وعرضه تضبط شقوقا قد حدثت فيه بعد قلعه وأحضر معه جصا يشده به فوضع حسن بن مرزوق البناء الحجر فى مكانه الذى قلع منه وقيل بل وضعه سنبر بيده وقال أخذناه بقدرة الله وأعدناه بمشيئته وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر ونظر الناس إلى الحجر فقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى وحضر ذلك محمد بن نافع الخزاعى ونظر إلى الحجر الأسود وتأمله فاذا السواد فى رأسه دون سائره وسائره أبيض حضر معهم من حج فى تلك السنة محمد بن عبد الملك بن صفوان الأندلسى وشهد رد الحجر إلى مكانه ولما أعيد الحجر إلى

---

(١) ليس فى هذه العبارة نقص فقد راجعنا كتاب إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام لمؤلفه الشيخ عبد الله الهندى المكى المتوفى في الخامس من شعبان سنة ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية رحمه الله تعالى فوجدنا في الجزء الأول بصحيفة ٢٠٧ مانصه « ... حضر معه أمير مكة يومئذ وهو طيا أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسى ... الخ » وهذا الكتاب هو أكبر تاريخ وأهم كتاب فى تاريخ مكة المشرفة وهو مخطوط يقع فى أربع مجلدات كبار لم يطبع بعد نسأل الله أن يسهل طبعه ونشره.

Marfat.com

مكة حمل على قعود هذيل فسمن وكان لما مضوا به مات تحته أربعون جملا وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنان وعشرون سنة إلا أربعة أيام وكان المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى أرسل أحمد بن سعيد القرمطى أخا طاهر بخمسين ألف ذهب فى الحجر الأسود ليرده فلم يفعل وبذل حكم التركى مدبر الخلافة خمسين ألف دينار للقرامطة على رد الحجر الأسود فأبوا وقالوا قد أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر إلى أن أراد الله تعالى رده على الوجه الذى ذكرناه وفى التواريخ صور أخرى لهذه القصة رأيناها متناقضة وهذا أصح ما روى فيها فاعتمدنا عليه فعض عليه بالنواجذ .

ثم أن الحجبة خافوا على الحجر الأسود من استطالة يد خائن اليه لعدم استحكام بنائه فقلعوه وجعلوه فى البيت الشريف حفظا له وصونا عن من أراده بسوء ثم أمروا صانعين فصنعا له طوقا من فضة وزنه ثلاثة آلاف وسبعة وثلاثون درهما فطوقوا به الحجر وشدوا عليه به وأحكموا بناءه فى محله كما كان ذلك قديما وكما هو الآن أيضاً كذلك .

وكان قلع الحجر الأسود فى فى أيام المقتدر ثم وقع بينه وبين يونس حرب فتوغل فى المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط إلى الأرض فقال لضاربه ويحك أنا الخليفة فقال له أنت المطلوب وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة الى أن ستر بالحشيش ثم حفر له مكانا ودفن فيه وعفى أثره فسبحان المعز المذل السميع البصير له الملك وحده لا شريك له وهو على كل شىء قدير وكانت مدة خلافة المقتدر أولا وثانيا وثالثا خمسا وعشرين سنة الا أياما وقتل لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائه وولى أخوه مكانه أبو منصور محمد بن المعتضد .

ولقب القاهر بالله وقهر القاهر المذكور وسمل عينيه . وجاؤا بأبى العباس محمد ابن المقتدر بالله بن المعتضد ولقبوه الراضى بالله وبايعوه فى سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وصار خليفة الى أن مات سنة تسع وعشرين وثلثمائة وبويع لأخيه أبى اسحاق ابراهيم بن المقتدر بعده ولقب المتقى بالله وقبض عليه تورون التركى

Marfat.com

وسمل عينيه فى صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة وبويع بعده لابن عمه أبى القاسم عبد الله بن المكتفى بالله بن المعتضد .

ولقب المستكفى بالله واستمر فى خلافته سنة واحدة وأمسكه من أمرائه معز الدولة ابن بويه وسمل عينيه وضمه الى المكتفى بالله والقاهر بالله وصاروا ثلاثة فى العمى .

وولى الخلافة الفضل بن المقتدر ولقب المطيع لله وبويع له بالخلافة فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وكان رد الحجر الأسود إلى مكانه من البيت الشريف فى أيام المطيع لله هذا وتم أمره على ضعف الخلافة ووهنها واستيلاء بنى بويه على الملك وطالت أيامه إلى أن خلع نفسه وبويع لولده أبى بكر بن عبد الكريم فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ولقب الطائع لله وكان مغلوبا عليه من قبل أمرائه وما كان له الا العظمة ظاهرا لاغير بحيث لما ورد فى سنة تسع وستين وثلثمائة رسول العزيز بالله بن المعز للعبيد صاحب مصر الى بغداد وسأله عضد الدولة ابن بويه وهو يومئذ ملقب بالسلطنة من الطائع وبيده أمر المملكة أن يزيد في ألقابه ويقال له تاج الملة ويجدد عليه الخلع ويلبسه التاج فأجاب الى ذلك فجلس الطائع على سرير عال وأوقف حوله مائة سيف مسلول وبين يديه مصحف عثمان رضى الله عنه وعلى كتفيه بردة النبى صلى الله عليه وسلم وبيديه قضيب النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقلد سيف النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك جميعه كما يتوارثه الخلفاء ويجعلونه لموا كبهم العامة واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة وحضر الجند من الاتراك والديلم ووقف أرباب المراتب صفين ثم أذن بعضد الدولة فدخل ثم رفعت الستارة وقبل الأرض وأدخل رسول العزيز صاحب مصر فارتاع وأهاله ما رأى فقال لعضد الدولة أهذا هو الله فقال له هذا خليفة الله فى أرضه ثم استمر يمشى ويقبل الأرض سبع مرات التفت الطائع إلى خادمه المقرب عنده واسمه خالص وقال له استدنه فقربه إلى رِجْل السرير وقبل رجله فثنى الطائع يمينه على رأس عضد الدولة وأمره أن يجلسَ على كرسى وضع له قريبا من السرير فاستعفى

Marfat.com

عضد الدولة من ذلك فأقسم عليه ليجلس فقبل الكرسى ثم جلس عليه فلما استقر جالسا قال له الطائع قد فوضت إليك ماكان الله تعالى فوضه إلى من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها فقال يعيننى الله تعالى على طاعة أمير المؤمنين وقبل الأرض فأمر أن يفاض عليه سبع خلع فأفيضت عليه وهو يقبل الأرض فى كل واحدة وانصرف الناس خلفه وقد أهالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه وما كانت هذه العظمة إلا صورة صناعية وكلفة اصطناعية حقيقتها واهية وقوتها واهنة وان السلطنة لما آلت إلى أبى النصر بن بويه ركب الطائع اليه وخلع عليه سبع خلع وطوقه بطوق مجوهر وسوره بسوارين ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة فى سنة تسع وسبعين وثلثمائة .

ثم فى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة جاء بهاء الدولة إلى الطائع وقبل الأرض بين يديه وجلس على الكرسى وأمر خدامه من الديلم فجذبوا الطائع من سريره ولفوه فى كساء وأمره بهاء الدولة أن يخلع نفسه ففعل .

(وأتى بأبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر ولقبه القادر بالله) وبويع له بالخلافة لعشر مضين من شهر رمضان من ذلك العام وكان على غاية من الديانة والعبادة والفضل وصنف كتابا فى الرد على القائلين بخلق القرآن وأمر أن يقرأ فى كل جمعة فى حلق أصحاب الحديث بحضرة الناس وعده ابن الصلاح فى علماء الشافعية وذكره فى طبقاته وطالت مدة خلافته حتى أنافت على إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

(وولى بعده بعهد منه ولده أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله ولقبه القائم بأمر الله) وكان خيرا دينا باهر الفضل إلا أنه مغلوب بيد أمرائه وطالت مدته مع ذلك وكانت خلافته خمسة وأربعين سنة ووفاته فى شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

(وولى بعده بعهد منه حفيده أبو القاسم عبد الله محمد بن القائم بأمر الله ولقب المقتدى بأمر الله) وبويع له بالخلافة يوم وفاة جده بحضرة الامام الكبير الولى الشهير مولانا أبى اسحق الشيرازى أحد أركان أئمة الشافعية رضى الله عنهم وكان خيرا دينا من نجباء خلفاء بنى العباس وصالحيهم .

ومن جملة صلاحه وبركته ان السلطان ملك شاه من آل سبكتكين قصد أن

Marfat.com

يتحكم عليه ويظهر الحيف والخيف على الخليفة المذكور فأرسل اليه وهو يقول لابد أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئت فأرسل الخليفة اليه يتلطف به فى ذلك فأبى إلا شدة وغلظة فيقال لرسوله اسأله المهلة لى ولو شهراً فأبى وقال ولا ساعة فأرسل إلى وزيره واستمهله عشرة أيام فصار الخليفة يصوم بالنهار ويقوم بالليل ويتضرع إلى الله تعالى ويضع خده على التراب ويناجى رب الأرباب ويدعو على ملك شاه فنفذ دعاؤه وهو مظلوم نفوذ السهم المسموم فى كبد الظلوم واستجاب الله دعاءه وتقبل ضراعته فهلك السلطان ملك شاه قبل مضى عشرة أيام وكفاه الله تعالى شره وما ربك بظلام وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى وهذه عقبى كل ظالم معتدى ورحم الله من قال :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم فرج أتى من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجى
وكم هم تساء بهم صباحا وتأتيك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأحوال يوما فثق بالواحد الفرد العلى
تمسك بالنبى فكل هم يزول إذا تمسك بالنبى

وكذلك من قال :

لاتشتغل بمهموم القلب مكتئبا ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وكانت وفاة الخليفة المقتضى بأمر الله فى محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

(وولى بعده ابنه أبو العباس أحمد ولقب المستظهر بالله) . بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وكانت أمه أم ولد تركية اسمها الطون وكان كريم الأخلاق حسن الخط لايقاومه أحد فى كتابته حافظا للقرآن عالما فاضلا . وكان قد غلب عليه ملوك آل سلجوق وكانت مدة خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتوفى يوم الأربعاء لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة .

(وولى بعد ولده أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله ولقب المسترشد بالله) . وبويع له بالخلافة يوم مات والده وأمه أم ولد تسمى لبابة .

Marfat.com

وكان شجاعا دينا مشغولا بالعبادة حفظ القرآن وقرأ الحديث ونظم الشعر ومن شعره :

أنا الأشقر الموعود لى فى الملاحم ومن يملك الدنيا بغير مزاحم

وكان هذا التخيل من خيالاته الفاسدة فانه ما ملك من الدنيا ولا فناء داره وخرج إلى قتال مسعود ابن محمد ابن ملك شاه السلجوقى فلم يقاتل معه أحد فقاتل وحده إلى أن قتل فى ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

(ولى بعده ابنه جعفر منصور بن المسترشد ولقب الراشد بالله) . وبويع له بالخلافة يوم قتل أبوه رحمه الله تعالى ولم تطل مدته بل قبض عليه السلطان مسعود السلجوقى وخلعه من الخلافة فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة الحرام سنة ثلاثين وخمسمائة وحبسه وقتله فى حبسه .

(وولى عمه أبو عبد الله محمد ابن المستظهر ولقبه المقتفى بالله) . وبويع له يوم خلع ابن أخيه وكان عالما فاضلا حسن السيرة دمث الأخلاق شجاعا توفى يوم الأحد لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

(وولى بعده ولده المظفر يوسف بن المقتفى ولقب المستنجد بالله) وبويع له يوم وفاة أبيه وأمه أم ولد حبشية اسمها طاووس ويحكى أنه قبل أن يصير خليفة رأى فى منامه أن ملكا نزل من السماء فكتب فى كفه خمس خاآت فلما أصبح سأل بعض المعبرين عن منامه فقال انك تلى الخلافة فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان كذلك توفى إلى رحمة الله تعالى فى يوم السبت لليلتين خلتا من ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة .

(وولى بعده ابنه أبو محمد المستنجد بالله ولقب المستضىء بالله) . وبويع له يوم وفاة والده وكان حسن السيرة كريم النفس أسقط المكوس فى ممالكه وكثر ثناء الخلق عليه وتوفى فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

(وولى بعده ابنه أبو العباس أحمد فلقب الناصر لدين الله) وبويع له بالخلافة ثمان مضين من ذى القعدة وهى اليوم الثانى من وفاة والده وفى أيام ظهور السلطان صلاح الدين بن أيوب واستخلاصه بيت المقدس من أيدى النصارى الفرنج

Marfat.com

واستيلائه على مصر وإزالة دولة الفاطميين عنها وخطب لهذا الناصر العباسى على منابر مصر ووقع بينه وبين السلطان صلاح الدين منافرة بسبب لقبه بالناصر لدين الله فان صلاح الدين تلقب به والفاطميون ويقال لهم العبيديون أربعة عشر خليفة أولهم عبيد الله المهدى .

واختلف المؤرخون فى نسبهم وهم ينسبون إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها وأنكر ذلك كثير من المؤرخين وطعنوا فيهم بأنهم من أولاد الحسين بن محمد ابن القداح وقالوا كان القداح المذكور مجوسيا وثانيهم المنصور وثالثهم القائم ورابعهم المعز وهو الذى انتقل من بلاد المغرب إلى مصر وملكها من الأخشيديين وبنى القاهرة المعزية واستمر هو ومن بعده من العبيديين بمصر إلى أن كان آخرهم العاضد وهو الرابع عشر منهم . توفى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك بعد استيلاء صلاح الدين بن أيوب عليه وعلى مملكته وخطب على منابر مصر للناصر لدين الله وانقرضت دولة العبيديين وكانوا أرفاضا سبابين ومنهم ملاحدة كالحاكم بأمر الله ويحكى عنه كفريات عجيبة وأكثر المؤرخين على نفى شرفهم والله أعلم بحقيقة ذلك وطالت مدة الناصر فأحيا رسوم الخلافة وامتلأت القلوب من هيبته وكان ذا فكرة صائبة وكانت أيامه من غرر الزمان وكان له احسان إلى أهل الحرمين الشريفين وكانت الكعبة الشريفة تكسى الديباج الأبيض فى زمن المأمون إلى آخر أيام الناصر فكساها الديباج الاسود كساه الحمام ثياب أكفانه وعزله عن سرير ملكه وتخت سلطانه وكانت وفاته فى سلخ شهور رمضان سنة اثنين وعشرين وستمائة .

(وولى مكانه بعد موته أبو نصر محمد بن الناصر ولقب القاهر بالله) . وبويع له بالخلافة يوم مات والده بعهد منه فأظهر العدل والاحسان وأبطل المكوس وورث ذوى الأرحام وكان العمال يكيلون للديون بكيل زائد على ما يكيلون به للناس فأبطل الظاهرة ذلك وكتب إلى وزيره ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين فقال الوزير ان تفاوت الكيل ينوف على

ثلاثين ألف دينار فقال أبطله ولو أنه ثلثمائة ألف دينار فلامه الوزير على ذلك فقال اتركنى أفعل الخير فإنى لاأدرى كم أعيش فلم يلبث أن وفاه الله الكيل الأوفى وأثابه على عمله الصالح ووفى فعاش حميداً ومضى سعيداً وتوفى فى رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

(وولى بعده ولده أبو جعفر منصور بن الظاهر ولقب المستنصر بالله) وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده فنشر العدل وبذل الانصاف وقرب أهل العلم والدين وبنى المساجد والربط والمدارس وهو الذى بنى المدرسة المنتصرية ببغداد التى لم ير مثلها فى مدارس الاسلام ولم يوجد فى المدارس أكبر منها كتبا ولا أكثر أوقافا عليها وكان لهذه المدرسة أربعة مدرسين يدرسون فيها على المذاهب الأربعة رتب فيها الخبز والحلوى والفاكهة وكسوة الشتاء والصيف وجعل فيها ثلاثين يتيما ووقف على ذلك ضياعا وقرى كثيرة سردها الذهبى وغيره فرحم الله أهل الخير وأهل الاحسان ورفع الله درجاتهم فى أعلى الجنان ووفقهم لنشر العدل بالقسط والميزان وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل فى ارتفاع العماد واتقان المهاد وطيب الماء ولطف الهواء ورفاهية الطلاب وسعة الطعام والشراب وغير ذلك من الأسباب وقد حكى أن أول مدرسة بنيت فى الدنيا مدرسة نظام الملك فى بغداد فبلغ علماء ماوراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتما وحزنوا على سقوط حرمة العلم فسئلوا عن ذلك فقالوا ان العلم ملكة شريفة فاضلة لا يتطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة لجاذب الشرف الذاتى والمناسبة الطبيعية ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسبا لحطام الدنيا ويتزاحم عليه لالتحصيل شرف العلم بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه ألا ترى إلى علم الطب مع كونه علما شريفا تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب وهذا مال أكثر طلبة العلم فى هذا الزمان الفاسد وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن فى هذا السوق الكاسد فانك ترى أكثرهم مع دأبه فى الطلب وأكبابه على فنون العلم والأدب يزداد كل وقت عجبا وكبرا ويتعاظم على كل أحد تيها وفخرا ولم ينتق من أوصاف الأخلاق الرذيلة ولو اكتسب مهما اكتسب من الفضيلة وقلما يتحلى أحد منهم

Marfat.com

بحلى الأخلاق الحسنة الجميلة والمزايا الفاضلة الكاملة الجليلة وما ثمرة كسب العلوم غير التخلق بحسن الأخلاق والعمل بمقتضى طب الأصول والاعراق فالله تعالى يبصرنا بعيوبنا ويستر علينا معايب ذنوبنا وينير بصر بصائرنا ويزيل عوار قلوبنا ويرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه .

قلت وحيث انجر الكلام إلى ذكر نظام الملك فأذكر لك حكاية لطيفة نقلها صاحب كتاب وصل الحبيب ونديم اللبيب .

(قال ذكر) أن نظام الملك لما استوزر بالعراق للسلطان أبى الفتح السلجوقى قام بالدولة أحسن قيام فشيد أركانها وأسس بنيانها والى الأولياء واستمال الأعداء وعم إحسانه العدو والصديق والقريب والبعيد وكان أقبل إقبالا عظيما على العلماء والصلحاء والفقهاء وبنى المدارس العظيمة والخانقاهات العالية وأجرى الخيرات الكثيرة والكساوى الجليلة الفاخرة لطبقات طلبة العلم والمشايخ والصوفية وغيرهم ممن يتوسم فيهم الدين والصلاح وعم بذلك سائر الأقطار من بلاد العراقين إلى الحرمين الشريفين بحيث كان يخرج من خاصته الخالصة السلطانية والخزائن الديوانية من هذه الوجوه ما ينوف عن ستمائة ألف مثقال من الذهب غير الذى ينفقه من خاصة أمواله ومحصلات غلاله وما يدخل عليه من الهوائيات وغيرها ولعله كان يقرب من القدر الذى يخرجه من أموال السلطنة فسار صيته فى الآفاق وكثر حساده ولا يخلو السعداء من الحساد فى كل زمان كما هو مشهود بالعيان فى كل أوان وما وجدوا للطعن على نظام الملك طريقا غير إجحافه فى الاخراج من الأموال السلطانية فى هذه الوجوه فوشوا به إلى السلطان أبى الفتح من طرق شتى وكرروا فى سمعه أن نظام الملك أخرب بيت المال وإن هذه المصاريف الزائدة التى يخرجها فى هذه الوجوه يمكن أن تصرف فى جمع جيش كثيف يركز رايته فى سور قسطنطينية وكانت يومئذ مملكة النصارى وهى الآن بحمد الله دار ملك الاسلام عمرها الله تعالى بعدلة سلطان سلاطين الأنام وحرسها بالنصر والتأييد إلى يوم القيام وأنه يؤخذ بذلك الجيش كثيرا من الممالك والأقاليم وتتسع بها المملكة ويكثر الخراج والأموال فلما تكرر ذلك على سمع السلطان أثر كلامهم فى قلبه واعتقد نصحهم كل كلام و

Marfat.com

تكرر على السمع قبله القلب وانطبع فى الطبع ولو كان واهنا واهيا فى نفس الأمر فطلب نظام الملك وقال له يا أبى وكان يخاطبه بالأب تعظيما له لكبر سنه وعقله بلغنى أنك تخرج من بيت المال فى كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغنى شيئا فبكى نظام الملك وقال يا بنى أنا شيخ أعجمى لو نودى على فى السوق ما سويت خمسة دنانير وأنت شاب تركى لو نودى عليك عساك أن تساوى ثلاثين دينارا وقد اخترنا الله وفوض أمور عباده وبلاده الينا فلم نقابله بالشكر ولا عرفنا قدر نعمة الله تعالى فاستمريت أنا فى كتابى وضبطى وأنت منهمك فى لذاتك ولهوك وأكثر مايصعد إلى الله تعالى معاصينا دون طاعتنا وشكرنا وجيوشك الذين أعددتهم للنوائب إذا احتشدوا عنك كالخوا عنك بسيف طوله ذراعان وسهم لا يعرو مرماه وهم مع ذلك منهمكون فى المعاصى والخمور والملاهى هم أحرى بنزول القهر عن نزول الفتح والنصر فاتخذت لك جيشا كثيفا وعسكرا منيفا يسمى جيش الليل وعسكر السحر إذا نامت جيوشك ليلا قامت هذه الجيوش على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم وأرسلوا دموعهم أو أطلقوا بالدعاء ألسنتهم ومدوا أكفهم فرموا سهاما تخرق السموات والأرض وسلوا سيوفا تعمل فى كل حين طوالا تبلغ إلى الصين فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وببركاتهم تمرطون وبدعائهم تنصرون فبكى السلطان أبو الفتح بكاء شديدا وقال شاباش يا أبه استكثر من هذا الجيش فانه الذى لا بد لنا منه ولما كان كل منهما له قابلية الخير معجونا به ما أثر عند ملكه كلام الحساد مع تكرره إلا تأثيرا ضعيفا وزال فى الحال وعاد إلى حب الخير الذى جبل عليه واستغفر الله تعالى مما فرط من تقصيره فرحم الله تلك الأرواح الطاهره ومتعها بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة فقد زالوا وما زالت أخبارهم تروى وأحاديثهم الحسنة تنشر على ألسنة الرواة ولا تطوى (١).

---

(١) هذه الحكاية كان من حقها أن تكتب بالذهب ، وأن تلقى على الناس من فوق المنابر كالخطب ، وأن تنشر بينهم فى الصحف والجرائد ـ فقد اختلفت أحوال المسلمين اختلافا بينا ، وتشعبت بهم الأهواء ، وصار همهم جمع المال من الحرام أم من الحلال ، تركوا حقوق ربهم وحقوق بعضهم ، فلا يتراحمون ولا يتواصلون ، ولا يتناصحون ، وانغمسوا فى اللذات =

Marfat.com

(وعدنا إلى ما كنا فيه) ومن جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين اقبال الشرابى المستنصرى العباسى بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتبا كثيرة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ذهبت شذر مدر والمدرسة باقية إلى الآن وقد صارت رباطا وفيه محل التدريس وبه كتب وقفها أهل الخير ممن أدركناه رحمه الله تعالى وبلصق الكعبة الشريفة فى وسط مقام سيدنا جبريل عليه السلام من الرخام الأزرق الصافى منقول فيه النحت من الرخام الازرق الصافى منقور فيه بالمنبث ما صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المطاف الشريف سيدنا ومولانا الامام الأعظم المفترض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله وذلك فى شهور سنة إحدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم اهـ وهـذا اللوح باق إلى زماننا وكانت وفاة المستنصر بالله لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة وكتم موته وخطب بعد موته إلى أن جاء الامير اقبال الشرابى إلى ولده أبى أحمد المستنصر وسلم عليه بالخلافة لعشر مضين من رجب سنة أربعين وستمائة .

(فبويع له ذلك اليوم ولقب المعتصم بالله) وهو آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد وبزواله زالت دولتهم من الدنيا كما سنشرحه إن شاء الله تعالى .

وحجت والدة المعتصم بالله فى سنة إحدى وأربعين وستمائة وهى أم ولد حبشية واسمها هاجر وكان فى خدمتها إقبال الشرابى الدوادار ومعه ستة آلاف خلعة

= والشهوات وغرقوا فى اللهو واللعب ، ونسوا الله فنسيهم ، إلا من رحم ربك وقليل ما هم فكيف ينتصرون على أعدائهم الذين أحاطوا بهم أحاطة السوار بالمعصم ، والله تعالى يقول « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ونصرة الله لا تكون إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه فانه غنى عن العالمين

نسأل الله أن يرفع مقته وغضبه عنا وأن يعاملنا بما هو أهله وأن يلطف بنا فيما جرت به المقادير آمين .

Marfat.com

وتصدق بنحو ستين ألف دينار وعدة جمال وركب بغداد فى تلك السنة فكانت مائة ألف وعشرين ألف جمل ثم عادت إلى بغداد رحمها الله تعالى ولما جرت عادة الله تعالى بانقراض الدول واختصاص العزة والبقاء لله عز وجل آلت دولة آل عباس إلى الانقراض والزوال وغيرتهم الغير ونابتهم النوائب وحالت بهم الأحوال ودالت دولة غيرهم ولكل زمان دولة ورجال .

ما بين غمضة عن وانتباهتها يغير الدهر من حال إلى حال

وكل شىء له سبب من الأسباب وعلة يدور عليه التقلب والانقلاب وكان سبب ضعف خلفاء بنى العباس استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم وتفويض أمور جميع المملكة إليهم وتلقيبهم بألقاب السلطان وفرط ادلالهم على مواليهم وامتهانهم إياهم غاية الامتهان إلى أن صاروا اسما بلا مسميات وصورا هيولانية يتصرف فيها بالمحو والاثبات وصار أمراؤهم يفشون سرهم ويغشونهم ويصل أرباب الغرض إلى أغراضهم الفاسدة لما يرضونهم .

فأول أسباب زوال الملك ان المستنصر بالله كان له ولدان أحدهما يعرف بالخفاجى كان شديد البأس صعب المراس والثانى المستعصم بالله هينا لينا ضعيف الرأى فاختاره الأمير اقبال الشرابى على أخيه ليستبد بالأمور ويستقل بأحوال المملكة ولا يناله مكروه من المستعصم ولا يخشاه كما يخشى من أخيه الخفاجى فلما توفى المستنصر أخفى الأمير اقبال موته عشرين يوما حتى دبر لولاية المستعصم وبويع له بالخلافة وفر أخوه إلى العربان وتلاشى أمره .

ثم أعظم سبب الزوال ان مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك العلقمى صار وزيرا للمستعصم وكان رافضيا سبابا مستوليا على المستعصم عدوا له ولأهل السنة يداريهم فى الظاهر وينافقهم فى الباطن وكان تدبيره على إزالة الخلافة من بنى العباس وإعادتها إلى العلويين وطمس آثار أهل السنة واطفاء نورهم وتقوية أهل البدعة وإبقاء ديارهم فصار يكاتب هولاكو خان ويطمعه فى ملك بغداد ويخبره عن صورة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر وصار يحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر والاذن لهم فى التفرق والذهاب أين شاؤا ويقطع أرزاقهم

Marfat.com

ويشتت شملهم بحيث أذن مرة لعشرين ألف مقاتل أن يذهبوا أين أرادوا ووفر علوفاتهم فى الخزينة وأظهر للمستعصم أنه وفر من علوفاتهم خزائن أموال عظيمة توفرت فى بيت المال فأعجب المستعصم رأيه وتوفيره وكان يحب المال ويجمعه وماعلم أنه يجمعها لعذره .

وقد سئل بنو أمية بعد ذهاب ملكهم فقالوا أقواها أنا اعتمدنا على المال واستهونا بالرجال فوفرنا المال وقللنا الرجال فأخذ العدو مالنا وتقوى به علينا وأنا أبعدنا الصديق اعتمادا على صداقته وقربنا العدو استجلابا لمحبته فصار الصديق عدوا ولم يصر العدو صديقا بالاستجلاب .

أحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فصار أدرى بالمضرة

وكان من قضاء الله وقدره ان هولاكو خان سلطان القول وجفتاى من دشت قفجاق رجعوا على بلاد الاسلام وجاء بعسكر جرار لايعلمه إلا الله تعالى وكان أقوى سلاطين الاسلام إذ ذاك علاء الدين خوارزم شاه وكان يملك من العراق إلى أقصى بلاد الشرق وكان له قوة وشوكة وعسكر وافر وجند متكاثر فظهر هلاكو وقاتله خوارزم شاه مرارا وهو ينكسر إلى أن قتل هو وأولاده وجنوده واستباح كثيرا من بلاد الاسلام وقتل من فيها بالقتل العام وصار يجول هولاكو فى الديار وناره فى غاية الاشتعال والاستعار والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار إلى أن وصل هولاكوخان إلى بلاد العراق واستأصل من بها قتلا وأسرا وتوجه إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لاينفعه الندم وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله وجمع من أهل بغداد وخاصة عبيده وخدمه ما يقارب أربعين ألف مقاتل لكنهم مرفهون بابن المهاد ساكنون على شاطىء بغداد فى ظل ثخين وماء معين وفاكهة وشراب واجتماع أحباب وأصحاب ماكابدوا حربا ولا دافعوا طعنا ولا ضربا وعساكر الغل ينوفون عن مائتى ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وسالب وباسل وفاتك وقاتل يثبون وثب القردة ويتشكلون بأشكال المردة يقطعون المسافات الطويلة

Marfat.com

فى ساعات قليلة ويخوضون الأوحال ويتعلقون بالجبال ويصبرون على العطش والجوع ويهجرون الغمض والهجوع ولا يبالون بالبرد والحر والسهل والوعر والبحر والبر طعامهم كف شعير وشرابهم من طرق البير يكاد أحدهم يتقوت باذن فرسه يقطعها ويأكلها نيه ويصبر على ذلك أياما عديدة أو يكتفى هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة فوقع المصاف والتحم القتال ووقع الطراد والنزال وزحف الخيس إلى الخميس فى يوم الخميس عاشر المحرم الحرام سنة ست وخمسين وستمائة وثبت أهل بغداد مع براقتهم على حد السيوف وصبروا مضطرين على طعم الحتوف وأعطوا الدار حقها فاستمطروا غمائم السهام وابلها وودقها واستقبلوا بحر وجوههم صواعق الحرب وبرقها ورزقوا فى تلك المكابدة الفوز بالشهادة وارتقوا فى الدار الآخرة رتب السعادة وجادوا بأنفسهم فى سبيل الله وأجادوا أحسن اجاده واستمروا كذلك من اقبال الفجر إلى ادبار النهار فعجزوا عن الاصطبار وانكسروا أشد انكسار وولوا الأدبار بالأدبار وما أغنى عنهم الفرار

ولذهم الطراد إلى قتال أحد سلاحهم فيه فرار
مضوا متسابق الأعضاء فيه لأجلهم باروسهم عثار
يرون الموت قداما وخلفا فيحتارون والموت اضطرار

وغرق كثير منهم فى دجله وقتل أكثرهم أشد قتله وأعقبهم التتار فوضعوا السيف فيهم والنار وقتلوا من المسلمين فى ثلاثة أيام مايئوف على ثلثمائة ألف وسبعين ألفا وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الخزائن والأموال فأخذ هولاكو جميع النقود وأمر باحراق الباقى ورموا كتب بغداد فى بحر الفرات وكانت لكثرتها اجسرا يمرون عليها ركبانا ومشاة وتغير لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الاسلام (واستوسر المستعصم) هو وأولاده وجماعته وأتوا به إلى هولاكو أسيرا ذليلا فقيرا حقيرا فسبحان المعز المذل القادر القاهر تعالى شأنه الباهر وعلا سلطانه على كل ذى سلطان قاهر فاستبقى هولاكو الخليفه أياما إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره ودفائنه ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه ومنطقيه وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة فيرفس بالأرجل إلى أن يموت

Marfat.com

ففعل به ذلك فاستشهد رحمه الله تعالى فى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ست وخمسين وانقطعت الخلافة من بنى العباس وهم سبع وثلاثون أولهم السفاح وآخرهم المستعصم وبعده صار المسلمون بلا خليفة ولم ينل ابن العلقمى ما أراده ولم يستفد غير سلامة أهل الحلة من النهب والقتل بمساعدته لهم فان مجد الدين محمد بن الحسن بن طاووس الحلى وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلى أرسلا كتابا إلى هولاكو على يد بن العلقمى وفيه كلام يروونه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

صورته إذا جاءت العصابة التى لا خلاق لها لتخربن يا أم الظلمة ومسكن الجبابرة وأم البلايا ويل لك يا بغداد وللدار العامرة التى لها أجنحة كالطواويس تماتين كما يموت الملح فى الماء ويأتى بنو قنطورا ومقدمهم جهورى الصوت لهم وجوه كالمجان لمطرقة وخراطيم كخراطيم الفيلة لم يصل إلى بلد إلا افتتحها ولا راية إلا نكسها فلما وصل الكتاب إلى هولاكو أمر أن يترجم له فلما قرأه أمرلهم بسهم الأمان وسلموا بسبب ذلك من القتل والنهب وباء ابن العلقمى بأثمه وأثم من ظلم بسببه وكان من أهل النار وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قلت وأما هذه الكلمات فما عليها طلاوة كلام سيدنا على رضى الله عنه ولا حلاوته وآثار الوضع ظاهرة عليها وكأنهم اخترعوه بعد وقوع الطامة وعند حصول هذه الفتنة العامة والا لاشتهر ذلك قبل الوقوع وتناقلته الرواة فى كل جموع والله أعلم بالسرائر وما تجنه الأحشاء والضمائر .

« فصل » كان ممن نجا من سيوف هولاكو من بنى العباس أحمد وتلقب المستنصر ابن الظاهر بن الناصر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى بالله العباسى فوصل إلى مصر وافداً على سلطانها إذ ذاك وهو الملك الظاهر سيف الدين بيبرس البندقدارى فى سنة ست وخمسين وتسعمائة فخرج السلطان بيبرس إلى تلقيه وأكرمه وأثبت نسبه فى موكب عظيم فيه قضاة الشرع الشريف وأعانه الظاهر بجيش وتوجه إلى بغداد ووصل إلى القوات فى ثالث ذى القعدة سنة تسع وخمسين وستمائة فقاتله فزت بغانائب هولاكو على بغداد فقتل المستنصر ومن معه ولم ينج منهم إلا القليل فلم

Marfat.com

يتم له أمر ثم وصل بعد ذلك إلى مصر من بنى العباس أبو العباس أحمد وتلقب الحاكم بأمر الله بن الراشدبن المسترشد بن المستظهر بن المقتدرالعباسى فأكرمه الملك الظاهر وأثبت نسبه قضاة الشرع بحضرته وبايعه بالخلافة وأجرى عليه نفقته وسكن بمصر وليس لهم من الأمر شيء وإنما إسمه الخليفةوأولاده من بعده على هذا المنوال ليس لهم إلا اسم الخلافة ويأتون به إلى السلطان الذى يريدون توليته فيبايعهويقول له وليتك السلطنة هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحد بعد واحد وكانوا سلاطين الأقاليم يتبركون بهم ويرسلون إليهم أحياناً يطلبون منهم تفويض السلطنة باللسان فيكتبون له تقليدا ويعهدون إليه بالسلطنة عهداً ويولونه سلطنة الجهة التى هو فيها فيتبرك بهذا التقليد ويتمنى به ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة والصورة كما كان للخلفاء العباسيين ببغدادالمحجور عليهم منجهة أمرائهم إلا صورة الخلافة فقط وهؤلاء ليس لهم ولا تلك الصورة أيضاً وإنما لهم الإسم المجرد عن المعنى من كل وجه ولكن شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى عدهم من جملة العباسيين وكتب تاريخا للخلفاء ذكر هؤلاء منجملتهم وقام بشأنهمواعتبارهم وآخر من ذكر منهم فى تاريخ الخلفاء .

« المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز بن يعقوب » وأته بويع له فى يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة بحضرة السلطان الأشرف قايتباى والقضاة والأعيان بالقلعة فى مصر ثم ركب من القلعة إلى منزله وكان يوما مشهوداً وبه ختم كتابه تاريخ الخلفاء .

ورأيت فى تاريخ لطيف للحافظ السيوطى أيضاً أسماء الوفيات فى الرقيات أن فى سنة ثلاث وتسعمائة مات فى المحرم منها الخليفة المتوكل على الله أبو العز العباسى المصرى رحمه الله تعالى (وعهد لابنه يعقوب ولم يلقب فلقبه الناس المستمسك بالله) قلت واستمر يعقوب ا ستمسك بالله خليفة إلى أن كبر سنه وكف نظره ودخلت أيام الدولة الشريفة العثمانية وافتتح السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأسم السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيدخان مصر القاهرة وقهرها وأزال عنها مظالم الجراكسة وعاد مع الفتح والبشرى إلى دار السلطنة الكبرى قسطنطينية العظمى فتوفى الخليفة

Marfat.com

المذكور بمصر لعشر بقين من ربيع الثانى سنة سبع وعشرين وتسعمائة أخذه سركنا إلى اصطنبول عوضاً عن والده يعقوب المستمسك بالله لكبر سنه وذهاب نظره فلما توفى السلطان سليم رحمه الله عاد المتوكل على الله هذا إلى مصر وصار خليفة بها واستمر إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى لاثنتى عشرة ليلة مضت من شعبان سنة خمسين وتسعمائة فى أيام المرحوم داود باشا الخادم صاحب مصر رحمه الله تعالى وبموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية بمصر أيضاً وكان المتوكل هذا فاضلا أديبا له شعر فمنه قوله :

لم يبق من محسن يرجى ولا حسن ولا كريم إليه مشتكى الحزن
وإنما ساد قوم غير ذى حسب ما كنت أوثران يمتدبى زمنى

ضمن قول الطغرائى من لامية العجم

ما كنت أوثران يمتد بى زمنى حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وقد اجتمعت به وأخذت عنه فى رحلتى إلى مصر لطلب العلم الشريف فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكانت مصر إذ ذاك مشحونة بالعلماء العظام مملوءة بالفضلاء الفخام ميمونة بيمن بركات المشايخ الكرام كأنها عروس تتهادى بين أقمار وشموس

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــلام

Marfat.com

الباب السادس

فى ذكر ملوك الجراكسة لأن بعضهم أو أكثرهم عمر فى المسجد الحرام ، وسبق لهم فيه من الترميم والنظام لما صاروا من سلاطين الإسلام ،

اعلم أن الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الأرض لهم مدائن عامرة ولهم جبال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون وهم تابعون السلطان خوارزم وملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية يقاتلونهم ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى أطراف البلدان والأقاليم هكذا ذكرها المقريزى فى عقوده قال واستكثر المنصور قلاوون صاحب مصر من ملوك الأتراك بعد الأيوبية ملوك الأكراد أصحاب مصر من شر المماليك الجراكسة وكذلك ولده وبنوه وأدخلوهم فى الخدم الخاصة فصاروا سلحداريه وجامداريه وجاشكيريه وأمراء وكبروا عمائمهم وسلكوا طريق أسيادهم من ملوك الترك وداخلوا السلطنة وغلبوا عليهـــا واستقلوا بها واستكثروا من جنسهم وعملوا لها قوانين وقواعد تنظم بها دولتهم وولى منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر إثنان وعشرون ملكا وكانت مدة ملكهم مائة وثمان وعشرون سنة . (وأولهم السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنص العثمانى الجراكسى) كذا ذكره المقريزى فى عقوده وخططه قال الجمال يوسف بن تغرى بردى هو چركسى الأصل قام بدولة الجراكسة جليه عثمان بن مسافر ولذلك يقال له برقوق العثمانى فاشتراه الأتابك بليغا وهو من صغار مماليكه وإنما سمى برقوقا الشحوظ فى عينيه وتنقلت به الأحوال إلى أن صار أمير مائة ألف مقدم وكان أتابكا للملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك من مماليك الأيوبية الأكراد المتغلبين عليهم غير الجراكسة وكان سن الملك الصالح لما ولى السلطنة عشرة أعوام ليس له من السلطنة غير الإسم فألزم الأمير الأتابك برقوق أن يخلع الملك الصالح

ويتولى السلطنة بدله فخلعه بعد سنة ونصف سنة وذلك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ومن آثارة مدرسة أنشأها بمصر بين القصرين كان مشيد عمارتها چركسى الخليلى فقيل له فى ذلك شعر

قد أنشأ الملك السلطان مدرسة فاقت على أرم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى إن جاءت لخدمته صم الجبال لها تمشى على عجل

وجهز للحرم المكى مالا لعمارة ماتهدم من المسجد الحرام وسار الركب الرجبى من مصر إلى مكة بعد طول انقطاعه واستكثر من المماليك الجراكسة فاستمروا متغلبين على ملك مصر إلى أن كثر ظلمهم وزاد عسفهم وغشمهم فأزالهم الله تعالى بعد ذلك بالسيوف الصارمة العثمانية وتشرفت بدولتهم القاهرة مصر والتخوت اليوسفية الكنعانية ملكهم الله تعالى كافة البسيطة وجعل معدلتهم ورأفتهم عامة بسائر أهل الأرض محيطة .

ودخل الظاهر برقوق متمكناً جمع أموالا وخزائن وأكثر من المماليك الجراكسة فتمكنوا من الملك وتلاعبت بعده المماليك الجراكسة بملك مصر وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلبة والاستيلاء وكانت تقع فتن وقتال وجلاد وجدال وقتل نفوس وحرب البسوس وحزف وبوس إلى أن يستقر الأمر على واحـــد منهم فيركب فى شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصة أخذوها عن الملوك الآيوبية الأكراد وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولا عندهم فإن العرف يحسن ويقبح وإن كان صورة مضحكة عند من لا يألفها ولكل إقليم وضع خاص لسلاطين ذلك الأقليم يكون مهيباً مهولا فى أعين أهل ذلك الإقليم لا لفهم بتلك الهيئة لسلاطينهم فكان من شعار سلاطين الچراكسة عمامة ملفوفة بصنائع مكلفة يجعلون فى مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش يلبسها السلطان فى مواكبه وديوانه ويلبس قفطانا من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين طراز مزركش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار إلا أن ذلك ليس مخصوصاً بالسلطان بل يلبس ذلك من أراد من الأمراء ومن دونهم ويخلع بهذا الثوب المطرز من أراد ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة وفى وسط ذلك صورة طير صغير

يظلل السلطان بتلك القبة والذى يحملها على رأس السلطان أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانا بعد ذلك وأ كابر أمرائه أربعة وعشرون كبيراً يلطخانه على بابهم صبحاً وعصراً كل واحد منهم أمير مائة مقدم على ألف بمنزلة البكلربكية عندهم يلبس كل واحد منهم عمامة بأربعة قرون ودونهم أمير عشرة مقدم مائة بمنزلة السنجق يلبس كل واحد منهم عمامة بقرنين ودونهم الخاصكية يكون له فرس وخدام وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعذبة يديرها من تحت حنكه ودونهم الجلبان وهم مشاة على رءوسهم طواقى من جوخ أحمر ضيق من موضع يدخل فيه رأسه وسيع من أعلاه لا يلطأ برأسه وملبوس أكثرهم الملوطة البيضاء المصقولة يكون على كتفه طراز من مخمل أو أطلس أو مزركش وفى أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدون بها أوساطهم ويسدلون طرفها إلى أنصاف سوقهم وكانت التجار تجلب المماليك البيض من بلاد چركس ويتغالون فى أثمانهم إلى أن كثروا بمصر وبلغوا من عشرين ألف فارس.

وكانت لهم اصطلاحات فى تربيتهم وكانت لهم أطباق يوظفون فيها المعلمين من حفظ القرآن وكان الجلب يدخله سيده أولا إلى الطبقه فيتعلم الخط والاستخراج والصلاة والقراءة بحسب قابليته فقد يفوق فى الخط ومعرفة القرآن والفقه وأمور دينه ثم يترقى إلى معرفة التفات والصراع ورمى السهام ثم يترقى إلى معرفة الفروسية إلى أن يتفرس فى كل ذلك ثم يترقى إلى الخاصكية ثم إلى الدواداريه والمقدميه ثم إلى السلطنه فكان خيال السلطنة فى دماغ كل واحد منهم من حين يجلب إلى السوق ليباع إلى أن واحدا من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرعه فاحش العرج فقال للدلال يبيعه هل ولى الأقرع الأعرج سلطانا فى مصر بالجمله فقد كانوا طوائف سوارج لهم سماحة وحماسة وصداقه لمن صادقوه وكانت أرزاق مصر بيديهم وكانت أهل مصر يتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق وكانوا بيد فقهائهم ومباشريهم وكانوا يتخدعون فيرتب لهم مباشروهم المصريون مصارف فيكون للجندى فقيه يعلمه القرآن وامام يصلى به ومكبر ومباشر يكتب دخله وخرجه وخزندار وركاب دار وجامدار مهميار وسراج ومكاليس وحلاق وغير ذلك وحلوى وتفكها وكانوا فى رفاهية وكان أهل مصر يعيشون فى ظلهم وغدا بحيث أن اسمطتهم كانت تكفى سائر جيرانهم

Marfat.com

وكانت خدامهم تبيع ما يفضل من طعامهم للناس من الدجاج والأوز وسائر النفائس وكان لهم سوق يباع فيه ما يفضل من أطعمتهم وكانوا يتفاخرون ببناء البيوت الفاخرة والمدارس والجوامع والترب وكانت لهم خيرات جارية ومبرات عالية إلى أن فشا فيهم الظلم والعدوان وكثرت منهم المصادرات وغلبت سيآتهم على حسناتهم وزادت مظالمهم على خيراتهم ومالوا إلى العوانية المفسدين وأخلوا بشعائر الشرع والدين فاستجاب الله فيهم دعاء المظلومين ومزقهم كل ممزق ودار الظالم خراب ولو بعد حين والملك يدوم بالكفر ولا يدوم مع الظلم والله لا يحب الظالمين وإن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

(وكانت) مدة سلطنتهم بمصر من سنة أربع وثمانين وسبعمائة إلى ثلاث وعشرين وتسعمائة .

وهذا كلام وقع فى البين فلنرجع إلى أحوال الملك الظاهر برقوق فنقول بعد سلطنته استمر على حاله سلطانا إلى أن خلع فاحبس فى مكرك ثم تسحب من الحبس وجمع الجيوش وقاتل وغلب على المملكة وأعيد إلى السلطنة وصار يتبع اعداءه ومن خرج عليه وخالفه إلى أن استصفاهم وما صفاله الزمان وظن أنه آمن وأين الأمان من يد الدهر الخوان ومالت شموس سلطنته إلى الزوال وانمحق بدر حياته ولا بد من المحاق بعد الكمال وبرق برق الزوال على برقوق وشاهد الانفصال .

(فعهد بالسلطنة إلى ولده السلطان فرج بن برقوق) . وطلب الخليفة والقضاة والأمراء واشهد على نفسه أنه نزل عن السلطنة لولده فرج وسنه عشرة أعوام وعين الأتابك ايتمش البجاشى لتدبير المملكة وتوفى إلى رحمة الله فى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة احدى وثمانمائة وفى ذلك يقول أحمد المعرى الشاعر

مضى الظاهر السلطان أكرم مالك الى ربه يرقى الى الخلد فى الدرج
قالوا ستأتى شدة بعد موته كرمهم ربى وما جاسوى فرج

وخلف الظاهر برقوق من الذهب العين ألف ألف دينار ومن القماش والأثاث ما قيمته ألف ألف وأربعمائه ألف ومن الخيل المسومة والبغال الفارهة ستة آلاف

ومن الجمال البختية خمسة آلاف جمل وكان عليق دوابه فى كل شهر أحد عشر ألف اردب شعير وفول .

وفى أيام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق فى المسجد الحرام فى ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة اثنتين وثمانمائة .

وسبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد فى الجانب الغربى منه ورامشت هو الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن الحسين الفارسى وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة فترك بعض سكان الخلاوى سراجا موقودا فى خلوته وبرز عنها فسحبت الفأرة الفويسقة فتلة السراج منه الى خارجه فأحرقت فى الخلوه واشتعل اللهب فى سقف الخلوة وخرج من شباكه المشرف على الحرم الشريف واتصل بسقف المسجد الحرام والنهاية وعجز الناس عن طفيه لعلوه وعدم وصول اليد اليه فعم الحريق الجانب الغربى من المسجد الحرام واستمرت النار تأكل من السقف وتسير ولا يمكن الناس إطفاؤها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشامى واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالى إلى أن انتهى إلى باب العجلة وكان هناك اسطوانتان هدمها السيل العظيم المهول الذى دخل المسجد الحرام فى اليوم الثامن من جمادى الأولى من هذا العام يعنى عام حريق المسجد الحرام وأخرب عمودين من أساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهما من العقود والسقوف فكان ذلك سببا لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان والا لعم المسجد الحرام جميعه من الجوانب الأربعة فاقتصر الحريق إلى باب العجلة وسلم الله تعالى باقى المسجد الحرام .

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى

فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواما عظاما تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد .

قال النجم بن فهد وتحدث أهل المعرفة بأن هذا منذر بحادث جليل يقع فى

Marfat.com

الناس وكان ذلك مقدم وقعة المحن العظيمة بقدوم تمرلنك إلى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبي ذراريهم ونهب أموالهم واحراق مساكنهم ودورهم كما هو مذكور فى التواريخ المفصلة .

﴿ قال الحافظ السخاوى ﴾ فى ذيله على دول الاسلام للذهبي رحمه الله تعالى . وفى آخر شوال سنة اثنتين وثمانمائة وقع بالحرم المكى حريق عظيم أتى على نحو ثلث المسجد الحرام ولولا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد الحرام جميعه واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عمود اصارت كلها كلسا ولم يتفق فيما مضى مثله وكان وقوع السيل فى جمادى الأولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفواه القرب ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ القناديل ودخل الكعبة من شق الباب فهدم من الرواق الذى يلى باب العجلة عدة أساطين وخرب منازل كثيرة ومات فى السيل جماعة رحمهم الله قال الفاسى رحمه الله تعالى ثم قدر الله تعالى عمارة ذلك فى مدة يسيرة على يد الأمير بيسق الظاهرى وكان قدومه إلى مكة لذلك فى موسم سنة ثلاث وثمانمائة وكان هو أمير الحاج المصرى وتخلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد فلما رحل الحجاج من مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الأكوام التراب وحفر الأرض وكشف عن أساس المسجد الشريف وعن أساس الاسطوانات فى الجانب الغربى من الحرم الشريف المحترم وبعض الجانب الشامى منه إلى باب العجلة فظهر أساس الاسطوانات مثل تقطيع الصليب تحت كل اسطوانة فبناها وأحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض وبناها حتى رفعها إلى وجه الأرض على أشكال زوايا قديمة وقطع من جبل بالشبيكة على يمين الداخل إلى مكة أحجار صوان صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة يصير على آخر منحوت مثله دائرة تامة فى سمك ثلثى ذراع وصففت على قاعدة مربعة منحوتة على محل التقاطع الصليبى على وجه الأساس المرتفع على الأرض ووضع عليها دائرة أخرى مثل الأولى ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدورين وسبك على جميع ذلك بالرصاص إلى أن انتهى طوله إلى طول أساطين المسجد فيوضع حجر منحوت من المرمر هو قاعدة ذلك

العمودين من فوق طاق يعقد إلى العامود الآخر وبنى ما بين ذلك بالآجر والجص إلى أن يصل إلى مسقف إلى أن تم الجانب الغربى من المسجد الحرام على هذا الحكم وبقيت القطعة التى من الجانب الشامى إلى باب العجلة فأكلوها بالقطع من عمد الرخام الأبيض موصلة بالصفايح من الحد إلى أن لا قوابه العمد التى بنوها من الحجر الصوان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام ثلاثة أروقة والجانب الغربى وحده بالحجر الصوان المنحوت المدور على شكل عمد الرخام وكملت عمارة هذه العمد فى أواخر شعبان سنة أربع وثمانين ولم يبق غير عمل السقف وآخر عمله بعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة إذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر وليس لذلك طول ولا قوة ويحتاج إلى خشب الساج ولا يجلب الا من الهند أو خشب الصنوبر ولا يجلب إلا من الروم فلزم تأخيرا كماله إلى احضار القدر الذى يحتاج اليه من ذلك الخشب وشكر الناس الأمير بيسق على سرعة تمام هذا المقدار من العمل فى هذه المدة اليسيرة ومبادرته الى تنظيف المسجد الى أن صلح للصلاة فيه وكان ذا همة عالية وحسن توجه وكان كثير الصدقة والاحسان وحج الأمير بيسق فى ذلك العام وعاد الى مصر لتجهيز ما يحتاج اليه من خشب سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام ووصل الى مصر فى أوائل سنة خمس وثمانمائة وكان صاحب مكة يومئذ جد ساداتنا أشراف مكة الآن السيد الشريف حسن بن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وكان ممن يحب الخير ويرغب فيه ويسابق الى فعل الجميل ويبادر اليه وهو الذى يقول فيه شمس الدين بن المقرى الشافعى صاحب الارشاد والرضوان وعنوان الشرف وغيرها من قصيدته يمدحه ويعرض بصاحب اليمن يومئذ .

أحسنت فى تدبير ملكك يا حسن واجدت فى تسكين خلاص الفتن

الى أن قال

موسى هزبر لا يطاق نزاله فى الحرب لكن أين موسى من حسن
هذاك فى يمت وما سلمت له يمن ودا فى الشام لم يدع اليمن

ومن جملة خيراته وآثاره أنه لما رأى رباط رامشت وما آل اليه أمره بعد

Marfat.com

الحريق الى أن صار سياطه بذلك المحل أمر باعادته رباط للفقراء كما كان وصرف من ماله عليه الى أن عاد أحسن من الأول وزالت السباطات من ذلك المكان وانصان الحرم الشريف وتضاعفت أدعية الناس له بسبب ذلك والله يجزى المتصدقين ويسمى الآن رباط الخاص لأنه رسمه وعمره بعد شهرته فى أوائل القرن العاشر وهو من طائفة المباشرين فى ديوان السلطنة بمصر فى خدمة السلطان جقمق العلائى ومن بعده وكان من أهل الخير رحمه الله .

وفى سنة سبع وثمانمائة قدم الى مكة الأمير بيسق لعماره سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام وغيره مما تشعب من سقف المسجد الشريف من كل جانب متنهض إلى هذه الخدمة واحضر الأخشاب المناسبة لذلك وجلبها من بلاد الروم وهنأها لعمد السقف ونقشها بألوان وزمنها واسعتان بكثير من خشب العرعر الذى يؤتى به من جبال الحجاز من جهة الطائف لعدم وجود خشب الساج يومئذ فى مكة وبذل همته واجتهاده إلى أن أسقف جميع الجانب الغربى من المسجد الحرام وأكمله بخشب العرعر المذكور وعمر معه بعض الجانب الشامى أيضا إلى باب العجلة فتم عمارة المسجد الشريف على تلك الاسطوانات المنجوتة من الحجر الصوان وعلق فى تلك الأسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعليق القناديل فى الرواق الوسطانى من الأروقة الثلاثة على حكم سائر المسجد الحرام غير الجانب الشرقى واليمانى وأكثر الشامى إلى باب العجلة كان فى كل عقد من العقود التى تلو صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل أحدها فى وسط كل عقد والثانى عن يمينه والثالث عن شماله لتعليق القناديل .

وأما هذا الجانب الغربى كانت فيه السلاسل على هذا الحكم فلما احترق هذا الجانب وأعيدت عقوده لم تركب فيها هذه السلاسل ولا أدرى كانت هذه السلاسل التى هى خارج عن الأروقة تحت العقود البرانية منها يعلق فيها القناديل أحيانا أم كانت لمجرد الزينة ولم اطلع على ذكر قناديلها ولا كيف كانت ومتى بطلت وأكمل عماوة سقف الجانب الغربى وما احترق من الجانب الشامى إلى باب العجلة فى سنة سبع وثمانمائة وعمر مع ذلك فى الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة

Marfat.com

من سقفها كان قد انكسر أعوادها ومال بعضها وكان يسيل منها الماء إلى المسجد الشريف فأصلح الأمير بيسق جميع ذلك بالطبطاب والنورة فى سطح الأسقف ودلكها وسواها وأتقن عملها وعمر ما فى صحن المسجد من المقامات الأربعة على الهيئة القديمة وبذل فى صرف ذلك الأموال العظيمة وشكره الناس على ذلك وكان ذلك فى أيام للناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق بن انص الجركسى ثانى ملوك الجراكسة وكانت سلطنته بعهد من أبيه عند وفاته كما تقدم صبيحة يوم الجمعة فى منتصف شوال سنة إحدى وثمانمائة وكان الأمير الأتابك ايتمش مدبر المملكة وكان الأمير شيبك حزنداره فوقع بينهما منافرة أدت إلى مشاجرة ثم إلى مقاتلة فانكسر ايتمش فهرب إلى نائب الشام الأمير تنم الظاهرى فجيشا جيوشا إلىمصر لقتال الناصر وشيبك فخرج الناصر لقتالهم فانهزموا منه واضطربت أحوال مصر لاختلاف الكلمة ثم وصل تمرلنك إلى بلاد الشام وأخذها من سدون الظاهرى وأسره وقتله ونهب بلاد الشام وأخرب ديار الدوادار وخرج الناصر فرج بجيوشه من مصر لقتال تمرلنك فوجده قد نزل البلاد وتوجه إلى بلاد الروم فأعطى الشام لتغرى بردى وعاد إلى مصر وذلك فى سنة ثلاث وثمانمائة ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية مماليك الظاهر برقوق واختلفت الأحوال بسبب هذه الفتن والاختلافات إلى أن ضجر فرج من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الاثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة واختفى عند سعد الدين ابراهيم ابن عراب أحد رؤساء المباشرين فلما أصبح الأمراء وفقدوا السلطان أقاموا فى السلطنة أخاه .

(الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق بن أنص الجركسى) ثالث ملوك الجراكسية فتلاشت أمور المملكة فى أيامه لصغر سنه واختلاف أمراء دولته وكيف يستقيم الملك مع الخلاف والحال أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وكان مدة ملك المنصور شهرين وعشرة أيام ثم ظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه أمراء من مماليك أبيه وأخذ القلعة بالحراب من أخيه الملك المنصور عبد العزيز وتسلطن ثانيا يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخر سنة ثمان

Marfat.com

وثمانمائة ونفى أخاه الملك المنصور عبد العزيز وأخا له اسمه ابراهيم إلى الاسكندرية فتوفيا بها فى ليلة الاثنين سابع ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وأتهم الناصر بقتلهما والله أعلم.

ثم صار الملك الناصر فرج يتبع أعداه من الأمراء فصار يقتلهم واحدا بعد واحد فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته وقاتلوه فهزمهم فخرجوا عنه إلى الشام فتبعهم فصاروا يمكرون به ويهربون عنه ويتبعونه فى طلبهم مع غاية الاحتراز منه والحرب خداع ومخالفة الجم الغفير والجمع الكثير لاتستطاع إلى أن مل منه الخدم والاتباع وتفرقوا عنه وسئموا عن الاتباع وهو يتبعهم بالجد فى الطلب إلى أن صادفوه فى طلبهم بعد التعب والدأب وهو ومن معه اتعبوا خيولهم فى طلب العدو من العشاء إلى الصباح وأشرفوا فى الصبح على الأمراء العصاة عليه وهم بطول الليل فى الراحة والارتياح فحمل السلطان الناصر فرج ومن معه وهم نفر قليلون حقيرون على امرائه العاصين له وهم متوفرون كثيرون فمنعه أصحابه من هذه الحملة وسموا أنه هو ومن معه فى غاية التعب والقله فلم يطعهم وأطاع غروره وجهله واغتر بشجاعته وحوله ظن أنه لايقابله أحد لعزته وطوله ولا يقاتله أحد لهيبته وزوله فدلاه خياله الفاسد بغرور وخاب ظنه كما يخيب ظن كل مغرور وخانه الزمان الجائر ودارت عليه الدوائر وخذله الدهر فما كان الناصر من قوة ولا ناصر وانقلب اليه بصره وهو حسير وظفر به عدوه الحقير وقيده وهو أسير كسير وقتل وما للناصر نصير وما جاء للفرج فرج إلا ببشرى الشهادة وإلى الله المصير وطعنته المشاعلية بالسكاكين إلى أن انقطع منه الوتين وسكن منه الأنين فصار عبرة للناظرين وهو مقيد محبوس بأيدى القاتلين فى ليلة السبت منتصف شهر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة والقى بعد هذه القتلة على سباطة مزبلة وهو عريان من اللباس يمر به الناس وينظرون إلى ذلك البدن الممتهن والجسد العارى الممتحن وذلك من أعظم العبر وأكبر المحن إلى أن خلق الله عليه بعض الأنام بعد عدة أيام فحمله وغسله وأدرجه فى كفن وواراه فى التراب فى مقبرة باب الفراديس ولعل الله سامحه وأسكنه الفراديس والرجاء من الله الكريم أن يكون الله غفر له فان السيف محاء الذنوب وأن الله علام الغيوب.

Marfat.com

ومن العمائر الحرمية فى أيامه تجديد عقد المروة بعد سقوطه فى سنة احد عشر وثمانمائة .

ومنها أن تاجر السبي الخواجا حسين احمد الشتروانى أوصى فى مرض موته أن يصرف على عمارة عين مكة من ماله عشرة آلاف درهم وأن يعمر الميضأة الصرغتشية بخمسة آلاف درهم فنفذت وصيته بعد ذلك فى العام المذكور .

ووقع فى أيام الناصر فرج أيضاً أن سلطان بنكاله من سلاطين أقصى الهند السلطان غياث الدين أعظم شاه بن اسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه ياقوت الغياثى ليتصدق بها على أهل الحرمين ويعمر له بمكة مدرسة ورباطاً ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال الخير كالتدريس ونحوه وكان ذلك باشارة وزيره خان جهان فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا السيد حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ جد ساداتنا الأشراف الآن جمل الله بوجودهم الزمان وكان وصول ياقوت الغياثى إلى مولانا السيد الشريف حسن بن عجلان رحمه الله مع هدايا جليلة إليه فقبلها وأمره أن أن يفعل ما أمره به السلطان غياث الدين لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاداً بائه ووزع الباقى على الفقهاء والفقراء بالحرمين الشريفين فعمتهم وتضاعف الدعاء له على الخير والدال عليه كفاعله واشترى ياقوت الغياثى لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانى. هدمها وبناهما فى عامه رباطا ومدرسة واشترى أصيلتين وأربع وجبات مافى الركابى وجعل لها أربعة مدرسين من أهل المذاهب الأربعة وستين طالبا ووقف عليهم ما ذكرناه واشترى داراً مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهبا وقفها على مصالح الرباط وأخذ منه مولانا السيد حسن بن عجلان فى الدارين اللتين بناهما رباطا ومدرسة والأصيلتين والأربع الوجبات من قرار عين الركابى اثنا عشر ألف مثقال ذهبا وأخذ منه مبلغا لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه لتعمير عين عرفة فذكر مولانا السيد حسن أنه يصرفه على عمارته ويقال أن قدره ثلاثون ألف مثقال ذهبا وكان السيد حسن عين أحد قواده وهو الشهاب بركات المكين لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين بالمعلاة وكانتا معطلتين فأصلحهما إلى أن جرت عين بازان فيهما .

وكان خان جهان وزير السلطان غياث الدين أرسل مع ياقوت الغياثى خادما يسمى حاجى اقبال أرسله بصدفة أخرى من عنده لأهل المدينة المنورة وجهز معه مالا ليبنى له به مدرسة ورباطا وهدية إلى أمير المدينة يومئذ جمان الحسينى فانكسرت السفينة التى فيها هذه الأموال وغيرها بقرب جدة فأخذ مولانا السيد بن عجلان ربع ماخرج من البحر على عادتهم إذا انكسرت سفينة عندهم وأخذ ما يتعلق بالسيد جمال الحسينى لأنه عصى وظهرت منه شنائع بالمدينة الشريفة من أخذ مفتاح خزانة النبي صلى الله عليه وسلم من قاضى المدينة جبرا بعدأن أهانه وهو القاضى زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغى وضرب شيخ الخدام وأخذ من خزانة النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر خوشخانة وصندوقين كبيرين وصندوقا صغيرا كلها مهورة فيها ذهب مودع للملوك العراق وخمسة آلاف كفن وصادر الخدام وأراد أخذ قناديل الذهب من الحجر فمنعه الله تعالى ونهب العربان ماجمعه ومات لارحمه الله تعالى فأرسل مولانا السيد حسن بن عجلان إلى المدينة الشريفة عسكرا وصلوا إليها بعد خراب البصرة وولى عليها عجلان بن غير الحسينى وكل ذلك سنة أحد عشر وثمانمائة.

وفى سنة أربع عشر وثمانمائة وقع فى أوسط رمضان اصلاح مواضع فى سطح الكعبة الشريفة كان يكثر وكف المطر منها إلى أسفلها ومنها مواضع عند الطابق التى على الدرجة التى يصعد منها إلى سطحها ومنها مواضع عند الميزاب وكان الفتح الذى فى هذا الموضع متسعا مضرا يصل الماء منه فى وسط الجدار وذلك بعد قطع اللوح الذى بين مجرى الماء وأعيد اللوح كما كان وموضع بقرب الروازن التى للقبور وكان اصلاح المواضع المذكورة بالجبس وكانت الأخشاب المطيفة بأعلى الروازن التى عليها البناء المرتفع فى وسط البيت وقد تخرب فعوضت بخشب سوى ذلك وأعيد البناء الذى كان عليها كما كان إلا الروزن الذى يلى الكعبة فان خشبه لم يغير وكان الروزن الذى يلى الركن الغربى قد تخرب بعض الخشب الذى فى جوفه مما يلى السقف والكسوة التى فى جوف الكعبة وكانت الكسوة التى عليه قد زال تسلبها فشمرت ركان الروزن الذى يلى الركن اليمانى منكسرا فقلع وعوض بروزن جديد وجد فى أسفل الكعبة.

قلت وهذه الروازن لا وجود لها الآن فانها سدت جميعها وأصلح فى الدرجة أخشاب منكسرة وكان اصلاح ذلك عقيب مطر عظيم حصل بمكة فى أوائل شهر رمضان .

ولما قتل الناصر فرج بن برقوق على الوجه الذى تقدم شرحه ما قدم أحد من أمراء الجراكسة على التلبس بالسلطنة خوفا من مخاصمة العسكر وجبنا أن يقدموا على قتله فاتوا الخليفة العباسى وأبرموا عليه وسلطنوه بالجبر وهو (المستعين بالله أبو العباس بن محمد بن أبى بكر العباسى المصرى) بعد التمنع الشديد منه فولى السلطنة فى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ المحمودى ثم خلع المستعين بالله وتسلطن مكانه .

وتلقب بالملك المؤيد شيخ فى مستهل شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة وهو الرابع من ملوك الجراكسة وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق اشتراه من تاجر يسمى محمود البزدى وأعتقه وجعله أمير عشرة ثم صار صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف ثم ولى نيابة طرابلس ثم أسره تيمورلنك لما أمر نواب البلاد الشامية ثم هرب منه ووقعت له أمور مع الناصر فرج من الخروج عليه وعصيانه إلى أن آل أمره إلى أن صار سلطانا وعصى عليه نواب البلاد الشامية وتوجه إلى قتالهم مرارا كثيرة وافتتح الشام وغيرها وعاد إلى مصر وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يحمل على الأكتاف ويركب المحفة وكان شجاعا مقداما مهيبا .

وكانت أسواق ذوى الفنون نافقة عنده لجودة فهمه وذوقه وكان يحب العلماء والفضلاء ويجل قدرهم .

وفى أيامه وقع الغلاء العظيم بمكة بحيث بيعت الفرارة الحنطة وهى حملى جمل معتدل بعشرين دينارا ذهبا وكان عاما فى جميع المأكولات بحيث بيعت البطيخة بدينار ذهب إلى أن رفع الله عن المسلمين تلك الشدة وكان فى سنة خمس عشرة وثمانمائة .

ومن أعجب ماوقع فى ذلك أن جملا كان لجمال يقال له الفاروق يحمله فوق طاقته

Marfat.com

وفى جمادى الإخرة من تلك السنة فر من صاحبه ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم ولا يمكن أحدا من نفسه إلى أن أتم ثلاثة أسابيع ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله ثم توجه إلى مقام الحنفية ووقف هناك تجاه الميزاب فبرك عنده وبكى وألقى نفسه على الأرض ومات فحمله الناس إلى ما بين الصفا والمروة ودفنوه هناك .

وفى هذه السنة عمرت أماكن من سقف المسجد الحرام وعقد آن من جانب الركن اليمانى المتصل بصحن المسجد .

وفى سنة ست عشره وثمانمائة عمر شريف مكة يومئذ وهو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد سيدنا ومولانا شريف مكة الآن حسن بن أبى نمى بن بركات بن حسن بن عجلان أدام الله تعالى دولته وسعادته بالجانب الشمالى من المسجد الحرام البيمارستان الذى كان وقفا للمستنصر العباسى فخرب ودثر فاستئجره من قاضى مكة يومئذ القاضى جمال الدين الشافعى إجارة طويلة مائة عام بأربعين ألف درهم بوزن مصر وإذن القاضى جمال الدين للسيد حسن بن عجلان أن يصرف الأجرة المذكورة فى عمارة ماتخرب منه البيمارستان المذكور وتهدم ما يحتاج إلى الهدم ويرمم ما يحتاج إلى ترميمه وأن ينتفع به مدة إجارته فشرع السيد حسن فى عمارة البيمارستان المذكور عمارة حسنة وجدد فيه ما يحصل به النفع للفقراء وجدد به إيوانا وصهريجا ووقف جميع ذلك مما عمره ومما يستحق الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرضى المنقطعين يأوون فيه علوا وسفلا وينتفعون بالاقامة به والسكنى فيه لا يزعجهم أحد ولا يخرجهم بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم فاذا خلا البيمرستان عن المرضى عاد الانتفاع لهم وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة وجعل النظر على ذلك لولديه بركات وأحمد ثم بعدهما للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور دون الإناث من ولد الظهر لا البطن وثبت ذلك وحكم بصحته القاضى السيد رضاء الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة عشرة وثمانمائة وإنما استحكم فيه المالكى لأن متأخرهم أجاز وقف المنافع وهو خلاف رأى أبى حنيفة والشافعى رضى الله

Marfat.com

عنهما واستمر إلى أن خرب ودثر فاستبدل مرارا آخر ذلك فى أواخر دولة المرحوم المقدس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان واستبدل إلى جانبه رباط سلطان الهند أحمد شاه الكجراتى، ورباط الخواجا بالظاهر واشتريت دور أخرى وعمر فى مكانها المدارس الأربعة وبيد مؤلفه مدرسة الحنفية منها جزى الله خيرا من كان سببا فى انشائها وسيأتى بيان عمارتها ان شاء الله تعالى .

وفى مستهل ذى الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة قدم إلى الحج أحد خواص مماليك السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى فى يوم الاثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة وقد أناف على خمسين وكانت مدة ملكه ثمان سنين وخمسة أشهر وتسلطن بعده ولده الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ بعهد منه فى يوم الاثنين تاسع المحرم يوم وفاة والده وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وهو الخامس من ملوك الجراكسة وصار يدبر مملكته الأمير ططر ومعه الملك المظفر أحمد طفلا وقاتلهم وقتل كثير منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر وتسلطن عوضه فى يوم الجمعة الليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائه ورجع بالمظفر أحمد إلى مصر واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الاسكندرية مطعونا فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ونقلت جنازته من اسكندرية إلى مصر ودفن بالجامع المؤيد داخل زويله .

وتسلطن الملك الظاهر أبو الفتح سيف الدين ططر الظاهرى فى يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة وهو السادس من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر وكان من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه ولازال يتقدم إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة النوب ثم أمير مجلس ثم تسلطن كما ذكر وتلقب بالظاهر لقب أستاذه ومهد مملكة الشام وقتل نائبها وقبض على الأمراء المخالفين وقدم المحالفين وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة .

من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل له من خزينة مصر فى كل عام وجعل ذلك له فى مقابلة تزك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة وأمر ان يكتب عهده واعترافه بذلك على سوارى

Marfat.com

المسجد الحرام من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا باسقاط المكس الذى كان يؤخذ على الخضرة والفواكه من المأكولات وأن لا يكاف شريف مكة على أخذ القرض منهم والسوارى المكتوبة بهذا العهد موجودة فى المسجد الحرام إلى الآن .

ثم لما سخر الله الملك الظاهر ططر مملكة لشام وحلب عاد إلى مصر فمرض فى اثناء الطريق وصار يتعلل فى مصر ولزم الفراش ولم يتهن بالسلطنة ولا كمل فرحه بالملك وما أمهله الدهر بل سلبه الملك وأسلمه الهلاك وتوفى يوم الأحد لأربع مضين من ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة وكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يوما .

(وولى بعده فى موته ولده الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر) وعمره نحو العشر سنوات وهو السابع من ملوك الجراكسة وصار اتابكه ومدبر مملكة الاتابك جانى بك الصوفى إلى أن تغلب على الأتابك برسباى الدقماقى فقبض عليه وأرسله إلى سجن اسكندرية وصار اتابكا بكافى مكانه واستبد بأمور المملكة من غير مشارك فخلع الملك الصالح وتسلطن عوضه فى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهور ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة وعمره نحو العشرين عاما .

وكانت مدة سلطنة الملك ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما واستمر بعد الخلع عند والدته فى القلعه إلى أن توفى بالطاعون فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وعمر نحو ثلاثين عاما .

(وولى برسباى السلطنة وتلقب الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى الدقماقى) وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر أخذ من بلاد جركس وبيع فى بلاد قرم فاشتراه تاجر وجلبه إلى الشام وباعه فاشتراه الأمير دقماق الظاهرى نائب مالطية وقدمه إلى الظاهر برقوق فقربه وأعتقه فصار يترقى إلى أما ولاه الملك المؤيد مقدم ألف وجرت عليه نكباء وجيوش إلى أن ولى الظاهر ططر فقربه وأنعم عليه بتقدمة ألف ثم جعله داود أرا واستمر على دلك إلى أن تسلطن على الوجه الذى قدمناه واستمر فى السلطنة مدة طالت وحسنت أيامه .

ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة وهو فى تخت ملكه بمصر لم يتحرك وكان عاقلا مدبرا سيوسا ذا وقار وسكينة متجملا فى ملبسه وموكبه محبا لجمع المال واشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك جركسى

Marfat.com

وعمر بالقاهرة المدرسة الأشرفية وهى من محاسن مدارس مصر وقف عليها أوقافا كثيرة وعمر أيضا جامعا عظيما فى سرياقوس ووقف عليه أيضا أوقافا كثيرة وفى أول سنى سلطنته أرسل الأمير مقبل القديدى وأمره بعمارة أماكن متعددة من المسجد الحرام كان قد استولى عليها الخراب فأحسن بنائها وجدد كثيرا من أسقف المسجد الحرام كان قد تآكلت أخشابها وكذلك جدد سطح الكعبة الشريفة وكانت الأخشاب التى تربط فيها كسوة الكعبة قد تآكلت ودابت فقلعها ووضع عوضها أخشابا جديدة محكمة بمسامير كبار من الحديد وأحكم كل ذلك غاية الأحكام وأتقنه غاية الاتقان .

وفى سنة ست وعشرين وثمانمائة أمر الأشرف برسباى أميرا له بمكة يقال له مقبل القديدى الأشرفى بقلع الرخام المفروش فى باب الكعبة وجدرانها من داخل التخربة وتقلعه وأن يجدده برخام جديد وأن يعيد ما كان صحيحا غير منكسر وكذلك يصلح الأساطين التى فى جوف الكعبة الشريفة ويحكمها .

وذكر شيخ الكعبة أنه سمع صريرا فى سقف الكعبة الشريفة فتتبعوا ذلك فوجدوا إحدى الاسطوانات التى تقابل باب البيت قد مال رأسها عن محله فأعادها إلى محلها وأحكمها وعمر ذلك عمارة حسنة وكتب اسم سلطانه الأشرف برسباى فى لوح رخام نقره ونقشه بالذهب وركبه فى جدار البيت الشريف وهو باق إلى الآن وكان مسند العمارة هو الأمير مقبل القديدى الأشرفى والناظر عليها الخواجا على الكيلانى تاجر السلطان وحضر فى العمارة شيخ الكعبة والقضاة الأربعة وناظر الحرم الشريف والمعمار جمال الدين يوسف المهندس وكان الفراغ من هذه العمارة فى شهر صفر .

وفى أول هذا العام عمر الرخام الذى فى أرض الحجر فى باطنه وظاهره وأعلاه وأسفله على يد الأمير مقبل المذكور .

وفيها عمر باب الجنائز أحد أبواب المسجد الحرام الواقع أمام رباط سيدنا العباس رضى الله عنه أمام هذا الباب وإنما سمى باب الجنائز لأنه كان مخصوصا بدخول الجنائز منه إلى المسجد للصلاة عليها فيه وجرت عادة أهل الحرمين الشريفين بإدخال جنائزهم المسجد الحرام والصلاة عليها عند باب الكعبة الشريفة وكذلك أهل المدينة

يدخلون جنائزهم المسجد النبوى ويقفون بها أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم ويصلون عليها فى الروضة الشريفة وهذا مذهب الإمام الشافعى والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم وأما الحنفية فى الحرمين الشريفين فيقلدون أولئك الأئمة ليحوزوا هذا الفضل العظيم لأن مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفه رضى الله عنه عدم جوازا دخال الميت المسجد وطال ما تصفحت كتب الفتاوى وتفحصت عن رواية أئمتنا بالجواز إلى أن ظفرت بعون الله تعالى فى جواز ذلك وهى رواية عن أبى حنيفة رضى الله عنه ففرحت بها كثيرا كأنى ظفرت بكنز عظيم فلا تغفل عنها فانها من مهمات المسائل لا سيما لأهل الحرمين الشريفين فعض عليها بالنواجذ واعتمد على ما أفتيت فى هذه المسألة فقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أن كل قول قال به الإمام أبو يوسف والإمام محمد والإمام زفر فهو روايه عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عته وحيث ثبتت هذه الرواية عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فهى قول له وأن كانت غير ظاهر الرواية فأخذنا بها تصحيحا العمل جيران الله وجيران نبيه صلى الله عليه وسلم فى الحرمين الشريفين من صدر الإسلام إلى هذا العصر ولا نقول بتأثيم ما سلف مع وجود المساغ الصحيح وهو رواية عن المجتهد الذى نقلده رضى الله عنه.

(وقد رفع إلى سؤال فى ذلك صورته) ما قولكم فى مسألة الصلاة على الميت فى المسجد الحرام المكى ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى الروضة الشريفة هل يجوز للحنفى إدخال الميت إليهما والصلاة عليه فيهما كما هو محمل الحرمين قديما وحديثاً وهو شأن السلف الصالح إلى الآن أم لا يجوز ذلك لأن الصحيح من مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه كراهة الصلاة على الميت فى المسجد وعلى هذا فهل يأثم فاعل ذلك وهل تؤثمون السلف الصالح على إدخال موتاهم إلى مقابلة وجه النبي صلى الله عليه وسلم طلباً لبركته ومرحمته ثم إدخاله إلى الروضة الشريفة التى هى بنص الحديث الشريف روضة من رياض الجنة فيحرم الميت من دخولها ولا يدخل إلى المسجد الحرام ولا يوضع على باب الكعبة منطرحا فى باب مولاه الكريم تعالى ويحرم من هذه البركات كلها ويأثم من أدخله مواطن هذه الرحمة والخير (فكتبت ما صورته اللهم وفقنا للصواب) اعلم رحمنا الله وإياك أن شرف المسجد الحرام وروضة النبى

Marfat.com

عليه أفضل الصلاة والسلام ونزول الرحمة فيهما على من دخل فيهما أمر واضح لاشك فيه ولا مرية تعتريه وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وقد تواطأ أهل الحرمين الشريفين وتطابقت آراؤهم إلى الآن على إدخال موتاهم إلى المسجد طلباً لمزيد التبرك والاسترحام ولم يعهد من علمائنا بالحرمين الشريفين التأنى من ذلك أو الانكار على فاعله مع أنه سائغ فى مذهب غير الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه من الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم فلا نقدم على تأثيم السلف الصالح فيما فعلوه طلباً لمزيد الرحمة والبركة واختلاف الأئمة رضوان الله عليهم رحمة ويجوز للمقلد الأخذ بكلام مجتهد من المجتهدين فى بعض المسائل وإن خالف أمامه رضى الله عنهم أجمعين ومع ذلك فقد وجدت نقلا صريحاً للمحيط البرهانى عن الإمام الثانى ان فى رواية عنه قوله مثل قول الإمام الشافعى رضى الله عنهما وصورة ما نقل وإنما تكره الصلاة على الجنازة فى المسجد الجامع ومسجد الحى عندنا .

وقال الشافعى لايكره وعن أبى يوسف روايتان فى رواية كما قال الشافعى وفى رواية إذا كانت الجنازة خارج المسجد والامام والقوم فى المسجد لا يكره انتهى فترجح عندى أن أفتى بالجواز من غير كراهة واعتمدت على هـذه الرواية وحسنت الظن بالسلف الصالح وكفى بالامام أبى يوسف رضى الله عنـــه قدوة فى هذه المسئلة فاعلم ذلك واحفظه فانه نفيس ولاتجمد مع الجامدين على أن الكراهة كراهة تنزيه نص عليه شرف الأئمة العقيلى كما نقله عنه الامام الزاهدى رحمهما الله تعالى قاله الفقير قطب الدين الحنفى غفر الله تعـالى ذنوبه قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى فى كتابه الورى بأخبار أم القرى فى حوادث سـنة ست وعشرين وثمانمائة وفيها عمر الأمير مقبل القديدى باب الجنائز على صفته الآن لأنه كان قد سقط ما فوق أحد البابين إلى منتهى المسجد الحرام المقابل لرباط المراغى وتخرب ما بين هـذا الباب والباب الآخر وأزيل الحـاجز الذى كان بينهما وأزيلت الاسطوانتان الرخام اللتين تليان هذا الحـاجز وعمر بحجارة منحوتة حتى ارتفع وعمر أماكن بهذا الموضع بين باب على وباب العبـاس وموضع آخر يتصل بباب الأفضلية انتهى .

قلت رباط المراعى هو الآن محل رباط السلطان قايتباى الذى هو منزل أمير

الحاج المصرى فى هذا الزمان والمدرسة الأفضلية هى أوقاف الخواجا محمد ابن عبـاد الله وبينهما بابان للمسجد أصلهما باب واحد يقال له باب النبي صلى الله عليه وسلم وكان يدخل إلى المسجد من هـذا الباب لأن دار السيدة خديجة رضى الله عنها فى هذا الباب يقال له باب الحريريين لأن الحرير يباع فى هـذا الباب قلت وعادة الناس فى زماننا إدخال الجنائز من أبواب العباس وتخرج من باب السلام وأنا أرى أن تدخل الجنائز وتخرج من باب الحريريين مابين مدرسة قايتباى ودار الخواجا ابن عباد الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدخل من هذا الباب إلى المسجد ويخرج منه ولا شك أنه أكثر بركة وخيراً من سائر أبواب المسجد الحرام وإنما يقال له باب القفص لأن الصياغ يصوغون الحلى فى أقفاص للبيع بقرب هذ الباب .

قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى وفيها عمر الأمير مقبل المذكور عدة عقود بالمسجد الحرام فى الجانب الشامى من الدكه المنسوبة إلى القاضى أبى السعود بن ظهيرة إلى باب العجلة خلف مقام الحنفية وزاد فى عرض العقود التى تلى الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود فى الصف الثالث وأحكم الأساطين التى عليها هـذه العقود وهى سبعة أساطين فى الرواق الأول وثمانية فى الذى يليه وثلاثة فى الذى يليه وسبعة متصلة بجوار المسجد وجدد من أبواب المسجد الحرام باب العباس وهو ثلاثة أبواب وباب على وهو ثلاثة أبواب أبضا والباب الأوسط من أبواب الصفا وهى خمسة وباب العجلة وهو باب واحد وأحد بابى الزيادة وهو الواقع فى الركن الغربى من الزيادة ورمم باقى أبواب المسجد وبيض غالبه وأصلح سقفه وكل ذلك على يد الأمير مقبل المذكور ومعماره المعلم جمال الدين يوسف المهندس رحمهم الله تعالى .

وفى هذه السنه جدد الأشرف برسباى الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة وكساها من داخل وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن قلاوون وجاءت الكسوة الجديدة على يد الزينى عبد الباسط ناظر الجيش صاحب الباسطية التى على باب العجلة عن يسار الداخل إلى المسجد الحرام وهى مدرسة وخلاوى للفقراء فى غاية الأحكام والاتقان وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسـجد الحرام وسبيل

Marfat.com

إلى جانب المدرسة باقية الآن بيد النجاريين أئمة مقام الحنفى يسكنها الأعيان الواردون إلى الحج وكانت عليها أوقاف بمصر دثرت الآن وأبقى أيضاً عبد الباسط سبيلا وحفر بئرا فى طريق العمرة على يسار الذاهب إلى العمرة وجودة إلى الآن بقرب الموضع الذى يقال فخ بالفاء والخاء المعجمة فيه مدفن أبى عبد الله الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين وكان أحد الأجواد فى الاسلام وكان يقول ما أظن لى أجرا فيما أعطيه فقيل له وكيف ذلك قال لأن الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ووالله ما هذا عندى وهذا الحصا إلا بمنزلة واحدة وكان خرج على الهادى العباسى بمكة وقاتل خالدا اليزيدى ومن معه من جنوده العباسيين وهزمهم ثم وصل محمد بن سليمان بجنود أخرى من قبل الهادى ونزل الحسين بن على بفخ وقاتل قتالا شديدا إلى أن قتل هو وجماعة من شيعة أشراف بنى حسن رحمهم الله تعالى وحملت رؤسهم وهى مائة رأس يعدمنها رأس الحسين بن على إلى الهادى ويقال له الحسين ابن على الفخ الينبعى .

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبين إسناده إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فخ فصلى بأصحابه صلاة الجنائز ثم قال يقتل هنا رجل من أهل بيتى فى عصابة من المسلمين ينزل لهم بأكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهم إلى الجنة أجسادهم وعبد الباسط هذا هو بن خليل ابن ابراهيم الدمشقى ثم القاهرى ناظر الجيش فى أيام الظاهر ططر فمن بعده كان عزيزاً رئيسا كريما نافذ الكلمة على الجاه واسع العطاء كبير الهمة له فى كل واحد من هذه المساجد الثلاثة مدرسة وكذلك بالقاهرة مدرسة عظيمة وبالشام وبغزة وله على جميع هذه المدارس أوقاف كثيرة بمصر كانت تغل مغلا كبيرا استولى عليها الخراب الآن وكانت له سحابة للفقراء تنصب لهم فى الطريق ليستظلوا تحتها وكانوا يحملون على جمال فى شقادف أعدها لهم وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا إليه ويطعمون الخبز الطرى والبكسماط وكان يطبخ لهم فى المناهل ويذبح لهم الغنم فى الذهاب من مصر إلى مكة وفى مدة الاقامة بها والعودة منها إلى مصر مع

Marfat.com

الاحسان إليهم وإلى غيرهم وأصلح كثيرا من دَرب الحجاز وكان متكلما على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرها ونماها إلى أن فاضت وكثرت فى زمانه .

وقد ذكر شيخ الاسلام قاضى القضاة بمصر الشهاب أحمد بن حجر العسقلانى رحمه الله فى كتابه فتح البارى أن الصالح بن الناصر بن قلاوون اشترى ثلثى قرية يقال لها بيسوس من وكيل بيت المال ثم وقفها فى كسوة الكعبة الشريفة ولم تزل تكسى من ريع تلك القرية إلى أن فوض أمرها المؤيد شيخ إلى الزينى عبد الباسط ابن خليل ناظر الجيوش فنمت وكثر ريعها وبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها جزاه الله على ذلك خير الجزاء اه وكفاه فخراً ذكر هذا الامام الجليل فى مثل هذا التأليف العظيم .

ورأيت أيضا فى شرح إيضاح المناسك للسيد نور الدين على السمهودى الحسنى عالم المدينة رحمه الله تعالى ما لفظه وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذه الأعصر من وقف قرية يقال لها سنديس فى طرف القليوبية مما يلى القاهرة شراها السلطان الصالح اسماعيل بن السلطان محمد بن قلاوون من وكيل بيت المال ووقفها لأن تكسى منها الكعبة الشريفة كل سنة وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كل خمس سنين مرة على ماقاله الزينى المراغى وذلك فى عشر الستين وسبعمائة.

أقول هذه القرى موجودة الآن بمصر لكن ذكر لى من كتبة ديوان مصر الفاضل الكامل مولانا مصطفى جلبى بن مسيح زاده لما كان مقيما بمكة المشرفة ناظرا على الحرم الشريف المكى ذكره الله تعالى بالصالحات أن هذه الأوقاف ضعفت جدا وقل محصولها وصارت لا تفى لكسوة الكعبة الشريفة فعرض ذلك على أبواب المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان أسكنه الله فسيح الجنان فأمر بالحاق قرى أخرى اشتريت من بيت المال وأوقفها وألحقها بأوقاف كسوة الكعبة الشريفة وهى باقية إلى الآن ومنها كسوة الكعبة الشريفة فى كل عام .

ولنعد إلى تكميل ترجمة القاضى عبد الباسط كانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء لأربع ليال مضين من شوال سنة أربع وخمسين وثمانمائة وتوفى السلطان الملك

الاشرف برسباى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة .

وفى يوم وفاته تولى بعده العزيز الملك جمال الدين يوسف وعمره يومئذ أربعة عشر عاما وهو التاسع من ملوك الجراكسة بمصر وصار مدبر مملكته الاتابك جقمق العلائى ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع الملك العزيز يوسف بن برسباى بعد أن تسلطن نحوا من خمسة أشهر لم يكن له فيها إلا مجرد الاسم .

وتسلطن مكانه فى يوم الاربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقبوه الملك الظاهر سيف الدين أبا سعيد جقمق العلائى الظاهرى وجلس على سرير الملك وتم أمره وهو العاشر من ملوك الجراكسة وكان جلب من بلاد جركس إلى مصر فاشتراه علاء الدين على بن الاتابك انبال اليوسفى فنسب إليه فقيل له جمقق العلائى . ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل له الظاهرى وكان عنده خاصكيا. ثم صار فى دولة الناصر ساقيا عنده . ثم صار أمير عشيرة . ثم صار فى دولة المؤيد خزندار . ثم صار من مقدمين الالوف . ثم فى دولة الأشرفية صار حاجب الحجاب . ثم أمير أخور كبير . ثم أمير سلاح . ثم صار أتابك إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الامير قرقماس فقابله ثم ظفر به وسجنه بالاسكندرية ثم قتله . ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغرى برمش .

ثم انبال الحكى نائب الشام فجهز عليهما العساكر فقاتلوها واحد بعد واحد وظفر بهما وقلهما وبعد حول صفا والوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطا وكان متواضعا محبا للفقهاء والعلماء والصالحين يميل إلى تربية الأيتام ويحسن اليهم عفيفا عن المنكرات ظاهر الفم والذيل لا يعلم من ملوك الجراسة قبله ولا بعده أعف منه وكان على قاعدة الأتراك الدعوى عنده لمن سبق يذاكر مسائل فقهية ويتعصب لمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه وملك مصر نحوا من خمسة عشر عاما إلى أن أورى الدهر له من زنده نارا واتخذ بدل عيشه الأخضر بالموت الأحمر ولم يجد له أنصارا واتخذ تحت

Marfat.com

الأرض بعد تخت الملك قرارا وأصفرت الأرض منه فى سابع صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة .

وكان الظاهر جقمق أول ماولى التفت إلى مكة المشرفة وأرسل خلعا ومراسيم للسيد بركات بن حسن عجلان بولاية مكة وأرسل اليه سودون المحمدى ليكون أميرا على خمسين فارسا من الترك مقيما بمكة وشيد العمائر بها .

وكان من عمارة الأمير سودون بالمسجد الحرم فى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة أنه قلع الرخام الذى على سطح الكعبة الشريفة وكان الخشب الموضوع فى السطح الشريف لأن يربط فيه حبال الكسوة الشريفة قد تأكل وتأكل خشب الروازن الأربعة التى كانت فى سقف الكعبة التى كانت للضوء فغير ذلك جميعه وجرد الكعبة الشريفة واستمرت مجردة يومين وليلتين يشاهد الناس أحجارها إلى أن أكمل ترميمها واصلاحها واعيدت الكسوة عليها فى ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة وأصلح أيضا رخام داخل الكعبة من الجدار المقابل للباب الشريف وأصلح أيضا رخام الحجر وبيض مأذنة باب السلام وأصلح مأذنة باب العمرة وبيض مأذنة باب الحزورة ورم أسافل مأذنة باب على وأصلح سقف المسجد الحرام من تلك الجهة لخرابه وأصلح الرفرف الدائر بالمسجد الحرام وبيض علو مقام ابراهيم وعلو مقام الحنيفة وقبة باب ابراهيم والأميال التى تلصق بدار العباس فى المسعى والميل الذى فى ركن المسجد بقرب باب بازان والذى يقابله التى هى علامة للسعى بينهما وعين فى كل ميل قنديلا بالليل من قناديل الحرم الشريف فى شهر رجب وشعبان وشهر رمضان تضىء للمعتمرين وفى بعض ذى الحجة للاضاءه على الحجاج إذا أرادوا السعى وجعل على الصفا قنديلا وعلى المروة .

ثم عمر الأمير سودون المذكور مابقى من المواضع المأثورة فى منى وفى المشعر الحرام بمزدلفة ومسجد عرفة بعرفة وقطع جميع أشجار السلم والشوك الذى كان بين المسارين فى طريق عرفة وكانت تمزق كسوة الشقادف والمحابر عند مزاحمة جمال الحاج فى ذلك المحمل وكانت الحرامية تكمن تحن الأشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحجاج وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه فقطع الأمير سودون جميع

تلك الأشجار وأزال الصخار الكبار ونظف الطريق ووسعها وشكره الحجاج على ذلك ودعوا له حيث كانت تضر فى طريق المسلمين والا فشجر الحرم لايعضد ولا يقطع فرحمه الله تعالى وأثابه الحسنى وكذلك الأمير خوش كلدى نائب جدة فى عصرنا فى حدود سنة خمسين وتسعمائة قطع أشجار السلم ما بين المازمين وكسر الأحجار .

فى سفح الجبلين ومهد ووسع الطريق للحجاج ودفع بذلك عنهم شر السراق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الأشجار والأحجار وشكره الناس أثابه الله تعالى وسيأتى شىء من عماراته فيما بعد ان شاء الله تعالى .

وفى موسم سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وصل مع الركب المصرى رسول سلطان العجم شاه رخ ميرزا بكسوة للكعبة الشريفة وصدقة لأهل مكة فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة من يوم عيد الأضحى وفرقت الصدقة على أهل الحرم .

وفى سنة خمسين وثمانمائة وصل بيرام خواجا ناظرا على المسجد الحرام وبنى بالمعلاة سبيلا وحوضا ينتفع بهما الناس والبهائم على يمين المصاعد إلى المعلاة صار الآن فى عصرنا بستانا عمره خوجا قينى مولانا محمد بن محمود أفندى قاضى مكة المشرفة فى سنة سبع وستين وتسعمائة وقدمه لخاتم سلطان بنت الوزير الأعظم رستم باشا وأمها والدة السلاطين خاصكى سلطان رحمهما الله وهو الآن فى تصرف ناظر عمارتها بمكة المشرفه .

وفى موسم سنة خمسين وثمانمائة أيضاً حج وزير من وزراء السلطان مراد الثانى طيب الله ثراه جاء بصدقات جليلة وخيرات وافرة جميلة لأهل الحرمين الشريفين ورمى فى بركة قبة العباس بالحرم الشريف ثلثمائة وستين رأس سكر وعدة قناطير من العسل وسقى الناس وملأ القرب وخرج بها السقايون إلى المسعى يسقون الناس وصرف على الحجاج وأهل الحرمين أموالا جزيلة تقبل الله منه صالح أعماله .

وفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة عمر ناظر الحرم بيرم خواجا فى الجانب الشرقى قطعة من جدار المسجد الحرام يلى رباط السدرة الذى هو الآن رباط الأشرف

قايتباى وعمر شباك حلوة منسوبة للشيخ عفيف الدين بن عبد الله بن أسعد اليافعى وشباك خلوة منسوبة للشيخ جمال الدين محمد ابراهيم المرشدى وجدد فى الرواق القبلى من الجانب الشامى سبعة عقود وعمر أيضاً عين حسين وأصلح مجاريها ورممها ترميما محكما ووصل فى ذلك العام كسوة لحجر اسماعيل مع كسوة البيت الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا ووضعت فى البيت الشريف ثم كسى بها الحجر الشريف من داخله فى العشر الأخير من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة بعد أن حفظت فى جوف البيت الشريف سنة كاملة .

وعمر ناظر الحرم الشريف بيرم خوجا عدة برك فى عرفة كانت دائرة مملوءة بالتراب فأخرج ترابها وأصلحها وساق إليها الماء من الآبار التى بقربها يشرب الحجاج منها وعمر مسجد نمرة بعرفة وعمر الخيف بمنى وصرف مالا عظيما فى جهات الخيرات رحمه الله تعالى .

ثم عزل ناظر الحرم المذكور بالتاجى الأمير بردبك ووصل إلى مكة المشرفة ليلة الأحد السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وثمانمائة وطاف وسعى وعاد إلى الزاهر ودخل صبح تلك الليلة من أعلا مكة ولا قاه أكابر مكة وأعيانها ولبس الخلعة السلطانية وقرأ مرسومه بالحطيم وهو مؤرخ بثانى عشر جمادى الآخرة يتضمن أنه ولى نظر الحرم الشريف والربط والأوقاف والصدقات وأن يحاسب من كان قبله وأن يكون محتسبا بمكة فاستمر بهذه الوظائف وهو قائم الجاه نافذ الكلمة وباشرها مع التمكين وعمر فى أواخر السنة بعض سقوف المسجد الحرام .

وفى هذه السنة آجر قاضى القضاء أبو السعادات بن ظهيرة الشافعى رباط رامشت لوكيل القاضى ناظر الخاص ثم وصلت فتاوى بعدم صحة اجارة الوقف اجارة طويلة فاستبدل له وحكم بصحة الاستبذال حاكم حنفى ثم أمر بعمارته أرباطا فعمره له ناظر الحرم الشريف التاجى برد بك وفتح فيه عدة شبابيك على الحرم الشريف على الوضع الذى هو باق عليه إلى الآن .

وفى سنة ست وخمسين وثمانمائة وصلت أحكام من الظاهر جقمق تتضمن الأمر باخراج ما على الكعبة الشريفة من داخلها من الكسوة المنسوبة إلى الأشراف

Marfat.com

برسباى وأن تبقى كسوة الملك الأشرف الظاهر جقمق وحدها ففعلوا ذلك وفيها سافر أمير الترك الراكز بمكة الأمير جانبك النوروزى وولى عوضه فى منصبه ناظر الحرم التاجى بردبك .

وفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر بأن الملك الظاهر جقمق زاد به مرضه فخلع نفسه من السلطنة فى يوم الخميس لتسع بقين من محرم من السنة المذكورة لولده أبى السعادات فخر الدين عثمان .

ولقبه الملك المنصور وعقد له البيعة ورضى الناس به واطمأنوا وهو الحادى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وسنه دون العشرين وركب بشعار السلطنة وحمل الأتابك أنبال العلائى أمير كبير القبة والطير على رأسه وجلس على تخت الملك فى قلعة الجبل وباشر الأمور إلى أن توفى والده بعد سلطنة ولده باثنى عشر يوما فوقعت فتنة بين الأمراء فخلع الملك العزيز عثمان .

وتسلطن الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أنبال العلائى فى صبيحة يوم الاثنين لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة وهو الثانى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وهو جركسى جلبه الخواجا علاء الدين إلى مصر فاشتراه الظاهر برقوق وأعتقه الناصر فرج بن برقوق وتنقل فى الدولة إلى أن صار فى أيام الأشرف برسباى أمير مائة ألف مقدم وولاه الظاهر جقمق الدوادارية الكبرى إلى أن جعله أتابكا واستمر إلى أن تسلطن وتم أمره فى الملك وطالت مدته وأيامه نحو ثمان سنين وشهرين وأياما وكان طويلا خفيف اللحية بحيث اشتهر بانبال الأجرد وكان قليل الظلم قليل سفك الدماء متجاوزاً عن الخطأ والتقصير إلا أن مماليكه ساءت سيرتهم فى الناس وفى ابتداء سلطنته سافر إليه أمير الترك الراكز بمكة وناظر الحرم ومحتسب مكة الأمير بردبك التاجى وولى عوضه أمير الترك الراكز بمكة شيبك الصوفى وطوغان شيخ الحرم ومحتسب وولى مشداً أعلى جدة جانى بك وهو الذى بنى البستان الذى على يسار الذاهب من منى المعروف به الآن وحفر فيه عدة أبيار وغرس فيه ما قدر عليه من الأشجار حتى شجر التمرهندى وأدركناه فيه ووقف عليه مسقاف بمكة ولم يقع فى أيام الأشرف عمارة

Marfat.com

للحرم الشريف واستمر سلطانا إلى أن خلع نفسه مدة السلطنة وعقدها لولده.

(الملك المؤيد شهاب الدين أبو الفتح أحمد بن انيال)

فى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة وتوفى والده بعد ذلك بيوم واحد ثم خلعه أتابك حين قدم بعد خمسة أشهر وخمسة أيام وولى السلطنة عوضه .

(الملك الناصر سيف الدين بن سعيد خوشقدم الناصرى)

يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة. وهو رومى جلبه الخواجا ناصر الدين وبه عرف واشتراه المؤيد شيخ وأعتقه وصار خاصكيا عنده ثم تغلب فى الدولة إلى أن جعله الأشرف أنيال أتابكا لولده فخلعه وتسلطن مكانه وكان محباً للخير وكسى الكعبة الشريفة فى أول ولايته على العادة ولكن كانت كسوة الشرقى والجانب الشامى بيضاء بحامات سود وفى الجامات التى بالجانب الشرقى بعض ذهب فأرسل فى سنة ست وثمانين وثمانمائة منبراً وكان من خشب فركب فى يوم الأربعاء والخميس وخطب عليه الخطيب فى يوم الجمعة ثانى الحجة الحرام وكانت مدة سلطنته ست سنين ونصف تقريباً ومرض وطال مرضه وتوفى فى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وثمانمائة .

وتسلطن فى ذلك اليوم خشتاشة الاتابك بلباى .

(وهو الملك الظاهر الناصر بلباى المؤيدى) فاخلع على الأمير تمر بغا الظاهرى بالأتابكية عوضا عن نفسه وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وكان ضعيفاً عن تدبير الملك فخلعه الأمراء من السلطنة فى يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين وثمانمائة فكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام وتسلطن بعد خلعه عوضا عنه .

Marfat.com

(الملك الظاهر أبو سعيد تمر بغا الظاهرى)

وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر ولكن كان يقال أنه رومى الأصل من مماليك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيراً إلى أن جعله خاصكياً ثم سلحداراً ثم خزندارا كبيراً ثم دواداراً ثانى ثم صار فى دولة الملك المنصور دواداراً كبيراً ثم عاد إلى القاهرة فى دولة الظاهر خوشقدم فصار مقدم ألف ثم صار فى دولة الظاهر بلباى آتابك العساكر ثم تسلطن وكان له فضل وصلاح وتودد للناس وحذق ببعض الصنائع بحيث يعمل القسى الفائقة بيده ويعمل السهام عملا فائقا فيها ويرمى أحسن رمى يفوق غيره فيها مع الفروسية التامة ومع ذلك ماصفا له الدهر يوما ورماه عن كبد قوسه أبعد رمى ومازال به الأمر إلى أن خلعوه ونفوه إلى الاسكندرية وولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ .

(السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى)

فى ظهر يوم الاثنين وهو السادس من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر ومولده ببلاد جركس تقريبا فى بضع وعشرين وثمانمائة جلبه الخواجا محمود إلى مصر فنسب اليه واشتراه الأشرف برسباى وأعتقه الظاهر جقمق وإليه انتسب وتنقل فى المراتب إلى أن صار فى دولة الظاهر خوشقدم أمير مائة ألف مقدم ثم فى دولة الظاهر تمربغا أتابكا ثم صار بعد خلعه سلطانا بعد تعزز منه وتمنع وحصلت له البشارة بالسلطنة من عدة أولياء الله الصالحين قبل أن يليها وكان محبا للخير معتقدا فى الصلحاء .

ويحكى عنه أنه كان يحكى عن نفسه أنه لما جلب إلى مصر للبيع وهو غلام مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك الجلب فتحادثوا مع الجمال فى ليلة من ليالى شهر رمضان فقالوا لعل هذه ليلة القدر والدعاء فيها مستجاب فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه فقال قايتباى أما أنا فاطلب سلطنة مصر من الله تعالى فقال الثانى وأنا أطلب من الله أن أكون أميرا كبيرا والتفتا إلى الجمال وقال له أى شىء تطلبه فقال أنا أطلب من الله خاتمة الخير فصار قايتباى سلطانا وصار صاحبه أميرا كبيرا

فكانا إذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا رحمهم الله وكان ملكا جليلا وسلطانا نبيلا له اليد الطولى فى الخيرات والطول الطائل فى أسداء المبرات بنى بالمساجد الثلاثة عدة ربط ومدارس وجوامع عظيمة الآثار باهرة الأنوار ولهم بمصر والشام وغزة آثار جليلة وخيرات جميلة أكثرها باق إلى الآن وجميع عمائره يلوح عليها اللوائح النورانية والأنس.

وفى أول ولايته أرسل إلى مكة بالمراسيم والخلع للسيد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بولاية الحرمين الشريفين وإلى قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن ظهير الشافعى بقضاء مكة ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم وأن ينقر ذلك على اسطوانة من أساطين الحرم الشريف فى باب السلام وفى آخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة والتى قبلها بنى مسجد الخيف بناءاً عظيما محكما وجعل فى وسط المسجد قبة عظيمة هى حد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيف منى وبنيت جداراته المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبى صلى الله عليه وسلم وبلصق القبة مأذنة التى على عقد باب المسجد بثلاثة أدوار صنعة الأستاذين وبنى دار بلصق الباب وكانت مسكن أمراء الحاج وعلى الباب فى الدار المذكورة سبيل يملأ الصهريج كبير جعل فى صحن المسجد يمتلأ من المطر وجعل للمسجد بابا آخر إلى جهة عرفة وخوخة صغيرة إلى الجبل الذى فى سفحه غار المرسلات وهو الموضع الذى أنزلت فيه سورة المرسلات على النبى صلى الله عليه وسلم وبالجملة فهذا المسجد أثر عظيم باق إلى الآن من آثار المرحوم السلطان قايتباى وقد غلب عليه الدثور عمر الله من عمره أو تسبب فى تعميره.

وعمر السلطان المذكور مسجد نمرة فى عرفه وهو المسجد الذى يجمع فيه الإمام بين الظهر والعصر جمع تقديم فى يوم عرفة للحجاج المحرمين فى ذلك الآن لا يجمع عند أبى حنيفة فى غير ذلك الحال جمع تقديم إلا فى ذلك المسجد ولا جمع تأخير إلا فى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج وجعل فى صدر ذلك المسجد رواقان عظيمان يتظلل بهما الحجاج وقت الصلاة عن الشمس وجدد العلمين الموضوعين لحد عرفة والعلمين الموضوعين لحد الحرم وبيض المسجد الذى بمزدلفة على جبل قزح وهو المشعر الحرام على رأى وجدد عين عرفات وابتدأ المعمار العمل فيها من سفح جبل

Marfat.com

الرحمة إلى واد نعمان فوجد الماء بكثرة فاقتصر على ذلك ولم يصل إلى أم العين وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة وكان الحجاج يقاسون فى يوم عرفة من قلة الماء ما لا يصبر عليه ثم أصلح البركة وملأها بالماء ثم أصلح عين خليص وأجراها وأصلح بركتها وبنى قبتها وامتلأت البرك وعم النفع بها وبعين عرفات وكان ذلك من أعظم الخيرات بالنسبة إلى الحجاج والزوار.

وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة وصل منبر خشب للمسجد الحرام فى الخامس والعشرين من ذى القعده إلى مكة المشرفة فى البر فركب فى جهة باب السلام وجر إلى المطاف وخطب عليه الخطيب فى أول ذى الحجة.

وفى سنة إحدى وثمانين أصلح خشب سقف المسجد بالرواق الشرقى وغير رخام الحجر الشريف من داخله وخارجه ورصصت الشقوق التى بين أحجار المطاف داخل البيت الشريف.

وفى سنة تسع واثنتين وثمانمائة أمر السلطان قايتباى وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد ابن عمر الشهير بابن الزمن وشاد عمائر الأمير سنقر الجمالى أن يحصل له موضعا مشرفا على الحرم الشريف ليبنى له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة ورباطا يسكنه الفقراء ويعمر له ربوعا مسقفات يحصل منها ريع كثير يصرف منه على المدرسين وعلى القراء وأن يقرأ له ربعة فى كل يوم يحضرها القضاة الأربعة المتصوفون ويقرر لهم وظائف ويعمل مكتبا للايتام وغير ذلك من جهات الخير فاستبدل رباط السدرة ورباط المراغى وكانا متصلين وكان إلى جانب رباط المراغى دار للشريفة شمسية من شرائف بنى حسن اشتراها منها وهدم ذلك جميعه وجعل فيها اثنين وسبعين خلوة ومجمعا كبيرا ومشرفا على الحرم الشريف وعلى المسعى الشريف ومكتبا ومأذنة وصير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون والسقف المذهب وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأربعين طالبا وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة وجعل لها خازنا عين له مبلغا وقد استولت عليها أيدى المستعيرين وضيعوا منها جانبا كبيرا وبقى منها ثلثمائة مجلد وهو تحت تكلم مؤلف هذا الكتاب صنتها وكملت بعض ما فات منها وجلدت منها ما يحتاج إلى التجليد واستخلصت بعض ما وجدته وأعدته إلى الوقف صانه الله وجعل

Marfat.com

الواقف فى ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضروا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرأون له ثلاثين جزءا من القرآن وجعل فقيها يعلم أربعين صبيا من الأيتام ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوى ما يكفيهم من القمح فى كل سنة وللمدرسين والمؤذنين وقراء الأجزاء مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة وبنى عدة ربوع ودور تغل فى كل عام نحو ألفى ذهب ووقف عليهم بمصر قرى وضياعا كثيرة تغل حبوبا كثيرة تحمل فى كل عام إلى مكة وعمل من الخيرات العظيمة مالا يعلم ذلك السلطان قبله وذلك باق إلى الآن إلا أن الأكلة قد استولت على تلك الأوقاف فضعفت جدا وهى آيلة إلى الخراب وصارت المدرسة سكنا لأمراء الحج أيام موسم الحج وسكنا لغيرهم من الأمراء إذا وصلوا إلى مكة فى وسط سنة وصارت أوقافها أكلة للنظار عمر الله من عمرها وأحيا من أحياها وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة والرباط والبيتين أحدهما من ناحية باب السلام والثانى من ناحية باب الحريريين فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد الأمير سنقر الجمالى رحمه الله تعالى.

وفى هذه السنوات وردت أحكام السلطان قايتباى إلى صاحب مكة يومئذ مولانا السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله تعالى يتضمن أنه رأى مناما وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف وأنه أمره أن يفعل ذلك فحضر مولانا السيد الشريف محمد ابن بركات رحمه الله تعالى بنفسه وقاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن على بن ظهيرة وباش الترك الراكز بمكة الأمير قايتباى اليوسفى والأمير سنقر الجمالى والدوادار الكبير الأمير جانى بك نائب جدة المعمورة وبقية القضاة والأعيان بمكة وفاتح بيت الله الحرام عمر بن أبى راجح الشيبى والشيبون والخدام وغسلوا الكعبة الشريفة من داخلها قدر قامة ومن خارجها قدر قامة وغسلوا أرض الكعبة وسائر المطاف الشريف وطيبوها بالطيب وكان ذلك فى يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة.

(فصل) ومن أعظم ما وقع فى أيام السلطان قايتباى من الأمور الهائلة حرق المسجد الشريف النبوى ذكرناه استطراداً لأنه أمر هائل عظيم.

تفصيل ذلك أن فى ثلث الليل الأخير من ليلة الاثنين ثالث عشر شهر رمضان

Marfat.com

سنة ست وثمانين وثمانمائة طلع رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب إلى المأذنة الشرقية اليمانية فى ركن المسجد الشريف المعروف بالريسية وهو يذكر ويمجد وكانت السماء متراكمه الغيوم متوارية النجوم إذ سمع رعد هائل وسقطت صاعقة لها لهب كالنار أصاب بعضها هلال المأذنة فانشق رأسها ومات الرئيس إلى رحمة الله تعالى وسقط باقيها على سقف المسجد الشريف عند المأذنة فعلقت النار فيه ففتحت أبواب السماء ونودى بالحريق فى المسجد فحضر أمير المؤمنين يومئذ السيد قسطل بن زهير الجمالى وشيخ الحرم والقضاة وسائر الناس وصعدت أهل النجدة والقوة إلى سطح المسجد بالمياه فى القرب يسكبونها على النار لتطفى فالتهبت وأخذت فى جهة الشمال والمغرب وعجزوا عن اطفائها فهربوا واستولت النارعليهم فمات منهم فوق عشرة أنفس وعظمت النار جدا وأحاطت بجميع سقف المسجد الشريف وأحرقت ما فى المسجد من المصاحف وخزائن الكتب والربعات وكانت كتبا نفيسة ومصاحف عظيمة وصار المسجد كبحر لجى من نار يرمى بشرر كالقصر إلى أن استوعب الحريق جميع المسجد والقبة العليا التى فوق قبة النبى صلى الله عليه وسلم وذاب الرصاص ولم يصل أثر النار إلى جوف الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام لسلامة القبة السفلى وعدم التأثير فيها مع ما سقط عليها مما هو أمثال الجبال وأحرقت حتى الحجارة الأساطين وسقط منها نحو مائة وعشرين اسطوانة واحترق المنبر الشريف النبوى والصندوق الذى فى المصلى والمقصورة التى حول الحجرة الشريفة وقد سلمت الأساطين الملاصقة للحجرة الشريفة وسلم ما حول المسجد من البيوت وشوهد أشكال طيور بيض يحومون حول النار كأنها تكفها عن بيوت جيران النبى صلى الله عليه وسلم مع وقوع بعض شرر النار فيها وعدم تأثره فيها.

قال مؤرخ المدينة وعالمها ومفتيها مولانا السيد نور على بن عبد الله السمهودى رحمه الله بعد سوق هذه الحكاية بالسبط من هذا فى كتابه خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك عبرة تامة وموعظة عامة أبرزها الله تعالى للانذار فخص بها حضرة النذير الأعظم صلى الله عليه وسلم وقد ثبت أن أعمال

أمته تعرض عليه فلما ساءت الأعمال المعروضة ناسب ذلك الانذار باظهار المجازى بها يوم العرض قال الله تعالى وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وقال تعالى ذلك الذى يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون قال وشرعوا فى تنظيف المسجد ونقلوا نقضه من مقدم المسجد إلى مؤخره للصلاة فيه وعمل فى ذلك أمير المدينة وقضاتها وعامة أهلها حتى النساء والصبيان تقربا إلى الله تعالى وبادروا بارسال قاصد إلى مصر وعرضوا ذلك على السلطان قايتباى رحمه الله تعالى فتهول من هذا الحادث العظيم.

وتوجه إلى عمارة المسجد الشريف وعرف نعمة الله عليه لتأهيله لهذا الشرف العظيم ورسم بابطال جميع العمائر المسكية وغيرها وأن يتوجه شادها السيوفى سنقر الجمالى مبادرا إلى المدينة الشريفة وأرسل إليه نحوا من ثلثمائة من أرباب الصنائع وكثيرا من الحمير والجمال والبغال وسائر مؤنهم ومبلغا من الخزانة نحو مائة ألف دينار فأكثر وجهز المؤن الكثيرة إلى أن امتلأت البنادر بها كالطور والينبع ونقلت إلى المدينة الشريفة واستقبلوا العمارة بجد واجتهاد إلى أن كملت عمارة المسجد الشريف والقبة الشريفة والمواذن وفرغوا منها على هذا الوجه الذى هو عليه الآن فى هذا الزمان.

وذكر السيد السمهودى رحمه الله تعالى فى تفصيل كتابه خلاصة الوفا فراجعه ان أردت إحاطة العلم به وذكره بأبسط من ذلك فى تاريخه الكبير الذى سماه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمر السلطان قايتباى أن يبنى له رباطا ومدرسة ومأذنة حول المسجد الشريف فبنوا له مدرسة عظيمة ورباطا مشرفا على المسجد الشريف ما بين باب السلام وباب الرحمة وأرسل إلى المدرسة خزانة كتب جليلة جعل مقرها المدرسة موقوفة على طلبة العلم الشريف وأرسل مصاحف كثيرة وكتبا لخزنة المسجد الشريف عوض ما احترق منها ووقف قرى كثيرة بمصر تحمل غلاتها إلى جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفرق عليهم لكل شخص ما يكفيه من الحب بطول السنة فكان حصة كل نفر سبعة أرادب فى العام مسوى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد وذلك الخير جار إلى الآن وزاد عليه الآن سلاطين آل عثمان أكثر مما أوقفه السلطان قايتباى لمكة والمدينة جزى الله المحسنين خيرا وضاعف لهم ثوابا وأجرا.

Marfat.com

فصـــل

فى حج السلطان قايتباى

أعلم أن ملوك الجراكسة ماحج منهم أحد غير السلطان قايتباى لكثرة تمكنه فى الملك وكثرة ما فعله من الآثار الجميلة فى الحرمين الشريفين فأقام الأمير الكبير شيبك الدوادار نائباً عنه بمصر وخرج إلى الحج فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة قبل وقوع حريق المسجد الشريف النبوى بنحو عامين وكان أمير الحاج خوشقدم خرج بالمحمل الشريف وبركب الحاج المصرى فخرج السلطان قايتباى بقصد الحج والزيارة بعد خروج ركب الحاج بثلاثة أيام ووصلت القصاد إلى شريف مكة يومئذ سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى جمال الدين السيد محمد بن بركات بن حسن ابن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وكان من أخص المخصوصين به وصاحب الحل والعقد عنده قاضى القضاة شيخ الاسلام مولانا القاضى برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة القاضى الشافعى يومئذ بمكة طيب الله ثراه فتهيأهو والسيد الشريف محمد بن بركات لملاقاة السلطان فان القصاد أخبروا أنهم فارقوه من عقبة أيلة وهى نهاية الربع الأول من طريق الحج وأرسل مولانا السيد الشريف أحد قواده ليسبقه إلى ملاقاة السلطان بسماط حلوى فوصل إلى الحوراء ولاقى السلطان ومد له السماط الحلوى هناك فجلس عليه السلطان بنفسه وأظهر غاية اللطف والمجابرة وأكل وقسم على أمراءه وعسكره وكان سماطا كبيرا جميلا .

ويحكى من لطافة السلطان قايتباى أنه لما جلس على السماط تناول شيئاً من الحلوى يقال له كل واشكروا كل منه وسأل من الذى جاءه بالسماط أيش اسم هذا عندكم فقال له القائد هذا اسمه كل واشكر فقال له سلم على سيدك وقل له أكلنا وشكرنا . ثم لما وصل السلطان إلى الينبع عدل منه إلى المدينة لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم وتوجه إليها وكان قد خرج إلى ملاقاته سيدنا ومولانا السيد الشريف محمد ابن بركات وولده السيد بن هيزع بن محمد ومولانا القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى جدة فبلغهم فى أثناء الطريق ان السلطان عدل إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم فتوجهوا إلى منزل بدر وأقاموا به منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة .

Marfat.com

قال السيد السمهودى فى تاريخه الكبير حج السلطان قايتباى فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة وبدأ بالمدينة النبوية لزيارة التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلاة والسلام فقدمها طلوع الفجر من يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام فلبس حولها حلل التواضع والخشوع وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع فترجل عن فرسه عند باب سورها ومشى على أقدامه بين ربوعها ودورها حتى وقف بين يدى الجناب الرفيع الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم وناجاه بالتسليم وفاز من ذلك بالحظ الجسيم ثم ثنى بضجيعيه رضى الله عنهما بعد أن صلى بالروضة الشريفة التحية وعفر جبهته فى ساحتها السنية وعرض عليه الدخول إلى الحجرة الشريفة فتعاظم ذلك وقال لو أمكنى أن أقف أبعد من هذا الموقف وقفت فالجناب عظيم ومن ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم .

ثم صلى الجمعة فى الروضة الشريفة فى الصف الأول بين فقراء الزوار وإلى جانبه امامه الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين بن الكركى .

ثم توجه لزيارة حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن حوله من الصحابه الذين استشهدوا يوم أحد رضوان الله عليهم أجمعين فمشى مترجلا حتى خرج من باب المدينة ولم يزل ذلك دأبه ولم يركب بالمدينة تأدبا مع النبى صلى الله عليه وسلم وعاد من الزيارة وحضر لصلاة الجمعة قال السيد السمهودى رحمه الله تعالى فبدأنى السلطان بالملاطفة وسألنى عن بعض المباحث فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه ما يفوق وصف الواصف فأنشدته بيتى التلخيص :

كانت مسائلة الركبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد طيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأطيب مما قد رأى بصرى

فطرب لهما جدا واجتمعت به قرب المغرب فى الروضة ففاتحنى بالكلام ورأى فى المحراب النبوى مكتوبا قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام فسألنى عن هذه الآية هل نزلت قبل المعراج أم بعد وكيف كان الاستقبال قبل نزولها فشرعت له فى الجواب فأقيمت الصلاة فى أثناء ذلك فصلينا فلما فرغ من الصلاة صلى ست ركعات بسكون وتأدب

فلما انقضت الصلاة أقبل على طالبا للجواب فذكرت له أن نزولها بالمدينة وأن فرض الصلاة كان بمكة ليلة المعراج وذكرت ماحكى فى تعدد نسخ القبلة وصلاته صلى الله عليه وسلم بين الركنين اليمانيين جاعلا الكعبة بينه وبين بيت المقدس إلى غير ذلك من الفوائد وهو مصغ إليها متلذذا سماعها واستمرينا على ذلك حتى أقيمت صلاة العشاء فصلينا ثم عرضت عليه رفع بعض البدع من المدينة فأمر برفعها وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فأمر بازالتها وجعل لأمير المدينة فى مقابلة ذلك ألف أردب قررها له فى كل عام وفرق بالمدينة على فقرائها وفقهائها وعلمائها نحو ستة آلاف ذهب وحصل لى منه خيرا كثير وإحسان جزيل ثم برز فى اليوم الثالث من المدينة الشريفة قاصدا حج بيت الله الحرام انتهى كلام السمهودى ملخصا قال العز ابن فهد فلما وصل الخبر إلى بدر بعود السلطان وبروزه من المدينة الشريفة إلى السيد الشريف محمد بن بركات ومن معه ركبوا من بدر لملاقات السلطان فاجتمعوا به فى منزلة الصفراء وتلاقيا على ظهر الخيل وتصافحا ومشى السيد الشريف على يمين السلطان والقاضى برهان الدين بن ظهيرة عن يساره وباقى من معهما سلموا على السلطان على بعد ومشوا أمامه وصار السلطان يلاطفهم ويسأل عن أحوالهم ويشكر مسعاهم ويطمن خواطرهم ويحابرهم بالمكالمة وينصت لهم إذا تكلموا واستمروا كذلك إلى أن وصل السلطان إلى أوطاقه فرجعوا عنه إلى مخيمهم ثم صاروا يسايرونه فى الطريق ويظهر كمال النشاط ويبدى لهم وافر الانبساط وألبسهم السلطان خلعا فاخرة مرارا عديدة وفارقوه من بدر وتقدموا على السلطان إلى وادى مر الظهران ورتبوا هناك سماطا حافلا جميلا للسلطان ولمن معه فلما كان صبح يوم الأحد مستهل ذى الحجة وصل السلطان مخيمه بالوادى ووجد السماط ممدودا فجلس السلطان ومن معه على السماط وأكل منه وأطعم وفرق على من معه من عسكره الخاص به وخلع على الخدام والأنفار الذين مدوا السماط خلعا فاخرة متعددة جميلة ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان من مكة للسلام على السلطان فسلموا عليه وانصرفوا أمامه وركب السلطان ومعه شيخ الاسلام القاضى ابراهيم بن ظهيرة وولده القاضى أبو السعود وأخوه القاضى أبو البركات وامام السلطان الشيخ برهان الدين الكركى الحنفى واستمروا إلى أن دخلوا إلى مكة من أعلاها .

Marfat.com

وكان القاضى إبراهيم هو الذى تقدم لتطويف السلطان وصار يلقنه الأدعية والتلبية إلى أن دخل السلطان من باب السلام البرانى فطلع بفرسه منه فحفل به جواده فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهتار رمضان وتناول العمامة من الأرض ومسحها وناولها السلطان فلبسها ، وكان ذلك تأديبا له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن يترجل ويدخل محرما مكشوف الرأس تواضعا لله تعالى .

ثم لما وصل إلى عتبته الداخلة من باب السلام ترجل ونزل وقرأ بين يديه الرئيس بصوت جهورى قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريباً : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ثم إنه رفع يده للدعاء للسلطان وأمن من حوله من أهل الأصوات ودخل من باب السلام ومولانا القاضى إبراهيم يلقنه الدعاء إلى أن دخل الطواف وقبل الحجر الأسود وهو الذى يطوفه ويلقنه الأدعية والرئيس ينادى بالدعاء له من أعلاقبة زمزم والناس محيطون بالمطاف الشريف يشاهدونه ويدعون له إلى أن تم طوافه وصلى خلف مقام إبراهيم ثم خرج من باب الصفا إلى الصفا وسعى راكبا معه القاضى إبراهيم يلقنه الدعاء فلما فرغ من سعيه فعاد إلى الزاهد وبات فى مخيمه وركب فى الصبح فى موكبه ولاقاه مولانا السيد الشريف محمد ابن بركات وأولاده وقاضى القضاة البرهانى إبراهيم بن ظهيرة وابنه الجمالى أبو السعود وأخوه القاضى فخر الدين وابن عمه والخطباء وأعيان الناس وأكابر التجار فخلع السلطان قايتباى على الجميع ومشوا قدامه فى موكب عظيم وأبهة عظيمة ولم يتخلف أحد بمكة من النسلم والرجال حتى المخدرات ودخل بمكة بهذا العنوان إلى أن وصل إلى مدرسته فترجل الناس له وسلم عليهم ودخل إلى مدرسته ومد له بها السيد الشريف محمد بن بركات سماطا جليلا واستمر على ذلك يمد له صبحا وليلا الأسمطة الجميلة ومد له فى ثانى يوم قاضى القضاة البرهانى سماطا جميلا واستمر السلطان بمدرسته ما ظهر لأحد غير أنه يتصدق بالليل كثيرا وركب مرة لدرب اليمن يشاهد

Marfat.com

ما قدم له مولانا السيد الشريف من الإبل والخيل وتشكر من فضل السيد الشريف واستمر بمدرسته إلى أن طلع إلى عرفات ومعه إمامه راكب إلى جانبه وهو شيخ البرهانى إبراهيم بن الكركى والأمير شيبك الجمالى وأولاد القاضى يحيى بن الجيعان كاتم السر وخصيصه القاضى أبو البقا بن الجيعان ورمضان المهتار ووقف بجبل الرحمة متضرعا إلى الله تعالى سائلا من رحمته القبول وكانت الوقفة يوم الاثنين فأفاض مع الناس وأتم حجه وفرق الأضاحى غنما كثيرة وأهدى شيئاً كثيراً وكان المناسب أن ينحر شيئاً من البدن فما أشار عليه أحد بذلك وعاد بعد أيام التشريق إلى مكة وتوجه الركب المصرى وتأخر هو بمكة أياما وقرر وظائف مدرسته لأهلها من المدرسين والطلبة وقراءة صحيح البخارى وقراءة الربعة وخادمها وخادم المصحف والفراشين والبوابين والوقادين والجبادين والسقايين والسبيل والأيتام والعريف والفقيه والمؤذنين وناظر المدرسة والوقف والجابى والصيرفى وأصحاب الخلاوى ونحو ذلك وجعل لكل واحد كفايته من القمح والدراهم والزيت وكتب بذلك وقفية أشهد على نفسه بذلك فيها وعمل من الخيرات مالم يسبق إليه وحضر بنفسه يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من ذى الحجة بطرف الإيوان وقدامه المصحف على كرسى وفرق على الحاضرين أجزاء الربعة الشريفة وتناول السلطان جزءا منها كأحد القراء وقرؤا إلى أن ختم القاضى إبراهيم ولم يأخذ من السلطان الجزء حتى وضعه بنفسه وجمعت الأجزاء فى صندوق الربعة ودعا الداعى للسلطان ومد للحاضرين سماطا حلوى بدور المدرسة ونزل السلطان وجلس إلى جنب القاضى ابراهيم وأكلوا ثم سقاهم سكر أو سوبية وفرق عليهم فتوحا وانصرفوا .

وكان بنى السلطان سبيله على يمين الداخل إلى خان البزازين بالمسعى يقال له العلقمية وكان أمامه إلى جهة القبلة بالمسعى سبيل قديم للقاضى شهاب الدين الطبرى على يمين الذاهب إلى المروة فأشار الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندس أن يهدم هذا السبيل حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله فهدم وصار المسعى مكشوفا وعمارة الخان والسبيل ظاهراً وسافر السلطان فى ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة بعد أن طاف للوداع والرئيس يدعوله على قبة زمزم ومشى القهقرى

إلى أن خرج من باب الحزورة وركب معه السيد الشريف محمد بن بركات وأولاده وقاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة إلى الزاهر ثم ردهم وودعهم وسار إلى مصر وعاد إلى مملكته ولم يختل عليه شيء من أمر المملكة مع غيبته عن تخت مصر مدة سفره إلى الحج وعوده إليها وهى نحو ثلاثة أشهر وذلك لإتقانه أمر الملك وتدربه فيه وضبطه رحمه الله تعالى .

وكان واسطة عقـــد ملوك الجراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية فى اللطف والمؤانسة وأجملهم جمالا وإجلالا وأحسنهم إحسانا وأفضلهم أفضالا وأكملهم عقلا ونيلا واعتدالا وأكثرهم فى جهات الخير آثاراً وأوفرهم عمائر وأوقافا وأدواراً وأطولهم طولا وزمانا وأكملهم ملكا وقوة وإمكانا وكانت أيامه كالطراز المذهب ودولته تنجلى كالعروس فى حلل الجوهر والذهب وعاشت الرعية فى أيامه عيشاً رغداً وظهرت العلماء فى أيامه وغوا فصاروا نجوم الهدى إلى أن انتبه له الزمان الجائر واستيقظت له صروف الليالى والجدود العوائر ودارت عليه كما دارت على من قبله الدوائر وهذا شأن الدنيا الدنيـة فى أبنائها الأصاغر والأكابر ودأبها فى السلاطين والملوك الغوابر والبقاء والدوام لله عز وجل القـدير القاهر فقدم على قايتباى يريد أجله وما أغنى عنه ما جمعه من خيـله وخوله فأقدم على ما قدم من صالح عمله وترك ما خوله من متاع الدنيا وراء ظهره وأدرج فى أكفان أعماله بعد ما غسل بدموع فقره وأنزل من سرير الملك إلى التابوت إلى قبره وقدم على رب كريم ووقف بين يدى ملك الملوك الحـكيم الحليم .

إذا أمسى فراشى من تراب وصرت مجاور الرمس الرميم
فهنونى أصيحابى وقولوا لك البشرى قدمت على كريم

فكان انتقاله رحمه الله تعالى فى أواخر يوم الأحد الثلاث بقين من ذى القعـدة الحرام سنة إحدى وتسعمائة وصلى عليه يوم الاثنين ودفن بتربته بالصحراء التى بناها فى حياته فى غاية الحسن والزينة وبها مساكن للقراء وأوقاف داره عليهم إلى الآن ليس بمصر أحسن تربة منها وصلى عليه بعد ذلك صلاة الغائب بالمساجد الثلاثة وكان له مشهد عظيم لم يعهد الملك قبله وكانت مدة سلطنته ثلاثين سنة إلا ثمـانية

Marfat.com

أشهر ولم يملك أحد من ملوك الجراكسة قدر مدة ملكه رحمه الله تعالى (وولى بعده الملك ولده الملك الناصر أبو السعادات) وكان شاباً يغلب عليه الجنون والسفه وما كان له التفات إلى الملك والى السلطنة بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة .

يحكى عنه أمور قبيحة .

منها أنه كان اذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها وقطع دائرة فرجها ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء .

ومنها أن والدته كانت من أعقل النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة جدا وجمعتها به فى بيت مزين أعدته لهما فدخل بها وغلق الباب على نفسه وعليها وربطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجلادين وهى حية فلما سمعوا صوتها وبكاءها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل فاستمر كذلك الى أن سلخها وحشى جلدها بالثياب وخرج يظهر لهم أستاذيته فى السلخ وأن الجلادين عن كماله فى صنعته .

ومنها أنه مر وهو فى موكبه بدكان حلوانى يبيع الحـــلاوة وبسطه قدامه فأقامه من دكانه وجلس مكانه يبيع الحلاوة ودار حوله أمراؤه يشترون منه وأخذ بيده الميزان وصار يزن لهم الحلاوة إلى أن جبرت وكان له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكى إلى أن سقط من أعين العسكر وسطوا عليه كما سطا بالحسام الأبتر وسلخوه كما سلخ تلك الضعيفة بالخنجر ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر فمن غروره أنه خرج مستخفيا منفرداً عن عبيده وخدمه متباعداً عن خوله وحشمه فتوجه يتمشى وحده إلى بر الجيزة فأكمن له عشرة أنفس من ممالك أبيه فى خيمة على ممره فلما وصل إليهم وكان وحده منفرداً خرجوا عليه من الخيمة ومسكوا بلجام فرسه وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه وجاؤا به مقتولا الى القاهرة ودفنوه فى تربة أبيه سنة أربع وتسعمائة .

(ثم ولوا بعده خاله الظاهر قانصوه) وهو خال الناصر محمد بن قايتباى كان

Marfat.com

ساذجا أميا لا يعرف إلا بلسان الجركس قريب العهد ببلده لأن السلطان قايتباى جلبه من بلاده وهو كبير وخطه الشيب وصار يرقيه بواسطة زوجته خوندادم الناصر فبذلت له الأموال والخزائن وأرادت إقامته مقام ولدها الناصر وأرادت تقويته وإقامته وإصلاحه ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر فما استكمله الجندللابالة وما أهلوه للسلطنة وكيف له بها وأتى له فخلعوه بعد أن سلمهم سنة وسبعة أشهر وأخرجوه من الملك فى أواخر سنة خمس وتسعمائة .

(وولى بعده أمير كبير يسمى جان بلاط وتلقب الملك الأشرف جان بلاط) فى أوائل سنة ست وتسعمائة وما نهى بالسلطنة ولا وافقه أحد عليها وخلع بعد ستة أشهر .

(وولى مكانه الملك العادل طومان باى) وما استكمل يوما واحداً بل هجم عليه العسكر وقتلوه فما قدم أحد على السلطنة وكانت الأمراء متوفرة وكلهم يشير بعضهم إلى بعض فى الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على أن يولوا قانصوه الغورى لأنهم رأوه لين العريكة سهل الازالة أى وقت أرادوا إزالته أزالوه لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم جاها وأوهنهم قوة فأشاروا عليه أن يتقدم فأبى فألزموه بذلك فقال أقبل ذلك منكم بشرط أن لاتقتلونى وإذا أردتم خلعى من السلطنة أخبرونى بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك واترك لكم الملك وأمضى حيث أريد فعاهدوه على ذلك فقبل منهم وولوه السلطنة ولقبوه .

(السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى) فى سنة ست وتسعمائة وفرح العسكر بولايته لأنهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضى ملكهم بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم فى الجملة وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والعسف بخيلا محبا للعمارة .

(ومن جملة عماراته الجامع والتربة) بين القصرين بمصر وكان فى نيته أن يدفن بها ووقف عليها أوقافا كثيرة وما قدر له دفنه فيها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

Marfat.com

وله آثار جميلة فى طريق الحج فى عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها وكان يحفظ حرمته على الأمراء بالدربة والتنزل من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة أو نهى وذلك ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه .

حكى شيخنا شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المغربى الأصلى ثم المصرى نزيل الحرمين الشريفين وهو ممن أخذنا عنه رحمه الله تعالى عن والده وكان من المباشرين أرباب الأقلام من ديوان السلطان قانصوه الغورى رحمهما الله تعالى قال اشتم الغورى مبادىء فتنة أراد الأمراء احداثها وأرادوا أن يجعلوها مقدمة لخلعه من السلطنة فلما استشعر الغورى ذلك منهم عمل ديوانا جمع فيه الأمراء والمقدمين وأمرهم بالجلوس وجلس بينهم كأحدهم وكانت عادة الأمراء والمقدمين الوقوف بين يدى السلطان ولا يجلسون معه إلا على السماط فى الأكل فقط فلما أجلسهم وجلس بينهم استنكروا ذلك منه وصاروا يتفقدون عن سبب ذلك وكل مصغ إلى ما يقول متوجه للسلطان غاية التوجه فقال ياأغوات جمعتكم لأسألكم سؤالا خطر لى وأطلب جوابه على الوجه الذى ترونه صوابا فقالوا نعم فقال أسألكم عن جماعة جاءوا إلى رجل وناولوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة وأودعوها عنده فقال إنما استودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتونى وتطلبوا وديعتكم منى بلا نزاع ولا خصومة فأرد وديعتكم اليكم فقالوا له نعم قبلنا منك هذا الشرط وأودعوه ومضوا ثم عادوا اليه بعد مدة وقالوا نطلب الوديعة بنزاع شديد ومخاصمة ومضاربة فقال لهم هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع وضراب معى كما اشترطت عليكم فقالوا لابد لنا معك من الخصام والنزاع فأيهم على الباطل وأيهم على الحق ففهموا مراده واستعفوا منه فقال لهم أنا ما جلست معكم ألا لتعلموا أنى كأحدكم لا أمتاز عنكم بشىء وهذه السلطنة أسلمها لأيكم أراد ولا أنازعكم فيها ولا أخاصمكم عليها وإنما أنا واحد من الجند فقبل كل واحد منهم يده وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه فى استمراره سلطاناً عليهم وسكنت الفتنة بهذ التدبير وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضرورات أخرى وطال معه الحبل إلى أن صار يأخذهم واحداً بعد واحد ويتغافل ثم يجعل حيلة أخرى وعلة أخرى لأحدهم فيأخذهم بها ويوقع بين الاثنين ويأخذ هذا بذاك ويأخذ ذاك بهذا ويدس لهم

الدسائس من السم فى الطعام ونحوه حتى أفنى قوانصهم ودهاتهم وأعد عَدداً وعُدداً فصاروا يظلمون الناس ظلماً ويعاملون الخلق عسفاً وغشما وصار يغضى عنهم ويتغاضى لهم فأظهروا الفساد وأهلكوا العباد وأكثروا العتاد وطغوا فى البلاد وصار هو يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس وكثرت العوانية فى أيامه لكثرة ما يصغى إليهم وصاروا إذا شاهدوا أحداً توسع فى دنياه وأظهر التجمل فى ملبسه أو مثواه ومشوا به إلى السلطان فيرسل إليه الأعوان ويطالبه بالقرض ويستصفى أمواله ويسلمه إلى المسوياشى ليأخذ ماله ويهلك أهله وعياله ويعذبه بأنواع الأسجنة إلى أن يصير فقيراً بعد غناه وعد ما بعد ثروته واستغناه وجمع من هذا الباب أموالا عظيمة وخزائن واسعة جسيمة ذهبت فى آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدا وتمزقت بدداً وهكذا كل مال يؤخذ على هذا الأسلوب ويجمع بهذا الطريق المنكوب لا ينفع من جمعه بل يضر صاحبه ويهلك ما معه وهيهات أن ينفع مال حصل بأنين كل حزين وسلب بالقهر والعسر من كل مظلوم مسكين وكيف ينفع سالبه ومانفع صاحبه وكيف يتهنى به من اكتسبه على هذا الوجه وأبكى كاسبه .

إلا أن مالا كان من غير حله سيخرب يوما أهله وأقاربه

وأما الميراث فبطل فى أيامه وصار إذا مات أحد يؤخذ ماله جميعه للسلطنة ويترك أولاده فقراء إلا أن أعتنى به اعتناء كبيراً جعل له نزراً يسيراً من مال أبيه وأخذ لنفسه باقيه واشتد طمعه وكثر ظلمه فى آخر أيامه فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

حكى لى والدى رحمه الله تعالى عن شخص مجاب الدعوة من أولياء الله تعالى رأى بمصر فى أيام السلطان الغورى جنديا من الجراكسة الجلبان أخذ متاعا من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال يطلب حقه منه وهو يمتنع منه فقال له الدلال بينى وبينك شرع الله تعالى فضربه بالدبوس فشج رأسه وسقط الدلال مغشيا عليه ومضى الجندى بالمتاع وما قدر احد من المسلمين على منعه بما فعل قال الرجل فصعب على مشاهدة هذا الحال فرفعت يدى إلى الله تعالى ودعوت على الجندى المزبور وعلى سلطانه وعلى الظلمة من أعوانه فصادف ساعة الاجابة وبت تلك الليلة على

Marfat.com

طهارة وأنا مفكر فى أمر وأحدث نفسى بذلك وأقول كيف يزول ملك هذا السلطان العظيم وقد ملأت جنوده الأرض وأنى للمسلمين بسلطان آخر يرفق بالرعايا ويطمئن فى دولته البرايا وأخذنى النوم فرأيت فيما يرى النائم ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس يكنسون الجراكسة من أرض مصر ويلقونهم فى بحر النيل فاستيقظت من النوم واذا بقارىء يقرأ القرآن فأنصت له فاذا هو يقرأ قوله تعالى فأنتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين فعلمت أن الله يأخذهم أخذا وبيلا فما مضى قليل الأوبرز الغورى بجنوده وأمواله وخزائنه من مصر لقتال المرحوم المغفورله السلطان سليم خان إلى حلب فجاء الخبر بعد قليل إنه انكسروقتل أكثر جنوده وفقد الملك تحت سنابك الخيل فى مرج دابق وهرب بقية السيوف من الجراكسة وصير والد ويدار طومان باى سلطانا والسلطان سليم فى أثرهم يفتح البلاد ويضبطها إلى أن وصل إلى الريدانية خارج مصر فخرج اليه طومان باى ومن معه إلى قتاله فما حمل هو ومن معه الاساعة وانكسروا ودخل السلطان سليم خان إلى مصر وضرب وطاقة فى الجزيرة الخضراء على ساحل النيل وهرب طومان باى إلى البر ومسكه شيخ عرب وجاؤا به إلى أوطاق السلطان سليم خان فأمر بصلبه فى باب زويله حتى يراه الناس ويصدقون بأنه مسك وصاروا يزعمون بأنه اختفى ليحصل له فرصة فيخرج وكثر كلام الناس وصار مظنة الفساد وكثرة القيل والقال فأمر السلطان سليم بصلبه تسكينا للفتنة وكان صلبه فى باب زويلة فى حادى عشر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائه وبصلبه انقطعت دولة الجراكسة كما انقطعت دولة غيرهم من أرباب الدول من الأتراك أو الأكراد والعبديين وهكذا شأن الدنيا فى أبنائها تتقلب بهم وتتحول عنهم أى تقلب وأى تحول كما قيل :

ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك فقد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبدا ليس بفان ولا بمشترك

وملوك الجراكسة اثنان وعشرون ملكا أولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم طومان باى ومدة ملكهم مائة وثمانية وأربعون عاما وليس لطومان باى أثر لقصر

Marfat.com

أيام سلطنته وللأشرف قانصوه مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة رحمه الله تعالى وسامحه.

ومما عمره السلطان قانصوه الغورى بمكة المشرفة باب ابراهيم بعقد كبير جعل علوه قصرا وفى جانبه مسكنين لطيفين وبيوتا معدة للكراء حول باب ابراهيم ووقف الجميع على جهات الخير ولا يصح وقف ذلك القصر لأنه فى هواء المسجد وكذلك المكان لأن أكثرهما واقع فى أرض المسجد وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك فى أيام سلطنته ودولته لعدم اصغاءه إلى كلام أهل الشرع والدين وعدم اقدام العلماء على الملوك والسلاطين للطمع فى الدنيا الدنية وللخوف على مناصبهم الاعتبارية فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وبنى أيضا ميضأة خارج باب ابراهيم على يمين الخارج من المسجد هى بطالة الآن لأن روائح عفونتها قد تصل إلى المسجد فيتأذى به المصلون فأبطل وغلق قريبا فى سنة ثمانين وتسعمائة بالأمر الشريف السلطانى.

ومن آثار الأشرف الغورى أيضا الترميم الواقع فى حجر البيت الشريف عمل بأمره فى أيامه واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمله عام تسعة عشر وتسعمائة.

ومن آثاره بناء سور جديد فانها كانت غير مسورة وكانت العربان فى أيام الفتنة تهجم على جدة وتنهبها وأسرت عربان زبيد فى أيام الفتن الخواجا محمد القارى وكان من أعيان التجار من أهل الاعتبار فهجموا إلى بيته وأنزلوه من السطح وأركبوه معهم على ظهر فرس ارتدفه واحد من زبيد وأخذوه إلى أماكنهم وهو قرب عقبة السويق من درب المدينة الشريفة ومكث عندهم إلى أن اشترى نفسه بثلاثين ألف درهم فردوه إلى مكة بعد أن استوفوا هذا القدر منه ونهبت جدة مراراً فى الفتن التى وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة المرحوم المقدس الشريف محمد ابن بركات بين أولاده وجرت أحوال بطول شرحها فأرسل السلطان الغورى أحد أمرائه المقدمين وهو الأمير حسين الكردى وجهز معه عسكرا من الترك والمغاربة واللوند نحو خمسين ضرابا لدفع ضرر الفرنقال فى بحر الهند وكان مبادى ظهورهم وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك فى جدة وجعلها له أقطاعا.

لما وصل الأمير حسين الكردى إلى جدة بنى عليها سورا فى سنة سبعة عشر

Marfat.com

وتسعمائة وهو الباقى إلى الآن وكان ظلوما غشوما يسفك الدماء ولا يرحم فى الأرض ليرحمه من فى السماء فاذا خيم أوطاقه فى سفر أو حضر رتب حوله أعوانه وجنوده ترتيبا خاصا لارهاب من حضر ونصب أعوادا للصلب والشق والشنكلة وأقام جلادين للقتل والتوسيط والضرب والبهدلة فأى مسكين وقع فى يده قتله بأدنى سبب أو عذبه بالمقارع أو صلب أظهارا للناموس الفرعونى المهيب وأخافه للخلق بالسياسة والترهيب كما يحكى أن الحجاج دخل بلدة فصادف انسانا عند دخوله فأمسكه وأمر بضربه فقال له بأى ذنب تضربنى بسببه فقال أريد إرهاب أهل البلاد فجملنى بنفسك ساعة فضربه خمسمائة سوط ثم أطلقه .

وكانت للأمير حسين المذكور أسمطة ممدودة فى سائر الأيام وكان أكولا بذولا للطعام سمحاً فى المواكلة والاطعام يستوفى الخروف وحده مع أرغفة عدة ونفائس له معدة وكان كرديا دخيلا فى وظائف الچراكسة لا يملأ عينهم ولا يعتبرونه فيما بينهم فأراد السلطان الغورى أبعاده عنهم حماية منهم وكان مغتنياً به فأعطاه بندر جدة على وجه التيمار وجهز معه عمارة ليقاتل الفرنج الذين ظهروا فى بنادر أرض الهنـــد واستطرقوا إليها من بحر الظلمات من وراء جبل القمر التى هى منبع ماء النيل وعاثوا فى أرض الهند ووصل أذاهم وإفسادهم إلى بلاد العرب وبلاد اليمن وقصد السلطان الغورى دفع أذاهم عن المسلمين بإرسال الأمير حسين الكردى إلى جدة فلما أتى جدة سورها وبنى أبراجها وأحكمها وهدم كثيراً من بيوت الناس فيما يقارب موضع السور لوضع الأساس واستخدم عامة الناس فى حمل الحجر والطين حتى التجار المعتبرين وسائر المتسببين وضيق على البنائين بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلا عن المجىء فلما جاء أمر ان يبنى عليه فبنى عليه واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء. إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد وبنى السور جميعه فى دون عام من شدته وغشمه وأقدامه وظلمه واستمر حاكما بجدة إلى أن تقوى بالمال وتأثر فتوجه إلى الهند فى حدود سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ودخل واجتمع بسلطان كجرات يومئذ وهو المرحوم المغفور له السلطان خليل شاه مظفر ابن السلطان محمود شاه الكجراتى فأكرمه وعظمه وأنعم عليه بنعم طائلة عظيمة جليلة ولما سمعوا الفرنج به

Marfat.com

ارتفعوا عن بنادر كجرات إلى بنادر الدكن وتحصنوا بقلعة متقنة محكمة لهم هناك هى تحت ملكهم إلى الآن يقال لها كوة بالكاف العجمية المضمومة والواو الشديدة المفتوحة بعدها هاء ساكنة يسر الله تعالى لسلطان الإسلام وقطع بسيفه دابر الفرنج اللئام وكافة عباد الصليب والأصنام وقد أحسن من قال :

أعبـــاد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيحا

ولم يستقر الأمير حسين فى كجرات بل عاد إلى اليمن وافتتح فى طريقه على عودة تملكة عين بنى طاهر ملوك اليمن ظلماً وعدوانا فى سنه اثنين وعشرين وتسعمائة بعد أمور يطول شرحها وترك بهـا نائباً له فى زبيد اسمه برسباى چركسى وترك السلطان عامر بن عبد الوهاب وكانوا ملوكا من أهل السنة والجماعة ظاهرين فى الاعتقاد ظاهرين على أهل البدع والالحاد رحمهم الله تعالى وانقرضت به بنى طاهر من اليمن وعاد الأمير حسين لمنيته وحتفه كالباحث عنها بظلفه وقدم إلى مكة وكانت دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر وملكها السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن محمد خان رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان وسقى عهده صوب الرضا والغفران .

وتوجه سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى سيد السادات الأشراف وتاج رؤس الشرفاء من بنى عبد مناف مولانا السيد الشريف جمال الدنيـــا والدين محمد أبو نمى بن بركات خلد الله سعادته وأبد دولته وسيادته أرسله والده الشريف بركات ليدوس البساط السلطانى بمصر وعمره يومئذ اثنا عشر عاما فجعل له بذلك غاية التعظيم والإكرام وبلغ بذلك جميع ما طلبه ورام وعاد إلى والده الشريف معززاً مكرما ومعه أحكام شريفة بكل ماطلبه وأراده وأرسل حكم إلى السيد عزاز بن عجلان ابن السيد الشريف بركات رحمه الله بقتل الأمير حسين الكردى المذكور وهو الذى استخرج هذا الحكم لعداوة سابقة بينه وبين الأمير حسين المذكور فأخذ مقيداً إلى جدة وربط فى رجله حجر كبير وغرق فى بحر جدة فى موضع يقال له ام السمك فأكلته الأسماك بعد أن كان يعد فى الأملاك وكان طعاما للحيتان بعد إطعامه الضيفان وغرق مقيداً فى الأصفاد بعد أن قتل ماشاء الله من العباد وتفرق فى البلاد جنوده وأعوانه بددا ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً.

Marfat.com

الباب السابع

فى ظهور آل عثمان خلد الله سلطنتهم القائم إلى آخر الزمان

وذكر نبذة من مناقب أسلافهم السلاطين العظام وذكر ماعمروه فى بلد الله الحرام وفعلوا فيه من الخيرات الجسام وذكر بناء المسجد الحرام على الوضع الذى هو عليه الآن وفيه فصول

الفصل الأول

فى ذكر الفتح الخاقانى ودخول ممالك العرب والعجم فى سلك العثمانى ونبذة من ذكر أسلافهم الكبار بطريق الاختصار خلد الله ملكهم العثمانى زمان وأبقى ملك الأرض فيهم وفى عقبهم إلى انتهاء الدوران .

لما أراد الله تعالى بأهل الأرض إحسانا وأفضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم اكراما لهم وإجلالا وقضى باطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الاسلام وتقوية أهل السنة المتمسكين بسنن محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وإقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام اطلع فى أفق الخلافة العظمى شموس الأياد العثمانية واسطع من أوج سماء السلطنة الكبرى بدور كمال المعدلة الخافانية وأجلس على سرير الملك من ملكه الله أعظم ممالك الاسلام وفتح على يديه أكثر الأمصار والبلاد بالسيف الصارم الصمصام والحسام الحاسم مواد ظلم الظلم من كل ظالم أو ظلام ونشر به جناح الأمن والأمان على أهل الايمان من الأنام فأخذ أحاسن محاسن هذا الربع المسكون وكان مظهر القول من يقول للشىء كن فيكون ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون واستولى بتأييد الله ونصره على شام البلاد ومصره وملأ نطع الدنيا بدماء سيف

قهره كما ملأها بافاضة سيف عدله وبسبب لطفه وبره وتشرفت بذكره فى الحرمين الشريفين صدور المنابر ورؤس المنائر وعمر مساجدها وتلا إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الملة الحنيفية واحيى مالها من مآثر الملك المالك الهمام والليث الباسل الضرغام السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم خير خلق خلفاء الرحمان شرف سلاطين آل عثمان السلطان سليم خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان يلدرم بايزيد خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان أورخان ابن السلطان عثمان الغازى تغمدهم الله بالرحمة والرضوان وحفهم بروائح الروح والريحان وأبدلهم عما انتقلوا عنه من الملك الفانى بالملك الباقى فى غرف الجنان وابقى السلطنة فيهم خالدة تالدة إلى يوم الحشر والميزان .

هم معشر كلهم غاز وكلهم خير الملوك صناديد الصناديد
أولئك الناس ان عدوا وان ذكروا رواومن سواهم فلغوا غير معدود
لو خالد الدهر ذو عز لعزته كانوا أحق بتعمير وتخليد

وجده الاعلى السلطان عثمان الغازى رحمه الله تعالى أصله من التراكمة الرحالة النزالة من طائفة التتار والسلطان عثمان أول من ولى منهم السلطنة فى بلاد الروم فى سنة تسع وتسعين وستمائة وهو ابن ارطغول ابن سليمان ويتصل نسبه إلى يافث ابن نوح عليه السلام وهو الجد الأربعون لحضرة السلطان سليم خان بن بايزيد خان رحمهم الله تعالى كانت أسماؤهم بلغة الترك القديم لم نذكرها لعسر ضبطها وهى مذكورة فى التواريخ المذكورة وكان سليمان شاه سلطانا فى الشرق فى بلاد ماهان قرب بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتفرقت بتلك الممالك وخرج سليمان شاه من بلاد ماهان بخمسين ألف بيت من التركمان إلى أرض الروم ومر بحلب وعبر بحر الفرات فغرق بفرسه فى الفرات وأخرج منه إلى بحر الرحمة فى أعلى الجنان ودفن أمام قلعة جعبر وتفرق من معه من التركمان فى أطراف تلك البلدان وذراريهم موجودون رحالون نزالون إلى الآن .

وكان لسليمان شاه أربعة أولاد اثنان منهما توجها إلى بلاد العجم وهما سنقدر ودبندار وتوجه إلى بلاد الروم اثنان وهما ارطغول ولوندوعدى وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقى وكان سلطان بلاد قرامان وتخت ملكه قونية فاكرمهما وأذن

Marfat.com

لهما فى الاقامة فى أرضه واستأذنا منه فى جهاد الكفار واجتمع عليهما طائفة من الغزاة وصار ذأبهم الجهاد فى سبيل الله وكان مقرهم ما بين قره حصار وبلجك فى محل يقال له سكوتجك صيروه قشلاقهم وجبل بيلابيج جعلوه ييلاقهم فسكنوهما مع مواصلة الغزاة والجهاد وقع الكفرة حول تلك البلاد إلى أن توفى ارطغول فى سنة تسع وثمانين وستمائة وخلف أولادا انجادا امجادا أشدهم بأسا وأقواهم جأشا وأنماهم غرسا السلطان عثمان وكان مولده فى سنة ست وخمسين وستمائة دأب فى خدمة والده فى الجهاد وتغرس فى الغزاة فى سبيل الله منذ نشأ مع الأولاد واستمر مع والده مع الكفار فى القتال والجهاد فرأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فى الجلاد وعلم قابليته ونجابته فى فتح أطراف تلك البلاد فأكرمه وأعزه وآمده بأنواع الاعانة والامداد وأرسل اليه الراية السلطانية والطبل والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده وشد العضد فلما وصل الطبل والزمر عملوا نوبة بين يديه فعند أول سماعه أول صوت الطبل والزمر قام على قدميه تعظيما لذلك فصار ذلك قانونا لآل عثمان باقيا مستمر إلى الآن فانهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم وكان جلوس السلطان عثمان على تخت السلطنة فى سنة تسع وتسعين وستمائة وافتتح فيها قرا حصار من الكفار وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه كان من أهل العلم اسمه طورسن فقيه .

ثم افتتح قلعة حصار . ثم كوبرى حصار . ثم قلعة بلجك . ثم قلعة بن أدكى . ثم قلعة يوند حصار . ثم قلعة ابنه كول . ثم قلعة يكى شهر .

ثم زوج ولده أورخان على نيلوفر خاتون بنت تكور صاحب يارحصار فعمل أبوها سماطا عظيما فلما حضرت الغزاة انتهزوا فرصة وقتلوا تكور وافتتحوا قلعة يار حصار فدخلها السلطان عثمان وصارت من جملة مملكته واستمر فى الغزو والجهاد وافتتاح البلاد وقتل الكفار أهل العناد إلى أن دعاه الله إلى جنته وأبدله سلطنة خيرا من سلطنته فأجاب داعى الحق لما دعاه وبادر إلى إجابته ولبى نداءه فعاش سعيدا ومات شهيدا إلى رحمة الله تعالى عن ست وستين عاما فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدة سلطنته سبعا وعشرين سنة

Marfat.com

وكان للسيف والضيف كثير الاطعام فانك الحسام كثير البذل واسع العطا شجاعا مقداما على الأعداء ماخلف نقدا ولامتاعا إلا درغا وسيفا يجاهد بها الكفار وبعض خيل وقطيعا من الغنم اتخذها للضيفان وإنسالها إلى الآن ترعى حول بلاد بورسا أبقوها يتمنا وتبركا .

ثم ولى بعده السلطان أورخان الغازى مولده سنة ثمان وسبعين وستمائة وجلوسه على تخت السلطنة بعد والده المرحوم فى سنة ست وعشرين وستمائة ومدة سلطنته خمس وثلاثون سنة وعمر ثلاثا وثمانين سنة وهو الذى افتتح بلاد بورسا وجعلها مقر سلطنته وفتح قلاعا كثيرة وله حروب مع الكفار يسمى نيلوفرصولى .

وكان السلطان أورخان فاق والده فى الجهاد وفتح البـــلاد ففتح بورسا فى أيام والده .

ثم قبون حصار وقلعة أزيتى فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة ثم قلعة كونيك وقلعة بالى كسرى ولاية قره وقلعة كوحاستى وقلعة الوباد فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وقلعة قرحمه طوزله فى سنة ست وثلاثين وستمائة وفتح عدة قلاع وحصون واتسعت مملكته ونفذت كلمته .

واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر الاسلامية ودفع ضرر المسلمين عن بلادهم فاتفق قرال انكروس يعنى سلطانها وسلطان لان والسرن واجمعوا ان يتعدوا من بلاد روملى إلى بلاد اناطولى ويقاتلوا السلطان أورخان فى محله وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك استأذن من والده أن يعدى إلى روملى ويقاتل الكفار الذين اجتمعوا لقتاله قبل أن يصلوا إلى أناطولى فأجازه والده لما رأى نجابته وشجاعته فتوجه مع خدامه فسمع به الغزاة فتبعه من الشجعان فوارس مخبورون وأبطال مشهورون فعدوا إلى روملى فصادفوا الكفار فى غفلة وهم يريدو العبور إلى جهة أناطولى فوقع بينهم حرب عظيم قتل فيه من الكفار مالا يعد ولا يحصى وانهزم الباقون إلى القلاع والحصون وتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون ونصر الله الاسلام وخذل النصارى اللئام وافتتح المسلمون عدة قلاع وحصون وآل الكفار إلى الدمار والبوار ثم إلى عذاب النار ورجع سليمان بك

Marfat.com

إلى والده مظفرا منصورا مؤيدا مسرورا وكان السلطان أورخان كوالده كثير الجهاد ظاهر الاعتقاد سليم الفواد عدوا لأهل الكفر والالحاد عاش سعيد أو مات حميد فى سنة احدى وستين وسبعمائة .

(ثم ولى بعده ولده السلطان مراد الغازى) مولده سنة سبعة وعشرين وسبعمائة وجلوسه على التخت فى بروسا سنة إحدى وستين وسبعمائة ومدة سلطنته أحدى وثلاثون سنة وعمر خمسا وستين سنة وولى السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة وافتتح كثيرا البلاد منها أردنه فى سنة إحدى وستين وسبعمائة وهو أول من اتخذ المماليك وسماهم ينكزية يعنى للعسكر الجديد وألبسهم اللباد المثنى إلى خلف وسماهم بركا بضم الموحدة وسكون الراء آخره كاف وكانت له صولة عظيمة على الكفار واجتمعت النصارى على سلطان اسبوت فقتلهم السلطان مراد قتالا عظيما فقتل سلطان الكفر وانهزم الكفار فأظهر واحد من ملوكهم الاطاعة اسمه بلواش وتقدم ليقبل يد السلطان مرادخان فلما قرب منه أخرج خنجرا كان أعده فى كمه فضرب بها السلطان مراد فاستشهد إلى رحمة الله تعالى فى سنة اثنين وتسعين وسبعمائة فصار القانون أن لا يدخل على السلطان أيلجى أو غيره بسلاح وأن يفتش ثيابه وأن يدخل على السلطان بين رجلين يكتنفانه .

(وولى السلطنة بعده ولده يلدرم بايزيد خان) مولده سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وولى السلطنة وعمره اثنان وأربعون عاما ومدة سلطنته سنة عشر عاما ولما تولى استولى على كثير من قلاع النصارى وبلادهم وأراضيهم وصارت النصارى تنمى إلى بعض ملوك الطوائف فى بلاد الروم فلزم أن يستولى السلطان يلدرم بايزيد خان على متوك الطوائف فضيق على جماعة منهم مثل ابن كريان أخذه وحبسه مع بعض وزرائه فهرب مع وزيره من الحبس ومضى إلى تيمور لنك وهرب أيضا ابن مقتشا منه وحلق لحيته وحواجبه وصار فى صورة قلندرى وذهب إلى تيمور وكذلك ابن ايدين هرب فى صورة سقطى يباع الخرزات وكذلك ابن اسفنديار وغيرهم من أمراء تلك الديار وملوكها وصلوا إلى تمرلنك وشكوا من السلطان بايزيد خان وحسنوا له أن يصل إلى بلاد الروم فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية وقتل فيها وفتك وسفك الدماء وعاث فيها وأخذ تلك البلاد وأسر أهلها ونهب المسلمين

وشرح ما فعله فى بلاد الإسلام يطول جدا وذلك مذكور فى تاريخ الإسلام للذهبى وغيره واستمر تيمور يفسد فى الأرض ويقتل ويسفك الدماء إلى أن وصل إلى أذربيجان وخرج السلطان بايزيد لقتاله وجمع عسكر الروم ولما التقى الفئتان هرب من عساكر منتشا وعسكر كرمان وتركوا السلطان بايزيد خان وذهبوا إلى تيمور ووقع الحرب الشديد وقتل من أولاد السلطان بايزيد السلطان مصطفى فشرع عسكره فى الانهزام وثبت هو وقليل من معه واستمر يقاتل إلى أن وصل إلى تيمور بسيفه المشهور يقاتل بنفسه إلى أن وصل إلى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه وحبسوه فحصل له حمى عصبية فتوفى إلى رحمه الله تعالى فى سنة خمس وثمانمائة .

وتسلطن بعده أولادة وهم عيسى وموسى وسليمان وقاسم وصار بينهم النزاع والقتال نحو اثنتى عشرة عشرة سنة إلى أن استقل بالسلطنة .

(السلطان محمد خان ابن السلطان يلدرم بايزيد خان)

وفى سنة ستة عشر وثمانمائة ومولده فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستقل بالسلطنة وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وعاش ثمانية وخمسين عاما وكان شجاعا مقداما مجاهدا فى سبيل الله افتتح عدة قلاع وبلاد وبذل نفسه فى الغزو والجهاد ومهدها أعظم مهاد ومما افتتحه قلعة قسطمونية وقلعة أسكب وقلعة صامسون وقلعة آق شهر وغيرها وظهر فى أيامه بدر الدين بن سماونة وأدعى السلطنة وجمع جمعا من مرتديه فأرسل السلطان محمد خان عسكر القتاله فقتل من مريديه نحو ثلاثة آلاف نفر ومسك بدر الدين بن سماونه وكان يرمى بسوء الاعتقاد وله وسائل فى شىء من ذلك وقد جمع بين الأصول الاشتروشية والفصول العمادية جمعا ضيق فيه العبارة وأخفى الاشارة وهو متداخل بين العلماء لا يؤخذ إلا بأصله وأما هو فلا يوثق بنقله لما يحكى عنه من انحلال العقيدة ان صح ذلك عنه وله فى النفقة متن سماه لطائف الاشارات وشرحه سماه التسهيل وله فى التصوف رسالة الواردات ورسالة مسرة القلوب ولما مسك قتل بافتاء مولانا حيدر العجمى فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة وصلب وسكنت الفتنة .

Marfat.com

ثم خرج عليه محمد بن قرمان وأحرق بورسافجاء السلطان محمد خان من بلاد روملى ووصل قوينة ووقع بينه وبين محمد بك قرمان حرب عظيم مشهور انهزم فيه عسكر بن قرمان ومسك محمد بن قرمان وولده مصطفى وأتى بهما أسيرين إلى السلطان محمد خان فعاتبهما وعفا عنهما وتصدق عليهما بمملكتهما والسلطان محمد مدارس وعمائر وأفعال خير وهو أول من عمل الصر لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان رحمهم الله تعالى فلما تم أجله فى أم الكتاب أراد الله نقله إلى جنة المآب ودعاء من ملك الفناء إلى البقاء المستطاب فعاش سعيدا ومضى حميدا وتحول من دار الفناء إلى دار البقاء وإن إلى ربك الرجعى وكانت وفاته بمرض الاسهال فتكون مرتبة الشهادة أيضا وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة رحمه الله تعالى .

(وولى بعده السلطان مرادخان بن محمد خان بن يلدرم بايزيدخان) . مولده فى سنة ست وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ثمانية عشر عاما ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة وعمره تسع وخمسون سنة وكان ملكا مطاعا مقداما فاتكا شجاعا بذولا واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهب الشرفاء السادات من خزينته فى كل عام مثل فتح الفتوحات ولين الجموحات ومهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين وأعز الاسلام والمسلمين .

ومن جملة ماافتتحه بلاد سمندره وقلعة موره وقاتل كرال أنكروس وكسرهم وأسر منهم خلقا كثيراً واستمر يجاهد الكفار ويفتتح الديار إلى أن انتشا له ولده السلطان محمد فرأى نجابته ولمح فى غرته سعادته وعرف اقباله وشهامته وأجلسه على سرير السلطنة واختار لنفسه التقاعد والفراغ فى مغنيسا بحسن رضاه .

(فتولى السلطان محمد بن مرادخان فى سنة ست وخمسين وثمانمائة)

مولده فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة وجلس على التخت وقد استكمل عشرين سنة وكانت مدة سطنته احدى وثلاثين سنة وكان من أعاظم سلاطين آل عثمان وهو الملك الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم أقداما واجتهاداً وأثبتهم جأشا وأقواهم فؤادا وأكثرهم توكلا على الله واعتماداً وهو

الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق فى أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار لا تمحوها تعاقب السنين والأعوام وغزوات كسر بها أضلاب الصلبان والأصنام (ومن أعظمها أنه (وافتتح القسطنطينية الكبرى وساق لها السفن تجرى رخاء برآ وبحراً

وهجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوما أشد الحصار وضيق على من فيها من الكفار والفجار وسل على من فيها سيف الله المسلول وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع بابا ولج ولج وثبت على متن الصبر إلى أن آتاه الله بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح اسطنبول فى اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى فى أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهى أيا صوفية وهى قبة تسامى قبة السماء وتحاكى فى الاستحكام قباب الأهرام وماوهت ولا وهنت كبراً ولا هرما كأن أبراجها أبراج الأفلاك ومسامير أبوابها نجوم السماك مزق منها جلابيب الصلبان والأصنام وخلع عليها خلع المساجد الإسلام وأيدها الله تعالى عن الظلمات نوراً وكساها بنور الإسلام شرفاً وعزاً وحبوراً لازالت محلا للصلاة والعبادة والاعتكاف مقر الاستقرار قلوب العلماء والأصفياء والزهاد فيها والعرف مستقر السلاطين آل عثمان أهل المعدلة والإنصاف أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وقد أسس المرحوم المقدس فى اصطنبول للعلم أساساً راسخاً لايخشى على شمسه الاقول وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول وترغب فى طلب العلم الشريف وتكسوا الطالبين حلل القبول بعد الخمول فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكثر ثواب فإنه جعل لهم فى أيام الطلب ما يسد به فاقتهم وجعل لهم بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتياد عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوصلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى وانه رحمه الله استجلب العلماء الكبار من أقاصى الديار وأنعم عليهم وعطف بإحسانه العام إليهم كمولانا على القوشجى والفاضل الطوسى والعالم

الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت اصطنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الاسلام وأهل حرفها أدق الفطناء فى الأنام وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام لاسيما العلماء الأكرمين قلدها فى أجيادهم هى باقية إلى يوم الدين ولو ذكرت مناقبه وعددت مآثره لشحنت بها مجلدات أسكنه الله فسيح الجنات وأنزل على قبره شآبيب الرحمة والبركات وكانت وفاته سنة ست وثمانين وثمانمائة .

(ثم ولى الملك السعيد السلطان بايزيدخان الغازى) ومولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وجلس على تخت الملك فى ثامن عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة وعمره إذ ذاك ثلاثون عاما وعمر اثنين وستين عاما وهو من أعيان السلاطين العظماء تفرع من شجرة زكية طيبة أصلها ثابت وفروعها فى السماء وتحدر من سلالة الملوك الأكابر وورث سرير السلطنة كابراً عن كابر وتزينت باسمه رؤس المنائر وترشحت بذكره صدور المنابر وامتلأت بمدائح أوصافه بطون الصحف والدفاتر وافتتح الفتوحات وغزا فى سبيل الله أعظم الغزوات .

فما افتتحه قلعة ملوان وقلعة كوكلك وقلعة آق كرمان فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وقاتله أخوه السلطان جم فبرز السلطان بايزيد لقتاله وتقاتلا فانهزم السلطان جم وفر إلى مصر وحج فى زمن السلطان قايتباى وعاد وأكرمه السلطان قايتباى إكراما زائداً فذهب إلى ورسق وجمع طائفة من الغواة ونازع أخاه على الملك فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانياً وفر إلى بلاد النصارى فى سنة سبع وثمانين وثمانمائة فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده فى صورة حلاق مجهول فلما رآه السلطان جم تأنس به وسأله عن صنعته فقال حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموسى مسموم وهرب فى الحال وأثر السم فى رأسه وسرى إلى بدنه فمات إلى رحمة الله تعالى وله أشعار لطيفة بلسان التركى .

ومما افتتحه السلطان بايزيد من القلاع العظيمة والحصون المحكمة القديمة قلعة منون وقلعة قرون وغير ذلك من القلاع والحصون وظهر فى أيامه فى بلاد العجم شاه اسماعيل ابن الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد الصوفى فى سنة خمس وتسعمائة وكان الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد الصوفى له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من

Marfat.com

الأعاجيب فتك فى البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والالحاد وغير اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأخرب بلاد العجم وأزال من أهلها حسن الاعتقاد والله يفعل فى ملكه ما أراد وتلك الفتنة باقية فى تلك البلاد وشرح ذلك يحتاج إلى تاريخ مستقل ولا أعلم أحدا تعرض له من العلماء الأمجاد .

وظهر من اتباع شاه اسماعيل المذكور فى بلاد الروم شخص ملحد زنديق يقال له شيطان قولى أهلك الحرث والنسل و عم بالفساد والقتل وتبعه غواة لاتحصى وقويت شوكته وعظمت به فى ذلك القطر الفتنة فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى وأيده بجيش عظيم لقطع جادرة هذا الطاغى فاستشهد على باشا فى ذلك القتال وانكسر شيطان قولى المفسد التعيس وعسكره من جنود ابليس وقتل مع طائفه من أعوان الأباليس وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما طمت وكفى الله شر أولئك الأشرار بعد ما عظمت فتنتهم وعمت وذلك فى سنة خمس عشرة وتسعمائة .

وكان السلطان بايزيد رحمه الله وجعل الجنة مثواه من المجاهدين فى سبيل الله الذين لا يزالون على الحق ظاهرين على من ناوأهم منصورين على من شق عليهم العصا وعاداهم يجاهدون لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فما زال غازيا فى سبيل الله مظفراً منصوراً على أعداء الله إلى أن صارت بيضة الإسلام بسيوفه محمية محفوظة وحركاته وسكناته بعين عناية الله وإعانته منظورة ملحوظة فكانت أيامه من أحسن الأيام وأكثرها أمنا وراحة وجمع قلب للانام وكانت به كلمة الإسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وتولى الله على يديه أعزاز دينه وإذلال طواغيت الشرك وشياطينه وكان مع ذلك محبا لفعل الخيرات مثابرا على بذل الاطعام والصدقات دخل الخلوة فأجلس أربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ودخل معه الخلوة مولانا والد أبى السعود أفندى المفتى المفسر رحمه الله تعالى وبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكايا والزوايا والخاناقاهات ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتى الأعظم ومن فى رتبته من العلماء

العظام فى زمنه كل عام عشرة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرسى اليمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد خان فى كل عام سبعة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرسى شرح التحرير ألفى عثمانى وكذلك رتب لمشايخ أهل الطريق من الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته وصار قانونا جاريا بعده مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم احسانا كبيرا ورتب لهم الصرفى كل عام وكان يجهز لقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشرة ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها على المدينة وكانوا يستعينون بها ويرتفقون بها ويدعون له وإذا ورد عليه من أهل الحرمين الشريفين أحد ينعم عليه ويحسن إليه ويرجع من عنده بصلاة عظيمة ومواهب جليلة وممن ورد عليه فى شبابه خطيب مكة المرحوم الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى والشيخ شهاب الدين بن الحسين العليف شاعر البطحاء وفاضلها ونالا منه خيرا كثيرا وصنف العليف تاريخا سماه الدر المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد خان ملك الروم لا يخلو من فوائد لطيفة .

ومما نظمه الشهاب العليف فى مدحه رحمهما الله تعالى من قصيدة رائية طنانة مطلعها :

خذوا من ثنائى موجب الحمد والشكر ومن در لفظى طيب النظم والنثر

(ومنها)

فيارا كبا يسرى على ظهر ضامر إلى الروم يهدى نحوها طيب البشر
لك الخير ان وافيت برصى فسر بها رويداً لاصطنبول سامية الذكر
له املك لا يبلغ الوصف كنهه شريف المساعى نافذ النهى والأمر
إلى بايزيد الخير والملك الذى حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمر
وجرد للدين الحنيفى صارما أباد به جمع الطواغيت والكفر
وجاهدهم فى الله حق جهاده رجاء لما يبغى من الفوز بالأجر
له هيبة تملأ الصدور وصولة مقسمة بين المخافة والذعر
أطاع له ما بين روم وفارس ودان له ما بين برصى إلى مصر

Marfat.com

هو البحر إلا أنه دائم العطا وذلك لا يخلو من المد والجزر
هو البدر إلا أنه كامل الضيا وذاك حليف النقص فى معظم الشهر
هو الغيث إلا أن للغيث مسكة وذا لا يزال الدهر ينهل بالقطر
هو السيف إلا أن للسيف نبوة وقالا وذا ماضى العزيمة فى الأمر
سليل بنى عثمان والسادة الأولى علا بمجدهم فوق السماكين والنسر
ملوك كرام الأصل طابت فروعهم وهل ينسب الدينار إلا إلى التبر
محوا أثر الكفار بالسيف فاغتدت بهم حوزة الاسلام سامية القدر
فيا ملكا فاق الملوك مكارما فكل إلى أدنى مكارمه يجرى
لئن فقتهم فى رتبة الملك والعلا فان الليالى بعضها ليلة القدر
فدتك ملوك الأرض طرا لأنها سرار وأنت البدر فى غرة الشهر
تعاليت عنهم رفعة ومكانة وذانا وأوصافا تجل عن الحصر
لك الغرة القعساء والرتبة التى قواعدها تسمو على منكب النسر
سموت علوا إذ دنوت تواضعا وقمت بحق الله فى السر والجهر
غدت بك أهل الروم تزهو ملاحة وترفل فى ثوب الجلالة والفخر
ألست ابن عثمان الذى سار ذكره مسير ضياء الشمس فى البر والبحر
يمينك تروى عن يسار ونائل ووجهك يروى فى البشاشة عن بشر
وإنى لصوان لدر قلائدى عن المدح إلا فيك يا ملك العصر
فقابل رعاك الله شكرى بمثله فانك للمعروف من أكرم الزخر
فلا زلت محروس الجناب مؤيدا من الله بالتوفيق والعز والنصر

ويحكى أن القصيدة لما وصلت إليه فرح بها كثيرا وأمر لصاحبها أحمد العليف بألف دينار ذهبا جائزة ورتب له فى دفتر الصرفى كل عام مائة دينار ذهبا تصل إليه فى كل عام وصارت بعده إلى أولاده.

وكان للمرحوم السلطان عدة أولاد صاروا ملوكا وصار لأولادهم أولاد فمنهم السلطان جهان شاه والسلطان أحمد والسلطان قورقند والسلطان سليم والسلطان محمود والسلطان عبد الله والسلطان علم شاه وكان أنجبهم وأمجدهم وأعزهم وأسعدهم

Marfat.com

وأكملهم وأرشدهم السلطان سليم شاه وكلهم أعلام الهدى ومصابيح الدجا ونجوم لرجوم شياطين العدا نشأوا فى مهد السلطنة وحجرها ونموا ما بين سحرها ونحرها من شجرة طاب عودها واعتدل عمودها ولا غرو أن يجود الجواد كأصله وتلوح مخايل الليث على شبله والولد سر أبيه فى فضله ونبله وكل شىء فى الحقيقة يرجع إلى أصله .

ملوك بنى عثمان من كان أصلهم كرام لهم فى المكرمات مفاخر
اذا ولد المولود منهم تهللت له الأرض واهتزت اليه المنابر

ولما ترعرعوا وبرعوا أخرجهم والدهم الى السناجق العالية فى بلاد الروم وأنعم عليهم بالولايات العظام وحفظ بهم ملك الاسلام وقلدهم الأمور الجسام فجعل لأكبر أولاده السلطان أحمد مملكة أماسيه وما والاها وكان يتوقع منه أن يكون ولى عهده ويأبى الله إلا ما أراد أنعم على السلطان جهان شاه بمملكة قرمان وأعمالها وولى السلطان قورقند مملكة منتشا وتوابعها وجعل للسلطان سليم مملكة طوابزون وهو الذى جرى حلبة السعادة فبسق وسبق فى علم الله تعالى سلطنته فكان أولى من الجميع وأحق وأعطى السلطان محمد مملكة الكفار وما يليه من بلاد التتار وكلهم ملوك أبرار وسلاطين كبار .

من تلق منهم فقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يهدى بها السارى

وأسعد الله جهان شاه ومحمد وأحمد بالوفاء فى حياة والدهم وكفاهم الله تعالى القتل والقتال وصار حال ما عدا السلطان سليم إلى ماحال رحم الله تعالى جميع أولئك الأبطال وعوضهم عن سلطنة هذه الدار جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وكان والده السلطان بايزيد خان استولى عليه مرض النقرس وهو أكثر مرض آل عثمان رحمهم الله تعالى فضعف عن الحركة وترك السفر سنين متعددة فصار العسكر لبطرهم وكثرة راحتهم وسكونهم يطلبون سلطانا شابا قوى الحركة كثير الأسفار ليجاهد بهم فى سبيل الله تعالى ويغنمون من الكفار غنائم ورأو أن السلطان سليم خان أجلد من سائر إخوانه وأقوى على ذلك لقوة جنانه وعلو

Marfat.com

شأنه فمالوا إليه ومال إليهم وتوجه بالعطف والحنوّ عليهم وخرج على والده محاربا وركب عليه مقاتلا ومغاضبا فقاتله أبوه فهزمة وولى هاربا ثم عطف على والده ثانيا لما رأى ميل العسكر إليه واختيارهم له على والده واجتماعهم عليه ورأى السلطان بايزيد توجه أركان الدولة والعسكر إلى السلطان سليم وأشار عليه وزرائه أن يفرغ عن السلطنة للسلطان سليم بقلب سليم ويختار التقاعد فى أدرنه فى عز وتعظيم وأبرموا عليه فى ذلك فما رآى بدا فى اجابتهم إلى ما سألوا وموافقهم إلى ما طلبوا وأملوا فطلبوه إلى حضوره وعهد إليه السلطان بالسلطنة وسلم اليه التخت وتوجه مع خدامه الخواص الى أدرنة فلما وصل إلى قرية جورلو انكسر زجاج مزاجه وعجز الأطباء فى علاجه وسقاه ساقى الحمام كأس أجله المحتوم فسلم إلى قابض الأرواح روحه المرحوم وأقدم على الله تعالى الحى القيوم ورزق مرتبة الشهادة ونال بها أعلى درجات العبادة وانتقل من الملك الزائل الفانى إلى الملك الدائم الباقى وكان ذلك فى سنة ثمان عشرة وتسعمائة .

وولى موضعه السلطان الأعظم السلطان سليم خان كاسر سلطان العجم وفاتح أقليم مصر وسائر ممالك العرب طيب الله ثراه وجعل الفردوس الأعلى محله ومأواه .

مولده فى أماسيه سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمر ست وأربعون سنة وكانت مدة سلطنته تسع سنين وكان عمره جميعا أربعا وخمسين سنة لم يعمر أكثر من ذلك ولم تطل مدة سلطنته لأنه كان كثير القتل وهذه عادة الله فى السلاطين والأمراء والحكام إذا أكثروا سفك الدماء وكان سلطانا قهارا ملكا جبارا كثير السفك قوى البطش عظيم الفتك كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه إلى أهل النجدة والناس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفا بمسارب الطرق والمسالك وكان يغير زيه ولباسه ويتجسس بالليل والنهار ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار وله عدة مصاحبين يدورون حول القلعه وفى الأسواق وفى الجمعيات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروا له فى مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى ما يسمع بعد الوثوق منهم وقد أدركت جماعة منهم من مصاحبة المذكورين وسمعت حسن مصاحبة السلطان سليم المرحوم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه ودقة

Marfat.com

فهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه فى اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين ورأيت بيتين بالعربى بخطه الشريف كتبهما فى علو المقياس فى الكوشك الذى أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة قد انمحى لطول الزمان مداده ومال إلى لون البياض سواده وكان هذا الكوشك محترما مقفلا لايصل إليه أحد لعظمة بانيه ولا يتبذل بالدخول اليه لعظمة راعيه فدخلت إلى مصر فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكان يوم كسر النيل السعيد ففتحوا هذا الكوشك لبكاريكى مصر يومئذ خسرو باشا وكنت مصاحبا لمعلم مولانا عبد الكريم العجمى فطلع وأطلعنى معه فى صحبته خسرو باشا المذكور فرأيت على الرخام الأبيض كتابة خفية لاتكاد تظهر الا بتأمل هذين البيتين :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قسرا ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وكتبه سليم بذلك الخط والقلم ولعمرى ان كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعه ونهاية فى التمكن من الصناعة فيدل على تمكنه رحمه الله فى اللسان العربى أيضا لأنها من أعلى طبقات الشعر العربى البليغ المنسجم وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه أيضا مرتبة علية فى حسن التمثيل وحسن الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه لها وهذا القدر يستكثر على علماء الروم وعلماء العجم المكبين على علوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها والفائقون فى ذوق الشعر العربى وحسن آدابه من العلماء والموالى فى غاية القلة معدودين منهم ولا يعد هذا نقصا فيهم لأن فهم الشعر العربى على وجهه كما ينبغى قليل أيضا فى علماء العرب إلا من توغل منهم فى علم الأدب وتعب فى تحصيله وداب .

وقد كانوا إذا عدوا قليلا وقد صاروا أقل من القليل

(ثم لما استولى) السلطان سليم خان على سرير السلطنة وفرغ من دفن والده وتوجه إلى قتال أخيه السلطان أحمد ففر لهيبة السلطان سليم عسكر أحمد وبقى فى عدد

Marfat.com

قليل فأخذ أسيرا وأتى به إلى السلطان سليم فأمر بخنقه فخنق بوتر فى تاسع صفر سنة تسع عشرة وتسعمائة .

ثم فر السلطان قورقند إلى كهف جبل وأراد التسحب منه إلى مكان سحيق فعرف مكانه فسك وجيء به اليه فخنق وكذلك بالسلطان محمد بن السلطان شهنشاه والسلطان عثمان بن السلطان علمشاه والسلطان مصطفى والسلطان أورخان والسلطان سليمان أولاد السلطان محمود وسبعة أولاد كلهم رضع فى المهد خنقهم فى ليلة واحدة فى بورسا فكانت ليلة ملئت البلاد بكاء وعويلا وصراخا أعظم من صراخ الثكلى ومأنما طويلا بكت فيها حتى الحجارة تتفجر منها مدامع الأنهار وتشقق ثيابها حتى كمائم الأزهار ولطم الخدود حتى انشقت ألوان أحمر ثم اسود ولبس حتى الليل ثياب الحداد وتعمم بالأسود وكان أمر الله قدرا مقدورا وسيف القنابيد القضاء ماضياً مشهوراً .

فلا المعزى بباق بعد ميته ولا المعزى ولو عاشا إلى حين

(فلما استقر) للسلطان سليم الملك وهيهات أين الاستقرار وثبت على تخت السلطنة وانى له بالثبات والقرار شرع فى قهر الملوك وأخذ الممالك والاستيلاء على الأقاليم والبلدان والمسالك فبدأ بقتال شاه اسماعيل ابن الشيخ حيدر الصوفى كما سنذكره مجملا من ذلك فى هذا الفصل الثانى فانى ماظفرت بكتاب فيه تفصيل ذلك وإنما تلقيته من أفواه الرجال وأخبرنى ثقة من أعيان كتبة الديوان الشريف على أن السلطان بايزيد رحمه الله تعالى حذره منجم حاذق من أهل عصره وان هلاكه يكون على يد ولد يولد له بعد ما ولد له عدة أولاد وكان تحذيره له قبل أن يولد السلطان سليم فطلب امرأة معتمدة عنده بيدها جواريه الموطوءات وهى قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات الخيرات الدينات فقال لها إذا وضعت إحدى الجوارى بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا وإذا وضعت أنثى اتركيها تعيش مع بناتى وأكد عليها فى ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك إلى أن ولدت السلطان سليم والدته فرأته صبيا فحزنت عليه وتناولته القابلة لتخنقه فرأت صورة جميله فرقت وقالت بأى وجه ألقى الله تعالى فى قتل هـذا الطفل المعصوم والله لاأقدم

Marfat.com

على قتله وقالت بايزيد قد حصل له بنت جميلة حسنة الصوره فلما أخبر بذلك سماها سليمة واستمر على ذلك والحال مكتوم لايعلم غير الله تعالى والقابلة والأم وصار كلما ظهر وانتشأ ظهر عليه سيما العلبة والقهر وإذا اجتمعت البنات وجلس بينهن لطم من إلى جانبه وضرب ونهب ماوجد بأيديهن من ملعوبات الأطفال وكانوا يحذرون منه فدخل السلطان بايزيد فى يوم عيد إلى داخل السرايا وأمر بالمكان سليم فزين واستدعى كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وأحضر بينهن السلطان واسمه سليمة فشرع فى مداعبته على عادته وخطف ما بين أيديهن من الحلوى والفواكه ووضع الكل بين يدى نفسه والكل خائفات منه هائبات له فتعجب بايزيد لذلك وصار يتأمله جدا وفى أثناء ذلك دار حولهم يعسوب كبير أراد وأمسكه فعجزوا عنه وهو يلسع من يريد مسكه فيهربون منه فمد السلطان سليم يده اليه وهو طائر حوله فصاده بكفه ومرسه وخبصه ورماه من يده فتعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات هذا لا يكون بنتا اكشفوا لى عنه فبادرت القابلة وقالت نعم هذا صبي وليس ببنت فقال لها وكيف خالفتى أمرى وما قتلتيه فقالت خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتى من قتل معصوم لا ذنب له فتفكر طويلا ثم قال ما قدر الله فهو كائن لامفر عنه وأمر بالكف عنه وتربيته إلى أن كان ما كان بتقدير الله تعالى .

الفصل الثانى

فى قتال شاه اسماعيل وانهزامه

هو شاه اسمعيل ابن الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد بن الشيخ ابراهيم خواجا على ابن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفى الدين بن اسحق الاردبيلى واليه تنسب الأولاد فيقال لهم الصوفيون وكان الشيخ صفى الدين صاحب زاوية فى أردبيل وله سلسلة فى المشايخ أخذ عن الشيخ زاهد الكيلانى وتنتهى بوسائط إلى الأمام

Marfat.com

أحمد الغزالى وتوفى الشيخ صفى الدين فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وهو أول من ظهر منهم بطريق المشيخة والتصوف وأول من اختار مسكن اردبيل وبعد موته جلس فى مكانه الشيخ صدر الدين موسى وكانت السلاطين تعتقد فيه وتزوره وممن زاره والتمس بركته تيمور لما عاد من الروم وسأله أن يطلب منه شيئاً فقال أطلب منك أن تطلق كل من أخذته من بلاد الروم سركنا فأجابه إلى سؤاله وأطلق السركن جميعهم فصار أهل الروم يعتقدون الشيخ صدر الدين وجميع المشايخ الاردبليين من ذريته إلى الآن وحج والده السلطان خواجا على وزار النبى صلى الله عليه وسلم وتوجه إلى زيارة بيت المقدس وتوفى هنـــاك وقبره معروف فى بيت المقدس .

وكان مما يعتقده ميرزا شاه رخ بن تيمور ويعظمه فلما جلس الشيخ جنيد مكان والده فى الزاوية بأردبيل كثر مريدوه واتباعه فى أردبيل فتوهم منه صاحب اذربيجان يومئذ وهو السلطان جهان شاه قرا يوسف التركمانى من طائفة قراقونيلو فأخرجهم من أردبيل فتوجه الشيخ جنيد مع بعض مريديه إلى ديار بكر وتفرق عنه الباقون وكان من أمراء ديار بكر يومئذ عثمان بك بن على بك من طائفة آق قونيلو جد أوزن حسن بك البانيدرى وهو أول من تسلطن من طائفة آق قونيلو وجد أوزن حسن بك وولى سنة وأخذوا ملك فارس من طائفة قراقونيلو وآخر سلاطينهم قرا يوسف بن قرا محمد التركمانى ومدة سلطنتهم ثلاث وستون سنة وانقرض ملكهم على يد أوزن حسن بك المذكور فى شوال سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة .

وكان أوزون حسن بك ملكا شجاعا مقداما مطاعا مظفرا فى حروبه ميمونا فى نزوله وركوبه إلا أنه وقع بينه وبين السلطان محمد بن السلطان مراد خان حرب عظيم فى بابيرت فانكسر أوزن حسن بك وقتل ولده زنبل بك وهرب هو وسلم من القتل وعاد إلى أذربيجان وملك فارس العراقين ولما التجأ الشيخ جنيد إلى طائفة آق قونيلو صاهره أوزن حسن بك وزوجه بنته خديجه بيكم فولدت له الشيخ جنيد ولما استولى أوزن حسن على البلاد وطرد عنها ملوك قوقونيلو وأضعفهم عاد الشيخ

Marfat.com

جنيد مع ولده الشيخ حيدر إلى أردبيل وكثر مريدوه وأتباعه وتقوى بأوزن حسن بك لأنه صهره فلما توفى حسن بك ولى موضعه السلطان خليل ستة أشهر ثم ولده الثانى السلطان يعقوب فزوج بنته حليمة بيكم من الشيخ حيدر فولدت له شاه إسماعيل فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وكان على يديه هلاك ملوك العجم طائفة آق قونيلو وقراقونيلوا وغيرهم من سلاطين العجم كما هو معروف مشهور .

وكان الشيخ جنيد جمع طائفة من مريديه وقصد قتال كرجستان ليكون من المجاهدين فى سبيل الله فتوهم منه سلطان سرنيوان فخرج إلى قتاله فانكسر الشيخ جنيد وقتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على الشيخ حيدر وحسنوا له الجهاد والغزاة فى حدود كرجستان وجعلوا لهم رماحا من أعواد الشجر وركبوا فى كل عود سنانا من حديد وتسلحوا بذلك وألبسهم الشيخ حيدر تاجا أحمر من الجوخ فسماهم الناس قزلباش وهو أول من ألبس الناس التاج الأحمر لأتباعه واجتمع عليها خلق كثير فارسل شروان شاه إلى السلطان يعقوب بن أوزن حسن يخوفه من خروج حيدر على هذه الصفة فارسل أمير من أمرائه اسمه سليمان بأربعة آلاف نفر من العسكر وأمره أن يمنعهم من هذه الجمعية فما أطاعه فاتفق مع شروان شاه فقتلاه ومن معه فقتل الشيخ حيدر وأسروا ولده شاه إسماعيل وهو طفل وأسر معه إخوته وجماعته وجاء بهم سليمان بك السلطان يعقوب فأرسل بهم إلى قاسم بك الغرناك وكان حاكم شيراز من قبل السلطان يعقوب وأمره أن يحبسهم فى قلعة اصطخر فحبسهم بها واستمروا إلى أن توفى السلطان يعقوب فى سنة ست وسبعين وثمانمائة .

(وولى بعده السلطان رستم) ونازعه فى السلطنة اخوته وتفرقت المملكة واستقل فى كل قطر واحد من أولاد السلطان يعقوب ثم توفى السلطان رستم .

(وولى مكانه السلطان مراد بن يعقوب) والوند بك بن عمه وكان شاه إسماعيل فى لاهجان فى بيت صائغ فى بيت يقال له نجم زركر وبلاد لاهجان فيها كثير من الفرق الضالة كالرافضة والحرورية والمزيدية وغيرهم فتعلم منهم شاه إسماعيل فى صغره مذهب الرفض فان أباه كان شعارهم مذهب السنة السنية وكانوا مطيعين

Marfat.com

منقادين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يظهر الرفض غير شاه إسماعيل وتطلبه من أمراء الوند بيك جماعة وطلبوه من سلطان لاهجان فأبى أن يسلمه لهم وأنكر وحلف لهم أنه ماهو عندى وورى فى يمينه وكان مختفيا فى بيت نجم زركر وكان يأتيه مريدور ووالده خفية ويعتقدون فيه ويطوفون بالبيت الذى هو ساكن فيه إلى أن أراد الله بما أراد وكثرت داعية الفساد واختلت أحوال البلاد باختلاف السلاطين وكثرة المضاد بين العباد لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وحينئذ كثر اتباع شاه إسماعيل فخرج هو ومن معه من لاهجان وأظهر الخروج لثأر والده وجده فى أواخر سنة خمس وتسعمائة وعمره يومئذ ثلاثة عشر سنة وقصد مملكة سروان لقتال شروان شاه قاتل أبيه وجده وكلما سار منزلا كثر عليه داعية الفساد واجتمع عليه عسكر كثير إلى أن وصل إلى بلاد شروان فخرج لمقاتلته فانكسر عسكره وأتوا به شاه إسماعيل أسيرا فأمر أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمروا وأكلوه.

وكان ذلك أول فتوحاته ثم توجه إلى قتال الوندبيك فقاتله وانهزم منه واستولى على خزائنه وقسمها فى عسكره وصار يقتل من ظفر به قتلا ذريعا ولا يمسك شيئا من الخزائن بل يفرقها فى الحال ثم قاتل مراد بك ابن السلطان يعقوب فهزمه وأخذ خزائنه وفرقها على عسكره ثم صار لا يتوجه إلى بلاد إلا يفتتحها ويقتل جميع من فيها وينهب جميع أموالهم ويفرقها إلى أن ملك تبريز واذربيجان وبغداد وعراق العرب وعراق العجم وخراسان وكاد أن يدعى الربوبية وكان له عسكر يأتمرون بأمره وقتل خلقا لا يحصون ينوف على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد فى الإسلام ولا فى الجاهلية ولا فى الأمم السابقة من قتل من النفوس ماقتله إسماعيل شاه وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق أحدا من أهل العلم فى بلاد العجم وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم لأنها ومصاحف أهل السنة وكلما مر بقبور المشايخ نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها وإذا قتل أميرا من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر.

(ومن جملة مضحكاته) أنه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخى والسماط والكيلار والأوطاق الفرش الحرير ونحو

Marfat.com

ذلك وجعل له سلاسل الذهب ومرتبة ومسندا يجلس عليه كالأمراء وسقط منديل من يده إلى البحر وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فرمى نفسه خلف المنديل من عسكره فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وتفرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية وأنه لا ينكسر ولا ينهزم إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة .

فلما وصلت أخباره إلى السلطان سليم خان تحركت فيه قوة العصبية الغضبية وأقدم على نصر السنة الشريفة السنية وعد هذا القتال من أعظم الجهاد وقصد أن يمحو من العالم هذه الفتنة وهذا الفساد وينصر مذهب أهل السنة الحنيفية على مذهب أهل البدع والالحاد ويأبى الله إلا ما اراده فتهيأ السلطان بخيله ورجله وعساكره المنصورة ورحله وتهيأ لقتاله وأقدم على جلاده وجداله وهو يجر بخميس العرمرم ويصول بسيف عزمه ويقدم ويتقدم إلى أن تلاقى العسكران فى قرب ورتب السلطان عسكره ونزل من عند الله النصر القريب والفتح العزيز فتجالد الفريقان وتطارد الفرسان وتعانق الشجعان يهدرون كالبخاتى الفوالج فوق البحور الموائج وتصادمت فرسان الزحف والصيال وتصادم أطواد الجبال وصارت نجوم الأبطال رجوم البطش والقتال فزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وخيلت المعركة سماء غمامها القسطل وصواعقها بروق البيض من بريق الصيقل ورعودها صليل السيوف فى أعناق الجحفل وغيوثها صبيب الدم من أوداج رؤس تحز وتفصل وأحجار المدافع كجلمود صخر حطه السيل من عل إلى أن طارت قلوب الأعداء هوا وذهبت قواهم هبا وولوا على أدبارهم أدبار وانهزم شاه إسماعيل وولى فرار ولم يجد من دون الله أنصارا وضاقت الأرض حتى أن هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا وقتل فالب جنوده وأمرائه وساقت العساكر المنصورة العثمانية من ورائه وكادوا أن يقبضوا عليه فقر من بين أيديهم وهم ينظرون اليه وترك ما تخوله فى مخيمه من أثاث نجلائه وكان لا نظير له فاغتنمه عسكر السلطان سليم ووطئت حوافر خيله أرض تبريز فنهى فيها وأمر وقتل من أراد وأسر وأعطى الرعية تمام الأمن والأمان ونشر فيها أعلام أهل الايمان وأخذ من أراد منها من الأفاضل المتميزين فى الصنائع والفضائل والشعراء الأماثل وساقهم سركنا

إلى اصطنبول على القانون وأرادأن يقيم فى تبريز للاستيلاء على اقليم العجم والتمكن من تلك البلاد على الوجه الأتم فما أمكنه ذلك لكثرة القحط واستيلاء الغلاء بحيث بيعت العليقة بمائتى درهم وسبب ذلك أن القوافل التى كان أعدها السلطان سليم تتبعه بالميرة والعليق والمؤن تخلفت عنه فى محل الاحتياج إليها وما وجدوا فى تبريز شيئامن المأكولات والحبوب لأن شاه إسماعيل أمر بإحراق أجران الحب والشعير وغير ذلك واضطر السلطان سليم إلى العود من تبريز إلى بلاد الروم وتركها خالية خاوية على عروشها ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل عنه فأخبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغورى فانه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات بحيث أنه كان السلطان الغورى يتهم بالرفض فى عقيدته بسبب ذلك فلما ظهر للسلطان سليم خان أنَ الغورى هو الذى أمر بقطع القوافل عنه صمم على قتال السلطان الغورى أولا وبعد الاستيلاء عليه وعلى بلاده يتوجه إلى قتال شاه إسماعيل ثانيا.

فلما استقر علية ركاب السلطنة الشريفة العثمانية فى تخت ملكها الشريف تهيأ لأخذ مصر وازالة دولة الجراكسة وتوجه بعسكره الجرار إلى ناحية حلب فى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وخرج الى قتال قانصوه الغورى بجميع عساكره من الجراكسة وغيرهم وتلاقى العسكران بقرب حلب فى مرج دابوم.

وكان الغورى يتوهم ويخاف على نفسه من ملك الأمراء خير بك ومن جان بردى بك الغزالى وكانا يكرهانه فى الباطن ويكرههما كذلك فأمرهما أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما وعسكرهما حجابا أمامه ووقف الغورى بخواص عسكره الذى يعتمد عليه من الجلبان الذين أراد أن يقدمهم خلف خير بك والغزالى وقصد بذلك أن يقتلا بالبنادق والضربزن فى أول مرة ثم يسلم هو ومن معه وتفطن خير بك والغزالى لذلك وكانا أرسلا الى السلطان سليم وطلبا منه الأمان وتوثقا منه أن لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما فارسل السلطان سليم لهما بالأمان وعهد لهما بما يطيب من خاطرهما وأن يوليهما مملكه مصر والشام فقبلا ووافقاه على ذلك قبل القتال فلما تلاقى العسكران واضطرمت نيرات البنادق فى مرج دابق فر خير بك

Marfat.com

بمن معه من الميمنة وفر الغزالى بمن معه من الميسرة وبقى السلطان الغورى بمن معه من خواصه وجلبانه فى القلب فأطلقت البنادق والضربزنات فهلك من هلك وهرب من هرب لا يدرى أية طريق سلك وانقلب النهار ليلا مظلما بالدخان وامتلأ وجه الأرض لشعب النفط والنيران وعاد الغورى تحت سنابك الخيل ومحا نور العدل ظلام الظلم كما يمحو النهار الليل وذهبت ظلمان الجراكسة كانهم كانوا هباء منشورا وأكلت أشلاء قتلاهم الوحوش والطيور كان لم يكونوا شيأ مذكورا وأقبلت رايات اقبال السلطان سليم على قلعة حلب الشهباء وقد احمرت من أسالة الدماء فطلب أهلها منه الأمان والتسليم فأجابهم إلى القبول لطفا وكرما فخرجوا إلى لقائه بالمصاحف والأعلام وهم يجهرون بالتسبيح والتكبير ويقرؤن وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فقابلهم بالإجلال والاكرام وأفرغ على كواهلهم خلع اللطف والأنعام وتصدق بأنواع الصدقات الجزيلة على الخاص والعام وحضر صلاة الجمعة وخطب الخطيب باسمه الشريف ودعا له ولآبائه وأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف .

وما زاده الألقاب فخرا وسوددا بأطناب ذى مدح وأكثار مادح

وعند ماسمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه خادم الحرمين الشريفين سجد الله شكرا وقال الحمد لله الذى يسرلى أن صرت خادم الحرمين الشريفين وأضمر خيرا جميلا وإحسانا جليلا لأهل الحرمين الشريفين وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بخادم الحرمين المنيفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر وأحسن اليه إحسانا كثيرا بعد ذلك وأقام بحلب أياما يسيرة وهو يمهد الملك ويجرى أحكام المعدلة والسياسة ويحسن إلى العرب ثم ارتحل بالجيش المنصور إلى الشام فخرج أهل الشام إلى لقائه وطلبوا منه الأمن والأمان واللطف والرأفة والاطمئنان فأجابهم إلى ما سألوه وبسط لهم ما طلبوه وأملوه فقبلوا الأرض بين يديه وبالغوا فى الدعاء بدوام دولته والثناء عليه فخلع على كل ما يستحق التشريف خلع الرضا والإكرام وألبسهم التشاريف الفاخرة كلا بحسب حاله واستحقاقه للأنعام ودخل التشريف إلى الشام بموكبه الشريف الكريم وأقام به لتمهيد المملكة برأيه القويم وخطب له الخطباء فخلع عليهم وأكرمهم وأحسن إليهم وقابل الناس بسن ضاحك ووجه يتهلل

Marfat.com

سرورا وجبين أغر يملأ الأرجاء ضياء ونورا وأمر بعمارة تربة الشيخ محي الدين ابن العربى رضى الله عنه ورتب عليه أوقافا كثيرة وعمل له مطبخا يطبخ الطعام فيه لفقراء الشيخ المرحوم وجعل عليها متوليا وناظرا يجمع الريع ويصرفه فى جهات الخير ونظره أعظم الأنظار فى بلاد الشام إلى الآن وما أسرى الله تعالى مثل هذا الخير العظيم على يد أحد من الجراكسة ولا من كان قبلهم ولا شك أن روحانية الشيخ رضى الله عنه هى التى جلبت السلطان سليم طيب الله ثراه إلى سلطنة بلاد الغرب وحصل له الإمداد العظيم بالبركة والنصر والتأييد فى حصول ما أمله وطلب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ويؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

واستمر السلطان سليم خان بأرض الشام إلى أن مهد أمورها وضبط حصونها وقصورها ثم توجه إلى افتتاح اقليم مصر ورفع البؤس عنها والأمر ولما وصل إلى خان يونس قتل فيه الوزير المعظم حسام باشا وكان من أهل الخير وله عمارة فى آق شهر يخرج منها الطعام للمسافرين دائماً رحمه الله تعالى اوستمر السلطان سليم متوجها إلى مصر فوصل إلى بلاد غزة ثم عدل منها بمفرده إلى زيارة القدس والخليل فى نفر قليل بقصد الزيارة فأحسن إلى أهل القدس والى أهل خليل الرحمن وعاد إلى معسكره وصار كلما مر ببلد أو قرية أو قصبة فى طريقة أحسن إلى الرعايا ونظر بعين المعدلة والإحسان إلى البرايا وأزال عن الضعفاء ظلم الظالمين ونشر العدل فى العالمين وفر بقية السيوف من الجراكسة إلى مصر وولوا عليهم الدوادار وجندوا الجنود وعقدوا الألوية والبنود وخرجوا إلى الريدانيه بظاهر مصر ونصبوا المدافع الكبار وملؤها بالبارود والأحجار وهيؤها ليطلقوها إذا أقبلت العساكر العثمانية فلما أخبرهم الجواسيس بذلك عدلوا إلى غير ناحية وجاءوا من خلف جبل المقطم من معسكر الجراكسة ورموا بالمدافع المكاحل والضربزانات على العجل واستمرت مدافع الجراكسة مركوزة لمن يأتى من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع وقاتل السلطان طومان باى ومن ثبت معه من أمراء الجراكسة قتالا قويا وأظهر طومان باى شجاعة قوية عرف بها وشهد له المصاف وهو يغوص فى العسكر ويحمل ويعود

Marfat.com

ويكرويفر وقتل من وزراء السلطان سليم فى ذلك اليوم سنان باشا وأسف السلطان على سليم على شهادته .

ومن جمله نكته أنه قال عندما أخبر بهروب عساكر الأعداء وقتل سنان باشا أى فائدة فى مصر بلا يوسف ووجه النكتة أن يوسف يلقب بسنان فى عرفهم وبعد أن ثبتوا ساعة انكسروا فهربوا وتمزقوا وتشتتوا وتفرقوا وهرب طومان باى إلى البر ونزل على شيخ عربان بنى حرام عبد الدايم بن بقر ودخل السلطان سليم إلى مصر ونزل فى ساحلها فى الجزيرة الوسطانية وطاف عسكره بالبلد وأمنوا الناس وأزالوا عنهم الخوف واليأس ماعدا الجراكسة فإنهم إذا ظفروا بهم أتوابهم إلى السلطان سليم خان فيأمر بضرب رقابهم وترمى جثثهم فى بحر النيل وتجمع رؤسهم فانتقل السلطان سليم إلى المقياس وأمر أن يبنى له فى علوه كوشكا عالياً سكنه مدة مقامه بمصر هرباً من عفونات اشلاء القتلى .

ثم أن شيخ العرب عبد الدايم تغرب إلى خاطر السلطان سليم خان وسلم إليه السلطان طومان باى أسيراً وأنعم السلطان سليم على شيخ العرب بالخلع والتشاريف والانعامات السلطانية وحبس طومان باى عنده وأراد أن يكرمه ويجعله نائبا عنه بمصر إذا برز عنها إلى الروم وصار يحضره فى مجلس الضحية ويستخبره عن الأمور والأحوال فأرجف أهل مصر عن طومان باى أنه لم يقع فى الاسر وانه اختفى وأنه يجمع عسكراً وينتهز الفرصة وأنه شجاع لا يطاق ولا يقدر على مسكه أحد فبلغ السلطان سليم خان أراجيف الناس ورأى أن الفتنة لا تسكن مادام طومان باى محبوساً فأمر أن يركب على بغلة ويحف بعسكر الينكجرية ويمضى إلى باب زويلة ويصلب فيه ليراه الناس ويصدقوا بأنه مسك فصلب على باب زويلة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ثم ولى القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة بمصر وهم قاضى القضاة كمال الدين الطويل ولاه قضاء الشافعية وقاضى القضاة نور الدين على بن يس الطرابلسى الحنفى قاضى الحنفية وقاضى القضاة الدميرى المالكى قاضى المالكية وقاضىَ القضاة شهاب الدين أحمد بن النجار الحنبلى قاضى الحنابلة وولى ملك الأمراء حيزبك مصر وولى جان بردى الغزالى الشام كما وعدهما بذلك ومهد الأمور وسار إلى الاسكندرية وعاد إلى مصر

Marfat.com

ثم إلى تخت مملكته القسطنطينية العظمى فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وأخذ معه كثيراً من أعيان مصر سركنا إلى الروم كما هو قانونهم ووصل إلى تخت مملكه ومقر سلطنته مظفراً منصوراً وشكر الله وحمده على نصرته وتأييده وكان عبداً شكوراً وافتقد خزائنه فوجدها قد انصرف غالبها فإنه كان قد أصرف فى هذين السفرين وهما السفر إلى بلاد قزلباش والسفر إلى إقليم مصر خزائن عظيمة مما جمعها آباؤه وأسلافه فلما أراد سفراً ثالثاً إلى بلاد العجم لقطع جادرة طائفة القزلباش رأى أن مابقى من خزائنه لا يفى بتلك المصارف فتأخر ليجتمع فى خزائنه مايجمع له من خراج البلاد قدر يفى بالمراد ويأبى الله إلا ما أراد :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فظهر فى أثناء ظهره جراحة منعته الراحة وحرمت عليه الاستراحة وعجزت فى علاجه حذاق الأطباء وتحيرت فى دائه العقول الألباء وعظم الجرح وكبر القرح واتسع الخرق والتهب الحرق وكانت توضع الدجاجة فى جرحه فتذوب بحره وشوهدت معاليق أكباده فى جوفه من خلف ظهره وأنشبت المنية أظفارها فيه فما نفعه التمائم والرقا وفدى بالأموال والأرواح فما قبل الغد . وقال :

ولو قبل الفداء لكان يفدا وان جل المصاب عن التفادى
ولكن المنون لها عيون تكثر لحاظها فى الانتقاد
فقل للدهر أنت أصبت فألبس برغم بيك أثواب الحداد

فقضى نحبه ولقى ربه ومضى سليم بقلب سليم قادما على الله الكريم الغفور الرحيم وتبوأ مقعده من سرير الملك نجله الوارث السعيد كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وهو الفعال لما يريد .

وكان وفاته رحمه الله تعالى وأسكنه غرف الجنان وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرضوان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة .

الفصل الثالث

فيما عمره المرحوم السلطان سليم خان فى الحرم الشريف وبعض إحسانه إلى أهل الحرمين الشريفين فى أيام سلطنته

كان رحمه الله تعالى كوالده المرحوم كثير المحبة لأهل الحرمين الشريفين حسن الالتفات إليهم كثير الاحسان والعطف عليهم وضاعف الصدقه الروميه التى كان يجهز لهم والده المرحوم ويكرم من قدم عليه منهم أتم اكرام ويحسن إليه أجل إحسان وإنعام فوصلت صدقاته الرومية ووصل معها دفتر الصرة على حكم ماقرره والده المرحوم لأهل الحرمين فى أول سلطنتهعام تسعة عشر وتسعمائة وتضاعف له الدعاء بالحرمين الشريفين وسافر له جماعة من أهل مكة منهم الخطيب محي الدين العراقى فحصل له منه انعام جزيل وخير جميل ورتب له فى دفتر الصر مائة دينار ذهبا وفرح بمن قدم عليه من الحجازيين وأنعم على كل بحسبه وكان يرسل الصدقات الرومية فى كل سنة فلماافتتح مصر وجد بها من قضاة مكة قاضى القضاة صلاح الدين محمد بن أبى السعود بن ابراهيم بن ظهيرة وكان السلطان الغورى حبسه بمصر من غير ذنب بل للطمع ولما خرج بعساكره من مصر إلى مرج دابق أخرج كل من فى حبسه من أرباب الجرائم إلا القاضى صلاح الدين فانه أبقاه فى الحبس فلما انكسر وقتل فى مرج دابق أخرجه السلطان طومان باى من الحبس فلما دخل السلطان سليم إلى مصر جاء إليه القاضى صلاح الدين فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن إليه وجهزه إلى مكة معززا مكرما وكان بمصر جماعة من الحجازيين أحسن إليهم كلهم وأكرمهم .

وولى أمانة جدة لتاجر اسمه الخواجا قاسم السروانى وكان مقيما بمكة ثم سافر إلى مصر فصادف دخول السلطان سليم إلى مصر فخدمه وتقرب إلى خاطره الشريف فأرسله إلى مكة أمينا فى بندر جدة أميرا عليها وتمكن من البندر وأرسل السلطان سليم من أمرائه إلى مكة الأمير مصلح الدين بك بالصدقات الرومية وبكسوة الكعبة

الشريفة وبمحمل الشريف روى فوصل فى صحبته أمير الحاج المصرى المقر العلائى بالمحمل الشريف المصرى على المعتاد وبرز شريف مكة يومئذ السيد بركات لملاقاة المحملين الى سبيل الحوخى هو وولده سيدنا ومولانا السيد الشريف جمال الدين محمد أبو نمى أطال الله تعالى عمره الشريف ولبس الخلعة الشريفة السلطانية وسار أمام المحملين المصرى والروى بأعلامهما وطبولهما واستمرا فى هذا الموكب إلى أن فارقا المحملين وأمير الحاج والأمير مصلح الدين من عند باب السلام وأدخل المحملان الى الحرم الشريف ووضعا عن يمين مدرسة الأشرف قايتباى ونزل أمير الحاج المصرى فى مجمع البرقية على يمين الخارج من باب الصفا وهو رباط صاحب بلدة كليركة من ملوك الركن وقد هدمت الآن فى ذلك الجانب من البيوت والمدارس الملاصقة بجدر الحرم الشريف توسيعا لطريق السيل ودفعا لضرر دخوله الى المسجد الحرام من ذلك الجانب اذا تراكم السيل وكان هدمها بالأمر الشريف السلطانى فى سنة أربع وثمانين وتسعمائة وفرقت الصدقة الرومية فى يوم الجمعة لأربع مضين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فى الحرم الشريف على الفقهاء وقرر لجماعة من المجاورين لكل واحد مائة ذهب منهم مولانا نور الدين حمزة ابن القاضى مصطفى القرمانى وقرر باسم مولانا السيد الشريف أبى نمى أطال الله تعالى عمره الشريف خمسمائة دينار ذهبا فى أول دفتر الصدقات باقية الى الآن باسم الشريف تقبض له فى كل عام وفرقت بعد هذا الذخيرة وهى صدقة كانت تجهز من خزينة مصر من قبل ملوك الجراكسة أبقاها السلطان سليم على حالها وأجراها فى كل عام من خزينة مصر تفرق على فقراء الحرمين الشريفين وعلى مشايخ العرب أو باب الدرك فى طويق الحج وهى باقية الى الآن وفرقت الصدقات المصرية التى تجمع من أوقاف الحرمين بمصر وتجهز الى الحرمين الشريفين ويقال لها الصر الحكمى وهو باق الى الآن وان تقهقر وضعف وصار يصرف على حكم الربع والخمس لضعف الأوقاف المصرية واستيلاء الأكلة عليها ودخول الظلمة فيها أحيى الله من أحياها وأنمى حياة من عمرها ونماها وبعد الفراغ من توزيع الصدقات قرأت ختمة شريفه فى الحطيم الشريف حضرها الامراء والقضاة والفقهاء والأعيان باسم السلطان سليم وأهدى

إلى صحائفه الشريفة ثوابها وقرر الأمير مصلح الدين ثلاثين نفر يقرأ كل واحد منهم جزءاً شريفا قرآنيا فى كل يوم فتكمل بهم ختمة كاملة فى كل يوم يهدى ثواب ذلك إلى السلطان سليم خان وقرر لهم مفرقا للأجزاء وداعيا وحافظا للأجزاء وجعل لكل واحد منهم اثنى عشر دينارا ذهبا فى دفتر الصدقات الرومية تصل إليهم فى كل عام ثم جمع طائفة من الفقراء أعطى لكل نفر ثلاثة دنانير ذهبا سماها المتفرقة وكتب أسماءهم فى الدفتر ثم كتب بيوت فقهاء مكة المشرفة وكتب أسامى من فى ذلك البيت وعين لكل نفر منهم ثلاثة دنانير ذهبا وألحق ذلك فى دفتر الرومية وسماها البيوت وهى باقية إلى الآن ثم كثر عليه الفقهاء فجمعهم فى حوش كبير وأعطى لكل واحد دينارين ذهبا وسماهم العامة وكتب أساميهم وألحقهم بالدفتر وهذا الترتيب كله باق إلى الآن وثوابه لمن أسس فعل الخيرات جار فى صحائف حسناته إلى يوم القيامة .

ثم خطب الخطيب شرف الدين يحيى النوبرى خطبة التروية فى سابع ذى الحجة وفى ظهر اليوم الثامن توجه الناس إلى عرفات وتوجه الأمير مصلح الدين بالمحمل الرومى وتوجه المقر بالمحمل المصرى إلى عرفات وصلوا فى يوم التاسع صلاة الظهر والعصر جمعا بينهما بعد الزوال بعد أن خطب الخطيب فى مسجد نمرة .

ثم شرعوا فى الوقوف فى ذيل جبل الرحمة وخطب قاضى القضاة صلاح الدين بن ظهيرة أمام الموقف الشريف خطبة عرفة ووقف بين يديه الأمير مصلح الدين بالمحمل الرومى وأمير الحاج المصرى بالمحمل المصرى ولم يصل فى ذلك العام المحمل الشامى ودعا الخطيب للسلطان سليم خان وكذلك سائر الحجاج وأفاض الناس حين أفاض الامام وكانت الوقفة الشريفه يوم الأربعاء المبارك وباتوا بالمزدلفة ثم أفاضوا بعد فجر يوم النحر إلى منى ونزل شيخ الكعبة من منى فى يوم النحر ونزل معه الأمير مصلح الدين لاتمام بعض الأوامر السلطانية وإنفاذها ولإيصال الخير والاحسان إلى الفقراء واستجلاب الدعاء من الصلحاء بنصرة السلطان سليم خان ودوام سلطنته وفى ليلة الجمعة فى أواخر شهر ذى الحجة الحرام طلب بعض الأولياء الصالحين والعلماء العاملين منهم مولانا الشيخ عبد الكبير بن الشيخ يس الحضرمى

والشيخ عبد الله بن ناكير الحضرمى وشيخنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب المالكى وولده شيخنا الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المالكى والشيخ أيوب الأزهرى وجماعة من العلماء وأحضر لهم دواب يركبونها إلى التنعيم عند مساجد السيدة عائشة رضى الله عنها وركب معهم وأشار عليهم أن يعتمرو عن والدة السلطان سليم خان فأحرم كل واحد منهم بالعمرة عن المرحومة ولى عنها وعادوا إلى الكعبة الشريفة فطافوا ثم سعوا وحلقوا وأهدوا ثواب تلك العمرة إلى صحائفها ثم أحسن إليهم ورتب لهم الصرفى دفتر الصدقات فدعوا له وللمرحومة ولولدها السلطان سليم خان رحمهم الله تعالى .

ثم وصل من بندر السويس إلى بندر جدة بحرا سفائن مسمارية فيها حبوب الصدقات السلطانية لأهل الحرمين الشريفين جهزها ملك الأمراء خير بك نائب السلطنة الشريفة بمصر بأمر السلطان سليم وهى سبعة آلاف أردب جاء منها ألفا أردب لأهل المدينة وخمسة آلاف اردب لأهل مكة ووصل الأمر الشريف السلطانى أن يوزع ذلك الأمير مصلح الدين فجلس فى الحرم وطلب قاضى القضاة شيخ الاسلام مولانا القاضى صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى والقضاة الثلاثة الحنفى والمالكى والحنبلى ونائب جدة الأمير قاسم الشروانى وبقية الفقراء والأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطانى واستشارهم فى توزيع ذلك فذكروا له أنه لابد من عرض ذلك على شريف مكة سيدنا ومولانا الشريف بركات وأخذ رأيه فى ذلك فأرسل إليه ساعيا وكتبوا له صورة الأمر الشريف السلطانى واستدعوا رأيه العالى فى ذلك فكتب إليهم الجواب بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف وتوزيع ما وصل من حب الصدقة الشريفة على المستحقين بحسب اتفاق الأمراء من أعيان أهل المجلس فاجتمعوا ثانيا بعد وصول الجواب واتفق رأيهم على بيع بعض ذلك الحب ليصرف فى نقله من جدة إلى مكة وأن يكتب أسامى الناس على العموم ويصرف إلى كل واحد ما يخصه من الحب وما يخصه من ثمن ما باعوه بعد استيفاء المصارف وأمر شيخ الاسلام الصلاحى أن يباشر كتابة دفتر ذلك ورقم أسامى الناس الشيخ رضى الدين الحناوى الشاهد العدل كبير الشهود العدول فى باب السلام المكى

Marfat.com

فكتب بيوت كل محلة وكتب ما فى كل بيت من أعداد الأنفار رجالا ونساء وأطفالا وخداما ماعدا التجار والسوقة والعسكر فكانوا اثنى عشر ألف نفر فخص كل نفر رباعى بكيل الربع الكبير الذى هو أربع كيل عن أربعة وعشرين قدحا بالكيل المصرى المستمر الآن وأن يدفع مع ذلك لكل نفر دينار ذهب فوزع ذلك جميعه على هذا الوجه ثم جعل لكل واحد من القضاة الأربع ثلاث أرادب وزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت وهذا أول صدقات الحب الشريف السلطانى واستمر إلى الآن وزيد على ما كان بحيث صار فقهاء مكة المجاورون يتعيشون بوصول هذا الحب إليهم أما فى جميع السنة وأكثرها فلو فقدوا ذلك والعياذ بالله هلكوا وكذلك يرتزقون بالصدقات الرومية وغيرها مما كان سبب الانعام بها عليهم سلاطين آل عثمان نصرهم الله تعالى وخلد ملكهم السعيد وطوق بقلائد احسانهم خدام الدعاء لهم من الأحرار والعبيد .

أقامت فى الرقاب لهم اياد هم الأطواق والناس الحمام

فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مد الزمان فان دولتهم الشريفة هى عماد الاسلام واحسانهم متواصل إلى كافة الأنام سيما جيران بلد الله الحرام وجيران نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فانهم فازوا بالانعامات الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة ما لم يتصوره من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم علينا سلطانهم كما دام علينا برهم واحسانهم .

(ومما جدده الأمير مصلح الدين) المذكور بناء مقام الحنفية فانه كان مسقفا على أربعة أعمدة فى صدره محراب عمل سنة إحدى وثمانمائة فأراد أن يوسعه ويجعله قبة فأمر بعقد مجلس حضر فيه القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والأعيان وقال لهم ان الامام الأعظم أبا حنيفة روح الله تعالى روحه الشريف بروائح الروح والريحان والرحمة والرأفة والرضوان جدير بأن يكون له فى هذا المسجد الحرام مقام يجتمع فيه أهل مذهبه ومقلدوه يكون أوسع من هذا المقام فذكر بعض العلماء انه لاشك فى عظم كل واحد من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين غير أن تعدد المقامات

Marfat.com

فى مسجد واحد لاستقلال كل مذهب بامام .ما أجازه كثير من العلماء وان تعدد هذه المقامات فى وقت حدوثه أنكره العلماء غاية الانكار فى ذلك العهد ولهم فى ذلك العصر رسالات متعددة باقية بأيدى الناس إلى الآن وأن علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطأوا من قال بجوازه ثم انفض المجلس على غير اتفاق .

ثم ذكر القاضى بديع الزمان ابن الضياء الحنفى ان جده القاضى أبا البقاء ابن الضياء أفتى بجواز ذلك فشرع الأمير مصلح الدين فى إتمام ماقصده وهدم تلك السقيفة ووسع المكان وعمل فيه قبة عالية من الحجر الأصفر والأحمر الشمسى وأصرف على ذلك ذهبا كثيراً واستمر مقاماً يصلى فيه أمام الحنفية بالحنفيين إلى أن غيره الأمير خوش كلدى أمير بندر جدة وهدم القبة وبنى المقام مربعا ذا طبقتين جعل الطبقة العلياء للمكبرين لتصل أصواتهم إلى سائر المسجد الحرام لارتفاع مكانهم وهو باق إلى الآن على هذا الحكم .

ثم بعد فراغ الأمير مصلح الدين من بناء القبة توجه إلى المدينة الشريفة بما معه من الصدقات الرومية وتصدق بها على جيران النبى صلى الله عليه وسلم وكتب دفتر لأسامهم وأحسن إليهم إحساناً وافرا واستجلب الدعاء منهم للمرحوم السلطان سليم خان ثم توجه إلى ينبع وركب البحر إلى مصر ثم إلى الروم وأبقى له ذكرا جميلا وحصل ثوابا جزيلا رحمه الله .

Marfat.com

البَابُ الثامن

فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان سليمان خان

وبعض مافعله من المـآثر الحسان والصدقات الجـارية

والخيرات البـــاقية على صفحـات الزمان

سقى الله عهده سحائب الرضا والغفران

كان سلطانا سعيدا ، ملـكا أيده الله لنصرة الاسلام تأييدا (وولى السلطنة) بعد وفاة والده المرحوم السلطان سليم خان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على تخت السلطنة وما دمى أنف واحد ولا أريق فى ذلك محجمة دم .

ومولده الشريف سنة تسعمائة كذا ذكره مولانا محمد بن خطيب قاسم الرومى فى حاشية كتاب له مختصر من ربيع الأبرار للزمخشرى سماه الروضة ورأيت ذلك بخط طائفة من الفضلاء المعتمدين فيكون سنه الشريف حين ولى السلطنة ستا وعشرين سنة واستمر فى السلطنة تسعا وأربعين سنة وكان عمره أربعا وسبعين سنة وشهرين وهو سلطان غاز فى سبيل الله مجـاهداً لنصرة دين الله مرغم أنوف عداه بلسان سيفه وسنان قنـــاه كان مريداً فى حروبه ومغازيه مسدداً فى آرائه ومغازيه مسعوداً فى معانيه ومغانيه مشهودا فى وقائعه ومراميه ، أبان ملك ملك ، وأنى توجه فتح وفتك ، وأين سافر سفر وسفك ، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب وافتتح البلاد الواسعة الشاسعة بالقهر والحرب . وأخذ الـكفار والملاحدة بقوة الطعن والضرب وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنيفية وأحيا مالها من مآثر ونصر مذهب أهل السـنة السنية وأظهر شعائر الشرائع وردع أهل الالحاد وقمعهم فما لهم من ناصر وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية فى هـذا القرن العاشر مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الغض الذى يقصر عن شأوه كل

Marfat.com

أديب وشاعر ان نظم نضدد عقود الجواهر أو نثر أثر منثور الأزاهر أو نطق قلد الأعناق الدر الفاخر له ديوان فائق بالتركى وآخر عديم النظير بالفارسى يتداولهما بلغاء الزمان وتعجز أن تنسج على منواله فضلاء الدوران تتناقله الركبان بكل لسان وتستلذ بمعانيه العقول والأذهان وكان رؤفا شفوقا صادقا صدوقا إذا قال صدق وإذا قيل له صدق لايعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولايألف مساوى الأخلاق بل هو صافى الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الايمان سليم القلب خالص الجنان لايرتاب فى كمال ديانته ولا يشك فى ولايته .

وما تناهيت فى بثى محاسنه الا وأكثر مما قلته ادع

وقد أهلنى الله لأن قبلت يده الشريفة وتشرفت برؤية طلعته المنورة اللطيفة وشاهدت ذاته العلية المنيفة فرأيت نورا يتلالأ وهيبة ألبسها الله مهابة واجلالا وجبينا يتضوع ضياء وجمالا وألبسنى تشريفة التشريف الشريف وشملنى باحسانه الوافر الوريف فها آنا إلى الآن أتقلب فى جزيل انعامه وأعيش إلى الآن فى فائض تفضلاته وإكرامه وأترحم على ذاته الطاهرة الجميلة كلما تذكرت إحسانه وجميله وأخلد ذكره الحسن فى أوراق الليل والنهار وأرقمه فى صفحات دفاتر الأيام حيث لايمحوه كرور الدهور والأعصار ولا تزيده الأيام إلا جدة ونضاره ولا يزال غضا طريا جديد البراعة والعبارة .

فصـــل

فى ذكر أولاده الكرام وأحفاده النجباء العظام

كان أكرمهم وأنجبهم وأمجدهم وأسعدهم وأرشدهم وخلاصة عنصره وربيب حجره ومهده مشيد أركان الملك العثمانى السلطان سليم الثانى أجلسه الله على سرير القرب والتدانى وعوضه ملك الفردوس الباقى عن الملك الفانى مولده سنة تسع وعشرين وتسعمائة كما يأتى فى محله .

Marfat.com

ومنهم السلطان الشهيد السلطان مصطفى وهو أكبر أولاده ومولده سنة إحدى وعشرين وتسعمائة استدعاه والده من المحل الذى ولاه وهو مغنيا إلى اركلى وهو متوجه إلى تبريز لأخذ بلاد العجم فوصل إليه ممتثلا أمره باذلا نفسه وكان والده يتوهم منه خروجه عليه فلما حضر بين يديه أمر طائفة من البكان بخنقه فخنق صبرا وقتل قهراً فى آخر شوال سنة ستين وتسعمائة وألطف ما قيل فى تاريخه ظلم بحدود آخر شوال .

ثم أرسل ابراهيم باشا الخادم إلى بورسا لقتل ولد طفل له اسمه مراد فمضى إليه وخنقه وبوالده ألحقه رحمهما الله تعالى ولم يرتكب السلطان سليمان هذا الأمر الفظيع الذى قطع القلوب أى تقطيع الا لتسكين الفتن واطفاء ثائرة المحن، ماظهر منها وما بطن صونا لدماء المسلمين وحفظها بنظام التأمين والتطمين .

ومن أولاده السعداء السلطان محمد مولده سنة ثمان وعشرين وتوفى على فراشه بأجله فى سنة خمسين وتسعمائة .

ومنهم السلطان السعيد الشهيد الغريب الشريد بايزيد مولده سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة اجتمعت به مجلسا واحدا فى رحلتى الثانية إلى الروم فى سنة خمس وستين وتسعمائة وقد استدعانى وأنا مار عليه بقرب كوتاهيه يقال لها قرابوك وكان الأمر منسجما بعد بينه وبين والده المرحوم فعدلت إليه وحضرت بين يديه فأقبل على بكليته وأقبلت عليه وعظمتى وعظم أمرى وأكرمنى فوق قدرى وباسطنى وخاطبنى بدون واسطة وقربنى وأخلى مجلسه لى وحدى ولم يترك فرعا من الفروع الذى أراد كشفها وتحقيقها الاسألنى عنها بلطف وتؤده وأجبته عنها بأدب وسكون وملاحظة وأدرجت مع ذلك نصائح تصلح للملوك وهو يصغى إليها ويحسن فى الاصغاء إلى استماعها ويتفكه ويتلذذ بسماعها وسألنى فى الاقامة عند ما صاحبته فاعتذرت إليه وكرر ذلك فأبيت عليه وكان الخير فى ذلك وكلما طال المجلس استأذنت للقيام فيأبى ويقول ماأسرع ماملك حديثنا ونحن نستطيب حديثك وكان أولى المجلس من صلاة الظهر واستمر إلى بعد صلاة العصر فألبسنى تشريفة وأحسن إلى بأثواب صوف ودراهم لها صورة وفارقته ودخلت اصطنبول وتوفيت والدته السلطانة أم السلاطين

Marfat.com

الخاصكية بعد دخولى وحضرت جنازتها وما أجرى من الصدقات عليها وكانت هى كالطلسم للسلطان بايزيد فلما توفيت حصل الشنآن بينه وبين أخيه السلطان سليم خان أدى إلى فتن عظيمة ومحاربات قتل فيها نحو خمسين ألف نفس فصاعدا .

ثم لما عجز عن مقاومة والده وأخيه هرب إلى شاه طهماسب ففرح به وأقام ناموسه وعجز عن حفظه فشرع طهماسب فى المكر والخداع وتفريق عسكره والاعتذار بضعف بلاده عن أن تسعهم ففرقهم ثم استولى عليه وحبسه هو وأولاده وقتل عسكره واحداً بعد واحد واغتنم منهم مالا كثيراً وترددت الرسل بينه وبين السلطان سليمان فى تسليمه لوالده فلما تأكد طلبه من طهماسب ذكر أنه أصرف عليه خزينة مال وأنه لا يسلمه إلا بأن تعطى له فسئل عن قدر ذلك فذكر مقداراً عظيما يكون مثل خراج مصر سنة فأمر السلطان سليما بدفع ذلك القدر إليه فلما تسلمه أحضر السلطان بايزيد وأولاده الأربعة وكل واحد كالبدر الطالع والنجم الساطع فخنقوا مع والدهم بإدارة الرهق حتى لم يبق فيهم رمق وأخمدوا أنفاسهم بالأوتار وأطفأوا تلك الأنوار ورزقوا سعادة الشهادة بالاضطرار وهم السلطان محمود والسلطان عبد الله والسلطان أورخان والسلطان عثمان وحملت أجسادهم فى توابيت من قزوين إلى سيواس ودفنوا فى سيواس وأسكن الله الفتنة والوسواس وذلك فى سنة سبعين وتسعمائة .

وكان للسلطان بايزيد طفل فى بورسا فأمر بخنقه أيضاً فخنق والله تعالى يبل مضاجعهم بأقطار أمطار الرحمة والرضوان ويعوضهم عن شبابهم الجنة ويروح أرواحهم فى غرف الجنان بالروح والريحان والحور والولدان والخيرات الحسان .

ومنهم الشهزادهِ جهان كيرخان مولده سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وكان أحدب ظريفاً ضعيف الروح لطيفاً يحبه والده ولم يفارقه إلى أن توفى بأجله فى حلب بمرض الخناق فى سنة ستين وتسعمائة ونقل إلى اصطنبول ودفن فى تربة أخيه محمد الشهزاده.

ومنهم الشهزاده السلطان مراد توفى بأجله فى سنة سبع وعشرين وتسعمائة .

ومنهم الشهزاده السلطان محمود توفى بأجله سنة ثمان وعشرين وهذا والذى قبله مدفونان فى تربة السلطان سليم جدهما رحمهم الله تعالى .

ومنهم الشهزاده السلطان عبد الله توفى بأجله فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وتوفيت والدة السلطان سليمان خان فى سنة أربعين وكانت صالحة زاهدة محبة لفعل الخيرات كثيرة الصدقات أسكنها الله أعلى غرف الجنات .

(فصل فى وزرائه العظام) كان أول وزرائه آصف زمانه بذرجمهر أوانه معدن الرأى والدها موضع العقل والنهى محمد الجمالى الصديقى المعروف .

(ميرى باشا صلافه) وزير أبو والده فابقاه على وزراته مدة وكان السلطان سليم تتبع فى أول سلطنته طوائف العلماء المتميزين بكمال العقل والرأى فلم يجد أكمل عقلا منه وكان قاضيا فى بعض القصبات فقر به وولاه وزارته العظمى واستمر فى مدة سلطنته وزيرا عنده لم يغير وسلم من قتله لكمال ذريته مع كثرة من قتل من الوزراء وكان فاضلا كاملا متين الرأى عاقلا يضرب المثل بفراسته وعلمه وعقله وحلمه فلما وزر السلطان سليمان رأى فى خدمته من شباب مماليكه من هو على الوزارة طائراً اليها بجناحيه ورأى سلطانه بأيميل إلى أقرانه وذوى أسنانه وهو بينهم لشيخوخته وكبر سنه لا يناسبهم فاستعفى عن الوزارة فأجيب إلى سؤاله فانجمع للنظر فى حاله وماله ورأى لعين كماله عدم ثبات الدهر فى أحواله وأخذ فى زار ترحاله وقدم من الخيرات ما يكون ذخيرة لآخرته من الباقيات الصالحات .

فمن آثار عمارته فى أدرنه فى ربند وكان محل قطاع الطريق ينهب فيه قوافل المسلمين فعمل هناك تكية عظيمة ومحلا لنزول المسافرين فيه طعام يطبخ لهم ويقدم إليهم ومسجدا جامعا ورتب لذلك كلما يحتاج إليه ووقف أوقافا عظيمة عليه فصار أثرا باقياً على صفحات الزمان وجميلا يذكر به ويدعى إلى انقضاء الدوران وله خيرات أخرى غير ذلك يلوح عليها علامات القبول عند الله تعالى :

وكان عزله فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وولى مكانه فى وزارته العظمى من المماليك الذين عنده داخل السرايا أوده باشا حرمه الخاص .

(إبراهيم باشا) وكان شابا قد امتلأ غصن نضارته بماء الشباب ولازمته السعادة والعزة والعظمة والدولة من جملة خدام الركاب وكان أقدم منه فى الخدمة أحمد باشا وظن أن الوزارة لا تعدو إلى غيره لأنه من خواص مماليك والده إبراهيم باشا من

Marfat.com

مماليك السلطان سليمان نفسه فزاحمه فى صدر دست الوزارة وجلس بقوة إدلاله بخدم السلطنة الشريفة فى محل الصدارة فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان فدبر فى إزالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له إيالة مصر وأعطاها تيمارا له وأقطاعا يستجلب به خاطره فمضى إلى مصر واليا عليها وصار يتقصد إبراهيم باشا للعداوة السابقه ويرميه بما يوجب قتله فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله بالأمر الشريف السلطانى ويولى أحدهم مكانه. إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة بكلربكى بمصر وأرسلت هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام فى يد أحمد باشا قبل أن يصل إلى الأمراء المذكورين فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطانى ورد اليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أن يأوى إلى جبل يعصمه من السلطان وأنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر فاشتد الطغيان وادعى السلطنة لنفسه على المنائر وأمر أن يدعى لنفسه على المنابر فى أيام الجمع ورتب عسكرا من العوانية وجمع وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى عليه أهل قلعة الجبل فجمع عليها الشطار وأخذها بالحيل وقتل من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوى ومحمد بك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسر الحبس وخرجا ونصبا سنجقا سلطانيا وناديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه فاجتمع تحت السنجق خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمد بك وجانم الحمزاوى بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكسبا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجله النصف الثانى هجوم العسكر السلطانى فهرب إلى السطوح وتسلق من مكان إلى مكان وخلص إلى البر والتجأ الى شيخ عرب الشرقية عبد الله الدائم بن بقر وقوى العسكر السلطانى ونهبوا ما جمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا ميه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم به مسوكا فقطعوه رأسه وطافوا به فى مصر وعلقوه فى باب زويلة ثم جهزوه إلى الأعتاب السلطانية وذلك فى سنة ثلاثين وتسعمائة وضبط محمد بك وجانم الحمزاوى مصر إلى

Marfat.com

أن ورد مصطفى باشا وضبط مصر بكلربكياواستمر ابراهيم باشافى وزارته العظمى معظما عند السلطان نافذ الأمر واسع العطاء كريما بذولا منفردا بالأمر والنهى إلى أن أفرط بالدلال وزال فى الأذلال واستبد بالأمور واستقل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وادلاله فطلبه السلطان فى ليلة من أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس الانعام ووهب له جميع مافى مجلسه من أوانى الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده فى مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه إلى أن غلب سلطان الكراعلى مقلته وأماقيه وأمر بذبحه وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيرا والسلطان قريب منه وقد صمم فيه أمره فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفأ نبراسه وأخمدت أنفاسه وما كانت نار الغضب على ابراهيم بردا وسلاما بل زادته حرا واضطراما ولعل كثرة احسانه إلى الناس ونشر مكارمه التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله فى الدار الأخرى ولعله صدقت نيته فى بعضها فصادفت قبولا وكان عند الله الكريم ذخرا فكم من عمل صالح يكون سبباً للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء والأبرار وما ربك بظلام للعبيد وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة احدى وثلاثين وتسعمائة ثم ولى الوزارة الوزير الثانى وكان من الارنؤت من مماليك المرحوم السلطان سليم خان وكان محباللصلحاء معتقدا فى طائفة العلماء معتدلا فى أحواله صادقا فى أقواله قطوفا فى آرائه وأفعاله اجتمعت به فى أول رحلة إلى اصطنبول سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكان يكاتب والدى ويلتمس دعاه فأكرمنى وأقبل على وأحسن إلى وربانى عندالسلطان وأخبره عن والدى وكبر سنه وانفراده بعلم الحديث وعلو السند فى عصره فحصل لى إحسان كثير وانعام كبير جزاه الله عنى أحسن الجزاء ورحمه وأسكنه جناب العلى واستمر وزيراً إلى أن توفى مطعونا فى سنة ؟ وأربعين وتسعمائه .

ثم ولى بعده الوزارة العظمى لطفى باشا وجنسه من الأرنؤت وهو من مماليك المرحوم السلطان سليم وكان له فضل واحتفال ومشاركة فى بعض الفضائل وله

Marfat.com

رسالة بالتزكية شرح فيها الفقه الأكبر لامامنا الأعظم أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه وله آثار حسنة فى وزارته منها أبطال الأولاق فانه كثر فى تلك الأيام وعم أذاهم للمسافرين وكانت الطرقات لا تخلوا منهم فيأتى أحد الاولاقية إلى المسافر ويرميه عن دابته ويركبها إلى أن تنقطع فيرميها ويأخذ دابة مسافر آخر وهلم جرا ولا يسلم منهم أحد فلما ولى الوزارة بطل كثرتهم وعين أن لا يرسل الاولاق إلا فى المهمات العظيمة السلطانية المتعلقة بظهور عدو على المملكة يخشى عليها منه وأمثال ذلك من الأمور العظيمة جدا فقل ضررهم بعد ذلك على المسافرين وصارت الناس تدعو له بسبب إزالة هذه المظلمة وكانت الخلفاء تعد خيلا تربط لهم فى كل بلاد وقرية تحت حكومتهم وكانت تسمى خيل البريد فيركبها إلى أن يصل إلى قرية أخرى فيجد فيها أيضا خيل البريد فيركبها ويترك الأول وهكذا إلى أن يصل إلى بغداد ويرجع عنها بالأمر الذى يؤمر به وكان لهم خدام لمثل هذه الخيول بعلوفات ومرتبات رحمهم الله تعالى ورحم من أزال بقية ظلم الاولاق ورفعه عن المسلمين بالكلية وعين لهذه المهمات خيل البريد كما كان يفعله الخلفاء رحمهم الله تعالى واستمر لطفى باشا إلى أن وقع بينه وبين زوجته مشاحنة وهى أخت حضرة السلطان سليمان .

وسببها كثرة ميوله إلى الجوارى فشكته إلى أخيها فطلبه عنده وضربه بالقوس على رأسه وأمر بمفارقتها ففارقها مكرها وطلب الاذن فى الحج فاذن له فحج فى سنة تسع وأربعين وتسعمائة فاجتمعت به وأرانى تأليفه وأمرنى بتعريبه فعربته ثم أمرنى أن أترجمه بالفارسية فترجمته له حسب ما أراد واحسن إلى بسبب ذلك ثم عاد من الحج إلى الباب واستأذن أن يكون فى قرية له من اقطاعه فأذن له واستمر فيها الى أن توفى رحمه الله فى سنة ست وخمسين وتسعمائة وكان عزله فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة .

(وولى مكانه الوزارة العظمى سليمان باشا الخادم) هو من الأرنؤت من مماليك السلطان سليمان وكان قد ولى ايالة مصر قريباً من عشرة أعوام ثم عزل عنها ثم أعيد إليها وجعل سر دار العسكر المجهز إلى الهند لدفع ضرر الفرنقال اللعين

Marfat.com

عن المسلمين واستيلائهم على بنادر الهند ثم كثرت إذاهم لبنادر اليمن ووصولهم إلى بندر جدة وإلى بنادر السويس على مرحلتين وعانوا فى البحر وأخذوا سفائن الحجاج والتجار غصبا ونهبوا أموال المسلمين وأنفسهم قتلا وأسرا وفتكوا بسلطان كجرات السعيد السلطان بهادر شاه وقتلوه غدرا فتحركت الحمية السلطانية واضطرمت نار العصبة الاسلامية السليمانية فأمر سليمان باشا أن يعود إلى مصر وأن يعمر سفائن يركبها مع عسكر جرار إلى أرض الهند ويقطع دابر الكفار وينظف تلك الأقطار من الكفرة الفجار فعمل نحو سبعين غرابا وسفائن مسمارية كبار لحمل الأثقال ورتب العسكر وقتل عند سفره جماعة لاذنب لهم غير صدق خدمتهم وحسن الوفاء بعهدهم حسدا لهم على ما آتاهم الله من فضله منهم الأمير جانم الحزاوى وولده الأمير يوسف وكانا من الساحق العظيمة السلطانية ختم الله لهما بالشهادة وقتل أيضاً الأمير داود بن عمر أمير الصعيد وكان كريما بذولا حافظا لبلاد الصعيد بغير ذنب أتاه .

ثم توجه إلى الهند وصلب صاحب عدن فى طريقة مع أنه فتح له باب عدن وزين الأسواق بوصول العسكر المنصور السلطانى فبمجرد وصوله اليه صلب على صارى السفينة وجعل سنجقا فى عدن وتوجه إلى الهند وعاد منها إلى اليمن من غير أن ينال كفارا الفرنج منه ضرر .

وكان الأمير أحمد صاحب زبيدا إذ ذاك من جملة اللوند الذين استولوا على تلك الديار فأعطاه الأمان وطلبه إلى عنده وقتله وولى بعده أميرا ممن كان معه وعاد إلى مصر ثم الى الباب العالى وأسفرت سفرته على أخذ زبيد وعدن وكان ظالما غاشما كثير سفك الدماء لا يعتمد له على عهد ولا يوثق له بأمان لم يعهد منه شجاعة ولا اقدام وإنما يفتك بمن يقع فى يده مأسورا معلولا ودعا له المرحوم السلطان سليمان خدمته لوالده السلطان سليم وصدقه فى الخدمة فولاه الوزارة العظمى عوضا عن لطفى باشا لما عزله واستمر وزيرا أعظم مدة يسيرة إلى أن عزله .

وولى مكانه الوزارة العظمى رستم باشا فى سنة احدى وخمسين وتسعمائة وكان السلطان قد زوجه كريمته صاحبة الخيرات خانم سلطان بنت السلطان سليم خان

Marfat.com

فلأعين الوزارة زين صدر الصدارة وهو من جنس الأرنؤث من مماليك السلطان سليم خان رحمه الله تعالى وكان ذكياً لمعيا حاذقان فطنا ذكياً ذا بال وسيع وفكر دقيق بديع جيد الحافظة حسن القريحة ثاقب الرأى حليما صبوراً رزينا وقوراً كامل العقل كثير الأدب اجتمع فيه من صفات الكمال مالم يجتمع فى غيره من الرجال ولم تكن فيه خصلة تشينه غير افراط حب الدنيا والميل الشديد إلى جمعها بكرة وعشيا وتلك خصلة عمت أكثر الطباع والشيم وغلبت على أكثر أعالى الهمم ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب واستمر فى الوزارة العظمى إلى أن قتل المرحوم السلطان مصطفى وكان ذلك مما يقال بتأسيسه وتحيله وتدسيسه حتى أن بعض الظرفاء جعل تاريخ ذلك ما زعم أنه ألهم به وهو (مكر رستم) وتوهم من العسكر الاقدام عليه بالقتل فعزله السلطان صونا له وخوفا عليه من العسكر .

(وولى مكانه الوزارة العظمى أحمد باشا) الذى كان وزيراً ثانياً وكانت وزارته تحلة القسم ونقلة لما أضمره السلطان فى خاطره الأشم إلى أن قدر الله ماقدره فى الأزل ودنا منه وقت حلول الأجل فعند بروزه من عرض الأمور عليه وانصرافه من بين يديه أمر بقتله عند الباب الداخل من الهرايا فقتل هناك وأخرج ملفوفا فى بساط وتفرقت عنه الأتباع والأسباط ومضى إلى الله الكريم وأقدم على الغفور الرحيم .

(وأعيد عوضه رستم باشا) واستمر وزيراً كبيراً معتبراً اعتباراً كثيراً يعمل بآرائه وينفرد بانفاذ الأمير وإمضائه لايعارضه أحد من الأركان يطيعونه ويذعنون له غاية الاذعان وصار لايتصرف قضاة العسكر والدفتر دارية والبكلاربكية وسائر الحكام والنظار فى منصب جليل أو حقير صغير أو كبير إلا بأمره واشارته وإرادته بحيث لم يعهد لوزير قبله أحاط بالأمور كاحاطته وحفظ جزئيات المناصب وكلياتها وتيقظ لحفظه ويقظته وكان لا يخلو من الصدقات والإحسان والميل إلى العلماء والصلحاء واستمر على عظمته وجلالته لم يختل منها الشىء إلا فى فتنة السلطان بايزيد ونزلت بسبب ذلك مرتبته عنده بالبون البعيد ولكنها كانت تهمة واهية لا أصل لها وكان خائفاً من ذلك أشد الخوف ولم يشاوره السلطان فى شىء من أحوال بايزيد

Marfat.com

وكان يشاور على باشا فأدى الحال إلى ما أدى ولو استشار رستم باشا وأطاعه فى رأيه لم يتفاقم أمره إلى ما آل إليه لحسن سياسته ودقة تدبيره والأمر إلى الله من قبل ومن بعد وما قدر الله فهو كائن والأقدار تدور حول أولى الأخطار وكم أريق فى هذه الفتنة دم لا ذنب لصاحبه وكم قتلت بالتوهم نفوس مظلومة لاجرم لهم فى هذه البلاد وغوائبه .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

واستمر رستم خائفاً يترقب إلى أن أمرضه الوهم وأنحله فصار فى فراشه يتقلب إلى أن وافاه أجله المحتوم فمات وأقدم على الله الحى القيوم وهو عليم بما تخفى الصدور وهو الرحيم الرؤف الغفور وكان وفاته فى سنة ثمان وستين وتسعمائة ودفن فى تربة فى قرب تربة الشيزاده السلطان محمد رحمهما الله تعالى (وولى بعده الوزارة العظمى على باشا) وكان من جنس البوسنه وكان جسيما طويلا فهما فطنا نبيلا على خلاف ما يتراءى من عظيم هيكله وسمن بدنه فانها مظنة البلادة فى الأكثر فإذا أخطأ فيه مقتضاه زادت الفطانة غاية كما تنقل هذه الهيئة عن الامام محمد صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه فإنه كان فى غاية الفطنة والذكاء يضرب به المثل فى ذلك وكان على باشا له فضيلة فى الإنشاء ونظر فى التاريخ اجتمعت به فى رحلتى إلى اصطنبول فى سنة خمس وستين وتسعمائة فرأيته لطيف المحاورة حسن المفاكهة لذيذ المصاحبة ذكر لى بعض غزواته الدالة على قوة شجاعته وإنه باشر قتال الكفار بنفسه وإنه افتتح قلعة عظيمة اقتلعها منهم فقلت له إن لم يقيد ما ذكرته بالتدوين يذهب من الخواطر ولا يعلم تفصيله بعد سنوات قليلة وإذا فنى من كان حاضراً فى هذه الغزاة فنى خبره أيضاً ولم يذكره أحد بعد ذلك مطلقا وينمحى علمه من صفحات الوجود بعد قليل وذكرت له اعتناء علماء العرب بعلم التاريخ وانه من جملة كتب التاريخ اللطيفة الروضتين فى أخبار الدولتين لابن أبى شامة ذكر فيها دولة السلطان نور الدين الشهيد والسلطان صلاح الدين بن أيوب وغزواتهما مع الفرنج وافتتاح البلاد ومداومتهما على الجهاد وهو كتاب فى غاية اللطف وحسن الوضع باق على صفحات الزمان معلوم عند القاضى وإذ أن مخلد فيه ذكرهما مؤيد فى أطباق أوراق الدهر

Marfat.com

أثرهما وهما فى الحقيقة أميران من أمرائكم أحدهما بكلر بكى مصر والثانى بكلر بكى الشام فلأى معنى لاتكون أخباركم وآثاركم مداولة فى الكتب مخلدة فى صفحات الأعصار والحقب فأعجبه كلامى كثيراً وأمر فاضل ذلك الوقت فى الإنشاء العربى صاحبنا المرحوم المقدس مولانا على چلبى الحميدى المعروف بقنا لوزاده أفندى أحد أفراد الدهر علماً وفضلا وواحد علماء العصر كمالا ونبلا طيب الله ثراه وجعل الفردوس الأعلى مثواه أن يكتب شيئاً فى ذلك فشرع وأنا بعد هناك فى شىء من هذا المعنى فائق فى بابه لطافة وحسناً ثم تقلبت الليالى والأيام ومنعت الموانع من حصول ذلك المرام .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

واستمر على باشا على وزارته العظمى فى صدر صدارته الأجل الأسما نافذاً لأمر عالى القدر صاحب الصدر إلى أن نقله الدهر عن صدارته ورماه الزمان عن قوس وزارته ودعاه داعى الفنا إلى حفرته فعاش سعيداً ومضى إلى لحده وحيداً فريداً وانتقل من دار الفنا إلى دار البقا حميداً وماصحبه مما تخوله غير ماتقدم من أعماله وقدم على الله الكريم بما كسب من أفعاله وهو أرحم الراحمين بعباده فى كرمه وأفضاله (ثم ولى مكانه الوزارة العظمى) فى ذلك المقام الأرفع الأسما آصف الوزراء العظام أسعد السعداء الكرام (حضرة محمد باشا) أبقاه الله تعالى فى صدر الصدارة على الثبات والدوام وصانه عن آفات الدهر وحرسه عن نوائب الأيام وناهيك به عقلا وحزما وصرامة وعزما وأقداما وجزما ودقة وفهما وفكرا ثاقباً ورأيا صائبا وحذقا وفطانة وصدقا وأمانه وكمالا وجمالا ومهابة واجلالا وسعادة وإقبالا ونظراً فى عواقب الأمور وإعانة لمصالح الجمهور ومحبة للعلم والعلماء واعتقاداً فى الصلحاء والأولياء وأحصانا إلى الفقراء والضعفاء وقال فيه .

وما بلغت كف أمرء متناولا من المجد الا والذى نال
وما بلغ المهدون للناس مدحة وان أطنبوا الا الذى فيه أكمل

وكان على وزارته وعظمته وصدارته إلى أن أظهر إليه البيضاء وكمال التدبير والمضاء بحيث تحير العقلاء فى ثبات جاشه وعدم نفرته واستيحاشه وضبط الجيش

Marfat.com

الأعظم وحفظ الخميس العرمرم وهم فى أرض العدو فى حومة القتال وقوة الحرب والصيال وشدة الجلاد والجدال وقد توفى السلطان سليمان فى ذلك الحال فلم يقع شىء من الاختلال وانتظمت الأحوال وأخذت قلعة سكتوار من القزال وهى محشوة بالعدد والعدد من الفرنج الأبطال والسلطان فى السكرات والغمرات وكتم ذلك عن جميع خدامه ومن حوله من الأغوات وأرسل إلى ولده السلطان سليم من مسافة ستين يوما وأجلسه على التخت وما وضعت الحرب أوزارها بل أضمرت المجاهدون نارها وغنمت المسلمون وخذلت النصارى بأنصارها ثم عاد العسكر وقد انتصر الإسلام وانهد ركن الأصنام وخذل الله فى هذا الحال طوائف الكفار اللئام وكان ذلك الاحتيال والترتيب بتدبير هذا الوزير الحاذق اللبيب ورأيه المنير الثاقب المصيب وتداركه لما يجب تداركه بالقلب الرحيب وكل ذلك بالالهام والامداد من الله القريب الرقيب مع كثرة احسانه وتواتر انعامه وتأنس ألطافه واسعافه واكرامه سيما أهل الحرمين الشريفين من إجراءه عيون وحفر آبار وأبنية للفقراء وغير ذلك من المآثر الجميلة والخيرات الوافرة الجزيلة التى يجمل أن تفرد بالتآلف وتورد فى تصنيف جليل لطيف وله مآثر فى أكثر بلاد الاسلام وقد أجرى عين الزرقاء بالمدينة الشريفة بعد ضعفها وأضاف اليها آبارا منها بئر ادريس وهى بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون اليـاء المثناة التحتية واهمال آخره معروفة بقباء من أعذب أبار المدينة ذكر المجـد الفيروزابادى أن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها ووقع فيها خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من يد سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو جالس على حافة البئر فأنزل فيها رجالا ليخرجوه فلم يظفروا به وركب عليها اثنا عشر ناضحا لينزحها فغلبهم الماء ولم يوجد الخاتم وكان أول الفتن الى أن أدت الى شهادته واختلاف النـاس على سيدنا على رضى الله عنه ويسند هذه الفتن الى ذهاب خاتم النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ان فى عصرنا جعل حضرة الوزير الأعظم دبلا من مائها إلى مصب عين الزرقاء وأضرف على ذلك أموالا عظيمة فقويت العين وأضاف إليها مياه آبار أخرى حلوة قوى بها جريان عين الزرقاء إلى أن أجرى دبلا منها إلى باب الرحمة

Marfat.com

وجعل فيه موضع يتوضأ فيه الناس لدخول المسجد الشريف وأجرى دبلا منها إلى حمام عظيم مكلف بناء فى المدينة الشريفة انتفع به أهل المدينة والوارد ودعوا له بالخير وصار ثوابا جاريا .

ومن خبراته أنه أوسع بئر ذى الحليفة ويقال لها بئر على رضى الله عنه وهو ميقات أهل المدينة وأهل الشام للاحرام لدخول مكة فحفرها ونزل فى الأرض إلى أن جعل وجه الماء عشرا فى عشر لئلا ينجس بوقوع النجاسة فيها وجعل أحد جوانبها الأربع درجا ينزل من أعلاه إلى أسفله حيث كان محل الماء فصار كل أحد يرد اليه بسهولة بلا تكليف ولا احتياج إلى دلو وحبل ونحو ذلك وهذا خير عظيم جزيل .

ومنها أنه أمر أن يبنى له مكة المشرفه بقرب الحرم الشريف موضع يكون مأوى للفقراء صونا للمسجد الحرام عنهم وأن يبنى فيه مساطب ومباسط تصلح للمرضى فتكون دار الشفاء لهم وأن يبنى من خارجه دكاكين وبيوت تكرى وتصرف فى مصالح هذا المكان وأمر ببناء حمام فى وسط البلد عظيم البنيان طيب الماء والهواء وله رباط أيضا وخيرات أخرى كلها مثوبات عظمى .

ووردت صدقاته فى سنة أربع وثمانين وتسعمائة مضاعفة ففرقت فى الحرم الشريف على الفقراء والضعفاء وتضاعف الدعاء منهم لحضرته الشريفة ولنجله السعيد بلغه الله تعالى مراتب الكمال ورزقه السعادة والاقبال والله تعالى يطيل بقاه ويديم عزه وعلاه ويثبت وزارته العليا ويبقيه فى صدر الصدارة الكبرى ما دامت الدنيا محفوظا بالملائكة الكرام محروسا بعين الله الحى الذى لا ينام مصونا من نوائب الليالى والأيام بجاه سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهذا دعاء شامل النفع للورى فيارب قابل بالقبول دعائى

Marfat.com

فصل

فى ذكر غزوات السلطان سليمان عليه الرحمة الرضوان

كان السلطان المرحوم المغفور له محبا للجهاد فى سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه باعلاء كلمة الله يؤثر التعب فى ذلك على الراحة ويحب الغزو ويرغب إليه عن الاستراحة بحيث لم ترتفع رايه الاسلام على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر جهادا ونصرة للدين وأكمل عدة وآلة لقطع دابر المشركين وأكبر ملكا وسلطانا وأكثر جيوشا وأعوانا وأقطع سيفا وسنانا وأحمى للاسلام وذويه وانقى للشرك ومنتحليه وأعدى الافرنج الملاعين وأقمع للكفرة والملحدين وأقوى نصرا للاسلام والمسلمين وأشد عضدا لأهل الايمان وأنصر لأهل السنة فى هذا الزمان من السلطان سليمان خان فكم دوخ بلاد الكفر واستباحها ودمر أرض أعداء الله بحافر فرسه واجتاحها وجاس خلال معانيها ورباعها وافتتح صياصيها وقلاعها وأخرب معاهد الأصنام وبنى مساجد الاسلام فلو نشرت صحائف الدول لكانت دولته غرة تلك الدول ولو عددت فتوحات السلاطين لكانت مساعيه طراز تلك الحلل وان غزواته يجب إفرادها بالتآليف لتبقى فى صفحات الدهر ذكره الشريف وأما هذا التصنيف اللطيف فلا يسع منها إلا الطفيف فنذكرها اجمالا فى هذه العجالة وتعدد أسماءها فى غصون هذه الرسالة فان فسح الله فى الأجل وساعد العمر على ذلك الأمل حررنا لآل عثمان تأليفا جليلا وكتابا حافلا طويلا ليستفيد منه علماء العرب والعجم مالا يجدونه فى كتب تواريخ الأمم إن شاء الله تعالى .

نقول أول غزواته عند ماولى السلطنة غزوة انكروس برز إليها من القسطنطينية العظمى لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كرار عظيم المقدار يدك الأرض دكا ويصك الجبال الرسيات صكا فلما وصلوا إلى ديار الكفار جاسوا خلالها ونازلوا أبطالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ونهبوا متاعها وأموالها وفتحوا حصونها وقلاعها وملكوا أرضها وبقاعها .

وأعظم ما افتتح قلعة بلفراط وهى قلعة منيعة محكمة باقية إلى الآن بيد المسلمين وأخذوا غيرها من بلاد المشركين وغنموا الغنائم الكثيرة وآثروا الآثار الأثيرة.

وعاد السلطان إلى دار ملكة سالما غانما مظفرا منصورا مؤيدا بنصر الله ظافرا مسرورا وزينت البلاد لانتصاره وكان الله من أنصاره وذلك أهل فتوحاته وغرة أسفاره وغزواته وكان عوده إلى سرير ملكه فى شهرى ذى القعدة الحرام سنة تسع وعشرين وتسعمائة وفى هذا العام عصى جان برى العزالى الجركسى أمير الأمراء بالشام وجمع طائفة من عصاة العرب وبعض أشقياء الجراكسة وأدعى السلطنة وخطب لنفسه فجهز عليه فرهاد باشا فقاتله بقرب الصالحية وأمسكه وقطع رأسه وأزال عن المسلمين ضرره وبأسه وأرسله إلى الباب العالى وكفاه الله أمره ودرأ عن المسلمين فتنته وشره وذلك لسبع مضين من شهر صفر الخير سنة سبع وعشرين وتسعمائه.

الغزوة الثانية غزوة رودس هى جزيرة فى وسط البحر ما بين اصطنبول ومصر وبنى بها الكفار حصنا حصينا وحصارا فى غاية الاستحكام مكينا اتخذه الكفار مكمنا لأخذ المسلمين وأتقنوه غاية الاتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبطين ينظرون إلى السفاين التى تمرفى البحر من مسافة بعيدة فيتهيؤن للتحصن ان كان ذلك عسكرا من المسلمين ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبدا يجهزون أموالهم إليه ويصرف فى استحكام بنائه واتقانه وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكثيرة الكبيرة ترمى على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جهة من الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب ويهيؤن أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة إذا أحسوا بسفينة فى البحر من الحجاج والتجار أخرجوا إليها تلك الأغربة ونهبوا ما فيها من الأموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتليهم وكان هذا رأيهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين فجهز السلطان سليمان خان بعسكره المنصور

Marfat.com

إلى أخذ هذه الجزيرة وكان مسيره اليها ونزول مخيمه الشريف فى اسكودر متوجها إلى هذا الغزو لعشر بقين من رجب المرجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة .

وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها فى شهر رمضان من السنة المذكورة فأحاط بها برا وبحرا وما أمكن منه فى البر أن يتقدم من حصار رودس للخندق العظيم الذى حولها مع صونه بالمدافع العظيمة من أعلا الحصار ولا أمكن من فى البحر للقرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد فى البحر والرمى على من يقربها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا تصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصار وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبال وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا إلى أن وصل التراب إلى الخندق وامتلأ به وقرب منه جدار الحصار وارتفع عليه وصار انفجار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون ورموا عليهم النار وأحرقوهم بنار الدنيا قبل الآخرة إلى أن عجزوا ووهنوا وتحققوا أنهم مأخوذون فطلبوا من السلطان سليمان خان الأمان وشرطوا أن يحملوا نساءهم وأطفالهم وأولادهم ونقودهم ويعزموا ان أرادوا فأجابهم السلطان إلى ذلك بعد أن نهاه الوزراء عن أمانهم فانهم لم يبق لهم منعه ولا قوة وان الأموال التى أرادوا حملها خزينة كبيرة وان هؤلاء الكفار إذا نجوا بهذه الخزينة أمكنهم التقوى بها وجمع العسكر من النصارى والعود إلى أذى المسلمين فلم يطع السلطان إلى عزلهم ومنعهم وأعطاهم الأمان وخرجوا بجميع أموالهم وما يعز عليهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا إلى بلاد الغرب وعملوا قلعة فى مملكة أسبانيا من جزيرة الأندلس فى غاية الحصار والمتانة ويقال لها مالطه وصاروا يؤذون المسلمين ويقطعون الطريق على الحجاج والسفار وهم الآن وان بعدوا عن المسلمين إلا أن أذاهم كثير وافسادهم عظيم وقد ندم السلطان سليمان خان على اعطاء الأمان لهم وأرسل إليهم عمارة عظيمة بعسكر عظيم لأخذهم آخر عمره وجعل عليهم مصطفى باشا الوزير الاسفنديارى سردار فوقع بينه وبين القابودان فتنة أدت إلى انكسار المسلمين وكان فى ضمير المرحوم تدارك هذا الأمر وإرسال عسكر آخر لأخذ مالطه وقهرها فما أمهله العمر رحمه الله تعالى .

Marfat.com

وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسع وعشرين وتسعمائة وحصل لأهل الاسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس لذلك توراريخ لطيفة ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله) وفتحت أيضاً عدة قلاع فى ذلك العام .

منها استانكوس وقلعة يودرم وقلعة أيدوس وغير ذلك من القلاع أخذت من الكفار الفجار وصارت فى ضبط العساكر السليمانية وأرسل السلطان سليمان من وزرائه فرهاد باشا مع عسكر إلى على بك بن شاه سوار أمير أمراء دلفار فانه كان يظهر الطاعة ويبطن العصيان فاستدعاه الوزير إلى عنده وأظهر أنه وصلت اليه خلع شريفة سلطانية وتشاريف فاخرة خاقانية له ولأولاده فوصل اليه على بك ابن شهوار مع أولاده الخمسة فأدخلهم فرهاد باشا إلى محل خلوته وأمر بقتلهم فقطعت رؤسهم وجهزت إلى الديوان الشريف وضبطت بلاده وكفى الله تعالى شره وذهب فساده ثم عاد السلطان من سفره إلى تخت ملكه الشريف اصطنبول دار الاسلام لازالت معمورة إلى يوم القيام ووصل اليها فى آخر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

وفى هذا العام خرج معه كاشف الشرقية الأمير جانم الجركسى عن الطاعة وخرج معه كاشف البحيرة انيال بك واجتمع عليهما طائفة من الجراكسة المناحسة وجماعة من عصاة العربان الأبالسة وأظهروا الطغيان فأرسل اليهم بكلربكى مصر يومئذ مصطفى باشا عسكرا فقاتلوا فقتلا وقطع رأساهما وعلقا بباب زويلة ثم أرسلا إلى الباب العالى وكانت فتنة درأ الله شرها وكفى المسلمين أمرها وذلك فى محرم سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

الغزوة الثالثـــة

عود السلطان سليمان خان إلى كفار انكروس ثانيا

فان ملك انكروس المسمى قرال ظهر منه الخلاف والجدال فتوجه إليه لقطع

Marfat.com

جادرته ومحو أثره وعاديته السلطان المرحوم بالجيش الأعظم والخميس العرمرم وضرب أوطاقه للظفر فى حلقة لوبكار لاحدى عشرة ليلة خلت من رجب المرجب سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ثم رحل بالعساكر المنصورة إلى أن وصل نهر طراوه وبنى عليه جسرا من السفاين وعدى بعسكره المنصور على الجسر واستمر الى أن وصل بودون وقاتل الغزالى الملعون لعشر بقين من ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وتسعمائة وفى ذلك الحرب الشديد انكسر قزال الكافر العنيد وانتصرت جيوش الاسلام وتمزقت عباد الصليب والأصنام وافتتحت فى هذه الغزوة عدة من القلاع المشهورة والحصون الشديدة المعمورة وصارت من جملتها القلعة أونيك وقلعة تبروان وقلعة ابلوق وقلعة راحمة وقلعة برقاص وقلعة بوكاى وقلعة ولتوار وغيرها من قلاع الكفار وحصون أولئك الفجار وأعظمها قلعة بودون محل تخت انكروس الملعون فانها قلعة راسخة البناء عالية الفضاء سامية إلى عنان السماء تناطح الثريا وتسامى السها وتطاول الجوزاء فى غاية الثبات والاتقان واستحكام الوضع والبنيان وهو تخت سلاطين انكروس ومقر سلطنة ملكهم المنحوس وعندما أحاط بهـــا حضرة السلطان وجنود أهل الايمان علم من كان فيها من جنود الشيطان فخرجوا منها وهربوا وطلبت الرعايا الأمان فأمنهم حضرة السلطان وضبط البلاد وجعل فيهـا عساكر تحفظها من أهل العدوان وغنم كثيراً من الأموال والأنفس والأرواح وفتك بأعداء الاسلام وسفك دمهم المطلول المباح وعاد إلى مقر سلطنته ودار مملكته سعيداً مظفرا منصوراً حميدا فوصل إلى سرير السعادة وتخت الملك والسيادة فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

الغزوة الرابعـــــة

غزوة بيج

اجتمعت كفار ألمان ونمجة قزال وقردنوس وأغار وأعلى قلعة بدوس وأخذوها من المسلمين على غره فتوجه السلطان إلى دفعهم وقلعهم وقمعهم وبرز

Marfat.com

من اصطنبول إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر راحلا إلى أن وصلت إلى المخيم العالى امرأة من ملوك انكروس اسمها اردل مانو اوداست البساط الشريف السلطانى والتزمت بأداء خراج بلاد انكروس كل عام فقوبلت من الحضرة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها الأحكام الشريفة بالأمان وعادت إلى بلادها فى أواسط ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر الوطاق الشريف السلطانى إلى أن وصل العسكر المنصور الخاقانى إلى قلعة بودون وأحاطوا بها إحاطة الأطواق بالأعناق وبياض العين بسواد الأحداق فى أواسط ذى الحجة من السنة المذكورة إلى أن فتح الله بدون وسائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وولوا هاربين مأسورين ومقتولين بعد الحرب الشديد لأربع مضين من محرم الحرام سنة ست وثلاثين وتسعمائة .

ثم فتحت قلعة بتاق حصارى ثم توجه العسكر المنصور إلى قلعة بيج وهى محل تخت نمجه الغزال الخائب الآمال وأحاط بها مخيم سرادقات الفتح والنصر القريب بالعسكر المنصور المظفر من عند الله القريب المجيب وهرب منها نمجه قزال وهو مدبر مكسور وطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة السلطان فأعطاهم الأمان وأخذ قلعة بيج وهى من أعظم قلاع الكفار المحكمة الراسخة القرار الرفيعة المنار وذلك لليلتين بقيتا من محرم سنة ست وثلاثين وتسعمائة ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود ممالك الاسلام غير مأمونة من هجوم الكفار اللئام أمرت الحضرة السلطانية بهدمها فهدمت وأخربت ونهب أطراف تلك القلعة وسبيت أولاد النصارى ونساؤهم وتركت خرابا وعادت الحضرة السلطانية إلى تخت الملك بالنصر والتأييد والعز المشيد والفرج الجديد فوصل إلى اصطنبول فى شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة .

(الغزوة الخامسة غزوة ألمان) لما وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن نمجه قزال جمع طائفة من كفار ألمان وأراد الفساد والطغيان وتوجه السلطان سليمان خان الغازى فى سبيل الله إلى قتال هذا الكافر اللعين وبرز من دار الاسلام

Marfat.com

اصطنبول إلى حلقة لوبكا لعشر بقين من شهر رمضان المبارك عام ثمان وثلاثين وتسعمائة وأرسل فى البحر لحفظ وجه البحر من النصارى وضبط الأساقل والسواحل أمير الأمراء الكرام أحمد باشا القبودان بثمانين غرابا مشحونة بالأبطال أهل الصفاح والكفاح وتطير إليهم بأجنحة الرياح من غير جناح إلى أوائل شعبان المكرم من السنة المذكورة وافتتح عدة قلاع من بلاد الافرنج الفجار وأرعبوا الكفار واستعجلوا بهم إلى عذاب النار ووصل المخيم الشريف السلطانى مع الجيش المنصور الخاقانى إلى مملكة ألمان وحزوان وسبوا من ذرارى الكفار أولادا كالنجوم الذرارى ومن البنات والنساء خرائد كالكنس الجوارى ونهبوا الأموال وقتلوا الأبطال ودهكوا الرجال وهرب ملوكهم وتركوا رعيتهم وصعلوكهم وبذلوا مابقى معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة الشريفة إلى سؤالهم وكتب لهم بذلك توقيع الأمان لترقيع حالهم وعادت الحضرة الشريفة السليمانية إلى دار ملكها المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود فى أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

(الغزوة السادسة سفر العجم) أرسل قبل سفره الميمون الوزير الأعظم ابراهيم باشا بعسكر معظم وجيش كالبحر الفطمطم وفئة كبيرة كالخميس العرمرم لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ووصل إلى حلب وشتى بها هو ومن معه من العساكر المنصورة السليمانية والجيوش المؤيدة الخاقانية وبرز عقبه الوطاق الشريف السلطانى والمخيم المكرم الخاقانى العثمانى إلى اسكودر آخر شهر ذى القعدة الحرام سنة إحدى وأربعين وتسعمائة واستمر متوجها لنصرة السنة الشريفة السنية وقطع طوائف الرفضة البذية إلى أن وصل مخيمه الشريف العالى إلى ميلاق أوجان قريب تبريز وجاء إلى استقباله المعظم ابراهيم باشا بمن معه من العسكر المنصور وتوجها بجميع العساكر المنصورة إلى أخذ سلطانه من مملكة العجم فلما وصل الركاب الشريف السلطانى إلى قصبة أبهر هرب من طائفة القزلباش محمد خان ذو الفادر ووصل إلى لثم البساط الشريف العثمانى فحصل له التشريف الشريف والانعام وقوبل بالتكريم والاحترام وصار

Marfat.com

من جملة عبيد الباب واستولى البرد الشديد على العسكر المنصور ونزل الثلج كأنه الجبال وهرب العدو ولم يقابل وصار يخادع ويقاتل فلزم التوجه إلى بغداد لصون الرجال والأبطال فلما سمع بوصول العسكر السلطانى حافظ بغداد من جانب قزلباش محمدخان هرب وترك بغداد ومن بها من الرعية فجاؤا بمفاتيحها إلى الأوطاق السلطانى فنزل بعسكره المنصور فى بغداد وأعطى الأمان لأهلها واستكنوا فى كنها وصارت من مضافات الممالك الشريفة العثمانية وكذلك ماحولها من جميع البلاد والبقاع وسائر الحصون والقلاع وكذلك المشعشع والجزائر وواسط وأمرت الحضرة السلطانية بتحصين قلعة بغداد وحفظها وصونها من أهل الالحاد وزار مشهد سيدنا الامام الحسين وسيدنا الامام موسى الكاظم رضى الله عنهما ونور مرقدهما ونفع ببركتهما وبركات أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بتعميرهما وتكريم مزارهما الشريف وزار الامام الأعظم أبا حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه وبنى على قبره الشريف قبة وعمارة ومدرسة .

وصلب فى بغداد دفتر داره المرحوم المغفور له الشهيد السعيد اسكندر جلبى بتهمة الخيانة فى المال السلطانى برمى أعداءه وحساده وبراءته من ذلك عند الله وعند الناس وكان كريما بذولا حسن الخلق محسنا ما خاب من قصده ولا حرم من أمله مع الفضل التام والكرم العام رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى وبوأه من الجنات الدرجات العلى ويتهم الوزير ابراهيم باشا برميه بما رمى به وما حال عليه الحول حتى ألحق به واجتمعا فى دار الحق بين يدى الحكم العدل اللطيف الخبير .

ثم توجه ركاب الشريف السلطانى بعد مضى شدة الشتاء لليلتين مضتا من شهر رمضان المبارك إلى ناحية تبريز لأنه بلغه أن الشاه شتى فى تبريز وأنه مقيم بها فقصده للقتال ومحو أثره من صحائف الأيام والليالى فلما وصل إلى منزل صار وقامش وصل من الشاه ومن باج لو خانم ايليجيا يطلب الصلح فلم يقابل بالقبول وتوجه إلى تبريز فخرج الشاه وطائفة القزلباش من تبريز إلى الأطراف والجهات وتركوا شهر تبريز خالية وخاية على عروشها وتبعهم العسكر المنصور فاظفروابهم وصار الشاه يتنقل من مكان إلى مكان وتكررت رسله إلى الأبواب العالية يطرق باب الصلح

Marfat.com

وتحقق حضرة السلطان الأعظم أن الصلح خير فقبل الصلح وكتبت الأجوبة بقول ما طلبه وانطوى بساط الحرب وتوجه المخيم الشريف السلطانى إلى العود من بلاد العجم وغنم السلطان فى تلك السفرة وأخذ البلاد وفتح عراق العرب وألطف تاريخ قيل فيه .

(فتحنا العراق) وكان وصول الركاب الشريف السلطانى مع العسكر المظفر العثمانى إلى محل التخت الشريف السليمانى مع النصر والتأييد الربانى والفتح العظيم السبحانى لأربع عشر ليلة مضت من شهر رجب سنة احدى وأربعين وتسعمائة .

(الغزوة السابعة غزوة ألونية المعروفة بكورفس)

وهى بلاد الكفار الفجار من أتباع اسبانيا الغدار توجه إليها فى البر بركابه الشريف العالى وأرسل فى البحر لطفى باشا والقابودات خير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر إلى أن نزل بمخيمة المنصور على أولونيه فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فاستباحها قتلا وأسرا ونهبا وافتتحت فى جزائر ذلك البحر أربعة وثلاثون حصنا حصينا هدمت إلى الأساس وقتل من فيها من الناس وغنمت جيوش المسلمين من طائفة الكفار المشركين مالا يحصى من الأموال والسبايا وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برآ وبحرا إلى تخت الملك الشريف سالمين غانمين والحمد لله رب العالمين .

(الغزوة الثامنة غزوة قرا بغدان)

توجه بنفسه النفيسة لافتتاح تلك البلدان وبرز بعسكره الجرار لقتل الكفار الفجار بالسيف والنار ووصل ركابه الشريف إلى تلك البلاد وقتل فيها اوفنك وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وأخذ الرقاع والبقاع وغنم أموالا ومغانم كثيرة وأسر نفوسا عديدة غير محصورة وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيدا من عند الله تعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل إلى دار الاسلام القسطنطينية الكبرى لست ليال بقين من ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وتسعمائة ،

Marfat.com

(الغزوة التاسعة غزوة اسطوبور من بلاد انكروس)

وذلك أن السلطان رحمه الله كان أنعم على ازدلبالو بتلك البلاد وبلغه أنها توفيت وإن نجه قزال ومن معه من الكفار والفجار أرادوا الاستيلاء على بلادها بعد موتها فتوجه السلطان رحمه الله إلى دفع أولئك الفجار سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وصمم على قتال نجه قزال لأنه أراد أخذ بودون ووسوست له نفسه ما يتخيله المفسدون فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطانى فر هاربا إلى الجبال وتقهقر عن القتال فتتبعه الأبطال ففر منهم فى أطراف تلك المجال فجالت العساكر المنصورة السلطانية فى تلك البلاد وقتلوا أهل البغى والعدوان والفساد وفتكوا بجيوش الكفر والطغيان وسبوا الأولاد والأطفال والنساء وتركوا ديار الكفر قاعاصفصفا وغنموا مغانم كثيرة وذخائر تحتار وتصطفى وفتحت قلعة اسطوبور بقرب بودون بعد الحرب الشديد وأضيفت إلى الممالك السلطانية وضبطت وحفظت .

وفتحت أيضاً قلعةوشره وقتل من الكفارمالا يعد ولا يحصى وعادت الحضرة السلطانية بمن فىركابها الشريف من العساكرالمنصورة العثمانية إلى مقرتختها الشريف منصورين مؤيدين لتأييدهم الدين الحنيف .

(الغزوة العاشرة غزوة بيج راسترغون)

توجه الركاب الشريف السلطانى والمخيم المنصور السليمانى إلى افتتاح عدة قلاع فى بلاد بيج لتنظيف أطراف البلاد من طوائف الكفار أهل العناد من قطع دابر أولئك الفجار بالغزو والجهاد فى سنة خمسين وتسعمائة وبرز من دار الملك اصطبول بالجيش المتواتر الموصول والجند الأعظم المهول إلى أن أحاط بقلعة ويوه وقلعة شقلاوش وهما من أحكم القلاع السامية وأعظم الحصون المرتفعة العالية تناطح النطح وتسامك السماك وتوازن الميزان فافتتحنا فى غرة ربيع الأول من ذلك العام وصارت من مضافات ممالك الإسلام .

ثم فتحت قلعة استرغون وهى قلعة فىغاية الاتقانوالاستحكام أشد فى أحكام

Marfat.com

البنيان من الإهرام كان قنديل رأسها نجوم الثريا وحارس بابها الكوكب العواء ونطاق منطقها وشاح الجوزاء مشحونة بالأموال والذخائر مملوءة بالعدد والعدد الوافر ألقى الله تعالى فى قلوب أهلها رعب عساكر الإسلام وخذلهم الله تعالى فما منعهم ذلك المنيع وما وجدوا الاعتصام فأخذوا أخذاً وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الأموال وسبيت النساء والأولاد والأطفال وأخذوا ماحولها من البلاد والبقاع وافتتح ما بقربها من الحصون والقلاع وكذلك فتحت قلعة استولين بلغراد وهى قلعة سامية العماد راسخة الأوتاد لم يخلق مثلها فى البلاد كأنها من بناء شداد أخذت وضبطت وعين لها ولغيرها من القلاع الحفاظ النبلاء الايقاظ ونصب لكل منها دزدار وحصارية وقاضيا يجرى الأحكام الشرعية ومنجقا للاستحفاظ وصارت من مصافات الممالك المحروسة السلطانية وصارت الكنائس مساجد للصلاة والعبادات والبيع مشاهد للخيرات والطاعات وعاد الركاب الشريف السلطانى إلى سرير ملكه وتخته الخاقانى مظفراً منصوراً سالما غانماً مسروراً .

(الغزوة الحادية عشر سغر القاس)

وهى تحتمل تفسيراً طويلا لاتحتمله هذه العجالة فنعدل عن الاسهاب والاطالة .

وبجملها أن القاس أخو الشاه لأبيه وكان والياً على شروان فوقعت بينهما مشاحنة فى الباطن أدت إلى توجه القاس إلى الأبواب الشريفة السلطانية وقبل اليد الكريمة الخاقانية السليمانية فحصل له من الحضرة السلطانية إقبال عظيم ومرتبة عالية وأنعم عليه بالانعامات الجليـــلة السنية ووعده بأن ينصره على أخيه ويؤيده ويعلى كلمته ويواليه وأمر الوزراء العظام وأركان دولة الإسلام أن يقدموا له الهدايا الجزيلة والتحف الوافرة الجميلة ففعلوا ذلك وجابروه وعظموه وناصروه وكان ذلك فى سنة أربع وأربعين وتسعمائة واستمر ملتجأ إلى الظل الشريف الوريف الممدود على القوى والضعيف وصار السلطان سليمان خان يصاحبه ويلاطفه ويقربه ويستدنيه ويوالفه إلى أن صمم العزم الجزم وشد نطاق الصرامة والحزم وبرز بعسكره المظفر ونصب أوطاقه فى اسكودار لثمان ليال مضين من شهر صفر الخير سنة خمس وخمسين وتسعمائة ومعه القاس ميرزا مكرما تكريما ومعززاً تعزيزاً وتوجهت الحضرة الشريفة السلطانية إلى أخذ تبريز وأمر القاس ميرزا أن يشتى فى

Marfat.com

بغداد إلى أن يمضى زمان الشتاء فيهجم بالعسكر المنصورة فى بلاد العجم فاستمر الركاب الشريف السلطانى سائراً بالعون السبحانى والنصر والفتح الربانى إلى أخذ قلعة وأن بعساكر أهل الإيمان وجعل فيها بكلربيكا وعسكراً قويا فيها قفل ديار العجم وحصنها بآلات الحصار والخدم واستمر القاس ميرزا متوجها إلى بغداد ثم ببعض العساكر السلطانية إلى دركرين ووصل إلى همدان وتعدى منها إلى أذربيجان ونهب تلك البلدان واستلب أوطاق أخيه ميرزا وعاد إلى المخيم الشريف السلطانى والوطاق المحفوظ الخاقانى بما نهبه من الأموال وحصل له غاية الاعتبار والإقبال وغلب برد الشتاء فشتى حضرة السلطان بالمخيم الشريف السلطانى فى حلب وجهز جيشا كثيفا مع أحمد باشا لحفظ حدود البلاد غزا طائفة الكرج واغتنم منهم غنائم وعاد إلى الأوطاق الشريف السلطانى بغنائمه .

وأما القاس ميرزا فنابذ بعض الوزراء وخرج من بغداد مغاضبا وأظهر النفور من جانب السلطنة الشريفة لم يراع الأيادى الجميلة السابقة واللاحقة وعزم إلى أمير من أمراء الاكراد فعلم أخوه به فأرسل إليه وخادعه واستدعاه إلى عنده ودلاه فى بئر وطم أثره ومحى ذكره فرزق الشهادة والحق بالشهداء وإلى الله المصير .

ولما وصل علم ذلك إلى الحضرة الشريفة السلطانية تأسف على ذهابه وعزل ذلك عزلا مؤبداً وعادت العساكر المنصورة السلطانية فى ركاب الحضرة السليمانية إلى دار ملكها السعيد بالنصر والتأييد والسعد الجديد والعز المشيد فى أواخر سنة خمس وخمسين وتسعمائة .

(الغزوة الثانية عشرة سفره إلى الشرق)

لما بلغ الحضرة الشريفة السلطانية تحرك طائفة القزلباش على بعض الحدود السلطانية من جانب الشرق بادرت الحضرة السليمانية بجيوشها المنصورة العثمانية إلى أن تشتى فى مدينة حلب وبعد انقضاء الشتاء يتوجه إلى أخذ قزلباش فبرز الوطاق الشريف السلطانى من دار الإسلام القسطنطينية العظمى إلى اسكودار فى أوائل شهر رمضان عام ستين وتسعمائة واستمر إلى أن وصل إلى اركلى يقطع المراحل والمنازل فاستقر أوطاقه الشريف العالى خارج اركلى واستدعى ولده السلطان مصطفى

Marfat.com

فامتثل أمره الشريف ووصل إليه ودخل إلى جركاه العالى فما برز إلا فى تابوت حمل على الأعناق إلى بورسا واتبع به ولده ودفن معه فى بورسا أيضاً عليهما الرحمة والرضوان وروائح الروح والروحان وقع ذلك فى أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة وقد قدمنا شرح ذلك وتوجهت الركائب الشريفة السلطانية إلى بلاد حلب واستمر بها أيام الشتاء وتوفى بها السلطان جهانكير قرة عين السلطنة الشريفة وثمرة فؤادها لعشر ليال بقين من ذى الحجة الحرام سنة ستين وتسعمائة وجهز تابوته إلى اصطنبول فى ذى الحجة سنة ستين وتسعمائة .

ولما انقضى الشتاء توجه الركاب الشريف السلطانى إلى الحجران من بلاد العجم فأخلاها الشاه وتركها خالية ومضى إلى الأطراف والجوانب ولم يقاتل ولم يحارب ولم يقابل فعادت الحضرة السلطانية إلى أماسيه وأقام ليكر على بلاد العجم ثانيا فجاءت رسل الشاه وطرق باب الصلح فرأت الآراء الشريفة السلطانية إجابة الشاه إلى سؤاله ترويحا للعسكر السلطانية وصونا لدماء الرعية فأنعمت على الشاه بقبول ما يتمناه وأمرت بإرسال أجوبة حسب مراده ومناه وعادت حضرتها الشريفة إلى تخت ملكها الشريف ممدوداً ظل سلطانها الوريف واستقرت ذاتها العلية قريرة العين بالسعادة الباهرة السنية على تخت الخلافة البهية بدار الإسلام قسطنطينية لازالت بسيوف السلطنة العثمانية محروسة محمية آمين وذلك فى سنة إحدى وستين وتسعمائة .

(الغزوة الثالثة عشر غزوة سكتوار وهى آخر غزواته الكبار)

لما كان دأب هذا السلطان الأعظم المجاهد فى سبيل الله ونصرة دين الإسلام كدأب آباته وأسلافه العظام ولكل امرء من دهره ما تعود وعادة الجهاد فى سبيل الله أعظم ذخرا عند الله وأعود تاقت نفسه النفيسة إلى الجهاد واشتاقت إلى قتال الكفار الفجار وصممت على السفر إلى بيج ودمشوار وكان مزاجه الشريف متوعكا باستيلاء مرض النقرس عليه ويتألم ألما شديداً ويتصبر صبر الرجال ويظهر غاية التجلد والاحتمال فمنعه عن السفر رئيس الأطباء صاحبنا المرحوم الشيخ بدر الدين محمد بن محمد القوصونى المصرى وكان من أحذق الحذاق وأفضل الفضلاء فى سائر العلوم على الاطلاق أديبا أريبا كاملا لبيبا طبيبا حبيبا بينى وبينه ملاطفات ومراسلات

Marfat.com

أدبية ومطارحات تجتنى ثمار الأدب الغض من رياضها وتقتطف أزهار المفاكهة من أكمام أغصان حياضها برد الله مضجعة وأنزل عليه من زلال رحمته سلسبيلا وسقاه من الجنة كأسا كان مزاجها زنجبيلا فلم يمتنع السلطان المرحوم عن السفر ولم يطع الطبيب فيما ذكر وقال له أريد أموت غازيا وأبذل روحى فى سبيل الله مجتهداً ساعيا فبرز بجيوشه المنصورة وجنوده ورواياته المقرونة بالنصر وبنوده والظفر يقدمه والسعد يخدمه وأنقض كالشهاب الثاقب والحسام القاطع القاضب حتى طرق الكفار كالأحلام والطوارق وخفقت أعلامه كالرياح الخوافق واختطف أبصارهم ببوارق الأسياف والصواعق .

وكان بروزه من القسطنطينية المحمية فى يوم الاثنين المبارك لتسع مضين من شوال المقرون بالظفر والسعادة والاقبال سنة أربع وسبعين وتسعمائة واستمر يموج بجيوشه كالبحر المواج ويفيض إحسانه على فقير محتاج كالغيث الثجاج وهو يقطع المراحل والمنازل ويسلك فجاج المسالك والمناهل إلى قطع الأنهار الغزار والمياه العظيمة الكبار بجسور محكمة بنيت عليها وسفائن كالأطواد غرقت فيها لتدغم الجسور إليها إلى أن أمكن تعدية ذلك بالخميس العرمرم ومرور ذلك الجيش الأكبر والسواد الأعظم ونزلوا بعد الحط والترحال ومعانات الأهوال على قلعة سكتوار من أعظم قلاع الكفار وهى أعظم قلاع دمشوار فأحاطوا بها كاحاطة الطوق بالعنق وداروا حولها وعليها دوران الافلاك على الأفق وهى مدينة حصينة واسعة شاسعة مكينه راسخة البناء فى حضيض الماء شامخة الهواء إلى عنان السماء فى غاية العلو والتحصين وإعلاء درجات الاستحكام والتمكين وأقوى ما بيد الكفار من المكان الحصين كأنها فى الارتفاع والشموق تناطح الناطح وتعاوق العيوق وكان بريق نيرانها المعان البروق عند الخفوق مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بالمكاحل الكبيرة والمقامع موسوقة بجيوش النصارى وأبطالهم موسومة بفتياتهم الشجعان من رجالهم فخفرهم عسكر الإسلام وحاصروهم وضيقوا عليهم مسالكهم وصابروهم وناوبوهم وصالوا عليهم وحاشوهم فتحصن الكفار فى قلعة سكتوار ورموا على المسلمين بمقامع النار فترس المسلمون بالمتاريس وهجموا على الكفرة

المناحيس وحمى الوطيس وتخمس الخميس وأقدم من الأبطال المشهورين والفرسان والشجعان المخبورين من أظهر بشجاعته يده البيضاء آية للناظرين وطلب الله النصر وهو خير الناصرين وعند اشتداد الحرب والقتال وتصادم الأبطال تصادم أطواد الجبال إذ غلب على السلطان توعكه وسقمه واشتد عليه مرضه وألمه وغمرته غمرات الموت ولاحت أمارات الفوت وهو يلهج إلى الله المجيب ويتضرع إلى جنابه الرحيب يطلب الفتح القريب فاستجاب الله الكريم دعاه وحقق بحصول المراد رجاه واضطرمت النار فى خزينة بارود الكفار وهى مخزونة بقلعة سكتوار وكانوا أعدوها لقتال المسلمين وأكثروا منها لتكون موفرة عندهم فأصابها شرر من النار بتقدير القدير القهار فأخذت جانباً كبيراً من القلعة رفعته إلى عنان السماء وزلزلت الأرض زلزلة هائلة إلى تخوم الماء وتطايرت جلاميد الصخار إلى الهواء ورمت شررا ولهبا ودخانا إلى أن امتلأ الفضاء فضعفت بذلك طائفة الكفار وعذبهم الله بالنار قبل عذاب النار وتزاحم المجاهدون فى سبيل الله معتمدين على نصر الله بآلات الحرب والجهاد وصدق النية والاعتقاد واشتد القتال والجلاد ورمى الكفار بمدافع أقوى من الصواعق واخطف للأسماع والأبصار من الرعود والبوارق وثبت المسلمون وأقدموا على النيران وهم كالأطواد الراسخة بقوة الجنان لم يتأوه أحدهم والنار تحطمه وتدفعه ولم يبال على أى جنب فى الله مصرعه وتقدم الجيش المنصور وطبول الحرب ومزاميرها كنفخ الصور يوم النشور والمدافع تتهادى كما تتهادى الشهب وتترامى بالأحجار كما تترامى بوارق السحب وتوجهت المسلمون توجها خالصا لوجه الله وحملت على الكفار حملة واحدة بعناية التيقظ والانتباه غير مبالين بموت ولا حياه موقنين بأن لا مفر مما قدره الله وتعلقوا بأطراف القلعة واقتلعوها من أيدى الكفار وهجموا عليها ودخلوها من فوق الأسوار وقتل منهم من قتل ونجا من نجا بمساعدة الأقدار وافتتحت قلعة سكتولر ورفعت الرايات السلطانية على أعلا منار ووضعت السيوف السليمانية فى جميع الفجار وقتلوهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار وعند وصول خبر الفتح إلى السلطان سليمان فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة والإحسان واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن وانتقل من سرير الدنيا

Marfat.com

إلى سرر مرفوعة فى أعلا الجنان وأخفى حضرة الوزير الأعظم محمد باشا وفاة السلطان، وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والانعامات وأعطا الأمراء والبكلر بكى الترقيات وأمر بإرسال البشائر والوسائر الأطراف والجهات وأرسل سرا يستدعى السلطان سليم خان الثانى ويستعجله فى سرعة الوصول إلى التخت الشريف العثمانى وكتم ذلك عن جميع الخواص والخدام وعن جميع العسكر والأمراء والوزراء وسائر الأنام وأحسن التدبير فى هذا الكتم وهو من اللازم الحتم فى الأمور العظام واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام وأحوال العسكر المنصور السلطانى فى درجات النظام وهم فى ديار الكفر بعيدون عن ديار الإسلام وذلك من كمال العقد التام والرأى الثاقب الصائب التمام إلى أن وصل حضرة السلطان سليم إلى مقر تخته الكريم وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطانها وعاد مع أركان دولته وزراء سلطنته وبقية عساكر بابه إلى القسطنطينية العظمى كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى وغسل المرحوم السلطان سليمان وحنط وكفن وأنشد لسان الاعتبار يقول فيه .

أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

ووضع فى تابوت وحمل على الأعناق وقد قلدها فى حياته قلائد نعم حلب محل الأطواق وهو ممن يليق أن ينشد فيه :

كم قلت للرجل المولى غسله هلا أطاع وكنت فى نصائحه
وأزل أفاويه الحنوط ونحها عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومر الملائكة الكرام بحمله فلطال ماحملن من نعمائه

واستمر محمولا إلى أن أتى به إلى اصطنبول وخرج لاستقباله جميع العلماء والموالى العظام والمشايخ الأتقياء الكرام وسائر أصناف الأنام وبكوا عليه بكاء طويلا وأكثروا نحيبا وعويلا وصلوا عليه وأمهم فى صلاة الجنازة المفتى الأعظم مولانا أبو السعود أفندى عالم بلاد الاسلام ودفن فى تربة أعدها لنفسه رحمه الله تعالى ورثاه الشعراء بكل لسان بقصائد طنانة سارت به الركبان أعظمها وأحسنها قصيدة المفتى المذكور وهى طويلة حسنة حذفت بعضها روما للاختصار وذلك قوله رحمه الله تعالى :

Marfat.com

أصوت صاعقة أم نفخة الصور فالأرض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء دهية وذاق منها البرايا صعقة الطور
تهدمت بقعة الدنيا لرقعتها وانهدما كان من دور ومن سور
أمسى معالمها يتما مقفرة ما فى المنازل من رار وديور
تصعدت قلل الأطواد وارتعد ت كأنها قلب مرعوب ومذعور
واغبر ناصية الخضراء وانكد رت وكاد يمتلىء الغبراء بالمور
فمن كئيب وملهوف ومن دنف عان بسلسلة الأحزان مأسور
فياله من حديث موحش نكر يعافه السمع مكروه ومنقور
تاهت عقول الورى من هول وحشته فأصبحو مثل مجنون ومسحور
تقطعت قطعا منه القلوب فلا يكاد يوجد قلب غير مكسور
أجفانهم سفن مشحونة بدم تجرى ببحر من العبرات مسجور
أنى بوجه نهار لا ضياء له كأنها غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن مضت أوامره فى كل مأمور
ومن ومن ملأ الدنيا مهابته وسحرت كل جبار وتيهور
مدار سلطنة ومركزها خليفة الله فى الآفاق مذكور
معلى معالم دين الله مظهرها فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى إلى الخيرات منصرف وصدق عزم على الالطاف مقصور
بآية العدل والاحسان ممتثل بغاية القسط والانصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد مؤيد من جناب القدس منصور
بلهدمى إلى الأعداء منعطف ومشرفى على الكفار مشهور
وراية رفعت للمجد خافقة تحوى على علم بالنصر ملشور
وعسكر ملأ الآفاق محتشد من كل قطر من الأقطار محشور
له وقائع فى الآفاق شائعة أخبارها زمرت فى كل طامور
يا نفس مالك فى الدنيا مخلقة من بعد رحلته من هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة أليس جسمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى لكن ذلك أمر غير مقدور

فللمنـــايا مواقيت مقدرة تأتى على قدر فى اللوح مسطور
وليس فى شأنها للناس من أثر ومدخل ما بتقديم وتأخير
يانفس فاتئدى لاتهلكى أسفا فأنت منظومة فى سلك مقدور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا بما سوى بذل مجهود وميسور
ولا تظنينه قد مات بل هو ذا حى بنص من القرآن مزبور
له نعيم وأرزاق مقـــدرة تجرى عليه بوجه غير مشعور
ان المنايا وإن عمت محرمة على شهيد جميل الخال مبرور
مرابط فى سبيل الله مفتحهم معارك الحنف بالرضوان مأجور
مامات بل نال عيشا باقيا أبدا عن عيش فان بكل الشر مغمور
ابتـــاع سلطنة العقبى بسلطنة الدنيا فأعظم برح غير محصور
بل حار كلتيهما إذ حل منزلة من لم يغايره فى أمر ومأمور
أما ترى ملكه المحمى آل إلى مرسرى له فى الدهر مشهور
ولى سلطنة الآفاق مالكها برا وبحرا بعين اللطف منظور
ظل الاله ملاذ الخلق قاطبة وملتحى كل مشهور ومدهور
فانه عينه فى كل مأثرة وكل أمر عظيم الشأن مأثور
ولا امتياز ولا فرقان بينهما وهل يميز بين الشمس والنور
سميدع ماجد زادت مهـــابته تخت الخلافة فى عز ومنصور
جد الجديدان فى أيام دولته صارا كأنهما مسك وكافور
أضحى بقبضته الدنيا برمتها ماكان من مجهل منها ومعمور
بدا بطلعته والناس فى كرب وسوء حال من الأحوال منكور
فأصبحت صفحات الأرض مشرقة وعاد أكنافها نورا على نور
سبحان من ملك جلت مفاخره عن البيـــان بمنظوم ومنثور
كأنها ويراع الواصفين لها بحمر خميس إلى منقار عصفور
لازالت أحكامه بالعدل جارية بين البرية حتى نفخة الصور

Marfat.com

(فصل فى بعض مآثر المرحوم السلطان سليمان خان وخيراته وصدقاته الجارية الحسان فى جميع البلدان سيما فى بلد الله الحرام وبلد خاتم الأنبياء والرسل الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) . اعلم ان الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقاهات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات فى كل الجهات التى أنشأها المرحوم السلطان سليمان خان رحمه الله تعالى كثيرة جدا لايمكن حصرها ولا تدخل تحت حيطة البيان ذكرها ولايسعها هذا الكتاب لكنا نذكر جملا من ذلك فما لايدرك كله لايترك كله ونذكر خيراته فى الحرمين الشريفين ونحيل ماعداها إلى السماع والمشاهدة برأى العين فمن ذلك الصدقة الرومية التى هى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين وبها معاشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فانها وان كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام وأجداده الملوك الفخام إلا أن المرحوم السلطان سليمان خان هو الذى زادها وضاعفها وأنماها وكثرها وقررها وأضاف إليها من خزائنه الخاصة مبلغا كبيرا فهى ترد ولله الحمد فى كل عام بدفتر محفوظ مضبوط وأمين وكاتب تقسم فى الحرمين الشريفين تجاه بيت الله المطهر المنيف وتقرأ الفواتح بالاخلاص ويكثر الضجيج من الفقراء والفقهاء والعلماء والصلحاء والدعاء بدوام سلطنة سلطان الزمان والرحمة والرضوان على آبائه وأجداده من آل عثمان وتفرق عليهم حسب الدفتر الشريف السلطانى الموسوم بالشأن الشريف العثمانى فيصرفون ذلك فى قضاء ديونهم فان فضل فضلة صرفوها فى حجهم وكساويهم وأنفقوها على عيالهم وأولادهم ولم يقع الاحسان على هذه الصورة لأحد من السلاطين والخلفاء والملوك وغيرهم ولكن ليست بهذا الضبط والاستمرار والوصول فى محلها وتعميم الناس بها وكانت للخلفاء العباسيين وغيرهم صدقات كثيرة واسعة إلا أنها كانت ترد مرة فى العمر أو عند وصول خليفة منهم إلى الحج ماتحققنا مواظبة وصولها على هذا الوجه الذى شرحناه لأحد غير ملوك آل عثمان خلد الله سلطنتهم وهذه بركة جليلة ونعمة كبيرة جزيلة يتميزون بها على غيرهم فالله تعالى يديم ذلك على جيران بيته الحرام وجيران نبيه أفضل الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام بدوام سلطنة آل عثمان الملوك العظام المخلد ذكر جميلهم فى صفحات الأيام أبقاهم الله تعالى يوم القيامة .

Marfat.com

ومنها صدقة الحب وقد تقدم أن المرحوم سليم خان الأول أول من تصدق بارسال صدقة الحب إلى أهل الحرمين الشريفين عند افتتاحه بلاد العرب وأخذه لاقليم مصر والشام وحلب واستمرت متواصلة إلى زمن المرحوم السلطان سليمان خان وكانت ترسل من انبار الخاص السلطان وأفرد لها السلطان سليمان قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل غلتها وريعها لأهل الحرمين الشريفين وكتب لذلك كتاب وقف حكم بصحته قضاه العسكر بالديوان الشريف العالى وجعل من ريعها ألفا وخمسمائة اردب لأهل المدينة المنورة يجهزها فى كل عام الناظر المولى على ذلك ثم ضاعفها وجعل فى كل عام لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة المنورة ألفى إردب واستمرت ترد كل عام وتوزع على أهل الحرمين حسب دفتر مقيد بأحكام شريفة سلطانية وتذاكر باشوية وتقريرات من القضاة ونظار الحرم الشريف واستقر الحال على ذلك واستمر إلى أوائنا هذا إلى ما بعد إن شاء الله تعالى وهذا أيضا احسان عظيم وخير جميل عميم صار سببا لمعاش أهل الحرمين الشريفين وتقوتهم ومادة لحياتهم ومعيشتهم وأودهم وقوتهم فلو عدموه والعياذ بالله هلكوا والدعاء من صميم قلوبهم مبذول فى الحرمين الشريفين بدوام دولة سلطان الزمان والترحم على آبائه الكرام وأسلافه العظام وهذا الاحسان لم يعهد فى زمن السلاطين السابقة ولا أيام الخلفاء السابقة بل هو مخصوص بسلاطين آل عثمان إلا ما فعله السلطان قايتباى رحمه الله تعالى بعد ما حج بيت الله الحرام وزار المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فانه وقف على أهل المدينة ضياعا وقرى يصل ريعها إلى الآن إلى الحرمين الشريفين وللسلطان جقمق أيضا أوقاف يصل منها شىء دون ذلك إلى الحرمين الشريفين وقد آلت أوقافها إلى الخراب وضعف ريعها جدا وأما الأوقاف الشريفة العثمانية فعامرة آهلة يفيض منها الزوائد ويحصل منها النمو وعليها مدار معيشة أهل الحرمين الشريفين عمرها الله تعالى وأنماها وعمر عمر من عمرها ويزكى من زكاها .

ومنها صدقات الجوالى وهى جمع جالية ومعناه مايؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها وهى من أجل الأموال

Marfat.com

أن أخذت على وجهها المشروع ولأجل جلها جعلت وظائف العلماء والمتقاعدين من الكبراء. وكان يخرج منها شيء قليل فى أيام الچراكسه لبعض المشايخ فلما كانت سلطنة المرحوم السلطان سليمان خان نور الله تعالى مرقده وحقه بالرحمة والرضوان أخرجها من خزائنه العامرة بالتدريج إلى العلماء والمشايخ من أهل الحرمين الشريفين ومن أهل مصر ومن المتقاعدين بمصر وبالحرمين الشريفين إلى أن استوعب صرفها جميعها وزاد عليها قدرا أخرجه من خزائنه الشريفة وذلك من حوالى مصر وحدها غير حوالى الشام وحلب وغيرها من الممالك الشريفة العثمانية وغير ما يصرف على الفقراء والعلماء والمشايخ من محصول المملكه فى سائر ممالكهم المحروسة وغير ما يصرف ملوك بنى عثمان من ريع أوقافهم وزوائدها وغير ما يخرجون من خزائنهم العامرة فى وجوه الخيرات واستمرار هذه الادرارات لأحد من السلاطين والخلفاء والملوك العظام الكرام الحنفاء فى زمن من الأزمان فى دولة ملك أودور سلطان فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة الباهرة والسلطنة القاهرة الفاخرة الزاهرة إلى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة .

ومن خيراته الدارة إجراء العيون ومن أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة المشرفة وسبب ذلك أن العين التى كانت جارية بمكة هى عين حنين وهى من عمل أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد واسمها أمة العزيز وكان جدها المنصور يرقصها وهى طويلة ويقول أنت زبيدة فاشتهرت بها وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة إلى الآن .

ومنها إجراء عين حنين إلى مكة المشرفة وأصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت إلى مكة المشرفة وهى واد قليل الأمطار بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذى زرع فنقبت أم جعفر زبيدة الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى أرض الحرم واتفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب فلما تم عملها اجتمع المباشرون ولعمال لديها وأخرجوا دفترهم لاخراج حساب ما أصرفوه ليخرجوا من عهدة ما تسلموه من خزائن الأموال وكانت فى قصر عال مطل على الدجلة فأخذت الدفاتر ورمتها

فى بحر الفرات وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقى عنده شىء من بقية المال فهو له ومن بقى له شىء عندنا أعطيناه وألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين وبقى لها هذا الأثر العظيم فى العاملين رحمها الله تعالى وأسكنها الفردوس فى أعلا عليين .

وكانت هذه العين ترد إلى مكة وينتفع بها الناس ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شامخ يقال له طاد بالطاء المهملة والألف بعدها دال مهملة من جبال النية من طريق الطائف وكان يجرى الماء إلى أرض يقال لها حنين ليسقى به نخيل ومزارع مملوكة للناس وإليها ينتهى جريان هذا الماء وكان يسمى حائط حنين يعنى بساتين حنين وهو موضع غزا فيه النبي صلى الله عليه وسلم المشركين ويقال لتلك الغزوة غزوة حنين وخبرها مذكور فى كتب سير النبي صلى الله عليه وسلم فاشترت زبيدة هذا الحائط وأبطلت تلك المزارع والنخيل وشقت له القناة فى الجبال وجعلت له الشحاحيد فى كل جيل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الأمطار وجعلت فيه قناه متصله إلى مجرى هذا العين فى محاذاتها يحصل منه المدد لهذه العين فصار كل شحاد عينا يساعد عين حنين منها عين مشاش وعين ميمون وعين الزعفران وعين البرود وعين الطارق وعين تقبة والجرنيات وكل مياه هذه العيون تنصب فى ديل عين حنين بعضها ويزيد بعضها وينقص بحسب الأمطار الواقعة على أم احدى هذه العيون أو على جميعها إلى أن وصلت على هذه الصورة إلى مكة المشرفة .

ثم أنها أمرت باجراء عين وادى نعمان إلى عرفة وهو عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل شامخ عالى جدا أعلاه أرض الطائف مسير نصف نهار من أسفله إلى أعلاه من صعد فيه أو نزل منه مرة لا يعود إليه لوعورة مرقاه وصعوبته وينصب من ذيل جبل كرا فى قناة إلى موضع يقال له الاوجر من وادى نعمان ويجرى منه إلى موضع بين جبلين شاهقين فى علو أرض عرفات فيها ولشعراء العرب تشوقات وتغزلات فى وادى نعمان وفيه يقول القائل :

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

(وبعده) فان الصبا ريح إذا ما تنسمت على كبد حر تجلت همومها

Marfat.com

فعملت القنوات إلى أن جرى ماء عين نعمان إلى أرض عرفة ثم أديرت القناة بجبل الرحمة محل الوقوف الشريف الأعظم فى الحج وجعل منها الطرق إلى البرك التى فى أرض عرفات فتمتلىء ما يشرب منه الحجاج فى يوم عرفه ثم استمر عمل القناة إلى أن أخرجت من أرض عرفات إلى خلف جبل من وراء المازمين على يسار العابر من عرفات ويقال له طريق ضباب بالضاد المعجمة المفتوحة والألف بعدها باء موحده مشددة وتسمى الآن عند أهل مكة المظلة بضم الميم ثم ظاء معجمة ساكنة فلام مكسورة ثم ميم مفتوحة ثم هاء التأنيث .

ثم تصل منها إلى مزدلفة ثم تصل إلى جبل خلف منى فى قبليها ثم تنصب إلى بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جدا تسمى بئر زبيدة إليها ينتهى عمل هذه القناة وهى من الأبنية المهولة مما يتوهم أنه من بناء الجن .

ثم صارت عين حنين وعين عرفات تنقطع لقلة الأمطار وتهدم قنواتها وتخربها السيول بطول الأيام وكانت الخلفاء والسلاطين اذا بلغهم ذلك أرسخا وعمروها عند انتظام سلطنتهم على هذا المنوال فمن عمرها صاحب أربل وهو الملك الجليل مظفر الدين كجك كوكيودى بن ملى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وكوكيودى معناه بالتركى الذئب الأزرق وكان كثير الخير والاحسان وله ترجمة واسعة فى وفيات الأعيان لقاضى القضاة أحمد بن خلكان رحمهما الله تعالى ذكر له أوصافا كريمة ومكارم عظيمة ذكر منها عمارة عين عرفات وغيرها من جزيل الخيرات ثم عمرها صاحب أربل مظفر الدين المذكور فى سنة خمس وستمائة .

ثم عمرها بعد ذلك أمير المؤمنين المستنصر بالله العباسى فى سنة خمس وعشرين وستمائة ثم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ثم فى سنة أربع وثلاثين وستمائة كما وجدت ذلك مكتوبا فى نصب حجارة مبنية فى قرب الموقف الشريف بعرفات .

ثم بعد مائة عام تقريبا عمر عين حنين الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراقين فى أيام السلطان أبو سعيد خدا بنده فى سنة ست وعشرين وتسعمائة فأجرى عين حنين الى مكة وعم نفعها لأهل مكة فانهم كانوا فى جهد عظيم لقلة الماء فرحمهم الله بذلك رحم الله تعالى أهل الخير ،

Marfat.com

ثم عمرها شريف مكة يومئذ السيد الشريف حسن جد سادتنا أشراف مكة الآل أبقاهم الله تعالى وأدام عزهم وسعاتهم مد الزمان وكان من أهل الخير والاحسان أجزل الله ثوابه فى الجنان .

وكان تعميره لها فى سنة احدى عشرة وثمانمائة فجرت وانفجرت ونفعت وأبلجت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد تقبل الله منهم صالح أعمالهم

ثم انقطعت ولقى الناس لذلك شدة شديدة إلى أن عمرها صاحب مصر من ملوك الجراكسة الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة هكذا ذكره النسفى القاضى رحمه الله تعالى .

ثم عمرها وعمر عين عرفات أيضا بعد ذلك من ملوك الجراكسة السلطان الملك الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى عمر عين عرفات وأجراها إلى أرض عرفات وأجراها إلى أرض عرفات وعمر عين حنين إلى أن جرت إلى مكة وعمر عين خليص وحصل بها الرفق للحجاج وأهل البلاد ودعوا له وأثنوا عليه بذلك وباحساناته وكثرة خيراته ضاعف الله تعالى آخره ومثوياته وذلك بمباشرة الأمير يوسف الجمالى وأخيه الأمير سنقر الجمالى رحمهما الله تعالى فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة .

ثم عمر عين حنين آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغورى رحمه الله تعالى فى عام ست عشرة وتسعمائة على يد الأمير خير بك العمار رحمه الله تعالى إلى ان جرت وملأت بركا لحجاج والمعلاه ثم جرت إلى باران ثم إلى بركة ماجن فى درب اليمن من أسفل واتفق الناس بذلك ثم انقطعت فى أوائل الدولة العثمانية بهذه الأقطار الحجازية وبطلت العيون وتهدمت قنواتها وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة وصار أهل البلاد يستقون من الآبار حول مكة من أبيار يقال لها العسيلات فى علو مكة قريب من المنحنا ومن آبار فى أسفل مكة من مكان يقال له المواهد ويسمى الآن الجوخى فى طريق التنعيم وكان الماء غاليا قليل الوجود وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأمكنة البعيدة وصار فقراء الحجاج يوم عرفة لا يطلبون شيئاً غير الماء لعزته ولا يطلبون الزادور بما جلبه بعض الأقوياء من الأماكن البعيدة للبيع فيحصلون أموالا

Marfat.com

من تلك الأماكن البعيدة أيضا فارتفع سعر الماء جدا فى يوم عرفه وكنت يومئذ مراهقا فى خدمة والدى رحمه الله تعالى وفرغ الماء الذى كنا حملناه من مكة الى عرفات وعطش أهلنا فتطلبت قليلا من الماء للشرب فاشتريت قربة صغيرة جدا يحملها الانسان باصبعه بدينار ذهب والفقراء يصيحون من العطش يطلبون من الماء ما يبل حلوقهم فى ذلك اليوم الشريف فشرب أهلنا بعض تلك القربة وتصدقوا بالباقى على بعض من كان مضطرا من الفقراء وعطشنا عقيبه وجاء وقت الوقوف الشريف والناس عطاش يلهثون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله تعالى ورحمته والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم وحصل البكاء الشديد والضجيج الكثير من الحجاج فى تحت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم واحسانه اليهم وتكرمه عليهم ولا أزال أتذكر تلك الساعة وما حصل بها من اللطف العظيم من كرم الله العميم وأرجو به كرم الكرم وأتيقن أنه الغفور الرحيم الذى أنزل على عباده الرحمة من بعد ما قنطوا وبرزن الأوامر الشريفة السلطانية السليمانية باصلاح عين حنين وإصلاح عين عرفات وعين لها ناظر اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة فبذل جهده فى عمارتها وأصلح قناتها إلى أن جرت عين مكة ودخلتها وجرت من من أسفلها من بركة ماحن وأصلح عين عرفات وأجراها إلى أن صارت تملأ البرك بعرفات وذلك فى سنة احدى وثلاثين وتسعمائة وصار الحجاج يروون من ذلك الماء العذب الفرات بعد ذلك العطش الشديد فى يوم عرفات ويدعون لمن كان سببا لاجراء هذه الخيرات .

ثم اشترى ناظر العين عبيد سودا من مال السلطنة وجعل لهم جرايات وعلوفات من خزائن السلطنة الشريفة برسم خدمة العين ولاخراج أتربتها من الديول والقنوان وهذه خدمتهم دائماً وصارو يتوالدون وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة لهذه الخدمة .

ثم توجه مصطفى ناظر العين إلى الأبواب السلطانية السليمانيه وعرض فى أمر العين أحوالا يجب عرضها فأجاب فى كل ما سئل فيه وعاد مجبورا إلى مصر ثم

Marfat.com

ركب من بندر السويس إلى مكة ففرق بحر القلزم شهيدا وما غرق إلا فى رحمة الله تعالى وما مات بل هو حى عند الله تعالى .

وكانت وفاته إلى رحمة الله تعالى فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة واستمرت عين حنين جارية إلى مكة لكنها تقل تارة وتكثر أخرى بحسب قلة الأمطار وكثرتها وعين عرفات تجرى من نعمان إلى عرفات إلى أن صارت عرفات بساتين وغرس بها الغروس وصارت مرحة خضراء تتجلى كالعروس إلى أن قلت الأمطار ويبست العيون ونزحت الآبار فى سنين متعددة من سنة خمس وستين وتسعمائة وما بعدها وكانت سنوات تقارب سنى يوسف شدادا عجافا وانقطعت العيون الاعين عرفات فانها لم تنقطع إلا أنها قل جريانها فى تلك السنوات .

ولما عرضت أحوال العيون إلى الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية التفت الخاطر السليمانى العاطر السلطانى وتوجه العطف الشريف السليمانى إلى تدارك ذلك بأى وجه يكون وأمر بالفحص عسر أحوال العيون وكيف يمكن جريانها إلى بلد الله الأمين المأمون فاجتمع المرحوم عبد الباقى بن على المعربى قاضى مكة يومئذ والأمير خير الدين خضر سنجق جدة المعمورة حينئذ وغيرهما من الأعيان وتفحصوا وداروا وتأملوا واستشاروا فأجمع رأيهم على أن أقوى العيون عين عرفات وطريقها ظاهرة ودبولها من بئر زبيدة إلى مكة مبنية أيضا وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر إلى أن تظهر لأن زبيدة لما بنيت الدبول من عرفة إلى بئرها المشهور خلف منى الذى جميعها ظاهر على وجه الأرض فالباقى أيضا من ذلك المحل إلى مكة مبنى أيضا إلا أنه خاف تحت الأرض واستغنى عنها بعين حنين وتركت هذه ونبشت وطمت وغفل عنها هكذا ظنوا وخمنوا ثم انهم تتبعوا عين عرفات من أولها من الأوجر إلى نعمان ثم إلى عرفة ثم إلى المزدلفة ثم إلى بئر زبيدة وأصلحوا هذه الدبول الظاهرة وكشفوا عن الباقى وبنوا ماوجدوا منها منهدما ورمموا الباقى احتاجوا إلى ثلاثين ألف دينار ذهبا وذراعوه وقاسوه فكان من الأوجر الى بطن مكة خمسا وأربعين ألف ذراع بذراع البناء الآن وهو أكبر من الذراع الشرعى بقدر ربعه وهذا الذى تخيلوه من وجود بقية الدبل

Marfat.com

تحت الأرض لم يوجد فى كتب التاريخ وإنما أداهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا ذلك إلى الباب الشريف فى أوائل سنة تسع وستين وتسعمائة .

فلما وصل علم ذلك إلى المسامع الشريفة السلطانية السليمانية التمست صاحبة الخيرات الكليلة المخدرات تاج المحصنات ملكة الملكات قدسية الملكات علية الذات صفية الصفات ذات العلا والسعادت (حضرة خاتم سلطان) كريمة حضرة السلطان الأعظم سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان أن يأذن لها فى عمل هذا الخير حيث كانت صاحبة هذا الخير أولاد أم جعفر زبيدة العباسية فتناسب أن تكون هى صاحبة هـــذا الخير فأذن لها فى ذلك فاستشارت الحضرة السلطانية وزراء ديوانها الشريف العالى فيمن يصلح لهذه الخدمة فاتفقت آراءهم الشريفة أن هذه الخدمة لا يقوم بها إلا دفتر دار ديوان مصر الأمير الكبير المعظم فائض الجود والفضل والكرم صاحب السيف والقلم والعلم والعلم (الأمير ابراهيم بن تغرى بردى) المهمندار ثم الدفتر دار بمصر بوأه الله جنات تجرى من تحتها الأنهار وسقاه من حوض الكوثر زلالا باردا يطفىء كل أرام وأوار وكان يومئذ قد عزل من منصب الدفترداريه وأمر بالتفتيش عليه عن أيام دفترداريته فعفى من التفتيش وأعطته السلطانة خمسين ألف دينار ذهب على ما خمنوه ليصرفها فى عمل هذه العين فتوجه من البحر إلى مكة المشرفة بتجمل عظيم وبرق كثير وترتيب يعجز عنه كبار البكلربكية وكان ذا همة غالية وأقدام عظيم واهتمام تام وكرم نفس وشهامة وحسن تدبير ومعرفة وحذاقة وفطنة وكان بينى وبينه سابقا اجتماع وما رأيت أحدا من الأمراء والوزراء والبكلربكية مع كثرة من اجتمعت به منهم أجمل نظاما ولا أحسن ترتيبا وانتظاما ولا أدق فكرا ولا أعلى همة ولا أصدق وفاء منه رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة وبوأه الفردوس الأعلى وأرضى عنه خصماء يوم القيامة وكان وصوله إلى بندر جدة فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى القعدة الحرام سنة تسع وستين وتسعمائة فتوجهت إلى ملاقاته لسابق إحسانه إلى فرأيته نزل بوطاقة من خارج جدة من الجهة الشامية فقابلنى بالاجلال والاكرام وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى نجم الدين محمد أبى نمى خلد الله سعادته وأيد دولته وسيادته وكان يومئذ نازلا فى مر الظهران فقابله بالاجلال

والتعظيم والترحيب والتكريم ومد له سماطا عظيما ولاطفه ووا كله وأكرمه وباسطه وجابره فعرض على حضرته الشريفة ماجاء بصدده فقوبل بامتثال الأمر الشريف السلطانى وبذل الهمة والجهد فى اتمام المهم المنيف الخاقانى وأنه يقوم بذلك بنفسه وولده واتباعه وخدمه ثم ركب من عند دخوله إلى مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن أبو نمى صاحب مكة أدام الله عزه وسعادته وضاعف نصره وتأييده وسيادته وأبدله الاجلال والاكرام وقابله الترحيب والاحترام وجابره ولاطفه وباسطه ووالفه وأقبل كل منهما على الآخر كمال الاقبال وتحادثا بغاية الأدب والاحلال واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام فدخل المسجد الحرام فطاف طواف القدوم وكان محرما بالحج وسعى بين الصفا والمروة وعاد إلى بحمع قايتباى وهو المحل الذى عين لنزوله ومد له من قبل السيد حسن مد الله تعالى طلال سعادته سماط عظيم جليل كبير فجلس عليه وأكل منه هو وخواصه وأذن لأهل الرباط والفقراء والفقهاء وعامة الناس فأكلوا وحملوا وفضل شىء أمر بتفريقه على الفقراء وألبس الذى مد السماط قفطانا من السراسر العال وأعطاه ذهبا كثيرا .

ثم جاء للسلام عليه سيدنا ومولانا رئيس الحرمين الشريفين وكبير البلدين المنيفين شيخ الاسلام مرجع العلماء الأعلام سيد السادات ببلد الله الحرام بدر الدنيا والدين مولانا السيد القاضى حسين الحسنى أدام الله عزه واقباله وخلد سعادته ودولته واجلاله ففرح به الأمير ابراهيم وقابله بالاجلال والتعظيم فعرض عليه أموره وأحواله واستشاره فى سائر ما بدا له من أحواله فأشار عليه بالآراء الصائبة واعلمه بما ينبغى رعايته ومرعى جانبه وما يجب عليه ملاحظته من الأمور اللازمة الواجبة .

(وأول مابدأ به الأمير ابراهيم) تنظيف بعض الآبار التى يستقى الناس منها وأخرج ترابها وزيادة حفرها لكثرة ماؤها وحصل للناس بذلك رفق كثير وشرع فى جمع مايحتاج إليه فى عمله وتوجه للكشف عنه إلى أعلا عرفات وكثر تردده إليها وتفطنه لمجاريها ومثاقبها ومشاربها ومساربها والفحص عن أحوالها إلى أن

Marfat.com

وصل الركب والمصرى كان أمير الحاج يومئذ افتخار الأمراء الـكرام عثمان بك ابن بكاربكى اليمن بكاربكى الحبشة ازدمر باشا وصار بعد ذلك عثمان بكار بكى الحبشة بعد وفاة والده وصار بكار بكى اليمن وأظهر اليد البيضاء فى افتتـــاح مدينة تغر .

ثم صار بكار بكى الحسا ثم البصرة ثم قره آمد هو من البكاربكية الـكرما العظماء المتجملين المشهورين بالـكرم والشجاعة ابقاه الله تعالى وصل إلى مكة قاضياء فى ذلك الموسم مع الركب الشامى هو أعلم العلماء الموالى أفضل الفضلاء الأهالى مولانا فضيل أفندى ابن مولانا على چلبى المفتى الجمالى هو من أجلاء العلماء العظام له التصانيف الحسنة المقبولة هو الآن أو تراق فى الباب العالى مد الله تعالى ظلال أفضاله أفاض على الطلاب سحائب فضله وكماله حج الناصر حجة هنيئة وحج الأمير ابراهيم فرض حجه وعاد الحجاج إلى أوطانهم فائزين بالغفران والقبول حائزين لـكل مطلب مأمول .

شرع الأمير ابراهيم فى الـكشف عن دبول عين عرفات وضرب أوطاقه فى الأوجر من ادات نعمان فى علو عرفات وشرع فى حفر قعرها وتنظيف دبولها بهمة عالية جدا وكانت عماليـكه القائمين فى خدمته نحو أربعمائة مملوك فى غاية الجمال والرشاقة والحداقة واللياقة وأقامهم فى هذا العمل من الأوجر إلى مزلفة وكتب نحو ألف نفس من العمال والبنائين والمهندسين والحفارين وجلب من مصر وبلاد الصعيد ومن الشام وحلب واصطنبول ومن بلاد اليمن طوائف بعد طوائف من المهندسين وخدام العيون والآبار والحدادين والبنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرها ممن يحتاج إليهم وأتى بآلات العمارة وصحبها معه من مصر من مكاتل ومساحى ومجاريف وحديد وبولاد ونحاس ورصاص وغير ذلك من الهمة القوية والأقدام الثمام والاهتمام وعين لـكل طائفة قطعة من الأرض لحفرها وتنظيف ما فيها عن الدبول ليظهر فيها سعيه واجتهاده وكان يظن أنه يفرغ من هذا العمل الذى جاء بصدده فيما دون العام ويرجع إلى الأبواب السلطانية لينال المناصب العالية ويظفر بالمراتب السامية ويأبى الله إلا ما أراد وما كل ما يتمنى المرء يدركه من المراد

وألسنة الأقدار تناديه من وراء الحجاب كيف الخلاص وإلى أين الذهاب واستمر على هذا الجد والاجتهاد إلى أن اتصل عمله بعمل زبيدة إلى البئر الذى انتهى عملها إليها ولم يوجد بعده دبل ولا آثار عمل وضاق ذرعه بذلك وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر الباقى من هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطراراً بغير اختيار وعدلت عنه إلى عين حنين وتركت العمل من عند البئر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعة وطول مسافة مايجب قطعه فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض فى الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه ويصل إلى مكة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الحجر فإنه يحتاج فى النزول إلى خمسين ذراعا فى العمق وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظاً لناموس السلطنة الشريفة فما وجد الأمير ابراهيم حيلة غير أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ليلة كاملة فى مقدار سبعة أذرع فى عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا فى العلو لكونها تعمل عملا يسيراً من جانب السفل مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً من ذراع فيكسر بالحديد إلى أن يوصل إلى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة أخرى إلى أن ينزل فى ذلك الحجر مقدار خمسين فى العمق فى عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفى ألفى ذراع على هذا الحكم وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب وما رأى عن ذلك محيصاً فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك وتعب الأمير ابراهيم لذلك ووهبت أمواله وخدامه وأولاده ومماليكه على ذلك إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع بالعمل وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب مصروفا آخر إلى أن أصرف أكثر من خمسمائة ألف دينار ذهبا من الخزائن العامرة السلطانية وغرق له مركب كان فيه باقى تجملاته وخزائنه ونقوده وفيه جملة من عبيده وأسبابه وكان ينوف على مائة ألف ذهب فى ابتداء أمره ثم مات له ولد طفل نجيب كان كان خلفه بمصر احترق عليه كثيراً ومات له ولدان مراهقان نجيبان فاضلان أخذ

Marfat.com

بمجامع قلبه وفتتا كبده ثم مات كتخداه وكان بمنزلة أمراء السناجق ثم مات أكثر مماليكه وهو يتجلد لتلك المصائب العظيمة ويتصبر عليها ويظهر الجلد فيها إلى أن ذهبت قواه ومابقى رمقه ولا دماه ونزفه الإسهال ورمته الأهوال وجاءه الأجل الذى لا يتقدم وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر فمات غريباً شهيداً ومضى إلى ربه وحيداً فريداً فى ليلة الاثنين ثانى رجب المرجب سنة أربع وسبعين وتسعمائة وصلى عليه عند باب الكعبة وكانت جنازته حافلة جداً وأسف الناس على فقده لكثرة إحسانه ودفن بالمعلاة على يمين الصاعد إلى الأبطح فى تربة كان أعدها لنفسه ودفن بها ولديه وخلف طفلا وحملا وبنتا من أهل الخير كثيرة الصلاح والعبادة .

كان ذكر لى أن مولده سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة رضى الله تعالى عنه وأرضى عنه خصماه وأمنه يوم الفزع الأكبر وسقاه من حوض الكوثر .

ثم أقيم بعده فى هذه الخدمة سنجق جده الأمير قاسم بك بإقامة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته وأمره بمباشرة العمل وعرض ذلك على الأبواب الشريفة السليمانية فبرز الأمر الشريف السلطانى باستمرار قاسم بك المذكور فى خدمة العين أميناً على مصارفها وأن يكون سيدنا ومولانا شيخ الإسلام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام بدر الدنيا والدين السيد القاضى حسين الحسنى خلد الله تعالى ظلال سيادته وأبد قيام سعادته ناظراً على ما بقى من عمل عين عرفات إلى أن تصل إلى مكة المشرفة فاستمر الأمير قاسم مباشراً لتعاطى هذه الخدمة وكان لايخلو من قصور الفهم وحب الاستقبال وبعض عناد وما أراد مولانا شيخ الإسلام معارضته فتركه على رأيه وما أراد الله أن يتم العمل الشريف على يد قاسم بك فكان ثالث الأمرين السابقين فطرقه الأجل وأدركه الحين وفاز برتبة الشهادة وصار من شهداء العين وانتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية قرير العين من ليلة خلت من رجب المرجب الفرد الأصب سنة ست وسبعين وتسعمائة وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة ودفن بالمعلاه إلى جانب الأمير محمد بك الدفتر دار المتوفى قبله أمين العين

المزبورة واستوفت العين به ثلاثة من الأمراء السناجق سقاهم الله تعالى شربا طهوراً وكان بهم برآ رحيما غفورا .

ثم توجه سيدنا ومولانا شيخ الإسلام السيد القاضى حسين الحسنى مد الله تعالى ظلال أفضاله وأقام خيام عزه وعظمته واجلاله توجها تاما إلى تكميل مابقى من عمل عين عرفات باعتبار ما بيده من النظر عليها حسب الأحكام الشريفة السلطانية النافذة فى الأقطار والجهات وجد فى الاهتمام وعرض على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية بأن يكمل ذلك العمل سيدنا ومولانا شيخ الإسلام القاضى حسين المشار إلى خدمته آنفاً فأقدم بهمته العلية أتم أقدام إلى إكمال هذا العمل الشريف بالاهتمام فساعدته السعادة والإقبال على الاتمام والاكمال فكمل العمل المبارك فيما دون خمسة أشهر بعد أن عجز عن إتمامه الأمراء المذكورون قريبا من عشرة أعوام وهلكت نفوسهم وأموالهم وخدامهم وما ظفروا بهذا المرام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فجرت عين عرفات وانفجرت ينابيعها الجاريات ووصل الماء وهو يجرى فى تلك الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذى القعدة الحرام سنة تسع وسبعين وتسعمائة .

وكان ذلك اليوم عيداً أكبر عند الناس وزال بوصول ذلك الماء إلى البلد كل هم وبأس وعمل فى ذلك اليوم سيدنا ومولانا المشار إليه اسمطة عظيمة فى الأبطح ببستانه العظيم الأفيح وجمع بين الأكابر والأعيان فى ذلك المكان ونصب لهم السرادقات والصيوان وذبح أكثر من مائة من الغنم ونحر عدة من الابل والنعم وقدم للناس على طبقاتهم أنواع الموائد والنعيم وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والبنائين والمهندسين خلعا فاخرة وأحسن إلى باقيهم بالانعامات الوافرة وتصدق على الفقراء والمساكين وأنعم على الكبراء والأساطين شكرا لهذه النعمة الجزيلة وحمدا على هذه المنة الجميلة حيث أنعم الله بها على عباده وأحيا وأخصب منها خير بلاده وكان يوما مشهودا وساعة سعيدة وزمانا مسعودا .

ثم جهز أخبار هذه البشائر العظمى وحصول هذه النعم الجزيلة الكبرى إلى الباب الشريف العالى السلطانى الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان سليم خان

Marfat.com

سقاه الله كؤس الرحمة والرضوان من حوض الكوثر فى أعلى غرفات الجنان إلى سرادقات ذات الحجاب الرفيع والستر السابغ المسبول المنيع صاحبة الخيرات ملكة المليكات بلقيس الزمان .

(حضرة خانم سلطان) أدام الله تعالى ظلال عفتها وعصمتها وأسبغ أستار رفعتها وعظمتها فأنعمت الصدقات الشريفة السلطانية بالانعامات الجزيلة والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر المباشرين والمتعاطين بهذه الخدمة الشريفة الجليلة وحصل لمولانا شيخ الاسلام المشار إلى حضرته الشريفه ترقيات عظيمة فصارت مدرسة السلطانية السليمانية بمائة عثمانى وما عهد ذلك لأحد من الموالى العظام فى مدارسهم وجهزت إليه أنواعا من الخلع الشريفة الفاخرة وخوطب من قبل السلطنة الشريفة الخاقانية بالخطابات العالية الوفية السامية المتضمنة للشكر الجميل منه وأنه دخل فى جملة خواص السلطنة الشريفة المشمولين بنظر عواطفها المنيفة وإنعاماتها الجزيلة الوريفة وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالى والأيام والأعمال الصالحات الباقيات التى لا يفنيها تكرر السنين والأعوام وما عند الله من تضاعيف الأجر والثواب فهو خير وأبقى عند أولى الألباب .

(ومن آثار المرحوم السلطان سليمان خان بمكة المشرفة المدارس الأربعة السليمانية) وسبب ذلك أن الأمير إبراهيم أمير اجراء عين عرفات أسكنه الله من الجنة الغرفات عرض على الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية وأنهى إلى الأعتاب العلية الخاقانية أن المناسب للشأن الشريف السلطانى وقدره العلى السامى السليمانى أن يكون لحضره السلطان بمكة المشرفة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة المشرفة علم الفقه ليكون سببا لاشتغالهم بعلم الشرع والدين ويرتفقون بوظائفها ويكون سببا لاحياء علم الشريعة ويسطر ثواب ذلك فى صحائف السلطنة الشريفة فأجابه السلطان سليمان المرحوم إلى دلك وبرزت الأوامر الشريفة السلطانية بعمل ذلك وعين لهذه الخدمة الأمير قاسم أمير جدة المذكورة آنفا وأن يبادر إلى عمل ذلك فى أحسن الأماكن اللائقة لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبى من المسجد الحرام المتصل به من ركن المسجد الشريف إلى باب الزيادة وكان به

Marfat.com

البيمارستان المنصورى ومدرسة لصاحب كيبانة السلطان أحمد شاه سلطان كجرات من أقاليم الهند وكان من أصحاب الخير الكثير شديد المحبة للعلماء كثير البر والصدقات وكانت المدرسة بيد مؤلف هذا التاريخ والبيمارستان المنصورى وأوقاف المؤيد للسلطان الملك المؤيد شيخ سلطان مصر من ملوك الجراكسة وعدة دور تتعلق بسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن صاحب مكة المشرفة أدام الله عزه وإقباله ورباطا يقال له رباط الظاهر فاستبدل البيمارستان واستبدلت المدرسة برباط كان بناء الخواجا نجشى القرمانى ولم تثبت وقفيته فباعه ورثته فاشترى لجهة السلطنة الشريفه وجعل بدلا عن مدرسة الكينانية واستبدل رباط الظاهر برباط آخر فى سويقة أحسن وأمكن فيه ووقف موضعه بدلا عنه .

(وأما الدول التى لسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن أدام الله تعالى عزه ودولته فقدمها جميعها للسلطنة الشريفة واستبدلت أوقاف المؤيد بضياع قرى فى الشام اختارها ذرية المؤيد الموقوف عليهم وكتب مستنداتها وحججها وشرع الأمير قاسم فى هدمها وطلب العلماء والصلحاء والاشراف ووضعوا الأساس فتقدم قاضى مكة المشرفة يومئذ قدوة العلماء الأهانى وصفوة العلماء الموالى مولانا شمس الملة والدين أحمد بن أحمد بن محمد بك النشانجى عظم الله تعالى شأنه ورفع قدره ومكانه ووضع بيده الشريفة الأساس وتبعه من حضر من العلماء والسادات وأعيان الناس ووضع كل واحد منهم حجرا فى ذلك الاساس وكان يوما مشهودا مباركا مسعودا وذلك لليلتين خلتا من رجب المرجب سنة اثنتين وسبعين وتسعمائه وكان عمق الأساس عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع بذراع العمل ووضع فيه صخار كبار جدا وأحكموا الأساس أحكاما قويا واستمر قاسم بك فى بذل الجد والإجتهاد مشدود الوسط كأنه بعض العمال يجرى بعصاه من أول العمل إلى آخره بقوة وجلادة من غير دقة فهم ولا لطف طبع مع الجلافة والغلط والاستبداد بالرأى وعدم المشاورة وعدم الاصغاء إلى رأى أحد فأتم بناء المدارس الأربع فى غاية الأحكام فى بعض الجدارات من غير تنميق وعمل بها مأذنة عالية أحسن فيها ووقف لسقوف المدرسة ولدور ايوانها خشبات عتيقات

Marfat.com

واهيات تكسرت وسقطت بعد وفاته وجددها مولانا شيخ الاسلام على وجه الاتقان والإحكام وكتب قاسم بك بعض طرازها بخط ردى منحط وبعضه بخط رائق فائق لكونه أميالا يعرف الكتابة ولا يصغى إلى كلام أحد وصارت الأحكام تتوارد إلية بالاستعجال والاهتمام وهو يستعجل فى الاتمام وعين المرحوم سليمان عليه الرحمة والرضوان وظائف المدرسين والطلبة وغير ذلك من أوقافه بالشام وعين لكل مدرسة خمسين عثمانيا فى كل يوم وعين للمعيد أربعة عثامنة فى كل يوم ولكل مدرس خمسة عشر طالبا لكل طالب عثمانيين وللفراش وكذلك وللبواب نصف ذلك يجهزها فى كل عام ناظر الأوقاف السليمانية بالشام مع الركب الشامى إلى مكة المشرفة فيوزع على المدرسين ولم تكمل المدارس الأربع إلا فى دولة السلطان الأعظم مالك الممالك الترك والروم والعرب والعجم السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان عليهما الرحمة والرضوان فأنعم بالمدرسه المالكية السليمانية وهى رأس المدارس الأربعه على سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام سيد العلماء والموالى العظام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام مولانا السيد القاضى حسين الحسنى أدام الله فوائده على الدوام بخمسين عثمانيا ثم رقاه إلى أن صارت مدرسة بمائة عثمانى.

وأنعم بالمدرسة الحنفية السليمانية على مؤلف هذا الكتاب بخمسين عثمانيا فى أواسط جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة فقرأت فيها قطعة من الكشاف والهداية وقطعة من تفسير المفتى الأعظم مولانا أبى السعود العمادى بوأه الله غرفات الجنان وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرحمة والرضوان وقرأت فيها درسا فى الطب ودرسا فى الحديث وأصوله وإنى أدرس الآن تكميل شرح الهداية للعلامة الكمال ابن الهمام الذى كمله لأن علامة علماء الاعلام فهامة فضلاء الموالى العظام مالك ناصية العلوم وفارس ميدانه وحائز قصبات السبق فى جلبة رهانها فريد دهره فى التحقق والاتقان ووحيد عصره فى التدقيق والايقان صاحب التصانيف الفائقة التى سارت بها الركبان وتداولتها العلماء فى سائر البلدان الكريم المحسن إلى محبيه غاية الاحسان مولانا شمس الملة والدين أحمد المعروف بقاضى زاده أفندى قاضى العسكر بولاية أناطولى أظهر الله على قلبه ما خفى ودق عن الافهام وأفاض من زلال ألفاظه العذبة ما يروى أكباد العلماء الاعلام ذكر فيه من التحقيقات ما فات ابن

الهمام وقلد أعناق مذهب النعمان قلائد در منسق النظام ومد لطلاب العلم الشريف موائد فوائد وضعها لهم على طرف الشمام وأورد فيه من خاصة طبعة الشريف ثلاثة آلاف تصرف من بنات أفكاره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ولاشك أن ذلك فيض من الله الكريم أفاض به من خزائن جوده العميم فشكر الله صنيعه الجميل وأثابه على ذلك مزيد الأجر والثواب الجزيل ونفع بتأليفه سائر طلبة العلم الشريف وأبقى فى صفحات العالم كتابه المقيد اللطيف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ولقد أحسن إلى فى أيام صدارته وربانى لدى الحضرة السلطانية فرقانى السلطان الأعظم والخاقان الأكرم السلطان مراد خان خلد الله سلطنته مدا الزمان فصارت مدرستى بهمته بستين عثمانيا جزاه الله تعالى عنى أفضل الجزاء وأسبغ عليه من خزائن فضله وكرمه واسع الخير والعطاء .

• وأنعمت السلطنة الشريفة بالمدرسة السلطانية السليمانية الشافعية لاقراء مذهب الشافعية بمكة المشرفة على بعض علماء الشافعية بخمسين عثمانيا فدرس فيها كتب فقه الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه وأحيا فقه الشافعية بهـــا كما شرطه السلطان سليمان رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان وغمره فى الرحمه والاحسان .

وأما المدرسة الرابعة السلطانية السليمانية فقد جعلها المرحوم الواقف لاحياء مذهب الامام أحمد بن حنبل فعدل عنه إلى علم الحديث الشريف وجعلت تلك المدرسة دار الحديث بخمسين عثمانيا يقرأ فيها الصحاح الستة فرحم الله السلطان سليمان وأثابه على مقاصده الجميلة من اسداء الخيرات واقتناء المثوبات باحياء العلوم الشريفة المطهرة وسائر الباقيات الصالحات أعلا غرفات الجنات والنظر إلى وجهه الكريم فى أعلا مراتب السعادات الأخروية الباقيات وهذا الذى ذكرناه بعض ما فعله من الحسنات ولو أردنا استيفاء مافعله من الخيرات لاحتجنا إلى عدة مجلدات فعدلنا إلى ماثبتناه فى هذه الورقات ووكلنا ماعداه إلى المشاهدات فليس الخبر كالمعاينات[1] .

---

(١) ومن مآثر السلطان سليمان بن سليم خان رحمهما الله تعالى أنه أمر بعمل منبر من الرخام الجميل يصنع على شكل لطيف بديع للمسجد الحرام وبعد عمله واكماله بعث به الى مكة المشرفة فوضع بجوار مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمام الكعبة المعظمة وذلك سنة ست وستين وتسعمائة هجرية وهو المنبر الموجود فى عصرنا الحاضر الذى لايزال قائما كالعروس وقد مر عليه اكثر من أربعمائة سنة وهو بعد آية من آيات الفنون الجميلة التركية وهذه صورته

صورة منبر المسجد الحرام

Marfat.com

البَابُ التَّاسِع

فى دولة السلطان الأعظم الخاقان المَلِك الأكرم

الأفخم العثمانى صاحب الخيرات الجارية والجوامع والمبانى السلطان سليم خان

تغمده الله بالرحمة والرضوان وسقى ضريحه زلال الكرم والعفو والغفران

وحفه بروائح الروح والريحان

كان مولده الشريف فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وجلوسه الكريم على تخت ملكه الشريف بالقسطنطينية العظمى فى يوم الاثنين لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ومدة سلطنته الشريفة تسع سنين وسنه حين تسلطن ست وأربعون سنة وعمره كله ثلاث وخمسون سنة وبعد ثلاثة أيام من جلوسه على التخت الشريف إلى سكتوار لحفظ العساكر الاسلامية المجاهدين فى سبيل الله فى حلق بلاد الكفر مشغولين بفريضة الجهاد بغاية الجد والاجتهاد وسار سيرا حثيثا إلى أن وصل ركابه الشريف السلطانى إلى سردخد يقال له سرم فلاقته عروض الوزير الأعظم آصف الزمان (محمد باشا أنعش الله بوجوده الوجود انعاشا) وتتضمن هجوم الشتاء وتيسر فتح قلعة سكتوار وقمع مردة الكفرة الفجار والتمس الاذن الشريف للعسكر المنصور الخاقانى بالعود إلى الأوطان واستمر الركاب الشريف السلطانى بذلك المكان إلى أن وصل مع بقية الوزراء وأركان الدولة إلى ثم الركاب الشريف السلطانى والاكتحال بتراب الباب الشريف الخاقانى وبعد ذلك يعودون فى الخدمة الشريفة الخاقانية إلى مقر التخت الشريف السلطانى بالقسطنطينية العظمى فأجيب حضرة الوزير الأعظم إلى ما أشار إليه واستقر ركاب السلطنة الشريفة بذلك المحل والقرار عليه إلى أن ورد حضرة الوزير الأعظم المشار إلى حضرته العليه وباقى الوزراء من أركان الدولة الشريفة السلطانية وقبلوا الركاب

السلطانى وهنوه بالملك الشريف الخاقانى وعادوا فى خدمة السلطنة الشريفة إلى اصطنبول بغاية الأمن واليمن والبشر والقبول عند الوصول وعند الوصول إلى باب السرايا السلطانى حصل من رعاع العسكر وغوغاهم سوء مدافعة وممانعة عن الدخول إلى السرايا الشريفة وطلبوا عادتهم عند تجرد السلطان أدت إلى سوء أدب من بعض جهالهم فجاء المرحوم المفتى الأعظم رئيس العلماء الأعلام وكبير كبراء الموالى العظام مولانا أبو السعود أفندى العمادى ثبت الله تعالى خطاه فى الجنة وأفاض عليه سحائب الأجر والثواب والفضل والمنة فوعظ العسكر وألان لهم الكلام والتزم لهم عوائدهم وتراقياتهم وعطاياهم العظام فلانوا بعد القسوة واستغفروا من تلك الهفوة وصحوا من سكر الجهالة واهتدوا بعد الضلالة ودخل حضرة السلطان الأعظم إلى سراية الشريف وجلس على تخته العالى المنيف ووفا للعسكر بما التزم لهم به حضرة الفقيه الأعظم وأفاض إحسانه عليهم وانعم وانصرف فى ذلك خزائن عظيمة لاتحصى ووزع عليهم من العسجد والورق مالا يحصى ولا يستقصى وأمر بقتل بعض من كان سببا لهذه الغوغاء من السفهاء وسكنت الفتنة ولله الحمد على جزيل النعماء وله الشكر على جميع الآلاء وله الحمد فى الآخرة والأولى ودخل عليه العلماء العظام للتهنئة بالملك والتحية والسلام ثم أركان الدولة على قوانينهم وحصل لهم بحسب مراتبهم والاجلال والاكرام وقرت عيون الأنام بكمال الامن والاطمئنان وتمام حسن النظام .

ثم جهزت البشائر السلطانية إلى الممالك الشريفة العثمانية بالخلع الشريفة الخاقانية فحصل لنواب السلطنة الشريفة كمال الفرح والسرور وتمام البشر والحبور بانتظام الأمور ووصلت التهنئة من ملوك الأطراف بالتحف والهدايا اللطيفة الظراف وقرت العيون وزالت الغبون واستقرت الخواطر والظنون وكان سلطاننا كريما رؤفا بالرعية رحيما عفوا عن الجرائم حليما محبا للعلماء والصلحاء محسنا إلى المشايخ والفقراء كان إحسانه يصل إلى فقراء الحرمين وهو شاه زاده وتصل تشاريفه وكساويه فى كل عام إلى العلماء والفقهاء وكان يصل إلى إحسانه وكسوته فى كل سنة وبعد أن ولى السلطنة الشريفة لم يقطع عادة إحسانه واستمر يصل إليهم ذلك فى كل عام بحيث أضيف ذلك إلى دفتر الصرة الرومية ويقسم كل سنة على حكمه

Marfat.com

السابق إلى الآن فهو الملك الهمام المحسن المنعم الفائض الاحسان والانعام طال ما طافت بكعبته الآمال وصدع بأوامره الليالى والأيام فائتمرت وغرس فى رياض السعادة غروس أشجار السيادة فبسقت وأثمرت وعمر بحسن نظره أرجاء البلاد فتحدثت بعد الخراب وعمرت ودمر بسياسة أركان الظلم فخربت ديار الظالمين ودمرت كم أظهرت لسواد الكفر يد صارمه البيضاء آية للناظرين وكم جهزت جيوشاً للجهاد فى سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين .

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد . ومنها فتح تونس الغرب وحلق الواد . ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة البغاة أهل الالحاد .

ومن خيراته تضعيف صدقة الحب وإرساله مدة سلطنته إلى الحرمين الشريفين ومنها الأمر ببناء المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما وكل ذلك من الاثار العظيمة والمزايا الفاضلة الكريمة فلنذكرها بطريق الاجمال لضيق المجال .

(فأما قبرس) فانها بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة فى البحر قال الفقيه العدل المفتى أبو عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحميرى فى كتابه الروض المعطار فى أخبار الأقطار قبرس جزيرة على البحر الشامى كبيرة القطر مقدارها مسيرة سته عشر يوما وبها قرى ومزارع وأشجار وزروع ومواشى وبها معدن اليرمع القبرسى ومنها يجلب إلى سائر الأقطار وبها ثلاث مدن ومن قبرس إلى طرابلس الشام يومان فى البحر وقبرس على ممر الأيام رخاها شامل وخيرها كامل وكان معاوية غزاها وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا العهد عليه فغزاها ثانية فقتل وسبى شيئاً كثيرا .

وروى أنه لما افتتحت قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبى فيما بينهم بكى أبو الدرداء وتنحى عنهم ثم اختبى بحائل سيفه ودموعه تجرى على خديه فقيل له أتبكى فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل الكفر وأهله فضرب على منكبيه وقال ويحك ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره فبينما هى قوة ظاهرة وقدرة قاهرة على الناس إذا تركوا أمره فصار حالهم على ماترى من السبى والاهانة وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسافة يوم واحد

Marfat.com

وانما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابوس كان يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغنى واليسار وبها معادن الصفر ويجمع فى اللادن الحسن الرائحة الذى يغلب العود فى طيبه وهو الذى يجمع منه على الشجر خاصة وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية لأنه أفضله وما يجمع منه مما يتساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية رضى الله عنها شهدت غزو قبرس فتوفيت بها وأهل قبرس يتبركون بقبرها ويقولون هو قبر المرأة الصالحة وكانت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعو لها الله عز وجل أن يجعلها من الذين يركبون ثبج البحر فى سبيل الله ففعل وهو حديث معروف وكان الاوزاعى يقول أنا نرى هؤلاء يعنى أهل قبرس أهل عهـــد وأن صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم وأنه لايسعهم نقضه الا بأمر يعرف به غدرهم ورأى عبد الملك بن الصلاح فى حدث أحدثوه ان ذلك نقض لعهدهم فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم فى أمره منهم الليث بن سعد وسفيان ابن عيينة وأبو اسحق الفزارى ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له قالوا وانتهى خراج قبرس الذى يؤدونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وسبعة وأربعين ألفا انتهى ما ذكره صاحب الروض المعطار .

قلت وقد تقدم ما نقلناه انها افتتحت فى أيام دولة الجراكسية فى سلطنة الملك الأشرف برسباى الدقماق وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة فكان أهل قبرس فى أيام الدولة الشريفة العثمانية مهادنين يدفعون إلى الخزانة العامرة السلطانية ماكان مقررا عليهم غير أنهم أخذوا فى المكر والخداع وإظهار الاطاعة والوفاق واخفاء الغدر والشقاق فصاروا يقطعون الطريق فى البحر على المسلمين وإذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين قتلوا جميع من ظفروا به فى تلك السفينة لاخفاء مافعلوه وصاروا يؤون قطاع الطريق من النصارى ويساعدونهم على المسلمين إلى أن كثر أذاهم وعم ضررهم فاستفتى المرحوم السلطان سليم خان من المرحوم مفتى الاسلام مولانا أبى السعود أفندى العمادى رحمهما الله تعالى فأفتاه بأنهم غدروا ونقضوا العهد وأن قتالهم جائز بسبب ما ارتكبوه من الغدر والخيانة فجهز عليهم حضرة

Marfat.com

السلطان سليم جيشا كثيفا وعسكراً منصورا منيفا أرسلهم من البر وعمارة عامرة من جانب البحر وجعل سردار الجميع حضرة الوزير المعظم والمشير المفخم نظام العالم مدبر مصالح جماهير الأمم قائد جيوش الموحدين قاهر جيوش الكفار والملحدين اعتضاد الملوك والسلاطين المخصوص بعناية رب العالمين ، حضرة مصطفى باشا اللالا ، زاده الله عزا واجلالا وسعادة وسيادة وإقبالا وأيده النصر المبين والفتح القريب إسعادا وإجلالا فامتثل الأمر الشريف السلطانى وبرز محفوفا بالنصر الصمدانى والعون الربانى ومعه عسكر جرار من كل بطل مغوار ملأوا وجه الأرض براً وبحراً كأنهم قطعة نار مضطرمة أو شد حرا ايان سلكوا دهكوا وملكوا وايا صدقوا من الاعداء سفكوا وفتكوا وضربت طبول النصر فكانت كنفخ الصور وانتشرت العساكر المنصورة فشوهد يوم الحشر والبعث والنشور وتوجه حضرة الوزير مظفرا مؤيدا منصورا وسعى إلى جهاد الكفار وكان سعيه مشكورا وطوى المراحل والمنازل وهو يطوى الأرض طيا ويغزى بسيف عزمه أديم المهامة والمناهل فريا إلى أن وصل ركابه العالى ومن معه من الجيش المنصور المتوالى إلى جزيرة قبرس فأحاط بقلاعها أحاطة الخاتم بالأصبع وفرق الجنود على حصونها فكانت من كل حصن أحكم وأمنع وقد تحصن بها الكفار واعتصموا بقللها وأحكموا خنادقها وأرعروا مسالكها سهلها وجبلها فارتجت بوصول تلك العساكر المنصورة حصون تلك الجزيرة وقلاعها وتزلزت جبالها ورمالها وأصقالها وبقاعها .

وكان من أحكم الحصون المشيدة ثلاث قلاع فى غاية العلو والارتفاع ونهاية القوة والمنعة والامتناع شامخة البنيان راسخة الأركان .

وأقواها قلعة ماغوسا لا يحلق عليها من الطيور إلا النسران ولا يوازن أبراجها من بروج السماء إلا الميزان تلامس فى العلو الشهوق نجوم الثريا والعيوق وتوازى بناء الأهرام فى الاتقان والأحكام بل تزيد عليها وتفوق لا تبالى بضرب المكاحل والمدافع ولا يوهنها قرع المقارع والمقامع مشحونة بآلات الحرب من جميع الأنواع مملوءة بالمقاتلة وأهل القراع محشوة بأجلاف النصارى الأبطال أهل الصياد والصراع وفيهم من الرماة من يرمى على الحدق ويحرر فلا يخطى من الدرع الحلق

Marfat.com

وعندهم المياه والفواكه والأقوات والزرع والسباتين ومن دونهم خنادق عريضة نازلة إلى تخوم الأرضين محمية بالمدافع الكبار ترمى من أعلى القلاع إلى من يقرب منها بالليل والنهار فأحاطت العساكر المنصورة السلمية بتلك البقاع والحصـــون وناوشوهم القتالى وأذاقوهم كؤس ريب المنون وقاتلهم المسلمون بالليل والنهار وقابلهم الموحذون برمى المدافع الكبار بالأصائل والاسحار فكاد النهار أن ينقلب ليلا بدخان البارود البارق والليل أن ينقلب نهاراً ببوارق قناديل البنادق الصواعق فحاصرهم المجاهدون فى سبيل الله وضيق عليهم جنود الاسلام الغزاة ورموا بالمدافع الكبار السلطانية عليهم فحطمت دورهم وهدمت قصورهم فصارت بيوتهم قبورهم وكسرت ظهورهم فافتتحت ببركة النبى صلى الله عليه وسلم قلعتان وبقيت القلعة وهى ماغوسا وفيها سلطانهم محصور وكل محصور مأخوذ مأسور فثبت وأظهر الجلد وكابد فى محاصرته أنواع الكمد إلى أن وهنت قواه وذابت كبده وحشاه واضطر إلى طلب الأمان والتذلل لحضرة الوزير الرفيع الشأن المعظم المكين وأعطاه الأمان وشرط عليه أن يفلت من عنده من أسارى المسلمين ويدوس البساط السلطانى ليتم له التأمين ويحصل له التطمين فوافق على ذلك وأطلق الأسرى وحضر ليقابل حضرة الوزير المعظم جبرا وقسرا فأخبر بعض الاسرى أنه خان بعد انعقاد الامان وقتل جماعة من المسلمين وفعل هذه الخيانة سرا فلما علم حضرة الوزير المعظم أن ملكهم قد خان طلبه إلى بين يديه وأهانه غاية الهوان وركب وحمل غاشية السرج وأمره أن يمشى قدامه كسائر الغلمان ثم ضرب عنقه لخيانته ونقض عهده وأخذ أمواله وذخائره وقتل من أراد واستأسر واسترق من أراد وصارت قبرس دار السلام وأضيفت إلى سائر الممالك الاسلامية العثمانية باجتهاد هذا الوزير المعظم وأصابة رأيه وتدبيره الصائب الاتم وما بلغنى تفصيل ما وقع فى هذه الغزوة وما أمكننى تحقيقها وأردت كثير أفرادها بالتأليف وذكر ما وقع فيها فلم أظفر بذلك فان أظفر لى الله تعالى بالاطلاع على أكثر مما ذكرته ههنا أجعل له تاريخاً مستقلا واسع المجال لطيف المفاكهة بليغ المقال إن شاء الله تعالى .

(وأما فتح بلاد اليمن) فان إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن كانت داخلة فى الممالك السلطانية العثمانية فى أيام دولة المرحوم السلطان الاعظم سليمان خان

Marfat.com

أسكنه الله تعالى فردوس الجنان وحف روضته الطيبة الطاهرة بالروح والريحان وكان أول فتحها الخاقانى على يدالوزير المعظم سليمان باشا الخادم بكلر بكى مصر لما توجه إلى الهند لغزو الفرنج الغرتقال فى سنة خمس وأربعين وتسعمائة وأقام بكلربكيا واستمر كذلك فى تصرف البكاربكى الذى يولى من الباب الشريف السلطانى يتولاها واحدا بعد واحد إلى أن صارت مملكة اليمن واسعة يمكن أن يولى فى أعلاها فى الجبال من أعلاها إلى تغر بكلربكى ويولى فى التمائم وهى زبيد وسائر السواحل والبنادر بكلربكى آخر وكان هذا عين الخطأ فإن ذلك مظنة الاختلاف والجدال كما قال الله الكبير المتعال لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فقبل عرضه فى الباب العالى قصدا إلى تكثير المناصب وتعديد البكلربكية فولى على اليمن وجبالها المرحوم مراد باشا وكان يقال له كورمراد لخلل كان بإحدى عينيه وكان خرج من السراى السلطانى وكان من أمراء السناجق وصار أمير الحاج الشامى ثم ولى سنجق غزة ثم أعطى نصف مملكة اليمن .

وولى جهة التمائم لحسن باشا وهو أيضا من المماليك السلطانية برز من السراى السلطانى فانقسمت عساكرها وأموالها ومحصولها إلى نصفين وضعف أمر كل واحد وكان مطهر بن شرف الدين يحيي الزيدى بعقله وسولت له نفسه العصيان وكانت داعية العصيان مضمرة فى خاطره فصادف القسام المملكة وصول وفاة المرحوم السلطان سليمان خان فأظهر العصيان هو ولفيفه من العربان وجهز أميرا من أمرائه يقال له على بن شويع وجمع عليه العربان فقطعوا الطريق على مراد باشا فى محطة دمار وهو غافل عن عصيانهم وكان قاصدا من تغر إلى صنعاء وهى محصورة بالعربان الزيديين فعدموا عليق الخيل وخلوا من الطعام بالكلية وكلما أرسل من طائفته من يأتيه بالغلال والميرة قطعوا عليه الطريق وقتلوه فلما زاد به هذا الأمر وفطن بعصيان العربان رجع مراد باشا إلى تغر وسلك وادى خيان وهو محل وعر بين جبلين عاليين فى غاية الوعورة والصعوبة عسر المسلك كثير المهلك فلما توسطوا بين هذين الجبلين وقد امتلأت قللهما كالجراد المنتشر ورموهم بالأحجار والاصحار الكباز والصغار وأطلقوا عليهم المياه فصار مراد باشا وعسكره يخوضون فى ذلك الماء وقد ازدحموا

على محل الخروج وهو مكان ضيق سدته الجمال والأحمال وليس لهم منعة ولا لهم نجده ولا لخيلهم قوة ولا قدرة على الجولان فاستسلموا للقتل وقتل منهم من دنا أجله وخرج مراد باشا ومعه عشرون سنجقا سلبتهم العربان وتركوا كل واحد منهم عريانا فى لباس وساثر بدنه مكشوف فأووا إلى مسجد يقال له مضرح وعيون المنايا تسرح إليهم وتطمخ فوصل إليهم شيخ مضرح وكان له ثار قديم عند الأروام كان سليمان باشا صلب إياه لما افتتح عدن فصاخ وأثاراه وقتل مراد باشا وأرسل رأسه إلى مطهر وقيد الامراء وقدمهم إلى مطهر فلم يقتلهم بل حبسهم فى مطامين تحت الأرض ومات بعضهم من الضيق والضنك وخلص ممن له بقية عمر بعد ذلك واستمر أمراء مطهر يأخذون جبال اليمن إلى أن أخذوا صنعاء وتعز وحصن حب وعدن وعجزوا عن أخذ زبيد صانها الله بالأولياء والصلحاء وبها شرذمة قليلة من الأروام مع حسن باشا مع ظلمه وغشمه لأهل زبيد ومصادرته لكل زبيد ووصل لأخذها على بن شويع ومعه فوق خمسين ألف مقاتل وحط حارج زبيد فخرج إليه بقية العسكر السلطانى وهم نحو مائتى فارس وبرزوا القتال هذا الجمع الغفير وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وحملوا على على بن شويع وقد ألقو بأنفسهم إلى التهلكة فزلت أقدامه وفر هاربا وسقط من فرسه فى هزوبه ولحقه جماعة من الأسباهية أرادوا قتله فلحقه عبد من عبيده بفرس فركب وهرب ونجا بنفسه لاتجاه الله وسمع من مقابر زبيد أصوات مدافع ترمى عليهم من غير أن يرى شخص فنصر الله المؤمنين على أولئك الملحدين فى الدين وقتل منهم مالا يعلم عدده إلا الله تعالى وغنمت العساكر وطاقهم وأمحالهم وأثقالهم وولوا على أدبارهم أجمعين ولم يقدموا بعد ذلك عن زبيد كأنها عليها حصن من حديد من عند الله العزيز الحميد فلما أحاطت العلوم السلطانية بما وقع من هذا الاختلال فى اليمن برزت الأوامر السلطانية الشريفة إلى بكلربكى مصر يومئذ الوزير المفخم نظام العالم صاحب السيف والقلم مدبر مصالح جماهير الأمم فاتح ممالك اليمن الأيمن من كوكبان إلى عدن وقالع قلاع حلق الواد وآخذ بلاد تونس الغرب ودافع الكفر عنها والمحن ليث عرين الوطيس افتراسا وأشدهم بأسا وجأشا الوزير المعظم سنان باشا أنعش الله به الوجود

والدين الحنيفى انعاشا وأيد بنصره أهل السنة السنية وفرش الارض بمعدلته فراشاً فانه أسد ضرعام وليث قمقام وحسام صمصام وكريم محسن فائض الجود والاكرام جواد بذول لم ينحن الهلال ألا ليكون هلالا فى حافر جواده ولا مدت الثريا كف الخصيب إلا للتمسك بذيل أفضاله وأمداده ولا فتحت الروى أفواهها إلا لتنطق بمدحه ألسنة الأقلام ولا حبر الحبر بياض الطروس إلا ليشير أن الليالى والايام له من جملة الخدام طال ما طوق الاعناق أطواقا من الافضال والانعام كأنها أطواق الحمام وكثيرا ما أحسن إلى العلماء والصلحاء من جيران بلد الله الحرام وجيران سيد الانبياء والرسل الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وكنت ممن شملنى بره وإنعامه ووصل إلى فى أكثر الأيام إحسانه وإكرامه فخلدت ذكر محاسنه فى صفحات الكتب ورقمت كرائم صفاته فى صفحات الاوراق لا يخلقها الجديدان ولا يبليها الدهر الغابر وكتبت باسم الشريف تاريخا حافلا سميته البرق اليمانى ذكرت فيه أحوال اليمن من سنة تسعمائة واستيلاء حسين الكردى وطائفة الجراكسة .

ثم اللوند إلى زمن الفتح العثمانى على أبو يزيد سليمان باشا ثم استيلاء الزيديين جيوش مطهر بن شرف الدين ثم الفتح العثمانى ثانيا على يد الوزير المعظم سنان باشا أدام الله نصره وجلاله وخلد سعادته وإقباله على سبيل التفصيل وكنت صدرت ذلك التاريخ بقصيدة طنانة من نظمى الطنان سارت بها الركبان وتلقتها بالقبول أدباء علماء البلدان أجبت إيرادها ههنا لبلاغتها عند علماء البيان وفصحاء اللسان تسابق ألفاظها ومعانيها إلى الآذان والأذهان تسابق أفراس الرهان بعد كل ميت منها بديوان وتسحب كل كلمة منها إذيال البلاغة على سحبان وهى هذه :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر ... على عزة الاسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت ... به الهمم العلياء إلى شرف الذكر
جنود رمت فى كوكبان خيامها ... وآخرها بالنبل من شاطىء مصر
بحر من الابطال كل غضنفر ... بصارمه يسطو على مفرق الدهو
عساكر سلطان الزمان مليكنا ... خليفة هذا العصر فى البر والبحر

Marfat.com

حمى حوزة الدين الحنيفى بالقنا وبيض المواضى والمثقفة السمر
له فى سرير الملك أصل مؤثل تلقاه عن أسلافه السادة الغر
ملوك تساموا للعلا وخلائف أولو العزم فى أزمانهم وأولو الامر
شموس يفيض النور تمحو غيابها من الكفر منهم يستمد ضيا البدر
هم ملؤا عين الزمان وقلبه فقرت عيون العالمين من البشر
هم العقد من أغلا اللالى منظما وسلطاننا فى الملك واسطة الدر
شهنشهاه سلطان الملوك جميعهم سليم كريم أصله طيب الفخر
عماد يلوذ المسلمون بظله وسد منيع للأنام من الكفر
وحين أتاه ان قد اختل جانب من اليمن الأقصى أصر على القهر
وساق لها جيشاً خميسا عرمرما يدك جبال الأرض فى السهل والوعر
لهم أسد شاكى السلاح عرينه طوال الرماح السمهرية والبشر
وزير عظيم الشأن ثاقب رأيه يجهز فى أن جيوشا من الفكر
يقوم بأعباء الوزارة قومه يسد جيوش الدين بالأيدى والأزر
أياد له بالناس كاسرة العدا ولكنها بالجود جابرة الكسر
به أمن الله البلاد وطمن العباد وأضحى الدين منشرح الصدر
سنان عزيز القدر يوسف عصره ألم تره فى مصر أحكامه تجرى
تدلى إلى أقصى البلاد بجيشه ومهد ملكا قد تمزق بالمشر
وشتت شمل الملحدين وردهم مثال قرود فى الجبال من الدعر
وقطع رؤسا من كبار رؤسهم لهم باطن السرحان والطير كالقبر
وكان عصى موسى تلقف كلما بدا من صنيع الملحدين من السحر
ولا زال فيهم عامل الرمح عاملا ولا برحوا فى الدل بالقتل والأسر
وما يمن إلا ممالك تبع وناهيك من ملك قديم ومن فخر
وقد ملكتها آل عثمان إذ مضت بنو طاهر أهل الشهامة والذكر
فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع ويأخذه من آل عثمان بالمكر
أبى الله والاسلام والسيف والقنا وسر أمير المؤمنين أبى بكر

(ولما تم الفتح الخاقانى العثمانى) فى القطر اليمانى عاد الوزير المعظم إلى بلد الله المكرم وحج حجة الاسلام وزار المزارات العظام وصادق الحج الأكبر وكانت الوقفة الشريفة يوم الجمعة أفضل الأيام وأثر ببلد الحرام أنواع الخيرات والانعام وأحسن إلى أهل الحرمين الشريفين ومن حضر فيها من حجاج الأنام وقابل شرفاء مكة أدام الله عزتهم وسعادتهم بالاعزاز والاحترام فمن آثاره الخاصة به فى المسجد الحرام :

تعمير حاشية المطاف وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف دائرة حول المطاف مفروشة بالحصا يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية بالحجر الصوان المنحوت ففرشت به فى أيام الموسم وصار محلا لطيفا دائرا بالمطاف من بعد أساطين المطاف وصار ما بعد ذلك مفروشا بالحصا الصغار كسائر المسجد خاص به ذكره الله بالصالحات وأدام الله العز والسعادات .

ومنها تعمير سبيل فى التنعيم أنشأها وأمر باحراء الماء إليها من بئر بعيدة عنها يجرى الماء منها إلى السبيل فى ساقية مبنية فيما بينهما بالجص والنورة وعين لها خادما يستق من البئر ويصب فى الساقية فيصل الماء إلى السبيل يشرب منـــه ويتوضأ به المعتمرون والواردون والصادرون ويدعون له بالنصر والتأييد وعين مصاريف ذلك من ريع أوقاف له بمصر .

ومنها آبار أمر بحفرها بقرب المدينة الشريفة لقوافل الزوار فى وادى مفرح وغيرها كثيرة النفع جدا .

ومنها قراءة ختمة شريفة كل يوم يقرؤها ثلاثون نفرا بمكة وأخرى بالمدينة الشريفة وعين مصارف ذلك جميعه من أوقافه التى من محروسة مصر عمرها الله تعالى وجعل ناظرها والمتكلم عليها وعلى سائر ماعينه من الخيرات سيدنا ومولانا شيخ الاسلام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام سلالة آل النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بدر الملة والدين السيد القاضى حسين الحسينى أدام الله عزه وإقباله وضاعف سعادته وإجلاله وكل هذه الخيرات باقية جارية إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى .

وأما حلق الود وبلاد تونس الغرب فهى من أجل الغزوات العثمانية وأعظم

Marfat.com

فتوحاتهم الكبيرة العلية الواقعة فى أيام السلطان الأعظم العثمانى السلطان سليم خان الثانى رحمه الله رحمة واسعة وغفرله مغفرة جامعة ومتعه بالنظر إلى وجهه الكريم ومنحه لذات جنة النعيم .

وبيان ذلك أن سلاطين تونس الغرب من آل حفص لما ضعفوا ووهنوا ووقع بينهم الاختلاف صار بعضهم يلتجىء إلى نصارى الافرنج ويأتى بجنود الكفرة يستعين بهم على أخذ تونس وصار الافرنج يقاتلون من فى تونس من المسلمين ويقتلونهم ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البقاع ويواصلون بجنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولون من تحت أيديهم سلطانا من ذوى حفص سلاطين تونس قديما على بلاد تونس ومن بها من المسلمين إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم على المسلمين وانفردوا عنهم وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له حلق الواد كأنه بناء شداد أو وضع العادين من قبائل عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد بآلات الحرب والقتال وصارت النصارى تكمن فيها للمسلمين ويرسلون منها المراكب والأغربة فى البحر على بلدان المؤمنين الموحدين ويقطعون الطريق قتلا وأسرا ونهبا وسلبا إلى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الاسلام وزاد فساد أهل الصليب على ضعفاء المسلمين من الأنام .

وكبير النصارى الآن صاحب اشبيلية من جزيرة الأندلس أعادها الله تعالى دار الاسلام ببركة النبى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ويسمونه العوام أصبانية تحريفا الكلمة أشبيلية جهز جيشا كثيفا لأخذ تونس ووالس على ذلك سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى قابله الله على سوء فعله بما يستحقه فأخذ النصارى مملكة تونس ووضعوا السيوف فى أهلها فقتلوا الرجال وسبوا الأولاد والنساء والأطفال وباء أحمد المذكور باثمه واسود فى صحائف الليالى والأيام ديباجة وجهه واسمه وانقلب خاسئا مدحورا وانخلع على ريقة لدين وازداد خيبة وكفورا ونفرت قلوب المسلمين منه وزادت نفورا وكيف لايكون كذلك وقد استعان بملة الكفر على الاسلام واستدعى عبدة الصليب والأصنام ينتصر بهم على أهل ملة محمد

Marfat.com

عليه أفضل الصلاة والسلام وامتهن دار الاسلام تونس باقدام أولئك الكفرة اللئام والاعتصام بالله الكبير المتعال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فانتشرت هذه الأخبار المدهنة والأنباء المظلمة الموحشة إلى أن وصلت أبواب سلطان سلاطين الاسلام ظل الله الممدود على مفارق الأنام مالك صهوة الملك من الذرة إلى الغارب ملك الملوك من مشارق الأرضى والمغارب واسطة عند ملوك آل عثمان المشمول بشمول المرحمة والمكرمة والغفران من الله الكريم المنان السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وأبقى السلطنة فى عقبه إلى انتهاء الزمان فلما طرق سمعه الشريف هذا الحادث الرجيف وعلم ماصاب أهل الاسلام من هذه المصائب العظام والامتهان الذى قصم الظهر وأوهن العظام استشاط سخطا غضبا واضطرمت نار حميته وتأججت لهبا وتحركت العصبية الاسلامية والتهبت نيران الحمية العثمانية وقام وقعد وأرغى وأزبد وأبرق وأرعد وهدد وأوعد وخاطب الوزراء العظام والبكلربكية الكبراء الفخام وقال من يقدم منكم على نصرة الاسلام واذلال عبدة الأصنام ويستنقذ من اسراء المسلمين بيد أولئك النصارى الطعام ويخرج من عهدة الكفار الفجرة اللئام فبادر الوزير المعظم والليث الغشمشم صاحب السيف والقلم فاتح ممالك اليمن الأيمن المكرم أبو الفتوحات المفخم لا زالت ألوية نصره منشورة الذوائب مشرفة كالشمس يغشى ضوءها المشارق والمغارب صاعدة إلى أفق السماء حتى تزاحم مناكب الكواكب وقال أنا لسد الخلة أنالها أفرج كربتها وافتح مقفلها وأصلح حللها وأزيل عللهـــا ولم تدخرنا السلطنة الشريفة الخاقانية وما رتبنا العواطف الكريمة العثمانية إلا لبذل أرواحنا وأموالنا فى مثل هذه الحوادث وندفع عن المسلمين مايصابون به من المصائب الكوارث فقابله السلطان الأعظم بالشكر منه والثناء عليه وشرفه بالالتفات الشريف السلطانى اليه وجعله سر دار العساكر المنصورة وأمره أن يتوجه إلى قهر النصارى المقهورة وأمر أن يتوجه معه لمساعدته ومعاونته ودفع ملالته وسآمته وضبط العساكر البحرية وترتيب السفن الحربية قابودان الباب العالى فارس ميدان البحر السابق إلى قلة أبراج المعالى الأسد الضرغام والليث القمقام والصارم الصمصام أمير الأمراء العظام حضرة قلج على قابودان باشا يسر الله له من الفتوحات مايشاء فشرعا فى أخذ

Marfat.com

أسباب السفر وأخذا معهما من أمراء السناجق وأمراء العساكر كل أسد عضنفر وكل باسل معقود بناصيته أسباب النصر والظفر وممن له فى حرب البحر اليد البيضاء والمعرفة التى ينصرف بها فى الماء والهواء وشحنوا مائتين غراب تطير بأجنحة القلاع وتهدم بما فيها من المدافع محكمات الحصون والقلاع وعدة من المؤنات الكبار لحمل الأثقال ودفع الأحمال الثقال وشيل مكاحل النحاس لحطم الثغور وهدم السور والجور وإلى الأساس وكثرة التخويف والترهيب وشدة القوة والبأس .

وكان بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى يوما عظيما مشهوداً وساعة مباركة أظهرت يمناً وبركة وسعوداً وذلك غرة ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وركب الوزير المعظم سردار العسكر حضرة سنان باشا والقبودان والعساكر المنصورة بنصر الله الملك الديان ثبج البحر كأنهم طوفان فوق طوفان وطارت بهم الأغربة على وجه البحر أقوى طيران وتلت ألسنة القراء وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها حتى وصلوا إلى ما للوكاپسا من مملكة البندقية ووصلوا فى يوم الخميس لخمس مضين من شهر ربيع الأول .

كيمان انجير واستقروا بها ليلة الجمعة وأصبحوا متوجهين والسعد يخدمهم والنصر والظفر يرافقهم ويقدمهم وقد عبروا بسفائهم أبا العمان وما أمكن لغيرهم من العساكر عبور العمان بهذه السفائن الكثيرة خوفا من تصادمها عند شدة تموّج البحر ولكن الله يسلم من أراد لا دافع لمراده ولا راد وهو على كل شىء قدير فساروا تارة بالقلوع وتارة بالكورك على وجه ذلك البحر الوسيع إلى أن ظهرت لهم فى اليوم الثامن جبال قلاورية واستمروا كذلك إلى أن وصلوا وقت الظهر من اليوم التاسع طبرق حصارى وهو حصار منيع للكفار على ساحل البحر فلما وصلت العساكر المنصورة الاسلامية إلى ذلك المكان حاربهم الكفار الملاعين فدهكهم العسكر المنصور دهكا ودكوا من تحت أرجلهم الأرض دكا فهربت الكفار إلى قلعة حصينة تسمى نجبة ووقع قتال عظيم استشهد فيه من رزق الشهادة وأعطاه الله فى جهاده الحسنى وزيادة منهم حضرة كتخداى القابودان سنجق قره جه ايلى محمد بك نزل من سفينته مشتاقا لى الجهاد فى سبيل الله فأصابته بندقة فى خده نفذت من الجانب الآخر واستمر

Marfat.com

صاحب فراش خمسة أيام وتلت عليه الملائكة ولا تحسين الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فانتقل إلى رحمة الله تعالى شهيدا ثم رمى وقت المغرب مدفع لأعلام الغزاة بالعود إلى سفائنهم للسير فحضروا وركبوا ورفعت القلاع وصاروا يسيرون تارة برفع القلع وتارة بالكورك إلى أن وصلوا فى اليوم الرابع عشر إلى جزيرة مسينة استقر بها عسكر المسلمين ثم ساروا فلما وصلوا إلى محاذاة حصار سراقول حصلت فرتونة فى البحر تفرقت بسببها السفائن من الضحى إلى آخر النهار ثم اجتمعت وقت العشاء فى محل يقال له كير ثم مروا بقلل أبان فخوصرت وهدمت قلعتها وقتل من بها من النصارى ثم ساروا فلاحت قلعة ولا ووصل إليها بعض العسكر المنصور ونهبوا ما وجدوا بها من الذخائر وقتلوا من ظفروا به من النصارى وعادوا إلى سفائنهم وصاروا ينزلون كل يوم لأجل السقية إلى جانب من ساحل صجلية وكلما وصلت يدهم إليه من نهب وغارة وقتل وأسر لطائفة الكفار بادروا إليه وأخربوا قراهم ودورهم وبساتينهم وعادوا إلى سفائنهم فاجتمع كل من فى ذلك الساحل من النصارى من فارس وراجل فصاروا عسكرا وأقدموا على قتال من ينزل من المسلمين فخرج إليهم من السفائن بعض البحارين والكورجية وبعض من فى نيته الجهاد فى سبيل الله فقاتلوا الكفار وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وفر الباقون ولم يعهد للملاعين مثل هذه الهزيمة والخسران وذهاب أرواحهم وأموالهم وأسر أولادهم ونسائهم قبل الآن ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ثم أطلق المسلمون النار فى تلك السواحل وأحرقوا أشجارها ودورها وقصورها وعجلوا بأهلها إلى نار جهنم وساءت مصيرا .

وفى اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأول ظفر عسكر الاسلام بسفينة للنصارى مشحونة بالقمح كانت متوجهة إلى بعض قلاعهم فاغتنم المسلمون ذلك وكان أخذها فألا حسنا للمسلمين .

وفى اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور وصلوا جهودا وأسى وطاب الريح للمسلمين فوصلوا إلى قلعة خراب فى قرب تونس قريبا من قالبية بورنى وهى على ثمانية عشر ميلا من مدينة تونس فزينت السفائن والأغربة بالرايات المصبوغة ألوانا

Marfat.com

إظهارا لهيبة الاسلام وعنوانا للعساكر المنصورة وارسوا فى اليوم الرابع والعشرين فى جزيرة حلق الواد ونزلت العساكر المنصورة السلطانية ونصب وطاق حضرة الوزير المعظم والقابودان المكرم على مسافة لا يصل إليها المدافع ونزلوا المدافع الكبار الذى إذا رمى بها تزلزلت الجبال وتهدمها وتخرب الأطواد الكبار وتحطمها وشرعوا يتقربون قليلا قليلا إلى القلعة ويبنون لهم متاريس يتترسون بها ويسقون الأتربة أمامهم ويتسترون خلفها ويحفرون خنادق فيها كيلا تصيبهم المدافع ويتقدمون ويدنون من القلعة على هذا الأسلوب إلى أن أحاطت العساكر المنصورة بقلعة المنجنيقات والمدافع ووجهت إلى صوب الكفرة أفواه المكاحل الكبار والمصانع وبرز حضرة الوزير المعظم سنان باشا محفوفا بنصر الله يخوض حول الموت وهو يراه محتسبا نفسه فى سبيل الله معتمدا على عون معين نصير تسجد لعظمته الجباه وأقدمت العساكر المنصورة بصدق اعتقادها وثبتت النصارى بغاظ أكبادها من أشد الصواعق واخطف الأبصار والاسماع من الرعود والبوارق تخطف ما صدفت من النفوس والأرواح وتمزق ما صدمت من الهياكل والأشباح وتفك اللحم من العظم وتذيب الشحم وتسيل الدم والعساكر المنصورة مقومون على هذه الأهوال ثابتون ثبات الأطواد والجبال على الحرب والقتال إذ وصل الخبر بوصول بكلربكى تونس المولى عليها من قبل السلطنة الشريفة العثمانية السليمية أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام والمجاهدين العظام حيدر باشا وكذلك بكلربكى طرابلس الغرب أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء المجاهدين العظام ذو القدر والعظة والاحتشام مصطفى باشا أيدهما الله تعالى بالنصر والتأييد وظفرهما على كل كافر عنيد وكانا وصلا قبل وصول العمارة السلطانية من البر إلى مقدار نصف يوم عن تونس بقصد محاصرتها وأخذها فلما علم البكار بكيان بوصول العمارة السلطانية إلى حلق الواد واشتغال العسكر المنصور السلطانى بالجهاد وصلا ليلا بالخفية مع قليل من الغلمان إلى وطاق سردار العمارة المنصورة الوزير المعظم الباشا سنان واجتمعا به وفرح كل منهما كمال الفرح وحصل له الاطمئنان وطلبا منه الامداد والاعانة على أخذ تونس وما أمكن الوزير المعظم سنان باشا أن يتوجه معهما بنفسه فأمر طائفة من أمرائه وعين نحو

ألف نفر مع التفكجية وبعض المدافع الكبار والضربزنات أن يتوجهوا مع البكلربكيين من السناجق فخر الأمراء العظام ابراهيم بك من سناجق محروسة وسنجق قرصتى محمود بك وسنجق قره حصار باك بك ومقدار ألفى نفر من طائفة كوكلوا مع أغاهم حبيب بك فتوجهوا فى الحال مع حيدر باشا ومصطفى باشا وأحاطوا بتونس وكان سلطانها الموالس مع النصارى أحمد الحفصى ومن معه من النصارى ورأوا أنهم عاجزون عن حفظ تونس لسعتها ورأوا أن قلعتها أيضاً خرا بامتهدمة لا تصونهم فخرجوا من تونس إلى مرحلة بقربها يقال لها قوملودكر يعنى بحر الرمل وعملوا بها حصارا من الخشب حشوه بالتراب وتحصنوا فيه وكانوا نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كفار ومرتدين ومردة من النصارى المخذولين وشحنوا هذا الحصار بآلات الحرب والمدافع والذخيرة ونحو ذلك فلما خلت تونس من أعداء الدين فتحها عساكر المسلمين وضبطوها وحصنوها ثم برزوا إلى قتال أولئك الملاعين وحاصروهم فى قلعتهم التى أحدثوها وأحكموها بالأخشاب والألواح والطين وأرسلوا خبر ذلك إلى سردار عسكر المسلمين الوزير المعظم سنان باشا فأرسل لنصرتهم وامدادهم واعانتهم القابودان المعظم والبكار بكى المفخم قلج على فتوجه بطائفة من المسلمين من العساكر المنصورة السلطانية إلى إعادة بكلار بكى تونس حبيب باشا وبكلربكى طرابلس الغرب مصطفى باشا ومن جهز معهما من العساكر سابقا وهم محيطون بالقلعة التى تحصنوا بها الكفار الأشقياء والعربان المرتدين فرأى قلج على باشا صعوبة أخذ القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة وطلب عسكرا أخر وعدة ومدافع أخرى من الوزير المعظم سنان باشا فأرسل له ألف ينكجرى وصمصولجى اشى ومن سلحدارية الباب العالى على أغا وجهز معهم ثمانية مدافع وستة ضربزن ولحقوا بالقابودان قلج على باشا وأحاطوا بقلعة الكفار وبنوا المتاريس من كل جانب ومع ذلك كانت الكفرة والملاعين ومن ارتد منهم من عربان تونس فى غاية الكثرة والقوة ومعهم الخيول فخرجوا من القلعة مرارا وهجموا على عساكر المسلمين عند المتاريس فى جهة من جهات القلعة وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا وعادوا إلى قلعتهم واستشهد فى ذلك كثير من المسلمين وانتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى أعلى عليين فلما بلغ حضرة

Marfat.com

الوزير المعظم ما فيه عساكر المسلمين من الشدة جاء بنفسه إليهم فان المسافة قريبة وعساكر السلطنة محيطة بقلعة حلق الواد والحرب قائم على حالة فتوجه حضرة الوزير إلى تلك القلعة المحصورة بقرب تونس وشاهدها ووزع على جوانبها عساكر المسلمين المسلمين وقوى جاشهم وعين فى كل موضع طائفة وأشار على القبودان والبكلربكية بما رأى فيه الصواب وطمنهم وشد قلوبهم وعاد من يومه إلى حلق الواد لاحتياج عساكر المسلمين إليه فى هـذه الجهة أيضا واستمر كل من الفريقين على مجاهدة الكفار وهم على الثبات والقرار لا يسأمون من مصادفة النار ولا يخافون من الموت لأنهم مقدمون على جنة الخلد وملك لا يبلى طالبون درجة الشهادة من الله العلى الأعلى

ووصل فى هذه الأثناء بكلر بكى الجزائر سابقا أمير الأمراء معظام أحمد باشا لاعانة عسكر الاسلام وأقبل على حضرة الوزير المعظم واستأمر لما يأمره به فأعطاه عدة من المدافع وعين له جهة الجنوب من حلق الواد فتوجه اليه وبنى المتاريس عليها وجاهد فى الله حق جهاده وأقدم على قتال الكفار وألقى إلى الحرب مقاليد قياده فوصل العسكر المنصور إلى حافة خندق الكفار بعد أربعة عشر يوما وبنوا على حافته المتاريس وكان الكفار قد نقبوا تحت الأرض نقبا طويلا وصلوا به إلى موضع كان كمرك خانه وفيه قلة برج يصلح للتحصين فوصلوا اليه من تحت الأرض وملأوه من الرجال وآلات الحرب ففطن المسلمون لذلك وكان قريبا من الجانب الذى فيه حضرة الوزير فتوجه اليه بنفسه النفيسة وقع فيه حرب شديد وأخذت القلعة وقتل من فيها من النصارى المخذولين وأرسل حضرة الوزير بالليل من يقيس عمق الخندق الذى وصل اليه العسكر المنصور فكان عمقه ستين ذراعا بذراع العمل وقعره متصل بالبحر مملوء بماء البحر فتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأى فى ذلك فما وجدوا لذلك حيلة غير ان يملأ الخندق بالتراب من خلف المتاريس فأمر الوزير المذكور سائر العسكر بذلك فشرعوا فى نقل التراب من خلف المتاريس وتبنى عليه وباشر حضرة الوزير المشار إليه وذلك ونقل بيده الشريفة التراب ابتغاء مرضاة الله العزيز الوهاب ونصرة لدين الإسلام وتأييد لملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ورأى الأمراء ذلك فبادروا بأنفسهم إلى نقل التراب ورأى العسكر المنصور ذلك فهموا غايه الاهتمام وأقدموا نهاية الأقدام وحملوا التراب كأمثال القباب ورموا بها فى

Marfat.com

الخندق إلى أن امتلأ فارتفع وزاد فى الارتفاع فبنوا المتاريس فوق ذلك إلى أن اعتلوا على الحصار وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فصارت مدافع المسلمين تصل إلى وسط قلعة الكفار وتقتلهم وتحرقهم بالنار وتسوقهم إلى جهنم وبئس القرار .

ووصل رمضان باشا ومعه ثلاثة آلاف مقاتل واجتمع بحضرة الوزير المعظم وطلب معه خدمة يؤديها فأرسله بمن معه من عسكر الاسلام إلى إعانة المسلمين الذين حصروا الكفار بالقلعة التى بقرب تونس فتوجه اليها ونزل فى جهة من جهاتها وحط عليها مع من هناك من البكلربكية والأمراء والغزاة والمجاهدين والكبراء واستمر حضرة الوزير فى محاصرة حلق الواد والاستيلاء على من فيها من أهل الكفر والعناد وأقدم المسلمون على الدخول على الحصار لما شاهدوا وهن الكفار وحمل الوزير المعظم بمن معه من الأبطال حمله تزلزل الجبال وحمل من الجهات الثلاث من العسكر والأمراء والرجال فدخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال لست مضين من من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ووضعوا السيف فيمن وجدوا بها من الكفار وساقوهم بالنار إلى عذاب النار جهنم وبئس القرار وغير ذلك واستوسر صاحب القلعة كبير النصارى المخذولين وكذلك أسر سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى وقيدهما وحبسهما حضرة الوزير وأمر بقتل سائر من وجد من النصارى والعرب المرتدين وفرج بفتح هذا الحصن كافة أهل الاسلام والمؤمنين واستبشر بهذا النصر والفتح المبين فانه يعد من أجل فتوحات الاسلام وأعظم التأييدات لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكانت هذه القلعة من أحكم القلاع التى أحكمها اللئام وأقواها فى المكنة والاستحكام وأشدها ضررا على أهل الاسلام .

ومن عجيب الاتفاق إن هذه القلعة المنكوبة بنتها النصارى فى سنة ست وثلاثين وتسعمائة وكملوا استحكامها فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها حضرة الوزير المعظم سنان باشا فى ثلاث وأربعين يوما من محاصرتها بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة .

ولما تم هذا الفتح المبارك رأى حضرة الوزير أن ترميمها وإعادتها وحفظها بالعسكر يحتاج إلى مؤنة كبيرة وخزائن من الأموال كثيرة مع قلة جدواها ولبعدها

Marfat.com

عن الباب العالى وطول مداها ورأى أن الأولى هدمها وتخريبها فهدموها حجرا حجرا وتركوها خبرا لا أثرا وأعملت المعاول فى رأسها إلا أن وصلوا إلى أساسها فصارت طللا من الأطلال ودمنة يلعب فيها هبوب الصبا الشمال ولا يسمع فيها نداء أو صدا الاصباح يوم أو صدا ولم يبق بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس وأرسل حضرة الوزير المعظم بشائر النصر والفتح المتوالى إلى جهة الباب الشريف العالى وإلى سائر بلاد الاسلام ليأخذ المسلمون حظهم من هذا البشر متام والفرح الشامل العام ويفرح المؤمنون بنصر الله والملائكة الكرار ويدعوا بدوام هذا السلطان الأعظم نصره الله وخلد ماكه على الدوام .

وهذا دعاء لا يرد لأنه يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شك أجيب لأنه إذا ما دعونا أمنته الملائك

وتوجه البشير كأنه الصبح الصادق ينشر على الخافقين رايات النصر الخوافق ويملأ برايات الفرح أقطارا المغارب والمشارق .

وكوكب الصبح نجاب على يده مخاق تملأ الدنيا بشائره

ثم لما فرغ حضرة الوزير مأربه من حلق الواد وفعل فى تلك الوهاد والمهاد والأوعاد والانجاد ما أراد توجه بعسكره المنصورة إلى تونس لتطمئن طلعته الغراء من بها من المسلمين وتونس فوصل اليهم وهم محاصرون قلعة النصارى انخذولين مجاهدون مجتهدون فى أخذ أولئك الملعونين ففرح بوصوله البكلربكية الذين يحامون لنصرة الدين واشتد أزرهم وقوى جاشهم على قتال المشركين كيف وقد نشأوا على الطعان والقراع كما نشأ الأطفال على الرضاع وضروا بدماء الكفار ضراوة الأسود والسباع بما تفترسه من الصيد وهن جياع وحمل باقدامه حضرة الوزير المعظم على من فى القلعة حملة الأسد الغشمشم وتسابقت العساكر المنصورة إلى استئصال أعداء الدين سبق السيل الغطمطم وتعلقوا بأطراف الحصار وصبروا على حر السيف والنار واستشهد كثير من المسلمين الكرام وقتلوا فى سبيل الله وهم أحياء لا أموات عند الله فى دار السلام واستمر عساكر المسلمين على الأقدام على الموت الزام وحد السيف والحسام إلى أن دخلوا القلعة ونصبوا الرايات السلطانية على القلعة فدخلوها

ووضعوا السيف فى الكفار عبدة الصليب وقتلوا منهم ثلاثة آلاف دراع مغلغل من فرقه إلى قدمه فى سابغات الحديد ورمى نفسه الباقون من أعلاالقلعه إلى أسفلها وهم زهاء خمسة آلاف نفس نزلوا على أقدامهم فى الرمل وهربوا قدر رمية سهم أو سهمين وشرعوا فى التترس بأتربة ورمال أرادوا أن يتحصنوا بها والمسلمون مشغولون بقتل من بقى فى القلعة ونهب الأمتعة والاسلاب فوجدوا بها أخشابا وألواحا أعدها الكفار لاتقان القلعة وأحكامها وبارودا كثيرا ومدافع ولبوسا وآلات الحرب وبكسماطا كثير الأزواد هم وكانت القلعة بسبب العجلة غير محكمة البناء وعجلتهم العساكر المنصورة السلطانية الاسلامية عن إتمامها واتقان استحكامها فلو تأخر ورود العساكر السلطانية عنهم فى ذلك العام لكانوا أتقنوا تلك القلعة اتقانا قويا لا يقوى عسكر الاسلام على فتحها بعد ذلك ولكن خذل الله تلك الطائفة أينما ثقفوا بوصول حضرة هذا الوزير المعظم بهذا الخميس العرمرم فى هذا العام قبل استيفاء أحكام القلعة غاية الاحكام وكان ذلك بيمين سعادة طالع السلطنة الشريفة العثمانية وحسن اهتمام هذا الوزير الأعظم ولطف تدبيراته العلية ورقة آرائه الثاقبة الجلية .

ثم أمر حضرة الوزير أن يستعقب العساكر المنصورة الاسلامية أولئك الهاربين من الكفار فتبعوهم ووجدهم قد شرعوا فى عمل مكان يتحصنون فيه فتجمعوا عليهم هجمة واحدة فتيقن الكفار أن لا مفر لهم ولا محيص فقاتلوا أشدة قتال وقاتلهم المسلمون بالنصال وصار الوجه فى الوجه والناب فى الناب والسيوف المسلولة من القراب تغوص فى الرقاب والحناجر تدق فى اللبات والحناجر حتى سالت الدماء كالسيل العباب إلى أن أنبت كافور تلك الرمال شقيقا وصير أحجار الفلا عقيقا وصرب النقع فى السماء طريقا وجند الله على كل حال هم الظافرون والكافرون هم الصاغرون وصب من دماء أولئك الأرجاس ما تجس به الرمل على طهارته والبر على سعته وقتل الكفار عن آخرهم قتلا ذريعا وشكر المسلمون لله عز وجل صنيعا وانتصر على النصارى أهل ملة الاسلام الذى بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام إلى كافة الأنام وعاد حضرة الوزير المعظم ظافرا منصورا غانما مسرورا مثابا مأجوراً

Marfat.com

وغنمت العساكر المنصورة السلطانية والجيوش الموفرة الايمانية ما يكل عن حصره أنامل التحرير وتضيق عن ذكره أدراج الأساطير وجهزت البشائر إلى الأبواب الشريفة السلطانية والأعتاب المنيفة العثمانية وتطايرت أخبار البشارة إلى سائر المسلمين فى الآفاق تخفق على الخافقين أجنحة السرور والبشر الخفاق ما بين حدود الغرب والأشراق ولولا لطف الله تعالى بأهل الاسلام لكان البلاء عاما على سائر بلاد المسلمين فان السلطان الأعظم الأفخم السلطان سليم خان لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين لكانوا يتسلطون على أخذ تونس وأخذ الجزائر كلها وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصارها غاية الأحكام وكانت ترتد عن الاسلام عربان المغرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من ديار الاسلام لا بلغهم الله المرام وأنزل عليهم الخزى والخذلان والنكال إلى يوم القيام وقد أعان الله سلطان الاسلام لدفع أولئك الكفرة الطغام ومزقهم كلى ممزق بالسيف والسنان والحسام وشتت شملهم ومزق جمعهم فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك فالله تعالى يشكر لتأييد الاسلام صنيع هذا السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان سليم خان صاحب هذه الهمة العالية والقوة والأيادى الحسان ويجازيه عن الاسلام والمسلمين خيرا دائم الفيضان ويشكر همة هذا الوزير الأعظم العالى الشأن على نصر اهل الايمان أعظم جزاء على هذا الفتح العظيم بحد السيف والسنان .

وكان هذا الفتح الاخير فى يوم الخميس المبارك لخمس بقين من جمادى الاولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وقتل فى القلاع الثلاث من الكفرة الخبث عشرة آلاف مقاتل ساقهم الله تعالى إلى النار وقد استشهد من الغزاة والمجاهدين مايوازى عشرة آلاف غازى فمن عين أمراء السناجق من أمراء الاكراد خضر بك وسنجق ابنه لختى مصطفى بك وسنجق مملكة مسدلو برويزبك وسنجق برك مصطفى بك وسنجق أولية أحمد بك وسنجق ترخانة بايزيد وسنجق اسكندرية صفر بك وكتخدا الينكجرية فرهاد ورأس زمرة البواب وكثيرا من الزعماء وأرباب التيمار وغيرهم عدة عديدة وأعطى حضرة الوزير الأمان لطائفة من الكفار رأى فى ذلك مصلحة يوازى زهاء مائتى نفر بززوا فى أمان حضرة الوزير وأخبروه بأمور مبهمة كان

Marfat.com

يريد الاطلاع عليها منها أن عندهم من العلمين الاستاذين فى عمل الطوب الكبار الذى يعجز جميع الكفار عن عمل مثلها مائتى نفر وخمسة أنفار ممن لا نظير لهم فى هذه الصناعه فأمتهم وطلبهم وأخذ بخاطرهم وأعطاهم الامان على أنفسهم وشرط عليهم أن يسبكوا دائما النحاس ويحملوه مدافع كبارا ويعمل لهم علوفة ويوضع فى أرجلهم القيود ويكفل بعضهم بعضا فرضوا بذلك وطلبوا الامان على هذا الشرط فكساهم الوزير وكتب لهم علوفات على حسب مراتبهم وصاروا من خدام الترسخانة السلطانية موكلا عليهم من يحفظهم ويتيقظ لهم ويستخدمون فى الخدم السلطانية ويسبكون النحاس للطوب الكبار والمدافع العظام وظفر حضرة الوزير المعظم فى قلعة حلق الود وقلعتى تونس بمائتى مدفع وخمسة وثلاثين مدفعا لحفظ تونس من الكفار الفجار وأرسل مائة وثمانين مدفعا من أكبر المدافع العظيمة إلى الباب الشريف السلطانى ليستعان بها على قتال الكفار الملاعين إذا جهز عليه العساكر فى كل حين .

ثم لما فرغ حضره الوزير المعظم الكبير من هذا الفتح العظيم والغنم الكثير وأنعم على من فى ركابه الشريف من الامراء والكبراء والبكلربكية وسائر الزعماء وأرباب اليتمار وبلوكات العسكر المنصور وأرباب الجوامك والعلوفات بالترقيات العظيمة والمناصب الكبيرة كل أحد بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته وعرض ذلك على سرير السلطنة الشريفة وكان مقدارا كبيرا من الخزائن العامرة السلطانية فقوبل جميع ذلك بالقبول ووقعت موقع الاجابة فى المأمول والمسئول وذلك فى مقابلة ما بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وجاهدوا فى الله حق جهاده ونصروا الاسلام والمسلمين وأنعمت السلطنة على حضرة الوزير بأنواع الانعامات السنية والترقيات الكثيرة العلية والخلع الفاخرة البهية والتشريفات الزاهرة السلطانية فى مقابلة سعيه فى نصرة الدين وبذل أمواله للغزاة والمجاهدين وأخذ ثار المسلمين من الكفرة والمشركين على وجه لم يقع فى كثير من الزمان مثل هذا الفتح العظيم الشأن وذلك بمحض الاعانة الربانية والنصرة الالهية السبحانية ولله الحمد على نصرة الاسلام وتأييد سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثم عاد حضرة الوزير المعظم المنصور المكرم خلد الله عليه سوابغ النعم إلى الأبواب الشرفية السلطانية بمن معه من عسكر الباب الشريف السلطانى وأذن لغيرهم من العسكر المنصور وسائر الأمراء والبكلربكية بالعود إلى أوطانهم وأماكن حكومتهم مجللين محترمين مجبورين منصورين سالمين غانمين واستمر حضرة الوزير المعظم إلى أن ورد إلى الباب الشريف العالى السلطانى وقبل قوائم السرير الشريف العثمانى فقوبل بأنواع البشر والتهانى وشمله النظر الخاقانى ونظرت إليه السلطنة بعين القرب والتدانى وأفرغ على كاهله مرة بعد أخرى خلع التشريف الخسروانى وقبل كل ما عرضه حضرة الوزير المعظم المشار إليه على الأعتاب الشريفة السلطانية من المطالب وأنعمت عليه السلطنة الشريفة بكل ما سال فيه من المقاصد والمآرب وكان يوم دخوله إلى اصطنبول يوما عظيما مشهوداً ووقت حلوله فى منزله السعيد وقتا مباركا مسعوداً وازدحمت الخلق على مشاهدة طلعته والتبرك بوجهه الكريم وميمون غرته وصاروا يتبركون بالنظر إلى المجاهد فى سبيل الله ويطلبون الدعاء منه وممن معه من المجاهدين الغزاة والأسارى من النصارى يقادون بين يديه بالسلاسل والاغلال مقرنين فى الأصفاد بشديد الذل والنكال ودخلت سفائن العمارة وأغربتها إلى الأسقال مزينة مزخرفة بالبيارق والسناجق يخفق عليها رايات الفرح بالنصر والظفر والجلالة وأطلقت المدافع للفرح فزلزلت الأرض زلزالها وكادت تصمم الآذان فلا تسمع الناس مقالها وعساكرها الباب السلطانى وزدت صفوفا بعد صفوف وتعاطفت عائدة بالنصر والتأييد ألوفا بعد ألوف ودخل أيضا القابودان المعظم المجاهد الأكرم الأفخم حضرة قلج على باشا المكرم لازال فى حرب البحر مظفرا منصوراً مسعود القدم فقوبل من الحضرة الشريفة السلطانية بغاية القبول والاقبال وخوطب بلسان الشكر والتعظيم والاجلال وأنعم عليه بسائر مقاصده ومطالبه وحصل له غاية ما يتمناه من سؤله ومآربه وحصل لسائر العساكر المنصورة الاحسان الموفور وشكر لهم سعيهم المشكور وأعظم من ذلك ماحازوه من الأجر والتعظيم والثواب الجزيل الجسيم وناهيك بهذا العز والفخر وقد بقى لهم هذا الذكر الجميل فى صفحات الدهر والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على تداول الليالى

Marfat.com

والأيام ويحمى بحمايتهم كافة ويؤيد بتأييدهم ملة الاسلام ويبقى سلطنتهم على الدوام إلى يوم القيام فكم لهم ولأسلافهم الغزاة والمجاهدين فى نصرة الملة الحنيفية الغراء من يد بيضاء آية للناظرين وكم فتحوا دار الكفر وصيروها دار الاسلام على رغم المشركين الكافرين ويكاد يلتحق فتوحاتهم بفتوحات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . ولقد حكت علماء أمة الاسلام واتفق قول الأئمة الأعلام رضوان الله عليهم أجمعين وشمله برحلته أنه أرحم الراحمين أن سيوف الحق أربعة وما عداها للنار سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المشركين وسيف أبى بكر رضى الله عنه فى المرتدين وسيف القصاص بين المسلمين .

أقول وسيوف بنى عثمان رحمهم الله تعالى وأبقى الملك فيهم وفى عقبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى إذا عتبرتها وتأملتها لاتخرج عن هذه السيوف الأربعة فإنهم ما زالوا من أول أسلافهم رحمهم الله تعالى إلى الآن مجاهدون الكفار والمشركين ويقاتلون الملحدين والباغين ويقيمون شرائع شعائر الدين فالله تعالى يمد ظلال سلطنتهم عن المسلمين ويؤيد بهم أهل السنة ويقمع بهم كافة الملحدين وهذا دعاء يجب أن يدعو لهم به طوائف المؤمنين فإنهم عماد الاسلام وقوام هذا الدين المتين وسبب قيامه بين الأنام والدعاء لهذه السلطنة الشريفة دعاء لأهل الإسلام واعزاز لدين الله تعالى ونصرة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وتأمين البلاد وتطمين العباد وتوهين أهل الفساد وقطع جادرة الالحاد وقمع جميع أرباب البغى والفساد .

فصل

فيما جدد المرحوم السلطان الاعظم سليم خان من الخير والاحسان زيادة على والده المرحوم السلطان سليمان خان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان

وذلك أول سلطنته الشريفة أمر لأهل الحرمين الشريفين أن يزاد لهم سبعة آلاف أردب حب من صدقته المقبولة المبرورة زيادة على ماكان يرسله والده المرحوم لهم فى كل عام فكانت تحمل فى كل سنة من الأنبار الخاصة السلطانية على

ظهور الجمال من مصر إلى السويس وتوضع فى سفائن الدشايش الشريفة السلطانية من بندر السويس إلى بندر جدة وإلى الينبع وتوزع على الفقراء وكان بروز أمره الشريف العالى أن يضاف ثلاثة آلاف اردب إلى الدشيشة العامة السليمانية لفقراء المدينة الشريفة وتوزع عليهم وأن يوزع خمسمائة أردب على الفقراء المنقطعين بالينبع العاجزين فيها عن السفر إلى المدينة الشريفه فيستعينون بها على التوجه إلى حيث أرادوا وتوزع خمسمائة أردب على فقراء جدة المنقطعين بها العاجزين عن التوجه إلى مكة لأداء حج الفرض والنفل وذلك مقصد جميل للمرحوم فكان الفقراء يتوسعون فيها ويرتفقون بها وكانت ترد إليهم فى كل عام من أعوام سلطنته الشريفة وكان الدعاء مبذولا له من سائر الفقراء المحتاجين المضطرين وكان يحوز بذلك ثوابا جزيلا وأجرا وافيا جميلا رحمه الله تعالى رحمة واسعه وأثابه المثوبة العظمى فى الدرجات الآخرة على مقاصده الجميلة وخيراته الوافرة الجزيلة. ومنها أيضا ما كان يتصدق به على فقراء الحرمين الشريفين أيام كان شاه زاده قبل أن يلى السلطنة العظمى فانه كان يرسل ألف دينار ذهبا توزع أيام موسم فقراء مكة يستعينون بها على الوصول من المدينة الشريفة المنورة إلى مكة المشرفة لأداء الحج الشريف فى كل عام وكان يخص بعض العلماء والصلحاء والمشايخ بكسوة من الأصواف الخاصة وبعض غير ذلك يرسلها إليهم يستمد منهم الدعاء بظهر الغيب منهم .

فلما ولى السلطنة الشريفة وجلس على التخت الشريف السلطانى كان يرسل لهم عوائدهم السابقة فى كل عام وجعل ذلك مضافا إلى دفتر صر الرومية فكانت ترد أيام سلطنته الشريفة واستمرت ترد إلى الآن بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى وذلك أيضا من مقاصده الجميله وخيراته الباقية العميمة وله أنواع من الخيرات أيضاً فى القدس الشريف وفى الشام وفى حلب وفى مصر بجامع الأزهر وغيرها من الممالك الشريفة العثمانيه غير ما بنى فى بلاد الروم من المدارس والجوامع والتكايا وغير ذلك رحمه الله تعالى .

Marfat.com

فصـل

فيما وقع من عمارة الحرم الشريف المكى فى أيامه رحمه الله تعالى

اعلم أن عمارة المسجد الحرام زاده الله تعالى شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما من أعظم مزايا الملوك والخلفاء وأشراف أكابر السلاطين العظماء وقد يسر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان أيد الله تعالى نصرهم وخلد سعادتهم مدا الزمان فوقع الشروع فيها فى أيام السلطان الأعظم الخاقان الأكرم الأفخم خليفة الله فى أرضه القائم بإقامة سنته وفرضه ملك البرين والبحرين سلطان الروم والترك والعرب والعجم والعراقين صاحب المشرقين والمغربين خادم الحرمين الشريفين المحترمين عامر البلدين المكرمين المنيفين واسطة عقد ملوك بنى عثمان السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان امطر الله تربتهما سحائب الرحمـــة و الرضوان وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان وجعل السلطنة كلمة باقية فى عقبهما إلى يوم الحشر والميزان .

إلى أن يعود العارضان كلاهما ويحشر فى القتلى كليب لوائل

(وسبب الأمر الشريف) بتعمير المسجد الحرام أن الرواق الشرقى مال نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رؤس خشب السقف الثالث منه عن محل تركيبها فى جدر المسجد وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباى وجدر مدرسة الأفضلية التى هى الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله فى شرقى المسجد الحرام وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه فى المذكور أكثر من ذراع ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلا ظاهرا بينا وصار نظار الحرم الشريف يصلحون المحل الذى قد فارق خشب السقف أما بتبديل خشب بأطول منه أو بنحو ذلك من العلاج وأما الرواق الذى ظهر ميله إلى صحن المسجد فترسوا بأخشاب كبار حفروا لها فى المسجد يمسكه عن السقوط واستمر الرواق الشرقى متماسكا على الأسلوب فى أواخر دولة المرحوم

السلطان سليمان خان وصدرا من دولة المرحوم السلطان سليم خان ثم لما أفحش مهلان الرواق المذكور عرض ذلك على الابواب الشريفة السلطانية السليمية سنة تسع وسبعين وتسعمائة فبرز الامر الشريف السلطانى بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الاتقان والاحكام وأن يجعل عوض السقف الشريف قببا دائرة بأروقة المسجد الحرام ليأمن من التآكل فان خشب السقف كان متآكلا من جانب طرفيه بطول العمد وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبه بخشبة أخرى فى كل قليل إذ لا بقاء للخشب زمانا طويلا مع تكسر بعضه

وكان له سقفان بين كل سقف نحو ذراعين بذراع العمل وصار ما بين السقفين مأوى للحيات والطيور فكان من أحسن الرأى تبديلها بالقبب لتمكنها ودفع مواد الضرر عنها ووصلت أحكام شريفة سلطانية إلى بكلربكى مصر يومئذ الوزير المعظم والمشير المفخم حضرة سنان باشا أدام الله تعالى سعادته وإقباله وضاعف عظمته وإجلاله أن يعين لهذه الخدمة من أمراء السناجق المستحفظين بمصر من يخرج من عهدة هذه الخدمة الشريفة ويكون فى غاية الديانة والأمانة والمعرفة والخير والصلاح فأمر البكلربكى يومئذ وهو سنان باشا أمراء مصر أن يقبلوا هذه الخدمه فما أقدم أحد على تلقيها بالقبول لكثرة مشقتها وأشغالهم بأمور دنياهم والتوغل فيما يعود عليهم نفعه عاجلا من غير مشقة .

وكان من جملة الأمراء المحافظين بمصر كتخداى المرحوم اسكندر باشا الجركسى بكلربكى مصر سابقا أفخر الأمراء العظام ذكر الكبراء ذوى الاحترام أحمد بك بارك الله فيه وفى ذنوبه وأناله من خيرى الدنيا والآخرة ما يرتجيه وكان ممن اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة من حب الخير والتوجه إلى الله تعالى وقلة الميل إلى الدنيا وزخارفها والميل إلى الفقراء والضعفاء والعلماء والتواضع مع الناس وحب المعدلة والاستقامة مع صدق الخدمة وكمال الديانة والأمانة والإقدام وعلو الهمة ووفور الاهتمام فطلب منه حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة الشريفة وأضيف إليه عمل بقية دبل عين عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة فان السلطنة الشريفه أمرت أن يبنى لها دبل مستقل ولا تجرى فى دبل عين حنين فعينت هذه

Marfat.com

الخدمة أيضا للأمير أحمد المذكور وعرض له ذلك إلى الباب الشريف العالى فوردت الأحكام الشريفة السلطانية له بذلك حسب ما عرض له وأضيف إلى الخدمة سنجق جدة المعمورة تعظيما لشأنه وتوفيرا لقدره ومكانه وبعد ورود الأحكام الشريفة السلطانية إليه أخذ فى أهبة السفر وتوجه من مصر من طريق البحر إلى بندر جدة ثم وصل إلى مكة شرفها الله تعالى فى أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة مهتما غاية الاهتمام سائلا من الله تعالى الاعانة والامداد التام وكانت الأوامر الشريفة السلطانية والمتكلم عليه من جانب السلطانية المنيفة الخاقانية سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام بدر الملة والدين حسين الحسينى خلد الله سعادته ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرج التام وشد مناطق حزمه على مناطق عزمه وقاله فى ذلك أحسن قيام وحصل بين مولانا الناظرى الأمير أحمد المشار إليه كمال الملائمة والانفاق وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق وجرت عادة الله أن الخير كله فى الوفاق والشر جميعه فى الشقاق ولم يكن الرفق فى شىء الا زانه ولم يكن العنف فى أمر إلا شانه ومن أراد الرفق بعباد الله وفق الله تعالى به وأعانه ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار جليل الآثار تقدم له مباشرة الأبنية العظيمة وحصلت له بالتجربة خبرة تامة ومعرفة مستقيمة أجمع المهندسون على تقدمه فى هذه الصناعة ودقة نظره فى لوازم هذه البضاعة اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالى وهو إنسان من أهل الخير عظيم الأمانة كثير الديانه مستقيم الرأى منور الباطن مشكور السيرة زاد الله توفيقه وأرشد طريقه فاتفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع فى هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصل إلى الأساس فشرع أولا فى اكمال الدبل المستقل لإجراء عين عرفات وبناء من جهة المدعا ثم مر به من عرض ثم من جهة سويقة ثم من عطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهاه وبنى قبة فى الأبطح جعل فيها مقسم ماء عرفات وركب فى جداره بزابيز من النحاس يشرب منها الماء ثم بنى مسجدا وسبيلا وحوض ماء للدواب على يمين الصاعد إلى الأبطح فى قبلى بستان بيرم خواجه الصابر إلى المرحومة الخاصكيه أم سلاطين طاب ثراها وبنى مسجدا آخر وسبيلا ومتوضأ فى انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد وكل ذلك من

أعمال الخير الجارية النافعه للمسلمين وعرض ذلك على أبواب السلطنة الشريفة فأنعمت على الأمير المشار إليه بسبعين ألف عثمانى ترقيا فى علوفته فى مقابلة هذه الخدمه .

ثم شرع فى تجديد أروقة الحرم الشريف بدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام فى منتصف ربيع الأول سنة ثمانين وتسعمائة وأخذت المعاول تعمل فى رأس شرفات المسجد وطبطاب مسقفة إلى أن ينكشف السقف فتنزل أخشابه الأرض وتجمع فى صحن المسجد الشريف وينظف الأرض من نقض البناء وأتربته ويحمل على الدواب ويرمى فى أسفل مكة فى ناحية جبل القلق ثم تمام الأساطين الرخام إلى أن تنزل بالرفق إلى الأرض واستمروا فى هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك من باب على إلى باب السلام وهو الجانب الشرقى من المسجد ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا فأخرجوا الأساس جميعه وكان جدارا عريضا نازلا فى الأرض على هيئة بيوت وقعة الشطرنج وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قاعدة تركيب الاسطوانة على تلك القاعدة فشرع أولا فى موضع الأساس على على وجه الأحكام والاتقان من جانب باب السلام لست مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين وتسعمائة واجتمعت الأشراف والكبراء والأمراء والفقراء والمشايخ والصلحاء تبركا وتيمنا بالحضور فى هذا الخير العظيم وقرئت الفواتح بالاخلاص من سويداء القلب الصميم وذبحت الأبقار والأنعام والأغنام وتصدق بها على على الفقراء والخدام ووضع الأساس المبارك باعانة الله تعالى وتبارك وكان يوما مباركا مشهودا متيمنا ميمونا مسعودا ولله الحمد على هذا الاكرام وله الشكر والثناء الحسن فى المبدء والختام وكانت الأساطين المبنية سابقا على نسق واحد فى جميع الأروقة فظهر لهم ان ذلك الوضع لايقوى على تركيب القبب عليها القلة استحكامها إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربع فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى تبنى من الحجر الشميسى يكون سمكها مقدار سمك أربع اسطوانات من الرخام ليكون مقيما لها من كل جانب فتقوى على تركيب القبب من فوقها ويكون كل صنف من أساطين الأروقة

الثلاثة فى غاية الزينة والقوة فنى أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسى ثم اسطوانة رخام كذلك ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسى وعلى هـذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق ثم الصف الثانى من الرواق الثانى كذلك على هذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال وبنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين فى دور المسجد جميعه وشرعوا من ركن المسجد الشريف من جهة باب السلام كما تقدم وقاسوا تلك الصفوف بخط مستوى وأزالوا ما كان قبل ذلك من الأزورار والاعوجاج والحجر الشميسى نسبة إلى شميس تصغير شمس جبل بقرب بئر شمس وهى حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر تكسر منها هذه الأحجار وتحمل إلى مكة مسافة مادون ليلة فكان فى إدخال هذه الدعامات الصفر ما بين الأساطين البيض حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة وهى أن أساطين الرخام الباقية فى المسجد كانت تنى بجوانبه الأربع لأن الجانب الغربى احترقت أساطينه الرخام وسقفه أيام الجراكسة فى دولة الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة وأرسل من أمرائه الأمير سيف الظاهرى إلى مكة المشرفة فعمر الجانب الذى احترق من المسجد الحرام بالحجر الصوان المنحوت كما قدمنا ذكر ذلك فى محله وصارت الجوانب الثلاث من المسجد الحرام بالحجر وهى الجانب الشرقى والجانب اليمانى والجانب الشامى على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض وأساطين الجانب الغربى جميعها من قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان غير مناسبة للجوانب الأخر الآن وبإدخال هذه الدعامات الصفر صارت الأساطين كلها على نسبة واحده وهى أن كل ثلاث أساطين من الرخام الأبيض يكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسى وذلك فى غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كلها قائمة على أقدامها بغاية الأحكام كأنها صفوف واقفة بالأدب حول صحن مسجد بيت الله الحرام من جهاته الأربع وهى أعلى من الارتفاع السابق وارفع كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها بل تفوق على ما سواها وتطول

ان الذى سمك السماء بنا لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

Marfat.com

واستمر أمير العمارة الشريفة حضرة الأمير أحمد المشار إليه شكر الله سعيه وبارك له وعليه فى غاية بذل الجد والاجتهاد مقرون الحركة بالتوفيق والسداد يتلطف بالخدم والعمال ويتفضل عليهم بأنواع الأفضال ويوصلهم أجورهم كاملة لايقتطع منها مقتطعا من أحد ولا يضر بحاله بل يزيدهم من عنده ويسامحهم بما له مع كمال الدقة فى الأموال السلطانية الحرص على حفظها وعدم التبذير فيها وأما مال نفسه فيوسع به على الفقراء ويبذل لهم وللخدام والعمال ماأراد ويحسن إلى أهل البلاد مع التواضع وحسن الخلق ولين الكلام ومواساة الناس فى جميع المهام والمشى فى تشييع الجنائز معهم وعيادة مرضاهم وسلام القدوم واستجلاب رضاهم بحيث ترك عظمة الامارة وصار من جملة فقراء الناس لكثرة تواضعه فأحبه الناس وحمدوه وشكروا جميله واحسانه وذكروا كثرة تجمله ولطفه ولقد جاءنى إلى منزلى متفضلا مرارا وأتا من آحاد الفقهاء بل من أدنى الفقراء وما فعل ذلك إلا محبة فى الله أحبه الله لا لأمر يناله منى فانه أجل قدرا وأعظم خطرا من ذلك وما ذكرته إلا ليعلم حسن تواضعه وتخلقه وتلبسه بالأوصاف الجميلة وتحققه فلا جرم أن الله تعالى وفقه لهذه الخدمة السنية الفاخرة وأتم عمل هذا الخير العظيم على يده فيكفيه ذلك سعادة فى الدنيا والآخرة فكم من وزير كبير نبيل بل ملك عظيم جليل يتمنى الوقوف فى هذه الخدمة مع جلالته ويعدها من أكبر سعادة دنياه وآخرته وماقدرها الله تعالى إلا لمن ظهرت العناية الأزلية فى حقه فاختاره الله تعالى لذلك من بين عباده واصطفاه من خلقه وهو هذا الأمير الكريم الصفات فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات ويسدده فى أفعاله وأقواله ويوفقه للباقيات الصالحات فلما كل جانبين من المسجد وهما الجانب الشرقى والجانب الشمالى وحصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم إلى دار النعيم رحمه الله وطيب ثراه وأحسن إليه فى الدار الآخرة واستمر الأمير أحمد المشار إليه أحسن الله تعالى إليه فى عمله المبرور وفعله المعمور بالمعمور مستعينا بالله ولى الأمور .

Marfat.com

Marfat.com

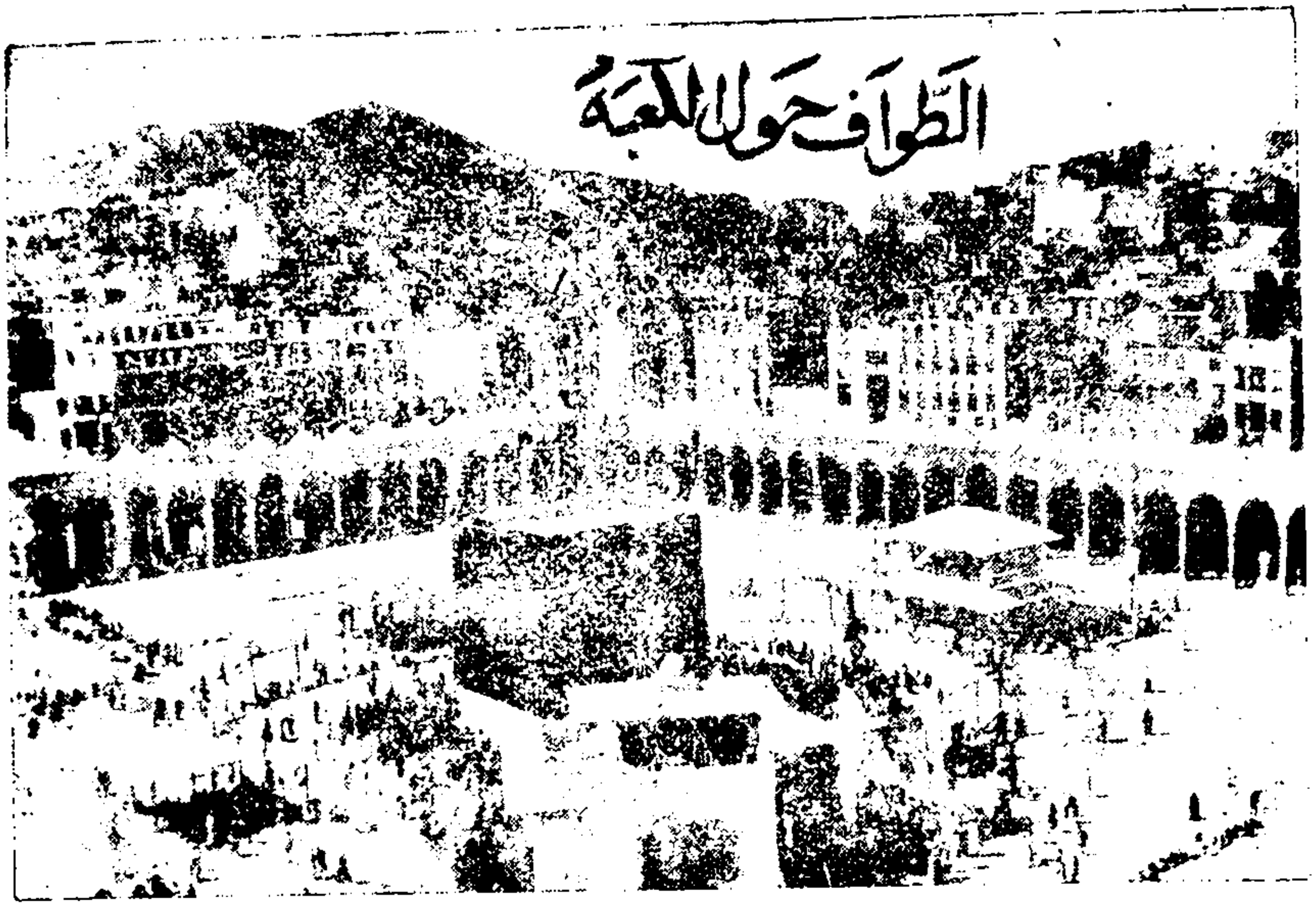

(صورة المسجد الحرام فى عصرنا الحاضر وقد ظهرت فيهـا الأساطين الرخامية الجميلة ، والعقود المتقنة البديعة ، والقباب العالية المعالية المتينة ، وترى الكعبة المعظمة الشريفة والناس يطوفون حولها ليل نهار)

فصل

فى وفاة المرحوم المقدس السلطان سليم الثانى
وانتقاله إلى عالم القدس من ملك هذا الفانى

لما كان لكل أجل كتاب ولكل نفس أنفاس معدودة قدرها الله تعالى فى أم الكتاب لايسلم منه والد ولا مولود ولا سلطان ولا جنود ولا سيد ولا مسود ولا ينجو منه شيء خرج من كتم العدم إلى فضاء الوجود .

هو الموت سلطان البرايا لعاجز لديه وغلاب كمن لم يغالب
ودرع الفتا فى حكمه درع غارة وايوان كسرى من بيوت العناكب

قدر الله تعالى له بالانابة عن كل مايخالف أمره ورضاه غلب عليه قرب توجهه إلى الله صلاحه وتقواه وطهره الله تعالى بمقاساة المرض وكفاه وصيره نورا روحانيا جوهرا علويا سنيا وهيكلا شريفا مليكا يصلح لجنات قدسه الكريم ودعاه فلباه بقلب سليم ومضى إلى رحمة ربه الرحيم فائزا بالملك الأخروى فى جنات النعيم مخاطبا من الحضرات الألهية بلسان الألطاف الرحمانية يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى .

وكان وقوع هذا الأمر المهول لسبع مضين من شهر رمضان فيضان الرحمة والاحسان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ودفن جسده الشريف وهيكله الطاهر المنيف بقرب أبا صوفية بتربة طيبة غرا وروضة نضرة غنا تنوح بها ورق الأطيار وتبكى فيها سحب الأمطار وتشقق أثوابها أكمام الأزهار وتلطم خدودها أوراق البهار أنزل الله تعالى عليه مطر الرحمة والرضوان وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان .

سرى نعشة فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
أفاض عيون الناس حتى كانما عيونهم مما تفيض أناملة
فيا عين لا تشحى بسائل على ملك لايعرف النهر سائله
فان دفنوا تحت التراب جماله فما دفنت أوصافه وشمائله
سقى جدثا هالت عليه ترابه أناملهم سح الغمام ووابله

Marfat.com

البَابُ العاشِرُ

فى سلطنة سلطان العصر والزمان

خاقان خواقين العهد والدوران

ملك ملوك المشرفين والمغربين سلطان سلاطين الخافقين خادم الحرمين الشريفين عامر البلدين المحترمين المنيفين أعظم سلطان خفقت عليه البنود وتشرفت بمدحه رؤس المنابر وأكبر مليك جند الجنود وكتب الكتائب وحشد العساكر وأعدل خليفة انتظم به نظام الوجود وعفدت على عظمته عقود الخناصر .

ملك إذا ضاق الزمان بأهله بخلا توسع فى المكارم وانفسح
تكبوا السحائب إذ تجارى كفه فالغيث من راحاته عرق رشح
ومكلف الأسد الهصور بعدله فى القفر أن يرعى الغزال إذا سنح

المنصوب له على أعلا أوج سرير السلطنة سرادق الخلافة العظمى المرفوع فى أرجا بساط البسيطة لواء الملك الأسنى العظيم الأسما .

حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان .

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

لازالت أعلام خلافته مرفوعة على هام الثريا ولا برحت ألوية سلطنته منصوبة فوق الكواكب مكانا عليا ما دام الجديدان وطلع النيران ولمع الفرقدان .

مولده الشريف فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وجلس على تخت الملك الشريف فى عاشر رمضان المبارك سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وسنه الشريف حين ولى الملك المنيف ثلاثون سنة وهو ملك همام وأسد ضرغام وهزبر مقدام وسيف صمصام وبحر طمطام وملك بقائم سيفه ملوك الأملاك وأدار على حسب مراده الافلاك

وملأ بصيت عظمته مابين السماك والأسماك وخاطبه الصبح والليل أسعد الله صباحك ومساك خداوندكار العالم وسلطانه وأمام المسلمين الذى إذا جلس على كرسيه فما قدر كسرى وإيوانه وهو منذ هجر المهد والرضاع مجبول على كرم الخصال وشرف الطباع مشغول اللسان بالذكر والقرآن مشغول الجنان بالسيف والجنان ممدود الهمة إلى معالى الشأن معقود الأمنية بعلو القدر وسمو المكان لم يزل قائما بنصرة الدين وحماته بيضة الاسلام وتقوية جناح المسلمين وإنى أنشر فى هذه الرسالة سيرة معدلته فى الرعايا وأتحدث بما طبعه الله عليه من كرم السجايا وحبب إلى خلقه الشريف من الرأفة بالبرايا والمحبة لعلماء الدين وأكرامهم بالمواهب والعطايا وحسن نظره إلى الحرمين الشريفين وإحسانه إلى الفقهاء والفقراء والصلحاء بالبلدين المنيفين وأمره الشريف بتكميل عمارة المسجد الحرام عمارة فائقة حسنة رائقة باقية فى صفحات الأيام فاق بها من الخلفاء الكرام وسائر سلاطين الأنام وكافة ملوك الاسلام فلقد آتاه الله ما لم يؤت أحدا من العالمين وجمع له بين أعظم سعادة الدنيا والدين وجعله ملكا كريما وسلطانا رؤفا رحيما ومنحه ملكا جليلا عظيما واقفا عند مراد ربه سبحانه فلا يتعداه عاملا فى أمره بتوفيق الله مراعيا للعدل والاحسان فيما استرعاه.

معانى بنى عثمان خير خفية ... وكل إلى شأو المفاخر سابق
وقد تخمد الشمس النجوم بضوءها ... تفاوتت الانوار والكل راتق
باسم مراد ينجلى كل مشكل ... غويص وتنقاد الجبال الشواهق
ويوهمنا فى أن آدم لم يمت ... حنو على أولاده منه صاق
ولطف تساوى الخلق فيه فضمهم ... كما ضمت الخصر الرقيق المناطق
بقاؤك فى الاسلام عز مؤبد ... فدم وابق للاسلام مادر شارق

طال ما عمرنى وغمرنى باحسانه وهو شهزاده قبل جلوسة الشريف على تخت السلطنة والسعادة وشملنى لحظة الشريف السلطانى بالحسنى وزيادة واستمر ذلك اللحظ الشريف السلطانى يشملنى بلطفه وإكرامه ويكرمنى بحسن التفاته الشريف وإنعامه فوق ما يبدى من المدرسة الشريفة السلطانية السليمانية مدرسة جده

Marfat.com

المرحوم المحفوف بالرحمة الرحمانية وأنعم على أولادى بالتدريس وأولادهم بكل إكرام وإحسان لطيف نفيس .

فلو أن لى فى كل منبت شعرة لسانا يبث الشكر كنت مقصرا
وما بيدى إلا الدعاء لنصره ليملك قسرا ملك كسرى وقيصرا

وانى لأخدمه أنا وأولادى وأجنادى فى بلد الله المنيف بالدعاء بطول عمره الشريف وخلود ظل عدله الوريف وبقاء سلطنته القاهرةِ ودوام خلافته الزاهرة الباهرة وأخلد ذكره الشريف فى صدور الدفاتر والكتب وانشر طيب عرف شكره على مرور الاعصار والحقب وانى وان أعطيت فى القول بسطة وطاوعنى هذا الكلام المحير .

لأعلم أنى فى الثناء مقصر وان الذى أولاه أوفى وأوفر
فأى جميل من عطاياه ينتهى وفى كل حين فضله يتكرر
ولكنى مادمت حيا لشاكر ويشكره بعدى كتابى المسطر

فصل

ومن سعادة هذا السلطان الأعظم الأسعد ثبت الله سلطنته وشيد وأدام ملكه السعيد وخلد مقارنة هذا الوزير المعظم الأكرم الأفخم ظهير السلطنة الشريفة العثمانية وعضد الدولة المرادية الخاقانية مدبر الأمور برأيه المصيب الثاقب وعمهد مصالح الجمهور بفكره الدقيق الصائب أعظم وزراء السلاطين العظام وأكبر الصدور الكبراء الفخام فى دواوين أعظم ملوك الأنام .

(حضرة محمد باشا) المشار إلى حضرته العلية سابقا فى وزارة والد هذا السلطان الأعظم وجده قرن الله صدارته بسعادته وحده وأدام صدارته فى ظل إقبال هذا السلطان الأكرم وشمله بسعده فأول خدمة هذا الوزير حسن التدبير حتى أجلس حضرة هذا السلطان الأعظم روح هذا العالم على السرير وقام بأعباء هذا الأمر الخطير ودبر ذلك برأيه السديد أحسن تدبير وأعانه على ذلك تقدير اللطيف الخبير

وتيسير العلى الكبير والله على كل شىء قدير وأقبلت السلطنة الشريفه عليه إلى أن صار ملهج لسانها وعظم فى عين الدولة الشريفة فحل محل إنسانها وكبر شأنه وقدكان كبيراً عظيما وعم إحسانه وكان كثيراً عميما وعرف نعمة الله فقابلها بالشكر والتحميد واعترف بآلاء الله تعالى جالبا للمزيد وربطا للجديد العتيد وأشرقت شمس سعادته فى الآفاق وأورقت رياض صدارته انضر ايراق وقلد أجياد أركان السلطنة الشريفة بعقود مننه السامية المنيفة فكانت كالأطواق في الأعناق والنور فى الأحداق بحيث لم يبق من أمراء الديوان وزعماء الجيوش والأمراء والبكلربكية الأعيان من لم يضرب بسهم وافر من عطاء ولم يخدمه الأفاز بانعامه وحباه وأحسن إلى السادای والمشايخ والعلماء والموالى وسائر العظماء والأهالى وإلى أهل الحرمين الشريفين وجيران البلدين المطهرين المنيفين وأكثر فيهما الصدقات وأجرى فيهما الخيرات من اجراء العيون وحفر الآبار وبناء دار الشفاء والحمامات وغير ذلك من الأعمال الصالحات مستجلبا بذلك دعاء الفقراء والصلحاء وتوجه خاطر الأولياء والأصفياء بدوام دولة هـذا السلطان الأعظم وقيـام دولة سلطنته العظمى وخلافته الكبرى على هذا العالم فهم مواظبون على وظيفة الدعاء بدوام دولة سلطان الربع المسكون وبقاء صدارة هذا الوزير الأعظم بالسعد المقرون زين الله أعماله بحسن القبول وكسى ديباجه وجهة الشريف قبولا يدوم بدوام الصبا والقبول فى ظل مراحم هـذا السلطان المحفوف بالعدل والاحسان خلد الله سلطنته العادلة مد الزمان وأبد خلافته الكاملة مادام الفرقدان وأضاء النيران .

ومن سعادة هذا السلطان الأعظم خلد الله سلطنته القاهرة على جميع هذا العالم مقارنته لحضرة الخواجا المعظم الأسعد الأكرم الأفضل الأكمل الأعلم الفائق فى كل علم على من كان فى علم العلوم فائقا والتميز فى كل فن على من كان فى فن من الفنون ماهراً سابقا أن نظم أتى بعقود الجواهر من نحور الحور وان نثر نثر الزهر المنثور من الروض الممطور بعبارة فائقة البراعة فى الألسن الثلاثة وفصاحة بارعة فيها حازها كسبا ووراثة طال مابهر الناقد البصير بحسن التقرير ولطف التحرير وأتى فى البديهة بما يقصر بحثه بعد الروية كل ماهر نحرير ولا شك أنه يغترف من

Marfat.com

بحر الفيض القدسى ويفيض بالقوة القدسية ما استفاضه من عالم القدس على عالم الإنس وإنه كتب الخط الحسن وما يقل خط عذاره الأنضر وتميز فى الكمالات على مشايخه فضلا عن أقرانه فى عصر شبابه الأزهر باحث العلماء فى دقائق العلوم ورجح عليهم فى تحقيق فهم المنطوق والمفهوم ونفث السحر الحلال كلامه ورقم على وجنات الطروس نقشات أقلامه فبهر العقول والألباب وأتى بالتصانيف الفائقة فى كل باب وأتاه العلم والسعادة وفصل الخطاب ثالث السعدين وثانى سعد الدين مكنه الله من العز المكين ومنحه أعلى رتب السعادة والفضل والتمكين ولقد أسعده الله وأكرمه غاية التكريم فساقه إلى تعليم هذا السلطان الأعظم ذى الطبع السليم والخلق الكريم وهو شهر زاده فأقبل عليه بكمال قابليته الشريفة غاية الإقبال فانطبع فى مرآة قوته الدراكة نفوس صور العلم والكمال وانتقش فى صحيفة ذهنه الصقيل مزايا الفواضل والفضائل والافضال فلما ولى السلطنة العظمى عرف له خدمته السابقة ورفع مرتبته السنية الفائقة وأعلى مكانته ومكانه وأعز قدره وأعظم شأنه فانثالت العظماء والموالى العظام إلى بابه وكذلك الأكابر والأعيان صمدوا إلى جنابه فأحسن إليهم كما أحسن الله إليه وعطف عليهم بمزيد الحنو والأحسان كما عطفت السعادة والاقبال عليه فهو بالخير الجميل مذكور وبعفوّر التلطف والتكرم معروف مشهور طال ما شملنى بإحسانه الكثير الوافر وعضدنى بلطفه وجميله المتواتر وأخذ بيدى أخذ الله بيده وأدام عليه فضله الباهر وأحسن غاية الاحسان إلى وتفضل بأنواع التفضل على وشمل بفضله أولادى وذوى نظر الله بعين عنايته وألطافه إليه وأجرى مواد الكرم والاحسان على يديه وأسعده فى ظل هذا السلطان الأسعد وخلد سلطنته العظمى وأيد خلافته الكبرى .

وهذا دعاء للبرية نافع وحسن رجاء للسعادة جامع
وقد حفه حسن القبول لأنه عليه سجاع الصدق والله سامع

فصل

ومن سعاده هذا السلطان الأعظم عمر الله بشمول سعادته وبرحمته علماء العالم كثرة العلماء العظام الأعالى والفضلاء الفخام الموالى والمشايخ الأولياء الكرام والأهالى فى بابه الكريم العالى وتحت ظله الظليل المتعالى فمنهم من اجتمعت به وعرفت كمال فضله واعترفت بعد مشاهدته برفعته فى العلم ومحله واغترفت من بحر فوائده وتقلدت بدرر فرائده ومنهم من كاتبنى بفضله وكاتبته لفضله وتحققت ثقوب فهمه ووفور علمه وعقله ومنهم من أحطت علما بكماله بعد التفحص عن مرتبة فضله وأفضاله فوجدتهم فى الرتبة العليا فى الفضل والكمال فائقين علماء الدنيا فى هذا العصر على كل حال فانى أتتبع علماء كل إقليم وأسأل عن مراتبهم فى العلم وكمالاتهم فى التعلم والتعليم وأكثر الفحص عن أحواهم وتصانيفهم وفضائلهم وفوائدهم وتآليفهم واستجلب ما يمكن جلبه وأطلب منهم ذلك إذا أمكننى طلبه وأنشر ذلك بين العلماء فى كل بلاد وأبذلها لطلبة العلم الشريف من أهل القابلية والاستعداد وهذا دأبى منذ أمطيت عنى التمائم وأنيطت بمفارقى عقود العمائم مع كثرة الواردين إلى بلد الله الحرام والوافدين من الأقطار الشاسعة لأداء حجة الاسلام وشده شغفى بملاقاتهم والتيمن ببركاتهم والسؤال عن فضائل فضلائهم وكمالاتهم فكنت أكثر الناس خبرة بأحوال العلماء ودرجاتهم فوجدت الموالى العظام من علماء الروم هم الفائقين فى هذا العصر فى هذه العلوم ونظرهم فيها أدق نظر فى المنطوق والمفهوم زادهم الله جمالا وكمالا وفضلا باهرا وأفضالا وكل ذلك بشريف التفات هذا السلطان العالم سلطان العالم خليفة الله الأعظم على كافة الأمم جمل الله بوجوده الأنام وأكرم بعظيم إكرامه العلماء الكرام وأكابر فضلاء الموالى العظام فرفلوا فى أيام سعادته فى حلل المناصب العالية الفخام وأحرزوا قصب السبق فى ميادين المراتب فى ظله الظليل المستدام أدام الله تعالى لهم ذلك إلى قيام الساعة وساعة القيام .

وأما زمرة المشايخ والأولياء والصلحاء والأصفياء نفعنا الله ببركاتهم وأدخلنا ببركة محبتهم فى عداد خدام عتباتهم فمن شأنهم عدم الظهور لأعين الناس إلا نادرا.

وأما أرباب الظهور منهم لإرشاد عباد الله تعالى كأهل الزوايا وأصحاب النفع والتكايا فكثير ظاهرون كثرهم الله تعالى ونفع بهم ويجب على كل أحد أن يعتقد فيهم ولا ينكر على أحد منهم وأن شاهد منهم ما ينكره حمل نفسه على قصور الفهم فكم فيهم من ملامتى يقصد أن ينكر عليه ويخفى حاله على الصلاح أسلم وأجمل

وقد ذكر الشيخ الأكبر مولانا محيي الدين بن عربى رضى الله عنه فى أول فتوحاته المكية من أعظم سعادة الانسان أن يعتقد فى كل من انتسب إلى الله تعالى ولو كان كاذبا فنسأل الله تعالى أن يسعدنا بالاعتقاد فى أوليائه حيث كانوا وكيف كانوا ويدخلنا فى زمرتهم ويبعدنا عن المنكرين عليهم .

فصـــل

ومن أعظم مآثره الجميلة الكرام وأكرم آثاره الجليلة العظام إتمام عمارة المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما وقد تقدم أن والده السلطان الأعظم المندرج إلى رحمة ربه الكريم الأكرم شرع فى تعميره على الوجه الذى تقدم وأتم منه الجانب الشرقى والجانب الشمالى إلى أن انتهت العمارة الشريفة إلى باب العمرة فاعمر إلى أن تتم العمارة وسلم ملكه المشيد إلى نجله السعيد السلطان الاعظم الفريد السلطان المشار إليه الأفخم الأكرم خلد الله ملكه الأعظم وأفاض على العالمين عدله الأقوم .

فبرز أمره الشريف العالى إلى أمير العمارة الشريفة المشار إليه سابقا افتخارا لأمراء الكرام أحمد بك أن يبذل جده وجهده فى بناء المسجد الحرام ويسرع فى انجاز عمارته بكمال السعى والاهتمام فبادر الأمير المشار إليه إلى بذل الجد والاجتهاد وتوجه بكليته إلى إتمام العمارة فى خير البلاد فأعانه الله على اتمامها ومد بذلك سائر خدامها إلى أن تم بناء الجانبين الغربى والجنوبى من المسجد الحرام بجميع شرافاته وأبوابه ودرجاته من داخل المسجد الحرام وخارجه فى أيام هذا السلطان الأعظم الأكرم خلد الله ملكه الأقوم وأيد سلطانه الأفخم وأفاض عليه سوابغ الفضل

Marfat.com

والنعم فتم ولله الحمد بسعد طالعه السعيد وكل على هـذا الوجه الحميد بحسن توجهه الشريف وقوة عزمه المشيد وكان ذلك فى آخر سنة اربع وثمانين وتسعمائة وصار المسجد الحرام نزهة للناظر وبغية للخاطر وجلاء للنواظر وصفا للقلوب والخواطر بحيث ما عمره الخلفاء العباسيين قبـل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف لأن هذا البناء الشريف أمكن وأزين وأعلى وأشرف فكان الآن أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد بعقود عاليه كأطواق الذهب فى الأجياد وقبب سامية كقباب الاقلال الشداد وشراقات شريفة مشرفة على المهاد والوهاد بل أعلا وأشرف وأجل وألطف وأرفع وأنحف فبنى ذلك بالرخام الأبيض المرمر والحجر الشميسى المنحوت الأصفر كأنه سبك الذهب أو سبك العسجد والجوهر مكتوب على الأبواب وصدور الأروقة آيات الكتاب والاسم السامى السلطان المستطاب بحلى الذهب بخط كسلاسل الذهب على كل موضع ما يناسب من الآيات الشريفة القرآنية بالكتابة المنسوبة الفائقة الجميلة واخترع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان واخترت أخصرها لأنه خير مساجد الله ثم رأيت بعض الفضلاء جعل لهذه العمارة الشريفة تاريخا فى بيت مفرد فأعجبنى نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكرته وهو هذا البيت .

جدد المسجد الحرام مراد دام سلطانه وطال أوانه

ثم رأيت تاريخا جعله سيدنا ومولانا شيخ الاسلام وناظر المسجد الحرام ومدرس أعظم مدارس أعظم سلاطين الأنام سيد السادات العظام بدر الملة والدين مولانا السيد القاضى حسن الحسنى قاضى المدينة المنورة سابقا أدام الله إجلاله وضاعف فضله واقباله فائته هنا بحسن إنشائه ولطف مبناه وسلامة لفظه وبلاغة معناه وهو هذا باسمه سبحانه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

شرع فى عمارة هذا الحرم الشريف وتجديده من اختاره الله من خلفائه وعبيده المقدس المرحوم السعيد المبرور المغفور له الشهيد سلطان الاسلام والمسلمين خاقان خواقين العالمين المستضى بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم السلطان

Marfat.com

سليم نور الله تعالى ضريحه وروح برواتح الجنان روحه بناه وأكمله وأتقنه وحسنه وجمله وارث الملك الأعظم الامام الأفخم والخليفة الأكبر الغطمطم والملك القاهر العرمرم من ملكه الله شرق البلاد وغربها وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها وأطلعه سراجا منيرا فى المشارق والمغارب وملكا مرفوعا على هام الكواكب وصيره للاسلام حصنا محيطا وجعل ظله المديد على كافة الناس بسيطا وعدله الفريد فى جميع الوجود مبسوطا وقمع بسلطنته الشريفة طوائف الكفر والعناد وجمع له بين الملك فى الدنيا والفوز فى المعاد خليفة الله عل كافه العباد ورحمة الله الشاملة لجميع البلاد سلطان سلاطين الزمان خلاصة آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الخنكار الأعظم مراد لازال الوجود بدوام خلافته عامرا ولا برح الإيمان فى أيام سلطنته قويا ظاهرا زاده الله قوة ونصرا وشد بملائكته الكرام أزرا فتاريخ تمامه قد جاء (أطال الله لمن أتمه عمرا) .

ثم ورد من الباب الشريف العالى تاريخ منظوم در النحور وغرب البحور ونثره كالدر المنثور والزهر المنشور بخطبه وتعريفات السلطان الأعظم فى آخره ثلاثة أبيات بالعربى لا أعلم من أبدعه واخترعه وأنشاه ونظمه ورصعه وورد معه حكم شريف سلطانى يتضمن الأمر بكتابته على بعض أبواب المسجد الحرام فامتثل الأمر الشريف وكتب هذا التاريخ البديع اللطيف على باب سيدنا العباس إلى باب على رضى الله عنهما فى الجانب الشرقى من المسجد ونقر له فى الحجر الشميسى وطلى محل الذهب فى ذلك المقام ليقرأه الخاص والعام ويبقى ذلك النقر فى الحجر على صفحات الليالى والأيام وهو هذا :

الحمد لله الذى أسس بنيان هذا الدين المتين بنبى الرحمة والارشاد وخصه بمزيد الفضل والكرامة والاسعاد وجعل حرم مكة مطافا لطوائف الطائفين الحاجين من أقاصى البلاد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأجلة الأمجاد ووفق عبده المعتاد بأحكام الأحكام الشريفة وتشييد أركانها على وجه المراد المذخر فى ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد جعل الله الخلافة فيه وفى أعقابه إلى يوم التناد لتجديد

Marfat.com

معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد فتم فى افتتاح سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما ولأساس الجور والاعتساف هادما بتجديد حرم بيت الله عز وجـــل بأمره المعزز المبجل وعمر عامر جوده ما تضعضع من أركانه بعد ماكان ينقض عوالى جدرانه فجدد جدران البيت العتيق وسوره بأكمل زينة وصورة بعد ما أبلاه الجديدان وأكل عيدان أرضها الأرضة والديدان فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب فأذعنوا له بالشرف الباهر والمجد الفاخر تالين قوله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وداعين له من الله الجميل والزخر الزاخر قائلين اللهم أدمه فى سرير الخلافة محروسا بحفظك من آفة وظافرا على من يريد خلافة مشيدا للساجد والمدارس مجددا لكل خير منهدم ودارس واجعل بابه للراجين حرما آمنا وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامنا يأتون اليه من كل فج عميق لحرمة البيت العتيق تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول هذا الدعاء الحرى بالقبول فلما أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان جاء مشيد الأركان حاكيا روضات الجنان وصار عنوان خلافته وبراعة استهلاله لمنشور سعادته فى أوائل سنة أربع وثمانين وتسعمائة الهجرية وكان الابتداء بذلك التجديد بأمر والده الدارج إلى مدارج الملك المجيد السلطان السعيد يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان مكنهم الله على سرر فى دار الجنان وأثل اخلافهم فى مسند الخلافة إلى انقراض الزمان وكان المشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن تسليم وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله له فى الجنة من القصور قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام وأجلس الله على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن اجلاس وجعل حرمه مثابة للناس يسر الله له الاتمام بطلعة أقباله وجوده الليالى والأيام وأنام الأنام فى مهد عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذه الأرقام تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام وهو هذا :

جدد السلطان مراد بن سليم مسجد البيت العتيق المحترم
سر منه المسلمون كلهم دار منشور اللواء والعلم
قال روح القدس فى تاريخه عمر سلطان مراد الحرم اه
ومن جملة تعمير الحرم الشريف حفرخارج المسجد الحرام من الجانب الجنوبى الذى هو مجرى السيل الآن فان الأرض علت وامتلأ السيل كله إلى أسفل مكة بالتراب إلى ان لم يبق للدخول إلى المسجد من الأبواب التى فى تلك الجهة إلا فى ثلاث درجات بعد أن كانت نحو خمس عشرة درجة يصعد منها إلى أن يدخل من الباب إلى المسجد وكان هذا السيل يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلد من جهة المسفلة فى كل عشرة أعوام مرة فغفل عنه نحو ثلاثين عاما فعلت الأرض فجاءت سيول طائفة ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فدخلت من أبواب المسجد وامتلأ المطاف الشريف ووصل الماء إلى حول الكعبة الشريفة وعلا إلى أن غطى الحجر الاسود وجدار الحجر الشريف ووصل الماء والطين إلى عتبة الكعبة الشريفة وعلا إلى أن قرب من قفل الباب الشريف ووقف الماء فى الحرم الشريف يوما وليلة وما أمكن أداء الصلوات الخمس فتعطلت الجماعة سبعة أوقات وبادر مولانا شيخ الاسلام ناظر الحرم الشريف والأمير المعظم المكرم أحمد بك أمير العمارة الشريفة بخدامهم وعبيدهم وسائر المشدين وخدام الحرم الشريف والفقهاء والأعيان والتجار إلى فتح طريق الماء من أسفل مكة .

ثم نظفت وغسل داخل البيت الشريف ثم نظف وغسل المطاف الشريف ومقام الحنفى ثم أخرجت الأوساخ من الحرم الشريف وكوم الطين أكواما فى المسجد ثم أخرج ثم فرش المسجد الشريف بالحصباء الجديدة وتعب فى ذلك حضرة الأمير أحمد بك وصرف من ماله مبلغا كبيراً ثم شرع فى قطع المسيل وتهبيط أرضه إلى أسفل عشر درجات أو نحوها من الجانب الجنوبى من المسجد الحرام إلى آخر المسفلة وهو ممر سيل أعالى مكة فصار السيل إذا سال درج بسرعة ولم يصل إلى أن يمكنه الدخول إلى المسجد الحرام وفعل ذلك أيضا من جهة باب الزيادة فى الجانب الشمالى وهو ممر سيل قيقعان وحواليه وجرى إلى باب الزيادة ولم يصعد

Marfat.com

الى باب المسجد بل يدخل سردابا واسعا يسمى العنبة ويجرى فيه إلى أن يخرج من قرب باب ابراهيم فيسيل إلى أسفل مكة مع السيل الكبير وصان الله المسجد الحرام بذلك وصارت السيول بعد ذلك تسيل ولم تصل إلى باب المسجد ولم تقرب منه وهذا رأى سديد وعمل مهم نافع فيصان به المسجد الحرام عن دخول السيول إليه غير أنه يحتاج إلى أن تنعقد فى كل عامين أو ثلاثة أعوام فيقطع ما علا من الأرض قبل أن يعلو كثيرا فيحتاج إلى قطع كثير ومصرف زائد فاللازم على ولى الأمراء سلطان الاسلام والمسلمينَ نصره الله تعالى وشيد به قواعد الدين أن يقنن لذلك قانونا فيقطع هذا السيل فى كل عامين مرة ليستمر المسيل منهبطا دائماً لجريان السيل فيه صونا المسجد الحرام عن دخول ماء السيل إليه فى كل سيل يأتى ويكون ذلك قانونا مستمرا للسلاطين ويسطر ثواب ذلك فى صحائف هذا السلطان الأعظم نصره الله تعالى .

وكانت اليد البيضاء فى هذه المرة فى هذه الخدمة الشريفة للأمير المعظم أحمد بك المشار إليه أنعم الله عليه وأكرم منزلته لديه وأجرى كل خير بيديه ويكفيه عند الله هذه المرتبة العظمى والمثوبات العظمى الكبرى .

وأخبرنى الأمير المشار إليه أعظم الله شأنه وأحسن إليه أن الذى صرفه فى عمارة المسجد الحرام هدما وبناء وقطعا لأرض المسيل من جهة الجنوبى إلى آخر المسفلة ومن جهة باب الزيادة إلى آخر مجرى سرداب العنبة من خاصة أموال السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى مائه ألف دينار ذهب جديد سلطانى وذلك غير ثمن الأخشاب المحمولة من مصر إلى مكة المشرفة وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة كالمساحى والمجارف والمسامير والحديد المحدد رأسه بطول الراوقين وبين الاسطوانتين تحت كل عقد كيلا يجلس طير الحمام عليه وغيره فيلوث المسجد بذرقة وهذا الحديد لتحديد رأسه وتواصله يمنع من جلوس الطير عليه وغير أهلة القبب التى عملت بمصر من النحاس وطلبت بالذهب وجهزت إلى الحرم الشريف فركبت على أعلا القبب فصار لها منظر حسن وزينة عظيمة كأنها صفوف بالأساكف من الذهب بغاية السكون والأدب حول بيت الله تعالى زاده الله تعالى رفعة وعظمة ومهابة واجلالا

Marfat.com

وأثمان ذلك خارج عن القدر المصروف فى العمارة الشريفة وكان عمل أهلة قبب المسجد الحرام بمصر بأمر بكلر بكى مصر الآن نائب السلطنة الشريفة بها فى هذا الزمان أمير الأمراء العظام كبير الكبر الفخام محي البلاد والعباد بعدله الأنمى سمى روح الله المسيح والأسماء تنزل من السماء زاد الله شأنه عظما وأنعش باحيائه العلماء العظماء والسادات الأجلاء الكرام وأفاض على أهل الحرمين الشريفين من فيض نيل كرمه الفياض ما يزيد على القياس ويزرع بسحائب معدلته ومرحمة بدر محبته ومودته فى قلوب الناس وأعانه على البر والتقوى وصانه وحماه عن جميع الأسوا وأفاض عليه جلائل نعمه الباطنة والظاهرة وجمع له بين سعادتى الدنيا والآخرة .

ولما كان هذا المسيح أحيا موات مصر وعمر مافيها من الخيرات أبرأ جميع مابها وبأهلها من الأوصاب وأنعش أهل الحرمين الشريفين كما أحيي الموتى روح الله المسيح وجهز إليهم الصدقات المبرورة السلطانية المرادية وسرحها اليهم أحسن تسريح فهم داعون بدوام معدلته وخلود ملك السلطان الأعظم المحسن الجزيل الاحسان حيث ولى رعاياه من يرأف بهم وينعم عليهم بالخيرات الحسان أدام الله سعادته وإقباله ورقاه وحفظه ورعاه وحماه من الأسواء ووقاه .

فصل

فى ذكر أساطين المسجد الحرام

قبل هدمها وتجديدها على ما صارت عليه الآن

اعلم ان عدد جملة أساطين المسجد الحرام فى جوانبه الأربع غير الزيادتين أربعمائة اسطوانة وتسعة وستون واسطوانة وما على أبوابه سبع وعشرون أسطوانة فتكون جملة أساطين أبوابه الشريفة أربعمائة أسطوانة وستا وتسعين أسطوانة بتقديم التاء على السين غير ما كانت من أساطين للزيادتين فكان فى الجانب الشرقى ثمان وثمانون أسطوانة كلها رخام مخروط ماعدا أسطوانة واحدة فى الصف الأوسط عند باب على فانها من الآجر مبنية بالنورة مبيضة بالجص .

Marfat.com

وكان فى الجانب الشمالى ويقال له الشامى مائة أسطوانة وأربع أساطين كلها رخام ما عدا أربعة عشر أسطوانة من آخر الصف الأوسط مما يلى باب العجلة وباب السدة فانها حجارة منحوتة .

وكان فى الجانب الجنوبى ويقال له اليمانى مائة وأربعون أسطوانة كلها رخام ما عدا خمسا وعشرين أسطوانة فى مؤخر هذا الرواق عند أبواب أم هانىء فانها كلها حجارة منحوتة .

وكان فى الجانب الغربى سبعة وثمانون أسطوانة كلها حجارة منحوته قطع دون الذراع منحوتة فى نصف الدائرة مركبة على كل اثنين منها اثنين إلى أن يطول فى شكل أسطوانة الرخام مسبوك بينهما من الرصاص فى داخل وسطها حديد بطول الاسطوانة منحوت مكانه فى وسط الحجر مسبوك عليه بالرصاص عمل ذلك فى أيام الناصر فرج برقوق لما احترق هذا الجانب الغربى من المسجد الحرام فى آخر شوال سنة اثنتين وثمانمائة كما تقدم شرحه فى محله فيكون جميع ما أدركناه من الأساطين غير الرخام مائة وتسعة وعشرون أسطوانة .

وأما أساطين دار الندوة فأدركنا ستا وستين أسطوانة من جانبهما الأربع كانت من الحجر الغشيم غير منحوت مطلية بالجص من ظاهرها وقد ينكشف عنه الجص فيظهر الحجر الغشيم فيها فى الجانب الشرقى اثنتا عشرة أسطوانة وفى الجانب الشمالى عشرون .

ثم فى أيام دولة المرحوم المغفور له السعيد الشهيد السلطان سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان أمر أميرا من أمرائه بجدة هو الأمير حوش كادى فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة وما بعدها أن يهدم مقام الحنفى الذى كان بناه الأمير مصلح الدين فى ابتداء الفتح العثمانى لممالك العرب وأن يبنى مكانه مربعا على وضعه الباقى إلى آننا هذا فجاء فى فكره الشريف أن يجعل فى المسجد الشريف حاصلا واسعا لحفظ مؤن المسجد وأخشابه وآلاته وأن يجعل إلى جانبه حاصلا آخر يوضع فيه زيت قناديل الحرم الشريف وشمعه وقناديله وظروف زيته ومسارجه فعمد إلى هذه الزيادة وجعل الجانب الشرقى منها حاصلين حجرة وبنى

Marfat.com

عليه وجعل له بابين لهذه المصلحة واستمر كذلك إلى أيام دولة هذا السلطان الأعظم عمر الله به الوجود وأفاض على أهل العـــلم بظل سلطنته العادلة سحائب العدل والاحسان والجود فأعمد ذلك المحل المحجور من المسجد الحرام كما كان .

وأما زيادة باب إبراهيم فقد كان منها فى الرواق سبعة عشرة اسطوانة من الحجر المنحوت صفين متصلين فى الرواق القبلى الذى يلى المسجد الحرام اثنتان منها لاصقتان برباط رامشت على يمين المستقبل واثنتان لاصقتان رباط الحوزى على سائر المستقبل.

وفى الجانب الشمالى ستة أساطين إحداها لاصقة بالمنارة التى كانت بهذه الزيادة ولم يكن بالجانب الغربى من هذه الزيادة أساطين .

ثم فى أيام السلطان الغورى أرسل أميرا من أمرائه يقال له خير بك المعمار لتعمير زياده باب ابراهيم فى حدود سنة سبع عشرة وتسعمائة فبنى على باب ابراهيم قصراً مرتفعا مع مرافقه وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومساكن وبنى خارج ذلك ميضأة يشتمل على مراحض وبركة ماء وقف ذلك جميعه على جهات خير وبنى من داخل باب ابراهيم على يمين الداخل حاصلا فى أرض المسجد وفى علوه سكنا وعلى يسار الداخل مثله وقرر فيها بعض المستحقين وجعل فى الجانب اليمانى من هـذه الزيادة حاصلا يشتمل على سبيل ماء وصهريج كبير يمتلىء من ماء المطر من سطح المسجد وأبقى الجانب القبلى والجانب الشمالى على حالهما وفرغ الأمير خير بك المعمار من ذلك فى حدود سنة عشرين وتسعمائة .

وأما عدد شرافات المسجد الحرام من داخله فكانت أربعمائة شرافة وسبعة أنصاف شرافة .

وأما الشرافات التى كانت على جدر المسجد من خارجه فهى اثنان وخمسون شرافة متفرقة أعلى أبواب المسجد الحرام ليس فيها شرافات وكانت فى زيادة دار الندوة من جوانبها الأربع التى تلى بطنها اثنـان وسبعون شرافة ولا شرافة للجهة الخارجة لإحاطة الدور بها وكانت فى زيادة دار إبراهيم مما يلى بطنها فى ثلاث جهات منها وهى القبلى واليمانى والشامى بضع وأربعون شرافة .

Marfat.com

وأما أبواب المسجد الحرام فهى تسعة عشر بابا كانت تفتح على ثمانية وثلاثين طاقا وهى باقية على حالها ما عدا باب واحد فى زيادة دار الندوة وكان يفتح على طاقين فزادها الأمير قاسم أمين بناء المدارس الشريفة السلطانية السليمانية طاقا واحدا وصار على ثلاث طاقات فصارت طاقات أبواب المسجد الحرام الآن تسعا وثلاثين طاقا فى كل طاق درفتان وسيأتى تفصيلها بعد ذكر الاسطوانات المتجدده فى عصرنا .

والذى اشتمل عليه المسجد الحرام الآن من الأساطين الرخام والأساطين الصفر الشيمسى والقبب والطواحين والمصليات وشراريف المسجد الحرام فهى ما نذكره .

وأما الاسطوانات الرخام فعددها ثلثمائة وإحدى عشرة اسطوانة فى جهة شرقى المسجد الحرام وهى ما يقابل باب البيت الشريف اثنتان وستون اسطوانه رخام وفى جهة شامية ويقال له الجانب الشمالى وهو ما يقابل الحجر الشريف إحدى وثمانون اسطوانة رخاما وفى جهة غربية أربع وستون اسطوانة من ذلك وهو ما يقابل المستجار العظيم ست اسطوانات من الحجر الصوان والباقى من الرخام .

وفى زيادة دار الندوة خمس عشرة اسطوانة من ذلك واحدة من الحجر الصوان وفى زيادة باب إبراهيم ست اسطوانات .

وأما الاسطوانات الصفر الشميسى فجملتها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة وهى عبارة عن شكل مثمن أو مسدس أو مربع على حسب ماقتضاه المكان وهى فى طوال الاسطوانه العليا مقدار الثلث من الحجر الصوان المنحوت وثلثاها من الحجر الشميسى المنحوت .

فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام ثلاثون اسطوانة .

وفى جهة غربية ست وثلاثون أسطوانة .

وفى جهة جنوب ست وسبعون أسطوانة وأربع أركان المسجد .

وفى زيادة باب ابراهيم ثمانى عشرة .

وأما القبب فعددها مائة واثنتان وخمسون قبة .

Marfat.com

فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام أربع وعشرون قبة وفى الجانب الشامى ست وثلاثون قبة واحدة فى ركن المسجد الحرام من جهة منارة الحزورة وفى زيادة دار الندوة ست عشرة قبة وفى زيادة باب ابراهيم خمس عشرة قبة .

وأما الطواجن فجملتها مائتان واثنان وثلاثون طاجنا وفى الجانب الشمالى تسعة وخمسون طاجنا وفى الجانب الغربى ثلاثة وأربعون طاجنا وفى الجانب الجنوبى أربعة وستون طاجنا واثنان فى مأذنة باب السلام واحد فى ركن المسجد من جهة باب العمرة وفى زيادة دار الندوة أربعة وعشرون طاجنا .

وأما المصليات فجملتها ستة وخمسون مصلى فى جهة شرقى المسجد الحرام مقابل باب السلام ثلاثة وفى جهة شاميه اثنان وعشرون وفى جهة غربية به ستة عشر وفى جهة جنوبيه خمسة عشر وأما الشرفات فجملتها ألف وثلثمائة وثمانون شرافة فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام مائة واثنتان وستون شرافة .

فمن الرخام سبع وعشرون فى وسطهن واحدة طويلة ومن الحجر الشميسى مائة وخمس وثلاثون .

ومن جهة شامية ثلثمائة وإحدى وأربعون .

فمن الرخام ثمانية وسبعون منهما ثلاث طوال والباقى من الحجر الشميسى .

ومن جهة غربية مائتان وأربع .

فمن الرخام اثنتان وعشرون فى وسطهن واحدة طويلة والباقى من الحجر الشميسى وفى زيادة دار الندوة مائة واحدى وتسعون من الحجر الشميسى . وفى زيادة باب ابراهيم مائة وست وأربعون من الحجر الشميسى لاغير .

وأما أبواب المسجد الحرام الآن فعدتها تسعة عشر بابا تفتح على تسعة وثلاثين طاقا فى كل طاق درفتان فيها خوخة تفتح فمنها بالجانب الشرقى أربعة أبواب وفى الدرفة اليمنى من الطاق الأوسط خوخة أيضاً تغلق الدرفتان وتفتح الخوخة ليلا لمن يدخل المسجد أو يخرج منه فترد الخوخة كما كانت وكذلك جميع الخوخات .

الأول باب السلام ويعرف بباب بنى شيبة وهو ثلاث طاقات وهذا الباب لم يجدد فيه شىء لكونه عامراً محكم البناء وفى الدرفة اليمنى من الطاق الأوسط خوخة تغلق الدرفتان وتفتح الخوخة ليلا لمن يفتح المسجد ويخرج منه .

Marfat.com

الثانى طاقان ويعرف بباب الجنائز وبباب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجدد فى هذا الباب غير الشرافات التى عليها وعدتها أربع وعشرون شرافة .

الثالث ثلاث طاقات ويعرف بباب العباس لمقابلته لدار العباس رضى الله عنه ويعرف أيضا بباب الجنائز .

الرابع ثلاث طاقات ويعرف بباب على وبباب بنى هاشم وقد جدد هذا الباب والذى قبله على أحسن وضع .

وعدد ما عليهما من الشرافات مائة وخمسة عشر شرافة وبالجانب الجنوبى سبعة أبواب.

الأول طاقان ويقال له باب بازان لأن عين بازان قريب منه وقد جدد هذا بأسلوب حسن وعدد ما عليه من الشرفات ستةعشر شرافة

الثانى طاقان ويعرف بباب البغلة بباء موحدة وغين معجمة وقد جدد هذا الباب ولم يعمل عليه من الشرافات .

الثالث باب الصفا لأنه يليه ويعرف أيضا بباب بنى مخزوم وهو خمس طاقات وقد جدد هذا الباب تجديداً حسنا وعدد شرافاته تسع وعشرون شرافة .

الرابع طاقان ويعرف بباب أجياد الصغير وقد جدد وعدد شرفاته تسع عشر شرافة

الخامس طاقان ويعرف بباب المجاهدية ويقال له باب الرحمة وقد جدد هذا الباب وعدد شرافاته عشرون .

السادس طاقان ويعرف بباب مدرسة الشريف عجلان لاتصاله بها وقد جدد الباب أيضا وعدد شرافاته عشرون .

السابع طاقان ويعرف بباب أم هانى وقد جدد هذا الباب ببناء حسن لطيف وأسلوب ظريف وعدد شرافاته ثلاث عشرة شرافة .

وبالجانب الغربى ثلاثة أبواب .

الأول طاقان ويعرف بباب الحزورة ولم يجدد فى هذا الباب شىء أصلا لعمارته .

الثانى طاق واحد كبير يقال له باب ابراهيم ولم يجدد هذا الباب أيضا لعمارة قصره لأن قصر الغورى مبنى عليه .

Marfat.com

الثالث طاق واحد ويعرف بباب العمرة لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون منه ويدخلون فى الغالب وكان قديما يسمى باب بنى سهم وقد جدد هذا الباب وعدد شرافاته ثلاث شرافات .

وبالجانب الشمالى خمسة أبواب

الأول طاق واحد ويعرف بباب السدة وكان يقال له باب عمرو بن العاص رضى الله عنه وقد جدد هذا الباب أيضا وعدد شرافاته ست شرافات .

الثانى طاق واحد ويعرف بباب العجلة ويعرف بباب الباسطية لاتصاله بمدرسة عبد الباسط المتقدم أيضا وقد جدد هذا الباب أيضا وعدد شرافاته سبع .

الثالث طاق واحد بزيادة دار الندوة فى ركنها الغربى ولم يجدد هذا الباب أيضا . وطيقانه ثلاث طاقات بالزيادة المذكورة بجانبها الشامى وقد كان هذا الباب قديما طاقين إلى أن أمر المرحوم الأمير قاسم بك ببناء المدارس السلطانية ففتح طاقا ثالثا ثم هدمت الطاقات الثلاث عند بناء المسجد الحرام وأعيدت كما كانت وعدد شرفاته اثنتان وعشرون شرافة .

الخامس طاق واحد ويعرف بباب الدريبة بالقرب من منارة باب السلام وقد جدد هذا الباب الأمير قاسم بك المذكور سابقا عند بنائه للمدارس السليمانية .

(وأما مناثر المسجد الحرام) فهى الآن ست مناثر يؤذنون عليها فى الأوقات الخمس .

أولها منارة باب العمرة عمرها أبو حفص المنصور ثانى ملوك بنى العباس وعمرها بعده وزير صاحب الموصل محمد الجواد بن على بن أبى منصور الاصفهانى فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وكان رئيس المؤذنين يؤذن بها فى زمن الفاكهى ويتبعه سائر المؤذنين ثم صار فى زمن التقى الفاسى يؤذن رئيس المؤذنين بباب السلام ويتبعه سائر المؤذنين وهو الآن يؤذن الأوقات الخمس على قبة زمزم ويتبعه المؤذنون إلا ليالى رمضان فى التسحير فإن رئيس المؤذنين يسحر فيها على منارة باب السلام ويتبعه المؤذنون فى التسحير واحداً بعد واحد وكذلك فى التمجيد والتذكير والتوديع ونحو ذلك وقد أدركنا هذه المأذنة وهى عتيقة البناء فأمر بتجديدها المرحوم المقدس المغفور له الأقدس السلطان سليمان خان عليه الرحمة والرضوان فهدمت إلى الأرض وبنيت بالآجر وأعيدت كما كانت بدور واحد إلا أنهم غيروا رأسها على أسلوب

Marfat.com

منائر بلاد الروم وكانت أسلوب منائر مصر يعلق عليها فى رأسها ثلاث قناديل فى ثلاثة أعواد مغروزة فى قبة صغيرة على رأس المأذنة وكان ذلك فى إحدى وثلاثين وتسعمائة

وثانيها منارة باب السلام عمرها المهدى بن المنصور العباسى الذى وسع المسجد الحرام فى سنة ثمان وستين ومائة وهى بدورين ثم تهدمت فى زمن الناصر فرج بن برقوق فى ستة عشر وثمانمائة وهى باقية إلى الآن وثالثها منارة على وأول من عمرها المهدى العباسى لما عمر منارة باب السلام واستمرت إلى أن أدركناها وقد آلت إلى الخراب وكانت بدور واحد فى أعلاها فأمر المرحوم المغفور له المقدس المبرور السلطان سليمان خان عليه التحية والروح والريحان فهدمت وأعيدت من الحجر الأصفر الشميسى وجعل لها دوران أعلا وأسفل وغير رأسها على أسلوب منائر الروم.

ورابعها منارة الحزورة وهى بدورين أول من بناها المهدى العباسى ثم عمرت فى زمن الأشرف شعبان بن حسين صاحب الموصل وكانت سقطت فى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وسلم الناس منها فوصل المعمرون لعمارتها وفرغوا منها فى مفتتح محرم الحرام سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بتقديم السين فيهما وهى باقية إلى الآن .

وخامسها منارة باب الزيادة وهى قديمة بدورين بناها المعتضد العباسى لما بنى زيادة دار الندوة ثم سقطت وأنشأها الأشرف برسباى فى عام ثمان وثلاثين وثمانمائة كما هو فى حجر بجنب المأذنة والله أعلم.

وسادسها منارة مدرسة السلطان قايتباى رحمه الله تعالى بناها على عقد باب مدرسته الذى إلى جهة المسعى فى غاية الصناعة بثلاثة أدوارا فتخر بصنعتها مهندس عصره على مهندس زمانه وبنى نظيرها منارة أخرى على عقد باب مسجد الخفيف بمنى فى حدود سنة .

والسابعة منارة السلطان الأعظم المغفور له الأقدس السلطان سليمان تغمده الله بالرحمة والرضوان أمر ببنائها فى أحد مدارسه الشريفة فيما بين باب السلام وباب الزيادة وهى منارة فى غاية العلو والارتفاع مشرفة على البقاع مبنية بالحجر الشميسى الأصفر مسبوكة سبك الذهب الأحمر لها ثلاث دوائر مرفوعة وأساسات محكمة

موضوعة رأسها على أسلوب بلاد الروم تكاد تلازم معارج النجوم وتغوص فى الأرض إلى مدارج التخوم بناها المرحوم قاسم أمين العمارة السلطانية السليمانية وسنجق جدة المعمورة فرغ من بنائها فى أثناء سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله وهذه وهى المنائر السبعة التى هى حول المسجد الحرام الآن عليها عمل المؤذنين فى الأوقاف الخمس وفى رمضان وغيره وكانت على المسجد منائر أخرى ذكرها أصحاب التاريخ .

منها على باب ابراهيم منارة شبه صومعة هدمها بعد أمراء مكة المشرفة لإشرافها على داره ذكرها التقى الفاسى رحمه الله تعالى .

ومنها منارة ذكرها ابن جبير على باب الصفا قال وهى أصغرها وهى على لباب الصفا ولا يصعد إليها لضيقها انتهى .

ومنها منارة على الميل الذى يهرول عنده من يسعى بين الصفا والمروة ذكرها الفاكهى وهذه المنائر الثلاثة كانت على المسجد الحرام وهدمت ولا يعلم من بناها ولا متى هدمت ويعلو مكة منارة على مسجد يقال له مسجد الراية على يسار النازل من المعلاة بقرب بئر عدى بن مطعم ابن نوفل (١) يقال أن النبى صلى الله عليه وسلم ركز رايته يوم فتح مكة فيه وهى منارة عيقة ذهب رأسها وكان لها دوران لا أعلم من بناها يؤذنون فيها بعض أهل الخير فى مغرب شهر رمضان ويسحر عليها آخر الليل ويطفى قنديلها بعد السحور أعلاما بدخول أول الفجر ليمتنع الصائمون من الأكل والشرب وهو باق إلى الآن .

وذكر التقى الفاسى رحمه الله تعالى أن المنائر بمكة على غير المسجد الحرام كانت كثيرا فى الشعائر والمحلات وكان المؤذنون يؤذنون عليها للصلوات وكانت لهم أرزاق تجرى عليهم وأول من جدد تلك المنائر على رؤس الجبال وفجاج مكة وشعابها

---

(١) فى هذه العبارة غلط والصحيح كما تقدم بقرب بئر جبير بن عدى بن نوفل - وقد مر ذكر هذه البئر ومسجد الراية فى اوائل الكتاب بصحيفة ٧

Marfat.com

هرون الرشيد وأجرى على المؤذنين بها أرزاقا ، وكان لعبد الله بن مالك الخزاعى على جبل أبى قبيس منارة على القلة منارة ومنارة مشرفة على أجياد ومنارة إلى جنبها ولعبد الله بن مالك منارة تشرف على المحزرة ومنارة فى شعب عامر وعلى جبل تفاحة وجبل الاعرج وعلى الجبل الأحمر ومنائر كثيرة عددها ورأيت فى تعليقه أنها كانت خمسين منارة فى شعاب مكة ثم قال التقى وقد ترك الأذان على جميع هذه المنائر وما بقى شىء منها والله أعلم .

خاتمـــــــــــــــة

فى ذكر المواضع المباركة والأماكن المأثورة بمكة المشرفة

فمنها المواضع التى نص العلماء رحمهم الله تعالى إلى أن الدعاء فيها مستجاب .

وذكر الحسن البصرى رضى الله عنه خمسة عشر موضعا يستجاب الدعاء فيها وعددها وزاد غيره مواضع أخرى فبلغت ثلاثة وخمسين موضعا وذكر منهـــا مواضع غير معروفة الآن فانتصرنا على المعروف منها .

وهى مكان الطواف جميعه وعند الملتزم وقد جربته مرارا وتحت ميزاب الرحمة وداخل الكعبة وعند زمزم خلف المقام وعلى الصفا وعلى المروة وفى المسعى وفى عرفات وفى المزدلفة وفى منى وعند الجمرات وعدتها ثلاث مواضع غير أن علماءنا ذكروا أن الحاج يقف للدعاء بعد الرمى عند الجمرة الأولى وعند الجمرة الثانية ولا يقف بعد الرمى عند الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة ويظهر من كلامهم أن الوقوف للدعاء بعد جمرة العقبة غير مأثور لأنه لا يدعى هناك فقد ذكر الحسن البصرى أن الدعاء عندها مستجاب كالجمرتين الأوليين .

وعد أبو سهل النيسابورى من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء باب النبى صلى الله عليه وسلم ويقال له باب الحرير وباب القفص عد منها باب الصفا وباب السلام وعد القاضى مجد الدين الفيروزا بادى فى كتابه الوصل والمنا فى فضل منى مواضع أخرى يستجاب الدعاء فيها فمنها نقلا عن النقاش المفسر فى نسكه فتطل

Marfat.com

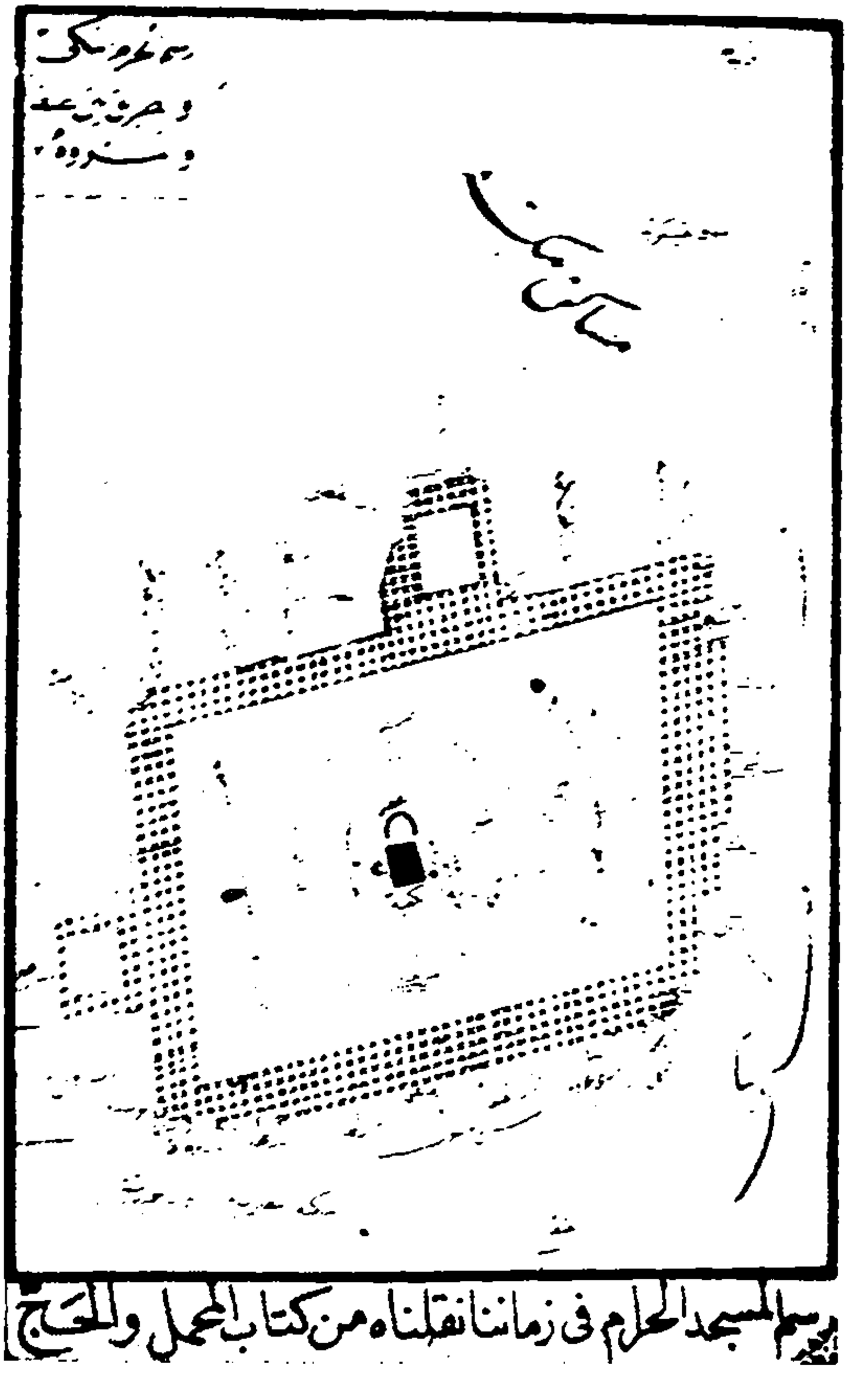

رسم المسجد الحرام فى زماننا نقلناه من كتاب المحمل والحج

انظر صورة المسجد الحرام فى عصرنا الحاضر
وقد ظهر فيها أبوابه بوضوح تام

Marfat.com

يستجاب الدعاء فى ثبير وفى مسجد الكبش وزاد غيره فقال وفى مسجد الخيف وزاد آخر وفى مسجد النحر وهو موجود الآن بمنى غير أنه دائر عمر الله من عمره نحر فيه النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ثلاثا وثلاثين بدنة وأمر أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن يكمل نحر تتمة مائة بدنة عنه وهو موضع مأثور مشهور زاد الحافظ بن الجوزى وفى مسجد الخيف على يمين الذاهب إلى عرفات فى هذا الغار تجويف فى سقفه تزعم العامة انه لأن لرأس النبي صلى الله عليه وسلم فأثر فيه تجويف فيضع الزائر رأسه فيها يتمنا وتبركا بموضع رأس النبي صلى الله عليه وسلم ولم أقف على خبر اعتده فى ذلك إلا أن الأثر وارد بنزول سورة والمرسلات .

قال النقاش ويستجاب الدعاء فى دار خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين وهى معروفة بمكة وتعرف بمولد السيدة فاطمة رضى الله عنها لأنها ولدت فيها وهى وجميع أولاد خديجة رضى الله عنها من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم ساكنا فيها إلى أن هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب ثم اشتراها منه معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجدا يصلى فيه كذا ذكره الأزرقى وعمر هذا المحل الشريف فى زمان الناصر العباسى وفى زمان الأشرف شعبان صاحب مصر وعمره أيضا الملك المظفر الغسانى صاحب اليمن وكان المرحوم المقدس السلطان سليمان خان سقى الله تعالى عهده صوب الرحمة والرضوان أمر بتعمير هذا الجانب الشريف فعمر قبة ومسجدا يصلى فيه ويزار يجتمع فيه الفقراء للذكر كل جمعة بعد الصلاة إلى العصر وكل ليلة ثلاثاء من العشاء إلى الصبح يذكرون الله تعالى وكان عمارتها فى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة .

قال ويستجاب الدعاء فى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وهو موضع مشهور يزار إلى الآن ومن لحفه مسجد يصلى فيه ويكون فى كل ليلة اثنين فيه جمعية يذكرون الله تعالى ويزار فى الليلة الثانية عشر من شهر ربيع الأول فى كل عام فيجتمع الفقهاء والأعيان على نظام المسجد الحرام والقضاة الأربعة بمكة المشرفة بعد صلاة المغرب بالشموع الكثيرة والمفرقات والفوانيس والمشاعل وجميع المشايخ مع طوائفهم بالأعلام الكثيرة ويخرجون من المسجد إلى سوق الليل ويمشون فيه إلى محل المولد

الشريف بازدحام ويخطب فيه شخص ويدعو للسلطنة الشريفة ثم يعودون إلى المسجد الحرام ويجلسون صفوفا فى وسط المسجد من جهة الباب الشريف خلف مقام الشافعية ويقف رئيس زمزم بين يدى ناظر الحرم الشريف والقضاة ويدعو للسلطان ويلبسه الناظر خلعة ويلبس شيخ الفراشين خلعة ثم يؤذن للعشاء ويصلى الناس على عادتهم ثم يمشى الفقهاء مع ناظر الحرم إلى الباب الذى يخرج منه من المسجد ثم يتفرقون وهذه من أعظم مواكب ناظر الحرم الشريف بمكة المشرفة ويأتى الناس من البدو والحضر وأهل جدة وسكان الأودية فى تلك الليلة ويفرحون بها وكيف لا يفرح المؤمنون بليلة ظهر فيها أشرف الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وكيف لايجعلونه عيدا من أكبر أعيادهم غير أن بعض المتقشفين أنكر خصوص هذه الجمعية على هذا الوجه لزعم أنه يجتمع فيه من الملاهى والغوغاء واجتماع الرجال والنساء وافضاء ذلك إلى مالا يصح شرعا فيكون بدعة ولم يحك عن السلف شىء من ذلك .

والصواب أن هذه الجمعية ان حفظت على ما ينكر فيها من الجمع بين الرجال والنساء ويقع فيها ما يتوهم من وقوع الملأهى فهى بدعة حسنة تتضمن تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر والدعاء والعبادة وقراءة القرآن وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى فضيلة هذا الشهر العظيم بقوله صلى الله عليه وسلم للذى سأله عن صوم الاثنين ذاك يوم ولدت فيه فتشريف هذا اليوم متضمن لتشريف هذا الشهر الذى هو فيه فينبغى أن يحترم غاية الاحترام ليشغله بالعبادة والصيام والقيام ويظهر السرور فيه بظهور سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأما المبتدعات السيئة والمنكرات فهى محرمة فى كل مقام والله ولى الاعتصام وقال بعض العلماء قيد اجابة الدعاء فى مولد النبي صلى الله عليه وسلم عند الزوال .

وفى دار السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها أفضل المواضع بمكة بعد المسجد وذلك لسكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ولكثرة نزول الوحى عليه بها وفيها مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

Marfat.com

ومنها دار الخيزران وهو من قرب الصفا كانت تسمى دار الأرقم المخزومى ثم عرفت بدار الخيزران .

والمختبى هو أفضل المواضع بمكة بعد دار أم المؤمنين رضى الله عنها الكثرة مكث النبي صلى الله عليه وسلم فيه يدعو الناس للاسلام مستخفيا عن أشرار قريش الكفار ذكره التقى الفاسى فى شفاء الغرام .

وقد وقت بعض العلماء الدعاء فيها بما بين العشاءين والمختبى قبة تزار وهو الموضع الذى كان النبي صلى الله عليه وسلم يختبىء فيه من الكفار ويجتمع فيه آمن به ويصلى بهم الأوقات الخمسة سرا إلى أن أسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فجهر بالاسلام وبالصلاة وأعز الله الاسلام به .

ودار الخيزران هى دور حول المختبى ملكتها الخيزران أم الرشيد شراء لما حجت وتناقلت فى يد الملاك إلى أن صارت الآن من جملة أملاك سلطان سلاطين العالم خليفة الله على خليفته من بنى آدم سلطان الروم والعرب والعجم الملك المظفر المنصور الأعظم .

مراد خان الأكرم الأفخم عمر الله بمعدلته الربع المكون وأسعده فى كل مايظهر منه من الحركة والسكون ومنها فى جبل ثور عند الظهر وجبل ثبير وحراء مطلقا ومنها مسجد البيعة وهو مسجد على يسار الذاهب إلى منى بينه وبين العقبة التى هى حد منى مقدار غلوة سهم أو أكثر وهو مسجد منهدم فيه حجران مكتوب فيهما ما يدل على ذلك فى أحدهما أمر عبدالله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد مسجد البيعة التى كانت أول بيعة بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد له العباس بن عبد المطلب وانه فى سنة أربع وأربعين ومائة والمشار إليه أبو جعفر المنصور العباسى وعمره أيضا المستنصر العباسى كما فى حجر آخر بناء فى سنة تسع وعشرين وستمائة وتلك الأحجار ملقاة بذلك المسجد الخراب يخشى عليها الضياع فيندثر أثر هذا المسجد

وكان المرحوم ابراهيم دفتر دار مصر سابقا أمين عرفات رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنته شرع فى تجديد هذا المسجد وأسسه وبنى طاقاته وجدرانه وتوفى إلى رحمة الله تعالى قبل أن يتمه وما وفق أحد بعده إلى الآن لإتمامه وهو من المساجد المأثورة النبوية

Marfat.com

وهو الذى بايع فيه النبي صلى الله عليه وسلم سبعون من الأنصار بحضرة عمه عبد المطلب رضى الله عنه فنادي ازب العقبة وهو شيطان ذلك المكان معاشر قريش أن الأوس والخزرج بايعوا محمدا على أن ينصروه فأمسكت الأنصار بقوائم سيوفها وقالوا لنقاتلن الأسود والأحمر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفاهم الله تعالى ببركة نبيه صلى الله عليه وسلم شر ذلك الشيطان ثم هاجر النبى صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضى الله عنه إلى المدينة لما أذن لهما فى الهجرة وهذا مسجد شريف يستجاب الدعاء فيه رحم الله من يكون سببا فى تجديده وعمارته .

ومنها مسجد المتبكى يستجاب فيه الدعاء يوم (١) . وأنكر الأزرقى وجوده وقال القاضى أبو البقا بن الضياء الحنفى فى البحر العميق ان بأجياد الصغير موضع يقال له المتكى وهو دكة مرتفعة عن الأرض ملاصقة لدار بعض بنى شيبة .

قلت وهذة الدار دثرت الآن وما بقى منها إلا بعض أحجارها وطال ماسألت كثيرا من الأعيان أن يعمروها ويعيدوها كما كانت فما وفق أحد لذلك ليكون ذلك الثواب نصيباً لمن وفقه الله لذلك .

وذكر النقاش فى مناسكه المواضع التى يستجاب فيها الدعاء بمكة ووقت لكل بقعة أوقاتا معينة .

قال أما خلف المقام وتحت الميزاب ففى السحر وعند الركن اليمانى وقت الفجر وعند الحجر الأسود نصف النهار وعند الملتزم نصف الليل وداخل زمزم عند غيبوبة الشمس وداخل البيت عند الزوال وعلى الصفا والمروة عند العصر وبمنى ليلة البدر شطر الليل وبالمزدلفة عند طلوع الشمس وبعرفة وقت الزوال تحت السدرة وهى غير معروفة الآن وبالموقف عند غيبوبة الشمس كذا ذكره النقاش ومنها جبل أبى قبيس وإنما سمى به لأن رجلا من اياديكنى أبا قبيس صعد فيه وبنى فيه بناء فعرف به .

---

(١) جاء فى الجامع اللطيف وفى المتكأ غداة الأحد

Marfat.com

قال الفاكهى أن الدعاء فيه يستجاب وان وفد عاد قدموا إلى مكة للاستقاء لقومهم فأمروا بالطلوع إلى أبى قبيس للدعاء وقيل لهم لم يعلم خاطىء يعرف الله منه الأنابة إلا إجابة إلى ما دعاه إليه وفيه على إحدى الروايات قبر آدم وحواء وشيث عليهم السلام .

قال الذهبي فى جرثه فى تاريخ آدم وبنيه مانصه وخلفه بعده شيث ابنه ونزلت عليه ثلاثون صحيفة وعاش تسعمائة سنة ودفن مع أبويه فى غاران قبيس .

وقال وهب بن منبه حفر لآدم فى موضع من أبى قبيس يقال له غار الكنز فاستخرجه نوح عليه السلام وجعله فى تابوت معه فى السفينة فلما نضب الماء رده إلى مكة انتهى وقيل غير ذلك وفى أعلى الجبل صهريج يزوره الناس وليس ذلك بقبر آدم عليه السلام وانما هو صهريج كان يعد للماء لما كان على رأسه قلعة قديما وزعم الناس أن من أكل يوم السبت فى جبل أبى قبيس رأسا مطبوخا يسلم من وجع الرأس طول عمره والناس يتهافتون على ذلك فى كل صبح يوم سبت وفيه موضع يزعم الناس أن القمر انشق فيه النبي صلى الله عليه وسلم وليس لذلك صحة كذا ذكره السيد التقى الفاسى رحمه الله تعالى .

قال وهو أول جبل وضعه الله فى الأرض وذكر بعض العلماء أنه أفضل جبال مكة وفضله على جبل حراء ونوقش فى ذلك ومنها رباط قديم بمكة يسكنه فقراء المغاربة تسمى رباط الموقف وقفه القاضى الموفق جمال الدين على بن عبد الوهاب الاسكندرى فى سنة أربع وستمائة يحكى عن الشيخ خليل أنه كان يكثر إتيانه ويقول ان الدعاء يستجاب فيه أو عنـــد بابه ويروى عن الولى المشهور الشيخ عبد الله ابن مطرف أنه قال ماوضعت يدى فى حلقة هذا الرباط إلا تذكرت ووقع فى نفسى كم لله ولى وضع يده فى هذه الحلقة وفى مقبرة المعلاة مواضع يستجاب فيها الدعاء منها قبر أم المؤمنين سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله عنها وهو محل فى شعب بنى هاشم كان فيه تابوت من خشب يزار فبنى عليه قبة من الحجر الشميسى الأمير الكبير السعيد الشهيد محمد بن سليمان جركز دفتر مصر فى أيام المرحوم داود باشا نائب الديار المصرية فى أيام السلطان الأقدس المرحوم المقدس السلطان سليم خان عليهم

الرحمة والتحية والرضوان بنى فى سنة خمس وتسعمائة وكسى الثابوت الشريف كسوة فاخرة وعين له خادما ورتب له صرة من خزائن الصدقات الشريفة السلطانية العثمانية جارية عليه إلى الآن وكان من أهل الخير والدين والمعروف كريما جوادا بتولاه من حسن كثير وجميل وافر أحسن الله إليه كما أحسن إلى وضاعف حسناته وحج بيت الله تعالى وهو أمير ركب الشامى وأحسن إلى الناس كثيرا وعمر حسنه وكان يحب العلماء والصلحاء ويكرمهم ويحسن إليهم ويقضى حوائجهم بحيث كانوا يسمون أيامه تفتت الحجر ثم قتل مظلوما وعند الله تجتمع الخصوم والله غفور رحيم ومنها عند قبر سيدنا الفضيل بن عياض رضى الله عنه وهو فى بحوطة فيها جماعة أولياء أجلاء كبراء منهم الشيخ تقى الدين السبكى والشيخ عبد الله بن عمر المعروف بالخواشى وكثير من مشاهير الصلحاء آخرهم مولانا الشيخ عبد اللطيف النقشبندى الروى رحمه الله تعالى ومنها عند قبر الشيخ أبى الحسن على الشولى رضى الله عنه ذكر الشيخ خليل المالكى أن الدعاء عنده مستجاب وكذلك عند قبر حاسرة الخير بالمعلاة ويقال إنها أراد أن يدعو عند حاسرة الخير يستقبل القبلة بحيث يكون تربة الملك المسعود بحذائه عن يساره وقد اندثرت تربة الملك المسعود الآن محلها فوق البئر المعروف ببئر أم سليمان الموجودة الآن مرتفعا عن طريق السيل ومنها عند قبر الفضيل بالقرب من الجبل قال المرجانى فى بهجة النفوس الدعاء عند قبره يستجاب ومن المواضع التى جربتها انا لقبول الدعاء تربة شيخنا المرحوم مولانا علاء الدين الكرمانى النقشبندى طيب الله تعالى ثراه ونفع ببركاته أحباه توفى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وله كتب جليلة فى الطريق أجلها كتاب منظوم فى مقابلة المثنوى رحمه الله وفى مكة مواضع مباركة ومواليد متيمنة ومساجد مأثورة غير هذه فمنها مولده سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو بقرب مولد النبى صلى الله عليه وسلم بقرب جبل أبى قبيس من قفاه فى شعب يقال له شعب على به مسجد يصلى فيه ومولد يزار إلا أنه منهدم الان عمر الله من عمره ومنها موضع يقال له مولد سيدنا حمزة رضى الله عنه فى أسفل مكة لاصق بموضع يسمى بازان وهو مجرى عين حنين إلى بركة ماجن قال السيد

التقى الفاسى رحمه الله لم أر شيئا يدل على أن صحة هذا المكان مولد السيد حمزة رضى الله عنه لأن هذا المحل ليس محلا لبنى هاشم وطول هذا المحل خمسة عشر ذراعا وثلث وعرضه سبعة أذرع وربع فى صدره محراب وبابه فى الجدار الذى إلى جهته بركة ماجن انتهى . وقد خرب الان وامتلأ بالتراب فلا يظهر له محراب ولاباب ولا جدر وهو قد سمى بمولد سيدنا حمزة فرحم الله من أحياه وعمره ومنها موضع فى أعلا جبل يقال له جبل النوبى يقال انه مولد سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطلع الناس إليه للسير والفرجة لإشرافه على مكة ومن الناس من يقصد للزيارة قال التقى الفاسى رحمه الله لا أعلم فى ذلك شيئا يستأنس به غير أن جدى أبا الفضل النويرى كان يزورهذا الموضع فى جمع من أصحابه فى الليلة الرابعة عشر من شهر ربيع الأول من كل سنة انتهى .

قلت وهذا باق إلى الان يجتمع بعض الفقراء فى الليلة الرابعة عشر من كل شهر يذكرون الله تعالى فيه أحياه الله لتلك الليلة ومنها موضع بقرب العجلة يقال انه مولد سيدنا جعفر الصادق بن أبى طالب يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم دخله والله أعلم بحقيقة ذلك ومنها فى زقاق المرفق محل فيه مسجد يقال انه دكان سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويقال انها داره وبناه نور الدين بن عمر بن على ابن رسول الغالى صاحب اليمن قبل أن يؤل الملك إليه فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ويقابل هذه الدار حجر يتبرك الناس بلمسه يقال انه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم متى اجتاز قال التقى الفاسى رحمه الله تعالى هذا الحجر ان صح كلامه للنبى صلى الله عليه وسلم هو الحجر الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله انى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على ليالى بعثت انتهى .

قلت وبقرب هذا الحجر قبل أن يوصل إليه فى مقابلته على يسار صفحة حجر مبنى فى الجدر فى وسطه حفرة مثل محل المرفق يزوره العوام ويزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه فغاص مرفقه الشريف فى ذلك الحجر وهو يكلم الحجر الذى أمامه على شماله قال القاضى أبو البقاء بن الضياء فى البحر العميق ذكره سعد الدين الاسفراينى فى كتابه زبدة الأعمال ان أهل مكة يمشون إذا رأوا

المواليد من دار خديجة رضى الله عنها إلى مسجد يقولون انه دكان أبى بكر الصديق كان يبيع فيه الخز وأسلم فيه على يده عثمان بن عفان رضى الله عنه وطلحة والزبير رضى الله عنهم قال وفى جدار هذا الدكان أثر مرفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء دار أبى بكر رضى الله عنه ذات يوم ونادى يا أبا بكر انتهى .

قلت الجدار الذى فيه المرفق بعيد عن دكان أبى بكر رضى الله عنه إلى ناحية القبلة بينهما درر وما رأيت فى كلام أحد من المؤرخين من حقق شيئا من ذلك والله أعلم بحقيقته .

ومن الدور المباركه بمكة دار سيدنا العباس رضى الله عنه بالمسعى عند أحد الميلين الأخضرين وهى الان رباط يسكنه الفقراء ومنها موضع بلحف جبل قيقعان يلصق دار سيدنا ومولانا قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام القاصى حسين ابن أبى بكر الحسينى أطال الله بقاه وأدام علاه يقال له معبد الجنيد أحيا المشار إليه مآثره قال سعد الدين الاسفراينى انه معبد الجنيد ومعبد ابراهيم بن أدهم رضى الله عنهما . ومن الجبال المأثورة بمكة جبل حراء بكسر الحاء المهملة وفتح الراء الممدودة ممنوعا وكانت الجاهلية تعظمه أيضا وتذكره فى أشعارها فمن ذلك قول أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم

وثورا ومن أمسى ثبيرا مكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل

ويقال له جبل نور بالنون أيضا لظهور أنوار النبوة ولكثرة إقامة النبى صلى الله عليه وسلم فيه وتعبده ونزول الوحى عليه فيه وذلك فى غار أعلاه صهريج ماء يجتمع فيه فى أيام ماء عذب سائغ قال السهيلى فى الروض الانف ان قريشا لما طلبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهموا بقتله كان على جبل ثبير فناداه وهو على ظهره اهبط عنى يا رسول الله فانى أخاف أن تقتل وأنت على ظهرى فيعذبنى الله فناداه حراء إلى يا رسول الله قال القاضى أبو البقاء بن الضياء فى البحر العميق ان النبى صلى الله عليه وسلم اختبأ من المشركين فى غار ثور فيحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم اختبأ عن المشركين فى حراء فى واقعة ثم اختفى منهم فى غار ثور وقت الهجرة .

Marfat.com

قلت لم ينقل وقوع ذلك له صلى الله عليه وسلم مرتين وليس فى حديث السهيلى ان حراء لما نادى النبي صلى الله عليه وسلم إلى اختبىء من المشركين خصوصا وقد قال السهيلى لما نقل هذا الحديث فى الهجرة قال وأحسب فى الحديث ان نورا ناداه لما قال له ثبيرا هبط عنى (ومن الجبال المباركه المأثورة جبل ثور) وهو جبل أكبر من حراء وأبعد منه بالنسبة إلى مكة سمى بثور بن مناة لسكناه به وصح أن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق دخلا واختبيا فيه عن المشركين لما قصدوه بالقتل فنجاه الله تعالى منهم .

قال صاحب البحر العميق يروى أن أبا بكر رضى الله عنه لما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها إلى الغار جعل طورا يمشى أمامه وطوراً يمشى خلفه وطورا عن يمينه وطورا عن شماله فقال صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى أذكر الرصد فأحب أن أكون أمامك وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك واحفظ الطريق يمينا وشمالا فقال لا بأس عليك يا أبا بكر ان الله معنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مخصر القدم بل كان يطأ الأرض بجميع قدمه وكان حافيا فخفى رسول الله صلى اللة عليه وسلم فحمله أبو بكر رضى الله عنه على كاهله حتى انتهى به إلى الغار فلما وضعه أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل الغار فقال أبو بكر والذى بعثك بالحق لاتدخل حتى أدخل فاستبرء قبلك فدخل أبو بكر رضى الله عنه فجعل يلمس بيده الغار فى ظلمات الليل مخافة أن يكون فيه شىء يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لم ير شيئاً دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار وباتا فيه فلما أسفر بعض الأسفار رأى أبو بكر رضى الله عنه خرقا فى الغار فألقمه قدمه حتى الصباح مخافة أن يخرج منه شىء فيؤذى رسول الله سلى الله عليه وسلم وأمر الله العنكبوت فنسجت على فم الغار والراء فنبتت وحمامتين وحشيتين فعشتتاعليه وباضتا وأقبل فيتيان قريش من كل بطن رجل بعصيهم وسيوفهم ومعهم كورين علقمة القصاص فقص الأثر حتى انتهى إلى الغار فقال لهم إلى هنا انتهى أثره فما أدرى بعد ذلك أصعد السماء أم غاص فى الأرض فقال لهم قائل ادخلوا الغار فقال لهم أمية بن خلف ما أريكم فى الغار وان عليه

Marfat.com

لعنكبوتا من قبل ميلاد محمد ثم بال حتى سال بوله فى الغار بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن العنكبوت وقال انها الجند من جنود الله تعالى والراء شجرة لها زهر دقاق بيض يعشى به الخاد(١) وحمام الحرم من نسل تلك الحمامتين ذكره السهيلى .

وفى الصحيحين والترمذى عن أبى بكر رضى الله عنه قال نظرت إلى أقدام المشركين وهى على رؤسنا فقلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدمه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما انتهى . وكان خوف الصديق رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعلى نفسه فانه قال يارسول الله ان قتلت فأنا رجل واحد من أمتك وان أصبت أنت هلكت الأمة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسكن روعه ويقوى جاشه ويقول له لاتحزن ان الله معنا فرجع المشركون خزايا وعصم الله تعالى نبيه وصاحبه منهم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى أنهما مكثا فى الغار ثلاثا . وعن طلحة البصرى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه مكثت أنا وأبو بكر رضى الله عنه بصعة عشر يوما ومالنا طعام إلا تمر البرير قال أبو داود البرير الاراك . وفى حديث الهجرة أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله المشركون فيهما نهاره ثم يأتيهما ليلا بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة ألا يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما فى الغار إذا أمسى وكانت اسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما تأتيهما ليلا بما تصلحه لهما من الطعام . وكان عبد الله بن أبى بكر يكون نهاره فى قريش يتسمع ما يقولوو فى شأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويأتيهما إذا أمسى ويخبرهما الخبر وكان عامر

---

(١) الظاهر من هنا أن هذا الزهور هو المسمى عندنا بالحجاز بالطرف بكسر الطاء واسكان الراء ، والحكمة فى ظهور هذا النبات على فم الغار دون غيره أن هذا النبات خفيف تكسر سريعا بأقل لمس فبقاؤه سليما دليل على أنه لم يدخل الغار أحد كما دل على ذلك نسيج العنكبوت ووجود الحمامتين والله تعالى اعلم ، وقد تكلمنا على حمام الحرم فى كتابنا « مقام إبراهيم عليه السلام » فراجعه هناك ان شئت

Marfat.com

ابن فهيرة يرعى غنمه فى رعيان مكة فاذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبهما لهما فاذا راح عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم فقفاه حتى يعمى أثره على الكفار حتى إذا مضت الثلاثة وسكت عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ليريهما الطريق وأتتهما أسماء رضى الله تعالى عنهما بسفرتها وارتحلا . وبقية أخبار هجرتهما فى السير فليراجعهما من أرادها . ورحم الله تعالى الا بوصيرى حيث قال فى بردته .

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمى
فالصدق فى الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

قال المسرجانى فى بهجة النفوس ذكر لى أن رجلا كان له أموال وبنون وأنه أصيب بذلك فلم يحزن ولم يجزع على مصائبه لقوة صبره وتحمله فقال روى أنه من دخل غار ثور الذى آوى إليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه وسأل الله تعالى أن يذهب عنه الحزن لم يحزن على شىء من مصائب الدنيا وقد فعلت ذلك فما أجد حزناً . وقال المرجانى رحمه الله تعالى هذه الخاصية من تأثير قوله تعالى ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن أن الله معنا انتهى . وهذا الغار مشهور معروف يتلقاه الخلف عن السلف ويزوره الناس ويدخلون إليه من بابه الكبير الذى يروى أن جبريل عليه السلام ضربه بجناحه ففتحه وقل أن يدخل إليه أحد من بابه الضيق لأن الدخول فيه ويحتاج إلى فطنه والمشهور عند العوام أن من حبس فيه لا يكون ابن أبيه وذلك كلام باطل لا أصل له وقد تعوق فيه قديماً وحديثاً كثير من الناس وأخذ لهم حجارون من مكة وقطعوا عنه وتكرر ذلك كثيرا فى كل عصر ومع ذلك لم يتسمع كثيراً بل يتعوله الناس فيه للجهل بكيفية الدخول خصوصاً إذا كان شخضاً بطيناً . وطريق الدخول فيه أن الداخل إليه ينبطح على وجهه ويدخل رأسه وكتفيه ثم يميل إلى جانب يساره فلا يجد ما يعوقه ويسلك مائلا إلى اليسار .

وأما من لا يعرف طريق الدخول فيدخل رأسه وكتفيه يستمر داخلا بباقى جسدة فتصادمه صخرة أمامه وتعوقه فيرفع رأسه إلى فوق ويثخن بوسطه فلا يمكنه الولوج لسمنه وكلما شدد فى الدخول تعوق وانحبس فيحتاج إلى حجار يقطع قليلا تخلصه ولا يتفطن للميل إلى جهة ليخلص بسهولة ولكن الخرق قد اتسع كثيرا الآن.

ومن الجبال المباركة فى الحرم ثبير

وهو على يسار الذاهب إلى عرفات فى منى وهو الذى أهبط عليه الكبش الذى فدى به سيدنا اسماعيل عليه السلام قال مجد الدين الفيروزأبادى فى كتابه الوصل والمنى فى فضل منى أن بابكر النقاش المفسر قال فى مناسكه : أن الدعاء يستجاب فى ثبير الأثبيرا الذى يلحقه مغارة الفتح لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتعبد فيه قبل النبوه و أيام ظهور الدعوة وذكر أن بقرب المغارة التى أنشاها بلحف ثبير تعتكف عائشة رضى الله عنها :

قال التقى الفاسى ويعرف هذا الموضع بصخرة عائشة انتهى قلت هذه الصخرة غير معروفة الآن : قال رحمه الله تعالى حدثنى محمد بن يحيى قال حدثنا عبد العزيز ابن عمران عن معاوية الأزدى عن معاوية بن قرة عن الجلد بن أيوب عن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما تجلى الله عزوجل للجبل تشظى فطارت من قطعة ثلاثة أجبل فوقعت بمكة وثلاثة أجبل بالمدينة فوقع بمكة حراء وثبير وثور ووقع بالمدينة أحد وورقان ورضوى .

ومنها الجبل المقابل لثبير الذى بلحفه مسجد الخيف لأن فيه غاراً يقال له غار المرسلات فيه أثر رأس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . قال ابن جبير بعد أن ذكر مسجد الخيف وبقربه على يمين المار فى الطريق حجر مستدير إلى سفح الجبل مرتفع عن الأرض يظل ما تحته ذكر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قعد تحته مستظلا ومس رأسه الكريم فلان الحجر حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دورة الرأس فيضع الناس رؤسهم فى هذا الموضع تبركا بموضع رأس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيلا تمس رؤسهم النار برحمة الله عز وجل .

Marfat.com

وقال ابن خليل يستحب أن يزور مسجد المرسلات نزلت فيه المرسلات وهو يمين مسجد الخيف . وذكر المحب الطبرى فى كتابه الغزى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال بينا نحن مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غار بمنى إذ وثب علينا حية فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبى صلى الله تعالى علية وسلم وقيت شركم كما وقيتم شرها أخرجه البخارى .

قال السيد التقى الفاسى رحمه الله تعالى بلغنى عن شيخنا المجد الفيروزابادى أنه قرأ فى هذا الغار سورة المراسلات فى جماعة فخرجت عليهم حية فابتدروها ليقتلوها فهربت وهذا من غريب الاتفاق لموافقته للقصة التى اتفقت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

ومنها جبل الخندمة : وهو جبل كبير خلف أبى قبيس . قال الفاكهى حدثنى أبو بكر أحمد بن محمد المليكى حدثنا عبد الله بن عمر بن أسامة قال حدثنا أبو صفوان المروانى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال مامطرت مكة قط إلا وكان الخندمة غرة (١) وذلك أن فيها قبر سبعين نبياً انتهى وهى مشرفة على أجياد الصغير وشعب عامر ومر معروفة الآن عند الناس بمكة .

وأما المساجد المأثورة المباركة

فمنها ما قد انمحى أثره ولا يعرف مكانه فلا نطول كتابنا بذكره . وأما الموجود المعروف منها فعدة مساجد .

---

(١) وفى نسخة « كان للخندمة عزة » كما ذكره الشيخ عبد الله الغازلى رحمه الله تعالى فى تاريخه ولقائل أن يقول لا يوجد أى اثر لقبر من تلك القبور فى هذا الجبل ـ فنجيبه أن إذا صحت هذه الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما فتكون هذه القبور فى أسفل الجبل تحت الأرض فإن جبال مكة لم تبق على حالتها الطبيعية فقد طمر من الجبا نصفها وذلك من أثر مرور آلاف السنين عليها فنزول الامطار وجريان السيول مما يسبب تدحرج الصخور والاحجار من فوق الجبال إلى أسفلها وبتراكم الأتربة وتعمير الناس للمنازل والبيوت ترتفع الأرض ، وهذه الكعبة المشرفة فقد بناها سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على اكمة مرتفعة عن الأرض ، وهذا المسعى لم يكن ارضه مستوية كما هو اليوم

منها مسجد الإجابة على يسار الذاهب إلى منى فى شعب بقرب ثنية أذاخر يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه وهو متهدم وفيه حجر مكتوب فيه أنه مسجد الإجابة وأنه عمر فى سنة عشرين وسبعمائة وعمر قريبا ثم انهدم وبنى حول العربان بيوتاً وهم يصلون فيه ويصونونه إلا أنه يحتاج إلى أعظم من هذا .

ومنها مسجد بأعلى مكة يقال أنه مسجد الجن قال الأزرقى فى تسمية أهل مكة مسجد الحرس فى مقابل الحجون وأنت مصعد على يمينك وإنما سمى مسجد الحرس لأن العسس يجتمعون عنده ليلا قال وهو فيما يقال الموضع الذى خطه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لابن مسعود ليلة استمع عليه الجن وأن الجن بايعوا رسول الله تعالى عليه وسلم فيه اهـ . قلت وهـذا المسجد الذى تحت الموضع الذى يسمى الآل الفرهادية بينهما طريق ضيق والله أعلم .

ومنها مسجد الراية فيه مأذنة ذات دورين تهدم رأسها الآن يقال لها منارة أبى شامة وأمامه إلى جانب اليسار بئر معطلة الآن يقال أنها بئر حبير بن مطعم بن عدى بن نوفل ويقال أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ركز رايته يوم الفتح فى هذا المسجد (١) .

ومنها مسجد بالدعاء عند الميل الأيمن للمستقبل فى مقابلة زقاق المجزره . قال السيد الفاسى رحمه الله تعالى يقال أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى فيه المغرب على ما هو مكتوب فى حجرين بهذا المسجد أحدهما بخط عبد الرحمن ابن أبى حرى وفيه أنه عمر فى رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وفى الآخر أنه عمر فى سنة سبع وأربعين وستمائة وذكره الأزرقى أيضا فى المواضع التى يستحب الصلاة فيها بمكة ، قلت هو مسجد لطيف جداً الآن ومعروف أحاطت به الدور إلا الجهة الجنوبيه منها التى هى الطريق وهو بين دكاكين السوقة يتعين على أهل الخير بناؤه وصونه وتعظيمه وفقهم الله تعالى لذلك .

ومنها مسجد بأسفل مكة ينسب إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه

---

(١) تقدم الكلام فى أوائل الكتاب بصحيفة ٧ على هـذا المسجد والبئر المذكورين

Marfat.com

يسمى الآن دار الهجرة ويقال أنه ركب منها مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، يزوره الناس وفيه يذكرون الله تعالى .

ومنها مسجد فوق التنعيم على يمين المستقبل يقال له مساجد عائشة رضى الله تعالى عنها وهو بعيد عن أميال حد الحرم وكان يسمى مسجد الهلياجة لشجرة كانت هناك قديما وقد تهدم هذا المسجد وما بقى منه إلا آثار جدارات قائمة وكان المكان الذى أرسل إليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم المؤمنين عائشة مع أخيها رضى الله عنهما ليعتمرا منه ولا يصل إليه المعتمرون الآن بل يقتصرون على أميال الحرم فيبرزون منها قليلا ويحرمون بالعمرة ويعودون ومسجد عائشة رضى الله تعالى عنها مما يتعين تجديده وتعميره لأنه من الآثار المباركة القديمة وقد تركه الناس لتهدمه واقتصروا على مساجد مرضومة بالأحجار بمحاريب مرضومة من الأحجار الصغار تتهدم ويرضم غيرها وكأنها من وراء الأميال يمر أى منها وهناك صهريج عظيم قديم يمتلىء من السيول أيام المطر يتوضأ المعتمرون منه فلما حج الوزير المعظم المجاهد فى سبيل الله حضرة سنان باشا يسر الله له ماشا فى سنة ثمان رسبعين وتسعمائة اعتمر من التنعيم وكان هذا الصهريج خاليا لأنه لم يكن أيام المطر حينئذ ورأى المعتمرين يحملون ماء الوضوء معهم من مواضع بعيدة يتعبون فى ذلك وكانت هناك بئر بعيدة مهدمة مملوءة بالتراب فأمر سيدنا ومولانا شيخ الاسلام ناظر المسجد الحرام السيد القاضى حسين الحسينى أن يحصل له من يحفر ذلك البئر ويبنى له مجرى يجرى فيه الماء من البئر إلى الموضع الذى يعتمر الناس فيه بقرب الأميال وعين جاذبا يجتذب الماء من البئر فى كل وقت ويسلكه فى ذلك المجرى فيسيل الماء إلى موضع يتوضأ فيه المعتمرون على الاتصال والدوام ويشرب منه الناس والدواب والمعتمرون وأهل القوافل المارون منه هناك وأبناء السبيل وينتفعون بذلك انتفاعا عاما ويدعون لصاحب هذا الخير وهذا أثر عظيم لهذا الوزير المعظم من جملة خيراته الجارية دائما إن شاء الله تعالى أجرى الله تعالى على يديه الخيرات وأثابه عليها أعظم الأجر وأثنى المثوبات وبلغه من ألطافه وعنايته ما يتمنى وختم لناوله أجمعين بالحسنى.

هذا آخر ما أردنا جمعه فى هذه الأوراق من كل خبر لطيف وأثر مبارك

Marfat.com

شريف رق معناه وراق ولطف مؤداه فى الاسماع والأذواق كله نخب درر ونصائح وجميعه تحف غرر ومنائح ينسى بها الراكب العجلات حاجته ويصبح الحاسد الغضبان يطير بها كأنها نجوم فى سماء اللطافة زاهرة أو زهور فى رياض الأناقة زاهرة تحت كل ذرة منها درة فاخرة وضمن كل لفظه نكته خفية أو حكمة ظاهرة جلية أصبحت للقلوب قوتا واضحت قرط أذن وللواحظ قرة ولعمرى يحق لو كتبوها بسواد العيون فوق الحجرة فدونك أيها الفاضل اللوذعى الكامل الفطن الألمعى الناظر فى هذا الكتاب المتصفح لو جنات هذه الفداوى الكعاب ما أودعته من لطائف الآداب وأدرجته من زيد الحكم واللباب ولا يحملك الحسد الذى جلبت عليه الاقرار على إنكار ما يجد لغيره من المزايا الحسان ولا يستملك استصغار مؤلفة إلى نبذ فرائده والاستسهال بعظيم فوائده فان لك غنمها وعلى غيرك غرمها .

وما عبر الانسان عن فضل نفسه بمثل اعتراف الفضل فى كل فاضل

ومع ذلك فلا ادعى رتبة الكمال ففوق كل ذى علم عليم ولا ازعم النزاهة عن النقص والعيب فالمنزه عن كل عيب هو الله الملك القدوس العزيز الحكيم . ولقد قيل لا يعرى ذو كمال من نقص ولا يخلو ذو نقص من كمال فلا يمنعك نقص الكامل من استفادة كماله ولا يرغبك كمال الناقص فى الميل إلى نقصه .

ولقد كتب أستاذ لبلغاء القاضى عبد الرحيم الفاضل البيانى إلى العماد الاصفهانى الكاتب معتذرا عن كلام استدركه عليه وقد وقع لى شىء وما أدرى أوقع لك أم لا وها أنا أخبرك به وذلك إنى رأيت أن لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا المكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر انتهى . فالأليق بالفاضل إذا عثر بشىء مما كبا فيه المؤلف وعثر أن يستر الزلل ويقبل العثار وليسدّ الخلل والعوار والكريم غفار والحليم ستار . ولقد رأيت أن أجعل ختام هذا الكتاب مسكا وأنظم له الجواهر المفاخر سلكا فاختمه كما بدأته بالدعاء لدوام سلطاننا الأعظم خليفة الله الأكبر الأفخم صاحب السيف والعلم مولى ملوك الترك والروم والعرب والعجم سلطان سلاطين

Marfat.com

هذا الزمان الخافض لكلمة الكفر والرافع لكلمة الايمان عالم السلاطين وسلطان العلماء الاعاظم الأعيان الذى تتصاغر فى أبواب سلطنته تيجان كسرى وقيصر وتسعى إلى لثم أعتابه ملوك الشرق والغرب وأمثال دارا والاسكندر قبل اقبال قلوب العالمين المحسن إلى أهل الحرمين الشريفين المتكرم على جيران الله وجيران نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذين البلدين العظيمين المنيفين الباذل عدله وإحسانه على كافة الرعايا والآمن فى ظل أمته ولطفه ورأفته جميع البرايا الذى هو بحر كرم تحدث السن مكارمه بالعجائب ولا حرج ويلوذ بأعتابه الشريفة من نالته شدة الافتقار تدخل إليه السعادة من باب الفرج له دولة أسمى لها الله فى العلى مقاما وأعلاها جنابا وأسماها لقد أعربت عن سيرة عمرية تبوأها عثمان بالعدل مبناها .

(السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المؤيد مرادخان بن سليم خان)

نصر الله تعالى عزائمه وأمضى فى رؤس الأعداء صوارمه وشيد به بنيان الإسلام ودعائمه وجعل مغارمه فى سبيل الله مغانمه ولا زالت أو لوية نصره منشورة الذوائب مشهورة القواضب مشرقة كالشمس يفشى ضوءها المشارق والمغارب صاعدة فى أفق السماء حتى تزاحم مناكب مواكب الكواكب ولا برحت أسباب سعادته تقوى وأحاديث المكارم إليه تسند وعنه تروى والقلوب تتمسك من عبوديته وصدق رأيه بالسبب الأقوى فى عز مديد ونصر مشيد وعمر مزيد وسلطنة ثابتة لا تهز ولا تبيد وسعادة دائمة تتضاعف وتزيد وإقبال يلازم ركابه السعيد .

مالاح نجم على أفق السماء وماهب النسيم على العشاق بالطيب

والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام الاتمان الأكملان على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسائر الأنبياء والمرسلين وآل كل والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وقد فرغ مؤلفه من تحريره ووقفت أنامل أقلامه من تحبيره فى ليلة يسفر صباحها عن سبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وتسعمائة .

م م
م

Marfat.com

الأستاذ المعلق يذكر هنا القصيدة التى نظمها فى أشهر بنايات الكعبة وهى بناء إبراهيم خليل الله وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ابن يوسف الثقفى وبناء السلطان مراد الرابع وهى القصيدة كنا طبعناها فى رسالة صغيرة بالهند سنة ١٣٦٧ وسميناها « منظومة فى صفة بناء الكعبة المعظمة » ثم فى عام ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية زدنا على هذه المنظومه بعض أبيات رأينا ذكرها فى هذا الكتاب المهم مع الزيادات تميما للفائدة العامة .

ولقد وفقنا الله تعالى الى ابتكار صور الكعبة المشرفة فى هذه البنايات استنتجناها من كتب التاريخ المعتمدة فجاءت هذه مطابقة للحقيقة والواقع ولله الحمد ولم يسبق لأحد قبلنا أن اهتدى إلى وضع هذه الرسوم مع سهولة المأخذ والاستنباط فنحمد الله على توفيقانه المتوالية علينا ونعمه التى لا تحصى لدينا - ولنبدأ بذكر المنظومة المذكورة ثم نضع فى آخرها صور الكعبة المشرفة .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا حمداً يوافى نعما أولانا
نشكره شكرَ الذليل المُفْتقِرْ إلى العزيز والغنى المقتدرْ
سبحانه جلّ تعالى اللهُ مَن التجا إليه لا ينساهُ
ثم صلاتهُ مع السلام على النبى وآله الكرام
(وبعد) هذى نبذة لطيفهْ وطرفةٌ بديعة ظريفهْ
فى صفة البنا لبيت اللهِ تعظيمه فرض بلا تناهِى
حكنا طبعنا هذه المنظومهْ ثم أعدنا طبعها منظومهْ
من بعد أن زدنا عليها نظماً ببعض أبيات تزيد الفهما
وقد جعلنا حجمها صغيراً لكن حوت من أمرها كثيرا
وما رأينا فى بناء الكعبةِ منظومةً تكون كالقلادةِ
فنحمد الله على التوفيق فقد أرانا مسلك الطريق
إيماننا أقوى من الصخرِ الأصمْ يعجز عن تعبيره جَرى القلمْ
فالقلب عامر بذكر اللهِ والفكر سابحٌ بآى اللهِ
تحدثا بنعمة الله لَنَا لقد ذكرنا ماترآه علَنَا
ونستعيذ الله من شر الحسدْ وغمزنا قد ونافثِ العقدْ
نسأله زيادة التوفيق حتى نجوز كامل الطريق
وأن نكون فى نشاطٍ مستمر لطاعة الله العزيز المقتدر
وقوة خارقة للعادهْ حتى نؤدّى واجب العبادهْ
عساه أن يقبلنا بفضلهِ وأن يعاملنا بجود بذله
فانه رب عظيم الشأنِ كثير عفو واسع الإحسانِ

فكيف لا تحسن ظنّنا بهِ والله عند حسن ظن عبده

صفة بناء
إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة

قد بوّأ اللهُ لابراهيماَ مكان بيته فكن فهيماَ
فجاء إلى مكة بالبراقِ دعا لهاَ بكثرة الأرزاق
فقام يبنى بيته الحراماَ ثم دعا لحجة الأناماَ
ساعده فى ذلك إسماعيلُ وهو النبىّ الصادق النبيلُ
حتى إذا طال به الجدران وما أتم حدّه البنيانُ
قام على المقام وهو ارتفعا به فأكمل البنا وأبدعا
ورسختْ قدمه على الحجرْ ليومنا هذا يُرى فيه الأثرْ
وكلّ ذا معجزة الخليل مكرمة ربنا الجليل
وفى البخارى جاء بالتفصيلِ بناء بيت ربنا الجليل
تراه فى كتاب بدء الخلق فانظره واتبع طريق الحق
بناه حسبَ ماباناه آدمُ فكم به طافت قديما أممُ
بناه بالرضم بغير طين وقد أتى تعظيمه فى الدين
حفر فى باطنه خزانة لكل ما يهدى له صيانه
وجعلَ الحجْر إلى جانبهِ مُدوَّراً كما هو الآن به
وجعل البابَ بلصق الأرضِ وقاسه بالطول ثم العرضِ
وماله سقفٌ ولا ميزابُ ولا له بابٌ ولا بوابُ
وأن ربنا تعالى شأنهُ أكرم بيته وأعلا شأنهُ
من سالف الاحقاب والأزمانِ حتى تقوم ساعة الزمانِ
أحاطه بأروع الأسرار وحفه بالعز والإكبار

وخصهُ بهيبةٍ وعظمـــهْ ما للملوك مثـله من عظمهْ
وجاء فى الحديث ما معناهُ ينزّل الله تعـــالى الله
لبيته المحفوف بالـــكرامة فى كل يوم بل وكل ليلة
عشرين رحمةً مضافاً لمائة يغـــالها قوم هموخير فئة
منقسم للطائفين نصفها وللمصلين يخصّ ثلثهـــا
والناظرون البيت يأخذوناَ عشرين وهو سدسها يقناَ

صفة بنـاء

قريش الـكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وقبل بعثةَ النبيّ قد بنَتْ قريش الـكعبة حين وهنتْ
فجمعوا من أطيب الأموال حتى يقيموها من الحلالِ
ونقصوا من الاساس الاول جدارها الشامى بغير جدول
فانسع الحجر بذاك النقص وكان قبل ضيقاً كالحرصِ
وجعلوا ارتفاعها إلى السما ورفعوه ضعف ما تقـــدماَ
وعملوا أيضا لهـــا ركنين كسابق العهد بغـــير مَيْنِ
وقد أداروا حائطاً بالحِجْرِ مُدوّرا مكـلّلا بالطهـــر
وسقفوهـــا خشباً ملائماً وجعلوا داخلهـــا دعائماَ
ورَكبوا الميزابَ فوق السطح مصبه فى الحِجْرِ خوف النضح
ثم كسوها كسوة جميـــلةْ لاتقـــةً فازوا بذى الفضيلة
وحضر البنـاء سيد البشرْ مستسهلاً فى كتفه حمل الحجرِ
فوضع الركن إلى محلّهِ بيدهِ وقـــد رَضَوْ بحلّهِ
صلى عليـــه ربنا وسلما مادامت الأرض وما دام السما

Marfat.com

صفة بناء

عبد الله بن الزبير الكعبة

وابن الزبير بعدهم بناهـــا حين وهت وضعفت قواها
على أساس ما بنى الخليل حيث له قـــد ثبت الدليل
فى عام أربع وستين بَنَى وشكر الله على هذا البنـــا
فزادها طولا إلى السماءِ سبعاً وعشرين بلا امتراء
وجعل الأركان فيها أربعهْ كانت إلى ممـــاته مسلّمهْ
ووضع الميزاب فوق سطحها موضعها الأول من مصبها
يصعد فوق سطحها بالدرجهْ عملها من خشب معرّجةَ
وجعـــل البابين مصراعين كليهما بالأرض لاحقتين
فبابها الشرقىُّ للدخـــولِ وبابها الغربى للأفـــولِ
عطّرهـا بعنبرٍ ومسكِ داخلهـــا وخارجاً بالمسكِ
ثم كساها كسوة معتبرهْ لائقـــة بالكعبة المطهرة
وهللّو وكـبروا تـكبيرا وأعتقوا ونحـروا كثيرا
وخرجوا المسجد التنعيم لِعُمرةٍ تكملة النعيمِ

صفة بناء

الحجاج بن يوسف الثقفى الكعبة

ثم بناهـا الثقفى الحجاجُ بينهما قد وقـعَ اللّجاجُ
بأمر عبـد الملك المروانِ فقام بينهمـا بـــلا توانِ
فهدمَ الجدار صوب الحجْرِ ثم بناها كقريشٍ فادْرِ
فاتّسع الحجر كما قـد كانا ووسعَ النـاسَ به مـكانا

Marfat.com

وسدّ بابها الذى فى ظهرها ورفع الباب الذى فى وجهها
أبقى لها الاركانَ لم يُغيرا أربعة كانت وما زالت تُرى
وقد بَنَى فى بطنها ذاك الدرَجْ بحَجَر. وليس فيه من حرَجْ
بنيانه كان لعام أربع. من بعد سبعين فأرّخْ واسمع
ثم ابنُ مروان لهدمها ندم بعد دليلِ ابنِ الزبيرأن عَلِمْ

صفة بناء

السلطان مراد الرابع الكعبة

وآخرِ البنـــاءِ جا بالوصْفِ فى عامِ أربعينَ بعد الألف
بسبب الســـيل الذى قد دخلا للمسجد الحـــرام حتى وصلا
لِقُفل باب الكعبةِ المشرّفهْ فوقعتْ منها الجـــدارُ المتلفه
فقـام بالتعمير سـلطانُ الورى مُرادٌ بن أحمـــد فحرّرَا
مِنْ آل عثمان الكرام النجبا فقدْ روى التـاريخ عنهم عجبا
فكان ما بناهُ وِفقَ ما بَنى التقى الحجـــاج فازَا بالمنى
مِن غـــير ما زيادةٍ أو نقصِ روى لنا التـــاريخ ذا بالنّص
ومنذ ذاك العصر حـــتى يومنا ما قد جـــرى شىء لبيت ربنا
أحاطه الله بثـــوب العظمهْ وقد حمى حـــدودَه وحرّمهْ
فهـذه خلاصـــةٌ مختصرَهْ جاءتكَ فى منظومةٍ مسطّرهْ
تنبيكَ عن بنـــاءِ بيت اللهِ قرّة عينِ المؤمن الأوّاهِ
ومَن أراد أن يرى التفصيلا بعـينه ويحفـظ المنقـــولا
فليقرأ التـــاريخ حتى ينظرا بنفســه على الذى قد عُـبرا
وإنمـا البيتُ جَليلُ القدرِ ونوره سارٍ كضوء البدر
قد وضـــع الله مِنَ الإسرار فيهِ فلا تخـــفى على الإبرار

أحاطه بالبرّ والإجلالِ وكيف وهو بيت ذى الجلالِ
سبحانه من خالقٍ عظيمِ جلّ تعالى اللهُ مِن حَليم
من سلّم الإمر إليه سَلِمَا ومَنْ دعاهُ مخلصاً ما ندما

ناظم هذه القصيدة وتاريخ نظمها

نظمها طاهرٌ الكردى لقبه الخطّاطُ والمكى
كتبها بخطه الجميل حفظ مِن حاسدِهِ الثقيل
فى غرةٍ من الربيع الأولِ فى عامِ ستين وسبع عول
ثم ثلاثمائة وألف عامله اللهُ بشتى اللطفِ
وزاد فى تسع وستين بها بعض زيادات فتم ما بها
أعماله من الهوى مجرّدهْ يرجو من اللهِ الكريم مددَهْ
والعفوَ والراحة عند الموتِ والرزقَ والخير وحسن البخت
والستر والصحةَ ثم العافيهْ ونعماً وابلةً ووافيه
يسأله الثباتَ خوف القبرِ والفرز بالجنة يوم الحشر
والأمن والأمان فى الدارين واليسر فى أمورِه بالمَعين
وأن يكونَ قلبه ونفسهُ كاسمهِ وأن يدومَ أنسهْ
وستر اللهُ لهُ عيوبَه ووالديه وعفا ذنوبهْ
وجَعل الباقِىَ من حياتِه أحسنَ ما مر إلى مماتِه
نحمدهُ فى البدء والختامِ نشكره شكراً على الدوام
فكم له من نعم لا تحصى تزداد بالشكر كما جا نصّا
فهو الكريمُ المحسنُ العظيمُ خالقنا الرحمنُ والرحيمُ
الملكُ القدوسُ والسلامُ المؤمنُ المهيمنُ العلامُ
وأشرفُ الصلاة والسلامِ على النبى وآله الكرامِ

Marfat.com

محمـــدٍ من لا نبي بعـــدهُ أيدهُ الله تعـالى وحـدهْ
قد تمّتِ الرســالة اللطيفهْ منظومة فى الـكعبة الشريفهْ

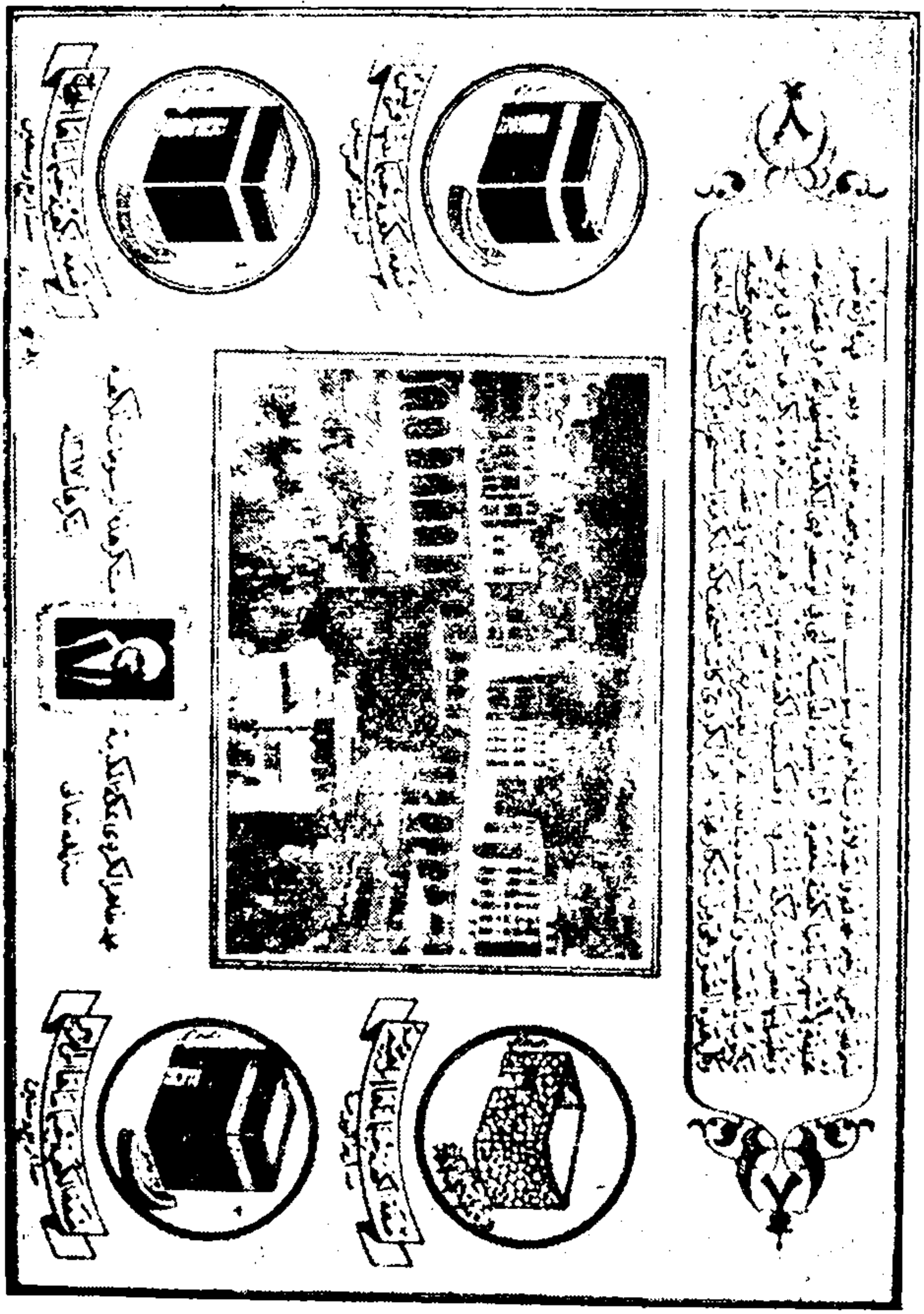

Marfat.com

فهرس

تاريخ القطبي المسمى كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام

صحيفة

تقـــديم ٣
خطبة شارح الكتاب ١١
مقدمة المؤلف ١٢
الباب الأول : ذكر وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى ٣٠
الباب الثانى : فى بناء الكعبة المشرفة زادها الله تعالى شرفا ٣١-٧٤
بناء العمالقة للكعبة المعظمة — بناء قصى للكعبة — فصل فى تحلية الكعبة الشريفة ذكر تعاليق الكعبة المعظمة وكسوتها ذكر كسوة الكعبة الشريفة
الباب الثالث : فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام ٧٥ -٨٦
الباب الرابع : فى ذكر مازاده العباسيون فى المسجد الحرام — تقسيم ٨٧ -١٢٣
الرشيد الملك بين ولديه الأمين والمأمون
الباب الخامس : فى ذكر الزيادتين — شعر ابن المعتز رد الصفى الحلى ١٢٤-١٦٦
عليه - من أخبار العباسيين - زعيم القرامطة واستباحة دماء المسلمين والحجاج - أبو طاهر زعيم القرامطة من أخبار الخلفاء والسلاطين
الباب السادس : فى ذكر ملوك الجراكسة - من أعمال الخير والاصلاح ١٦٧-٢١٤
بالحرم الشريف - الملك المؤيد شهاب الدين أبو الفتح أحمد بن أنبال الملك الناصر سيف الدين — حج السلطان قايتباى
الباب السابع : فى ظهور آل عثمان ٢١٥-٢٤٦

صحيفة

الباب الثامن : فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان سليمان خان ٢٤٧-٢٩٧
الباب التاسع : فى دولة السلطان الأعظم الخاقان الملك الأكرم السلطان ٢٩٨-٣٣٢
سليم خان ـ فتح بلاد اليمن ـ من أخبار اليمن
الباب العاشر :فى سلطنة سلطان العصر والزمان السلطان مراد خان ٣٣٣-٤٣٣
خاتمة فى ذكر المواضع المباركة ـ والأماكن المأثورة بمكة المشرفة ـ
الجبال المباركة ـ المساجد المأثورة المباركة .

Marfat.com

تاريخ القطبي

المسمى

كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام

في تاريخ مكة المشرفة

تأليف الإمام العلامة قطب الدين

الحنفي رحمه الله المتوفى سنة ٩٨٨

المقدمة بقلم

فضيلة الأستاذ السيد محمد أمين كتبي

شرح هذا الكتاب وعلق عليه ووضع صوره الأستاذ محمد طاهر بن
عبد القادر الكردي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة
غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين

ملتزم الطبع والنشر
المكتبة العلمية

لأصحابها: عبد الفتاح فدا وأولاده
بباب السلام

Marfat.com